مباهج الفلسفة

مباهج الفلسفة
ول ديورانت
ترجمة: د. أحمد فؤاد الأهواني
الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

ديورانت، ول - ترجمة: د. أحمد فؤاد الأهواني - مباهج الفلسفة
– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
٣١٤ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٥ – ٢ – ٨٦٣٢١ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٠٥٩٢ / ٢٠٢٢

ول ديورانت

مباهج الفلسفة

ترجمة

د. أحمد فؤاد الأهواني

مقدمة

كانت الفلسفة لغة الخاصة وشغل فريق من الناس، وعدت زمنا بين التعاليم السرية والمضنون بها على غير أهله، وقديما احتفظ بها الأفلاطونيون في الأكاديمية، والمشاؤون في اللوقيون، وأتباع زينون في الرواق، وفي العصور الوسطى حوربت وصودرت كتبها حرمت دراستها، وإن أبيحت ، فلنفر قليل من كبار المفكرين ورجال الدين، وعد خرقا أن تبسط وتصبح سهلة التناول، وفي التاريخ الحديث بقيت وقفا على مدارس محدودة، وسلعة ممتازة لا يمكن أن تتداول في جميع الأسواق.

ويراد بها اليوم أن تنزل من سمائها وتعيش مع عامة الناس على أرضهم، وتنتقل من أرستقراطية الفكر إلى ديمقراطية البحث السهل الطليق، فتيسر سبلها، وتكتب بلغة العصر وروحه، وتذلل للقارئ العادي بحيث يجد فيها من اللذة والمتاع ما يجده في ألوان الثقافة الأخرى، ولعل من أخص خصائص الأدب المعاصر أنه وثيق الصلة بالعلم والفلسفة، نفذ إليهما وكساها بكسائه الوثير اللين، وغذياه بدورهما بمادتهما الخصبة وأفكارهما المتجددة، وهناك اتجاه عام أساسه أن يفلسف الأدب وتؤدب الفلسفة، وأنصاره كثيرون، يكفي أن نذكر منهم برتراند رسل بين الفلاسفة، وأندريه جيد بين الأدباء.

ويعد ول ديورانت — بحق — في مقدمة من ساهموا في هذا المضمار، فبقلمه السيال وأسلوبه العذب طوع الفلسفة، وجعل مباحثها الدقيقة، ونظرياتها المعقدة، يسيرة المنال، سهلة الفهم، وكيف لا وهو أديب بقدر ما هو فيلسوف، يجتذب القارئ ببيانه، ويسحره بخياله وشعره، يصف ويشبه، ويلجأ إلى المجاز والاستعارة، فتتحول الفكرة المجردة في يديه إلى حقيقة ملموسة، وهو فوق هذا كاتب ساخر،

وسخريته لاذعة أحيانا، ينتقد هذا ويتهكم من ذاك، وفي السخرية ما فيها من عوامل التشويق وإثارة الانتباه، لهذا لم يكن غريبا أن يسمى كتابه الذي نقدم لترجمته "مباهج الفلسفة". ولهذه التسمية قصة، فإنه كان يسمي أولا "قصور الفلسفة"، ويوم أن أعيد طبعه أقترح له ناشره هذا الاسم، والناشرون أعرف ما يكون بميول القراء ورغباتهم.

وديورانت رحالة، طوف في الآفاق ما طوف، ومؤرخ حضارة عاش في الماضي بقدر ما عاش في الحاضر، وهو يرى أن حضارتنا الحاضرة أضحت مادية إباحية، استبدلت بالزهد الترف، وأحلت الأبيقورية محل الحرمان ومجاهدة النفس، تخاطب الجسم قبل أن تخاطب الروح، وتتنكر لما تواضعنا عليه من مثل عليا، وتحارب ما ألفناه من عادات وتقاليد، وتجاوز هذا إلى معتقداتنا الدينية، فتحاول أن تنتزع منا أعزها، وأصبحنا وكأنا في بحر لجي تقاذفنا فيه الأمواج، ولا ندري أين المفر. وأصبحت حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار، وحياتنا العقلية تفاجأ بالجديد كل يوم.

وما ذاك إلا لأن هذه الحضارة لا تقوم على دعائم عقلية، ولا تعتمد على أسس كلية، وما أحوجنا إلى أن نفلسفها فنلم شعثها، ونزيل تناقضها، ونكون من شتى مظاهرها كلا منسقا، ونرسم لها أهدافا أسمى وأكمل، وسبيلنا إلى ذلك أن نرتاد علم الأخلاق لنكشف عن طبيعة الحياة الفاضلة، وفي ضوئها نستطيع أن نعالج أسرنا المنحلة، وروابط حبنا المتراخية، ونخرج من الأثرة الضيقة الأفق إلى إيثار كريم، يعيش الناس تحت ظله إخوانا متحابين، ونعيد في اختصار بناء الأخلاق من جديد، وسيعيننا على ذلك ما تمليه فلسفة الدين والتاريخ من دروس، وما نستمده من علم الجمال من نماذج ومثل.

وقد اضطلع ديورانت بهذا العبء، وشاء أن يقيم الفلسفة متماسكة للحياة. أو كما يسميها "أخلاقا طبيعة" تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس، ولا أظنه يزعم أنه قدم بهذا فلسفة جديدة، أو مذهبا مبتكرا، وإنما أراد أن يعرض الآراء السابقة ليستخلص منها أمثلها، وهو في عرضه طليق كل الطلاقة، فلم يلتزم تقسيمات الفلاسفة التقليدية، ولم يتقيد بأدلتهم المألوفة، وإنما عرض على النحو

الذي بدا له، فجاء عرضه شيقا جذابا، يؤذن باطلاع واسع وإلمام تام بالفلسفة والتاريخ والعلم والأدب.

وإذا كنا نتفق معه على موطن الداء، فإنا نتساءل إذا كان من اليسير أن يقدم له الدواء، وإذا كنا نقدر البواعث التي دفعته إلى إقامة "فلسفة الحياة"، فإنا لا ندري إلى أي مدى وفق في تشييد صرحها.

ومهما يكن من شيء ففي كتاب "مباهج الفلسفة" جهد كبير، وعرض شيق، ودرس نافع، وسيجد فيه القارئ العربي لذة ومتاعا عظيمين، لا سيما وقد عرف معربه كيف ينقله في صدق وأمانة، ويترجمه في وضوح ودقة، والمعرب الكريم في غنى عن التعريف، وإنتاجه متصل، وآثاره تأليفا وترجمة يتداولها القراء دون انقطاع، وهو فوق هذا فيلسوف متخصص، يعرف كيف يعالج النظريات والمصطلحات الفلسفية، ويستطيع أن يتخير أكمل السبل لنقلها إلى العربية.

د. إبراهيم مدكور

اعتراف

هذا الكتاب على الرغم من عنوانه الجديد المرح، طبعة منقحة من كتاب "قصور الفلسفة Mansions of Philosophy" الذي طبع عام ١٩٢٩، ونفذت طبعته، وتهافت الطلب عليه إلى الحد الذي يغتفر معه إصدار طبعة جديدة، وفي الكتاب صفحات تدل على أن تأليفها كان منذ ربع قرن مضى، وسوف يبتسم القارئ عند كثير من الأفكار التي يحتويها، مع ذلك فقد رأيت من الأسلم أن أكتب عن الماضي لا عن المستقبل، وهناك بعض صفحات تفيض بالعاطفة، ولكنها لا تزال تعبر عن ذات نفسي أصدق تعبير، وصفحات أخرى ساخرة أو متشائمة بغير حق، وبخاصة في الفصل الثامن عشر.

وإذ كشفت أني غير معصوم من الخطأ، فقد ينبغي اليوم أن أكون أشد رفقا بالزملاء والحكومات، وإني لأعتقد أن في الكتاب – على الرغم من هذه الأخطاء – صفات تعين على النجاة، لهذا السبب ألقيته مرة أخرى في بحر المداد حتى يلتمس من هنا ومن هناك صحبة الأرواح المؤتلفة في دولة العقل.

ول ديورانت

نيويورك في ١٥ نوفمبر ١٩٥٢

دعوة

هذا الكتاب محاولة لإقامة فلسفة متماسكة في الحياة ، فهو يسعى إلى أن يصنع بمشاكل الفلسفة ما حاول كتاب "قصة الفلسفة" أن يصنعه بالنسبة لشخصيات معظم الفلاسفة ومذاهبهم، أي أن يقربهم إلى الأفهام بالعبارة الصافية، وأن ينقلهم إلى الحياة بالتطبيق الحديث، وسوف نسقط من هذا الكتاب قصص العباقرة ومأثور أقوالهم التي خففت مني حمل ذلك الكتاب.

ولعلنا نلقي الجزء الحسن حين نقترب اقترابا ألصق بمشاغل حياتنا الخاصة في هذه الأيام، ذلك أن الموضوع الذي يعنينا هنا هو أنفسنا.

ونحن نلاحظ أن سلوك الإنسان واعتقاداته تخضع اليوم لتغيرات أشد عمقا وأعظم اضطرابا مما كانت عليه عندما نمت الثروة ، وظهرت الفلسفة فوضعت حدا لديانة الإغريق المتوارثة، فنحن الآن في عصر سقراط مرة ثانية.. حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار، وحياتنا العقلية يتضاعف سيرها وتتسع آفاقها، وذلك كله على حساب التقاليد والمعتقدات القديمة، وكل شيء سواء في أفكارنا أو في أعمالنا، جديد وتجريبي، ولم يعد هناك شيء مستقل أو مؤكد، وليس للتغير الحاصل في زماننا من جهة سرعته وتعقيده وتعدده مثيل في التاريخ حتى في أيام بركليس، فقد تعدلت جميع أوضاع الحياة وصورها من حولنا، ابتداء من آلات التي تقلب الأرض رأسا على عقب، والعجلات التي تدور وتضج بغير انقطاع حول الأرض، إلى هذه التجديدات في علاقاتنا الجنسية، والأوهام الكاذبة عن نفوسنا، وقد أدى الانتقال من الزراعة إلى الصناعة، ومن القرية إلى المدينة، ومن المدينة إلى الدولة، إلى رفع شأن العلم، والحط من منزلة الفن، وتحرير الفكر، وأفول أنجم الملكية والأرستقراطية، ونشأة الديمقراطية والاشتراكية، وتحرير المرأة، وانحلال رابطة الزوجية، وانهيار القوانين الأخلاقية الموروثة،

وبدلت بالزهد الترف، وأحلت النزعة الأبيقورية محل نزعة التزمت، وعظمت الحياة المثيرة على الهدوء والرضا، وحدت من كثرة الحروب ولكنها أصبحت أعظم رعبا، واقتلعت من أنفسنا كثيرا من أعز معتقداتنا الدينية، وقدمت لنا في مقابل ذلك فلسفة في الحياة ميكانيكية وجبرية، فجميع الأشياء تجري كما يتدفق الماء في النهر، وليست لنا حيلة في التماس بر أو مستقر.

ويظهر في كل حضارة نامية عصر يتضح فيه أن الطبائع والعادات القديمة لا تتناسب مع المؤثرات التي تغيرت، وعندئذ تهوي النظم والأخلاق العتيقة حين تدقها مطرقة الحياة السائرة في طريق النمو، فتتهشم تحتها كما تتهشم القوقعة من الصدف، فقد انهارت أنواع النظم القائمة على الاستجابات التلقائية والطبيعية في مجال إثر آخر، بعد أن هجرنا المزرعة والبيت إلى المصنع والديوان والعالم، ولا يزال العقل مضطربا في إجراء تجارب ترشده عن وعي إلى طرق جديدة بدلا من سلوك أجدادنا الطبيعي البسيط وأساليبهم القديمة، فينبغي أن نفكر اليوم في كل شيء، ابتداء من "التركيب" الصناعي الذي نغذي به أطفالنا، و "السعر الحراري" و "الفيتامينات" التي يعقدها لنا علماء التغذية، إلى الجهود المدهشة التي تبذلها الحكومات المعاصرة لتوجيه طرق التجارة التي تجري اعتباطا وتنسيقها، لقد أصبح مثلنا الآن مثل ذلك الذي لا يستطيع أن يمشي دون أن يفكر في ساقيه، أو لاعب الكرة الذي يجب أن يحلل كل حركة وكل ضربة وهو يلعب، لقد ذهبت عنا تلك الوحدة السعيدة المستمدة من الغريزة، وأصبحنا نتخبط في بحر من التفكير والشك، فنحن في غمار المعرفة الجديدة والقوة الطارئة في شك من أغراضنا وقيمنا وأهدافنا.

والمهرب الوحيد الجدير بالعقل الناضج من هذا الاضطراب هو أن ترتفع عن النظر إلى الشوارد والأجزاء كي نتأمل الكل، إن ما فقدناه قبل كل شيء هو هذه النظرة الكلية، وتبدو الحياة من التعقيد والتحرك بحيث يصعب علينا إدراك وحدتها ومفهومها، إننا نفقد صفة المواطن فلا نصبح سوى مجرد أفراد، وليس لنا غايات تذهب أبعد من لحظة موتنا، فنحن بضعة من الناس ولا شيء سوى ذلك، ولا تجد

اليوم أحدا يجسر على وصف الحياة في كليتها، والحل سريع والتركيب بطئ، ونحن نخشى الأخصائيين في كل ميدان، فنقصر أنفسنا طلبا للسلامة في حدود اختصاصنا، وكل منا يعرف دوره، ولكنه يجهل معناه بالنسبة إلى الرواية، بل الحياة نفسها تنمو خالية من المعنى، حتى إذا بدت أكمل ما تكون أصبحت فارغة.

فلنخلع عنا خوفنا من الأخطاء التي لا يمكن تجنبها، ولنعالج جميع مشكلات أحوالنا محاولين رؤية كل جزء وكل معضلة في ضوء المجموع، من أجل ذلك سوف نعرف الفلسفة على أنها النظرة الكلية، والعقل الذي يبسط الحياة ويحيل الاضطراب إلى وحدة، ولما كانت الفلسفة في نظرنا ليست لعبا مدرسيا بالتصورات الميتة البعيدة عن اهتمام المجتمع والإنسان، فسوف تشتمل في هذا الكتاب على جميع المسائل التي تؤثر تأثيرا حيويا في قيمة الحياة الإنسانية ومعناها، بصرف النظر عن مقدماتها التاريخية مهما تكن يسيرة، ولن نقف عند المنطق إلا ريثما ننفض أيدينا منه، أما نظرية المعرفة فسنمر بها مر الكرام لنتبين حدود العقل البشري، إذ لن تجد مثل هذه النظم المفروضة إلا مكانا متواضعا هو الذي تحتاج إليه في قصور الفلسفة. ثم نقفز بعد ذلك إلى اللب الميتافيزيقي للأشياء فنتأمل المذهب المادي ونرى رأينا فيه، أيكون الفكر وظيفة للمادة، أم أن الاختيار خداع آلة حية سريعة الزوال، ومن هذه الزاوية نرتاد عالم الأخلاق، ونبحث في طبيعة الحياة الفاضلة، فلنتلمس أسباب أخلاقنا المتغيرة وما يترتب عليها من نتائج، وننظر في زواجنا المنحل، وروابط حبنا المتراخية، ونناقش أمر المرأة الحديثة التي فقدت دلالها وتخلت عن شهوتها للانتقام، ونقابل بين زينون وأبيقور باحثين عن مواطن السعادة، ثم نشق الطريق الذي يجمع الهداية في التربية وإعادة بناء الأخلاق، وسوف نقف عند علم الجمال لحظة لننظر في معنى الجمال ومطامع الفن، وسوف نتأمل التاريخ ونبحث عن دروسه وقوانينه، ونسأل عن صفة التقدم، ونزن مصير حضارتنا، فإذا استهوتنا الفلسفة السياسية رأينا أنفسنا مسوقين كما كنا نفعل في حماسة الشباب إلى مناقشة مشكلات الفوضوية والشيوعية والاشتراكية والتقليدية والديمقراطية والأرستقراطية والدكتاتورية، أما فلسفة الدين

فسوف تعود بنا إلى تلك المباحث القديمة عن الخلود والله، ثم نحاول أن ننظر إلى ماضي المسيحية ومستقبلها من خلال تاريخ الدين العام، وأخيرا سوف نضع المتشائم والمتفائل في صعيد واحد مفاضلين بين نعيم الحياة الإنسانية وآلامها، ثم ننظر نظرة كلية محاولين استخلاص قيمة حياتنا ومعناها، إنها جولة في اللانهاية([١]) .

ولعل القارئ المجد يسأل: أهناك فائدة من كل هذه الفلسفة؟

إنه سؤال محجل، فنحن لا نسأل هذا السؤال عن الشعر الذي يعد تأليفا خياليا لعالم ليس معروفا معرفة كاملة، وإذا كان الشعر يكشف لنا عن الجمال الذي تخطئه أعيننا الغريرة، وكانت الفلسفة تهبنا الحكمة التي بها نفهم ونغفر، فلنا في الفلسفة غناء، بل أكثر مما في العالم من ثراء، ولن تجسم الفلسفة أهدافنا أو ترفعنا إلى منازل شاهقة في دولة ديمقراطية، بل إنها على العكس قد تجعلنا نهمل هذه الأمور بعض الشيء، إذ ماذا يهمنا أن نضخم أهدافنا ونرتفع إلى منزلة عالية ثم نظل مع ذلك في سذاجة جاهلة. لم نزود عقولنا بالمعرفة، ولم نهذب سلوكنا الوحشي، ولم نستقر في أخلاقنا، ولم ننتظم في رغباتنا، ونظل في تعاسة عمياء؟

وإذا كان النضج يتم في الكل، فلعل الفلسفة، يمكن إذا أخلصنا لها، أن تهبنا سلامة وحدة النفس، ذلك أن تفكيرنا في غاية التهويش والتناقض، فلعلنا نجلو أنفسنا، ونجمع قوانا إلى التماسك، ونخجل أن ننتهي إلى رغبات أو اعتقادات متعارضة، وقد نخرج من هذه الوحدة في العقل إلى وحدة الهدف والخلق، تلك الوحدة المكونة للشخصية، والتي تخلع على حياتنا بعض النظام والكرامة، والفلسفة هي المعرفة المؤتلفة التي تؤدي إلى حياة مؤتلفة، إنها تنظيم النفس الذي يرفعنا إلى الصفاء والحرية، والمعرفة قوة، ولكن الحكمة وحدها هي الحرية.

وثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطرة، لأننا أغنياء في الآلات فقراء في

---

(١) يقتضي الترتيب المنطقي لسوء الحظ البدء بأصعب المواد أولا، ويحسن بالقراء الذين أقبلوا على الفلسفة حديثا أن يبدؤون بالفصل الخامس، مرجئين الفصول من الأول إلى الرابع بعد ذلك.

الأغراض، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقيتنا، ويبدو العالم كله مستغرقا في فردية مضطربة تعكس تجرؤ خلقنا المضطرب، إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط، نعني: كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى، حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض، وترتب سلم الرغبات، إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعي للحرب، وعندنا مائة ألف سياسي وليس عندنا "رجل حكم" واحد.

إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل، ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكر في ذلك، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة؟

إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة، ولن ننجو منها بغير الحكمة.

ول ديورانت

الجزء الأول

مدخل

الفصل الأول

فتنة الفلسفة

١ . تمهيد

لماذا لم تعد الفلسفة اليوم محبوبة؟

ولماذا اقتسم أبناؤها – أي العلوم – ميراثها، وألقوا بها خارج الدار، كأنها الملك لير Lear، في عقوق أشد قسوة من رياح الشتاء؟

كان أقوى الرجال في قديم الزمان على استعداد أن يبذلوا أرواحهم في سبيلها، فقد آثر سقراط أن يكون شهيدا لها من أن يعيش موليا الأدبار أمام أعدائها، وخاطر أفلاطون بنفسه مرتين ليفوز بمملكة لها، وعشقها مرقص أوريليوس أكثر من عرشه، وحرق برونو حيا ولاء لها، وكانت الفلسفة يوما ما مصدر خوف للعروش والباباوات فألقوا المؤمنين بها في السجن حتى لا تسقط الأسر الحاكمة، ونفت أثينا بروتاجوراس، وارتعشت الإسكندرية أمام هيباتيا.

وخطب أحد الباباوات العظام ود إرازمس خوفا منه، وطارد الحكام والملوك فولتير من بلادهم، ثم أكلت الغيرة نفوسهم عندما انحنى العالم المتحضر في النهاية أمام عظمة قلمه، ومنح ديونيسوس وابنه أفلاطون حكم سراقوسة، وجعلت معونة الإسكندر الملكية من أرسطو أعلم رجل في التاريخ، وكاد الملك التلميذ أن يرفع فرانسيس بيكون إلى زعامة إنجلترا وحماه من أعدائه. ونازل فردريك الأكبر في منتصف الليل، بعد نوم قواده العظام، الشعراء والفلاسفة، حاسدا إياهم على اتساع ممالكهم غير المحدودة ونفوذهم الخالد.

كانت تلك الأيام عصر عظمة للفلسفة، حين طوت في شجاعة كل معرفة تحت جناحها، وتقدمت في كل مكان صفوف التقدم العقلي، كان الناس يمجدونها في ذلك الزمان، إذ لم يكن شيء يعد أشرف من محبة الحق، ووضع الإسكندر ديوجنيس في أول منزلة بعده هو فقط، وأمر ديوجينس الإسكندر أن ينتحي جانبا حتى لا يحجب جسمه الملكي الشمس، واستمع الحكام والمفكرون والفنانون في سرور إلى أسباسيا، وحج عشرة آلاف من الطلبة إلى باريس ليأخذوا العلم على أبيلارد، لم تكن الفلسفة حينذاك العانس ذات الحياء التي تحبس نفسها داخل الأبراج بعيدة عن أعمال الدنيا، لم تخش عيون الفلسفة الصافية ضوء النهار، بل أقدمت على العيش في خطر، ورحلت بعيدا إلى بحار مجهولة، أكانت تقنع أبدا في تلك الأعوام التي تقربت فيها من الملوك أن تحد نفسها في هذه الحدود الضيقة التي تقيدها اليوم؟ لقد كانت يوما من الأيام ضوء متعدد الألوان يملأ أغوار الأنفس حرارة ونورا، ولكنها الآن تابع مظلم يدور في فلك العلوم والمذاهب المدرسية، لقد أتى عليها حين من الدهر كانت أعظم عروس في سائر العالم العقلي، وشمخت على خدامها السعداء، أما الآن وقد تجردت من جمالها وسلطانها فإنها تقف منعزلة بائسة لا يبجلها أحد[(١)].

ليست الفلسفة محبوبة اليوم لأنها فقدت روح المغامرة، ذلك أن ظهور العلوم المفاجئ استلب منها واحدا بعد الآخر عوالمها القديمة الشاسعة، فأصبحت "الكوسمولوجيا" علم الفلك والجيولوجيا، و"الفلسفة الطبيعية" علم الحياة والطبيعة، وتحولت "فلسفة العقل" في هذه الأيام إلى علم النفس، لقد هربت منها جميع المشكلات الواقعية والبارزة، ولم تعد تعنى ببحث طبيعة المادة وسر الحياة والنمو، أما "الإرادة" التي دافعت عن "حريتها" في مئات من المعارك الفكرية فقد تهشمت في عجلة الحياة الحديثة الآلية؛ والدولة التي كانت مشكلاتها ذات يوم من اختصاصها فهي ميدان

---

(١) يجب أن ننوه ببعض الاستثناءات، فقد جلب برجسون ألباب المستمعين بفصاحته، وكان لبرتراندرسل شرف إخافة إحدى الحكومات.

سعيد لنفوس صغيرة وقل أن تطلب شرف نصائح الفلسفة، ولم يبق لها إلا قمم الميتافيزيقا الباردة، وألغاز الأبستمولوجيا (نظرية المعرفة) الصبيانية، ونزاع أكاديمي حول أخلاق فقدت كل أثرها على الإنسانية، بل حتى هذه النفايات سوف تنتزع منها، حين تنشأ علوم جديدة تغزو هذه الميادين بالبوصلة والمجهر والمسطرة، ولعل العالم ينسى أن الفلسفة كانت موجودة، وانها حركت القلوب وأرشدت العقول.

٢- أصحاب المعارف Epistemologs

والفلسفة على النحو الذي دونت به خلال مائتي العام الأخيرة قد تكون جديرة بهذه الاستهانة وهذا الإغفال، وكيف أصبحت الفلسفة بعد موت بيكون وسبينوزا؟ أصبحت في الشطر الأعظم منها أبستمولوجيا[١]، (نظرية المعرفة)، وهي التي كان يبحثها علماء الكلام في العصر المدرسي، إنها المعرفة الفنية والمستورة Esoteric، إنها النزاع الغامض وغير المفهوم حول وجود العالم الخارجي، لقد انصرف ذلك العقل الذي كان يمكن أن يصنع الملوك الفلاسفة إلى تعمق البحث في تحليل الأدلة التي تؤيد أو تنفي إمكان وجود النجوم والمحيطات والبكتريا والجيرة في حالة عدم إدراكها، وقد استمرت هذه المعركة التي تشبه المعركة بين الضفادع والفيران مائتين وخمسين عاما دون أن تخرج بثمرة لها قيمة في الفلسفة أو الحياة، وبفائدة لأي شخص اللهم إلا فائدة طابع الكتب.

ويرجع بعض اللوم في هذا كله إلى عبارة ديكارت البسيطة التي تكاد تبلغ حد السذاجة: "أنا أفكر، إذن أنا موجود". ذلك أن ديكارت كان يأمل في أن يبدأ فلسفته بأقل ما يمكن من الافتراضات، فامتحن "بالشك المنهجي" جميع اعتقادات الناس، بل بديهياتهم،

---

(١) **Epistemology** هي نظرية المعرفة، **Theory of Knowledge**، والاصطلاح من اللفظة اليونانية **Episteme** أي العلم، ولم يكن القدماء من فلاسفة العرب يستعملون لفظة "المعرفة" بل "العلم"، ولكننا آثرنا استعمال المعرفة دون العلم لأن اللفظة الأخيرة أصبحت تطلق في مقابل **Science**، ونظرية المعرفة تبحث في العقل البشري ومبادئه ومناهجه لا من الناحية البسيكولوجية بل من الناحية الميتافيزيقية ... ومن أمثلة هذه المباحث هل المعرفة فطرية أو مكتسبة. (المترجم)

وحاول أن يبني مذهبا متماسكا للمعرفة من هذه المقدمة الوحيدة: "أنا أفكر، إذن أنا موجود". وقد كان من الخطر العظيم أن نجعل الوجود معتمدا هذا الاعتماد على الفكر، وأجمعت العقول على أن هذا الأساس يجعل الوجود امتيازا أرستقراطيا، وقد يذهب الزهاد بفضل سلطان ذلك الأساس إلى حرمان جنس بأكمله، لا من النفس فقط (كما أراد أن يفعل ذلك فاينجر Weininger) بل من الحقيقة.

أما الخسارة الكبيرة فقد أصابت الفلسفة، إذ أن تصور للعالم على هذه الحقيقة وهي أن شخصا واحدا يفكر، جدير بأن يخلق مثل هذه الشبكة من الصعوبات التي ظل أصحاب المعارف عشرة أجيال يجتهدون في حلها بغير نتيجة، وأول كل شيء هذا الـ "أنا" في عبارة ديكارت مما كانوا يتصورونه "نفسا Soul" روحية لا مادية، ثم إن الجسم، فيما نفترض، لا يمكن أن يتحرك إلا حين يتصل بغيره من الأجسام، كيف إذن يمكن أن يؤثر هذا الروح اللاجسماني في جزئيات المخ المادية؟ ونشأت عن هذا المأزق الطريف عجائب مذاهب المادية والمثالية والتوازي النفسي، واحتج صاحب مذهب التوازي بأن العقل والمخ مختلفان اختلافا كبيرا، وأن أحدهما لا يمكن أن يؤثر في الآخر، وان سلسلتي الأحداث المادية والعقلية، المخية والفكرية، يجب أن تكونا متفرقتين متميزتين بغير أن تؤثر إحداهما في الأخرى، بل هما متوازيتان بشكل عجيب.

واحتج المادي بأن "العقل" ما دام يؤثر أثرا لا ينكره أحد في الجسم، فينبغي أن يكون شبيها بمادة الجسم، فالعقل جسماني ومادي كالمرارة التي تفرز الصفراء.

واحتج المثالي بأنه ما دامت الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن نثق بها هي تلك التي ابتدأ ديكارت منها – حقيقة الفكر – فجميع أنواع الوجود الأخرى ليست حقيقية بالنسبة إلينا إلا باعتبار أنها مدركة بحواسنا ومبنية بعقولنا، فالجسم مدرك حسي، والمادة ليست إلا حزمة من الأفكار.

ونشات بذلك حرب بهيجة، ولم تبق اليوم إلا الحرب فقط وذهبت البهجة، وقد يظهر بين حين وآخر فيلسوف من أصحاب المعرفة تشرق البسمة على كتاباته

مثل برادلي ووليم جيمس، وقد يظهر في بعض الأحيان من يفهم أن "مذهبه" ليس إلا لعبة، فهو يلعبها بغمزة عينه مثل دافيد هيوم، أما سائر الباقين فقد بلغت رزانتهم حد الموت، وأطال الفلاسفة – من جون لوك حتى رودلف إيكن Eucken – وجوههم، وزادت مع كل جيل طولا، حتى تستقيم مع مذاهبهم الكئيبة، وأعلن الأسقف بركلي أنه لا شيء يوجد إلا حين يدركه الإنسان أو الله، ولم يبتسم الأسقف بقدر ما نعرف، ولو أننا نشك في أمر هذا الايرلندي الماهر.

أما أنه لا شيء يوجد في "أي عقل" بل في "هذا" العقل الذي يدرك، فلا ريب أنها حقيقة تبلغ مبلغ السذاجة والسخف واللغو، ولكن ما أبعد العالم عن هذه العبارة التي تلتبس غالبا بها، وهي أنه لا شيء يوجد إلا إذا كان مدركا، وقد كان ذلك اللبس لازما وثمينا لأولئك الفلاسفة الذين ارتجفوا من المادية الخشنة، مادية هولباخ، ومولسكوت، وبوخنر. ولقد كان بركلي بارعا حين تخلص من كل مادية بضربة واحدة في الصميم بإثبات أن المادة لا توجد؛ لقد كان عمله بناء شاهقا فريدا في بابه من الشعوذة المنطقية، وينبهنا بحق إلى أن الذين يدرسون الفلسفة يجب أن يفتحوا أعينهم على الفيلسوف.

ولكن غشه كان بسيطا، وكان ينبغي على الأسقف أن يتردد إزاء هذا الغش التقي، ومن أقوال أناتول فرانس: "إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الكذب والأدب"[١] والآن كم من هذه الأبستمولوجيا المثالية يندرج تحت باب الأدب؟

ليس معنى ذلك أنه لا توجد مشكلات في نظرية المعرفة، ويعلم الله أن فيها مشكلات كثيرة مما تسنح لنا الفرصة لبيانه، ولكن هذه الأحاجي الخاصة بالعلاقة بين الذات والموضوع، والطريقة التي يعرف بها العارف المعروف، والعناصر الموضوعية والذاتية في المعرفة، وموضوعية المكان والزمان، والصفات التي نخلعها على الأشياء إلى أي حد تتعلق بالأشياء وإلى أي حد تتعلق بالعقل الذي يدركها – وهذه كلها

(1)Brousson, j. j. Anatole France en Pantoutles, p. 134

بجميع تفصيلاتها أحاجي لعلم النفس، وميادين للملاحظة والتجربة المتكررتين المضبوطتين، ولم تعد مشكلات خاصة بالفلسفة، كما خرجت عن نطاقها أسرار التحول الكيمائي Metabolism أو كيمياء قطعة مشوية من اللحم، وكل مشكلة تتعلق بالفلسفة كهذه المشكلة التي لا تتعلق بها إلا من جهة اتصالها بسائر غيرها، ومن الحطة أن يغتصب ممثل واحد في هذه الدراما الكبيرة للأفكار جميع الأدوار، وأن يلقي وحده جميع العبارات في تمثيلية الفكر الفلسفي الحديث.

٣- اللاهوتيون Theologians [١]

ويكاد يشبه ما سبق سوءا الزعم بأن وظيفة الفلسفة القيام بدور الناقد للمنهج العلمي، وهنا أيضا نجد الرغبة تتسلل لتحتضن الفكر، ذلك أن الأساتذة المدافعين عن اللاهوت حين عجزوا عن بيان لا حقيقة Unrealty المادة اتجهوا إلى إظهار اللاصقة بالعلم، وما ذهب إليه ماخ Mach. وبيرسون Pearson، وبوانكاريه Poincare – من أن نتائج العلم ليست إلا صيغا "مختصرة" لـ "عادات" عن طبيعة لا يمكن أن تلاحظ ملاحظة كاملة أبدا، وأن هذه النتائج قد تنقص وتستبعد عقب ملاحظات أوسع ، قد تلفقها قوم للدفاع عن علم اللاهوت، فهاهنا فرصة ذهبية لبيان نقص العقل ووقوعه في الخطأ، وأن العلم لا يقدم لنا اليقين بل الاحتمال فقط، وبناء على ذلك يمكن أن تستخرج جميع العقائد العزيزة علينا في طفولتنا من المتحف، ثم تكسي بثياب جديدة من عبارات غير مفهومة، وتباع للجيل القادم على أنها بضاعة لم يصبها إلا تلف يسير، وهب قوم من كل مكان يفحصون في جد بديهيات الرياضة، ومفهومات المكان والزمان، والعدد والقياس، والكم والكيف، وانتهوا بعد النظر إلى التعاليم القديمة Abracadara [٢] إلى وجود مهدي منتظرا، أو سانتا كلوز.

---

(١) يسمى هذا العلم ثيولوجي **Theology**، أو العلم الإلهي، نسبة إلى ثيوس باليونانية أي إله، ودرج الاصطلاح عند الفلسفة المسيحية على أن يقال علم اللاهوت، وهو عند المسلمين علم الكلام. (المترجم)

(٢) كلمة دينية تكتب في عدة أسطر يقل كل سطر منها بحرف حتى نبلغ حرف الألف، ويتكون من الكلمة شكل مثلث الألف رأسه، وكانوا يلبسونها تعويذة من المرض. (المترجم)

فلا غرابة بعد هذا الخداع المعيب أن ينبذ فضلاء الناس الفلاسفة، إذ ما جدوى كل هذا المنطق إذا لم تكن أقيسته إلا ستارا غير أمين يخفي وراءه آمالنا الخفية؟ وفي ذلك يقول برادلي Bradley: "الميتافيزيقيا هي الكشف عن أسباب باطلة لما نعتقده بالغريزة، ولكن الوقوع على هذه الأسباب غريزة كذلك[١]".

وقد تكون الميتافيزيقا في بعض الأحيان هي إيجاد أسباب باطلة لما نود أن يعتقده الآخرون، وكان فولتير أمينا حقا حين قال إنه يرغب أن يؤمن طاهيه وخادمته بالمعتقدات التقليدية لزمانهما ومكانهما، وقد ظن أن هذا يقلل بعض الشيء فرصة سلب مجوهراته أو تسميم طعامه، وقال لوتز Lotze: إن النظرية الفلسفية محاولة لتسويغ أساسية عن الأشياء سبق اعتناقها في فجر الحياة[٢]. وكتب نيتشه الأمين يقول: "إن جميع الفلاسفة يزعمون أن آراءهم الواقعية قد كشفت بطريق جدل ينشأ في داخل أنفسهم، وهو جدل إلهي، نقي، جامد، لا صلة له بهم .. على حين يدل الواقع على أن الفكرة متحيزة أو قضية أو اقتراحا هي على العموم رغبة قلوبهم قد تجردت وتهذبت، ثم أخذوا يدافعون عنها بالأدلة التي يجتهدون في الحصول عليها بعد نشأة الفكرة"[٣].

ولعلنا نجد هنا رءوس الأخطاء التي تشوه الفلسفة: فهي تسيء إلى الحقيقة في الوقت الذي تبحث عنها، وتصبح المدافعة عن عقيدة مؤقتة، وتقصر مع الأسف عن ذلك الضمير العقلي، وذلك الاحترام الصابر لطلب الوضوح، وذلك الانتباه العسير إلى الأحوال السلبية، مما يتميز به عالم مثل همبولد Humboldt أو دارون، أو فيلسوف "أدبي" غير محترف مثل ليوناردو أو جيته، ولما كان المدرسيون Scholastics الذين ينظمون خطأ في سلك الفلاسفة، لاهوتيين في ابتداء أمرهم، فقد أحدثوا بدعة إخضاع البحث عن الحقيقة لنشر الإيمان، وكانت أعظم تأليفهم الجوامع Summas

---

(١) **Appearance and Reality, p. XIV**

(٢) **In Muirhead, contemporary British philosophy, p. 15.**

(٣) **Beyond Good and Evi, L. & 5.**

عبارة عن كتب صفراء رسمية تصدر عن مكتب الدعاية في الفاتيكان لحرب الزندقة، وكانوا يقولون بصراحة إن الفلسفة تمهيد للاهوت "Philosophia ancilla theologiae" فالفلسفة خادمة اللاهوت، ومع أن آباء الفلسفة الحديثة العظام – بيكون وديكارت وسبينوزا – قد احتجوا على هذه الخطيئة الفلسفية، فقد سلم أحفادهم في هذا العصر إلى حد كبير بالتقاليد القديمة.

وأخذت أخطاء الفلسفة الأخرى تنمو من هذه الصبغة اللاهوتية كما يتزايد بشكل غامض نمو العلة الناشئة عن مرض موروث، وإذا لم يكن غموض الفلسفة راجعا إلى نقص صدقها، فما الشيء الآخر الذي يعزي هذا الغموض إليه؟ ولا ريب أن بعض الظلمة التي تغشى الفكر الحديث ترجع إلى خداع الحقيقة، ووعورة الاعتبارات الكونية، على أن الغموض إذا كان من هذا الضرب وحده فلا ينبغي أن يقف حجر عثرة في سبيل اهتمام الإنسان، فهذا شللي Shelley غامض، ولكن من منا لا يمجده على الأقل بقلبه؟ والمرأة غامضة، ولكن أي رجل لا يفتنه هذا الجانب من النقص فيشغل نفسه على الدوام بالنفاذ إلى لب ذلك الغموض وحل ذلك اللغز؟ كلا .. في الفلسفة الحديثة غموض آخر يختلف اختلافا بينا، عندما يغازل الرجل يكون فهمه للغزل أكثر صعوبة منه حين يحكي حقيقته، إذ لكل واقعة أكثر من تصور ممكن، والبارع وحده هو الذي يستطيع أن يجعل باطله متماسكا كالحق، ولكن البارعين في التزييف لا يصبحون فلاسفة، لأن السلك السياسي في أمس الحاجة إليهم، وتبقى الفلسفة الإلهية في أيدي روائيين من طبقة دنيا تنحل عقدقم الروائية عند أول اتصال بهذا العالم الحي.

وجملة القول إن هذا الكذب الأولى هو الذي يولد المذهب الفكري Intellect nalism – العقيم السائد في النظر الحاضر، ومن لا يثق في وحدة عقله يتجنب المشكلات الحيوية للمعيشة الإنسانية، إذ في أي لحظة قد يكشف معمل الحياة الكبير عن أكذوبته الصغيرة، ويتركه عاريا يرتعش في وجه الحقيقة، ومن أجل ذلك يبني لنفسه برجا عاجيا من المؤلفات المستورة والمجلات الفلسفية الفنية، التي لا يجد الراحة

إلا في صحتها؛ بل إنه ليخشى واقعية منزلة المثيرة، إنه يهيم بعيدا، وبعيدا جدا عن زمانه ومكانه، وعن المشكلات التي يستغرق فيها أهل وطنه وعصره، ولا تعنيه بل تفزعه الأمور التي تتصل حقا بالفلسفة، ولا يحس بأي هوى يدفعه إلى ربط بعض الأشياء ببعضها الآخر، ولا إلى وضع شيء من النظام والوحدة في فوضى عصره الكثيرة، ولكنه ينزوي خائفا في ركن صغير، ويعزل نفسه عن العالم بطبقة فوق طبقة من الاصطلاحات الفنية، وعندئذ يبطل أن يكون فيلسوفا ويصبح من أصحاب المعارف Epistemologist

ولم يكن الأمر على هذا النحو في اليونان، حيث كان الفلاسفة أقل اضطلاعا بالتدريس وأكثر اشتغالا بالتفكير، ولقد حوم بارمنيدس بتفكيره حول لغز المعرفة، ولكن الفلاسفة السابقين على سقراط ظلت أعينهم مفتوحة بمنطق معتدل على الأرض الثابتة، وآثروا الكشف عن أسرارها بالملاحظة والتجربة على توضيحها بالجدل، فلم يكن بين الإغريق من ينطوي على نفسه إلا القليل.

ولنتأمل صورة ديقريطس ذلك الفيلسوف الضاحك، ألا يكون رفيقا ذا خطر لأولئك المدرسيين الجامدين الذين حولوا النزاع حول واقعية العالم الخارجي إلى مقالات ذاعت في العصر الوسيط عن عدد الزوايا التي يمكن أن تستقر فوق رأس إبرة؟ ولنستحضر صورة طاليس الذي تحدى باحتكار السوق الذين قالوا إن الفلاسفة قوم بله، فحقق ثروة كبيرة في عام واحد، ولننظر إلى صورة أنكساجوراس الذي صنع للإغريق ما صنعه دارون، فأحال بركليس من سياسي عملي إلى مفكر ورجل دولة، ولنستعرض صورة سقراط الذي لم يرهب الشمس أو النجوم، وأفسد في مرح الشباب، وقلب الحكومات. وترى ماذا يمكن أن نعمل بهؤلاء المتفلسفة المشوهين العقيمين الذين يتسكعون الآن بأبواب تلك المملكة التي كانت عظيمة في قديم الزمان؟ لم تكن نظرية المعرفة عند أفلاطون وعند أولئك الأبطال من السابقين عليه، إلا مدخلا للفلسفة شبيها بالغزل الذي يسبق الحب، فقد يستمتع المرء بنظرية المعرفة ساعة، ولكنها لا تكفي في إطفاء جوى محب الحكمة، ونحن نجد أفلاطون بين حين وآخر يغازل في

محاوراته القصيرة مشكلات الإدراك الحسي، والتفكير، والمعرفة، ولكنه كان يمد بصره في تأليفه الكبرى فوق ميادين أكثر سعة، فبنى لنفسه مدنا فاضلة، وأخذ يتفكر في طبيعة الإنسان ومصيره، وأخيرا شرفت الفلسفة عند أرسطو في سائر ميادينها غير المحدودة وعظمتها اللانهائية، فقد كشف جميع قصورها وجملها بالنظام، ووضع كل مشكلة في مكانها، فقدم كل علم فروض الطاعة للحكمة، لقد عرف أولئك القوم أن وظيفة الفلسفة ليست أن تئد نفسها في ظلمات الأبستمولوجيا، بل أن تقتحم بشجاعة كل ميدان للبحث، وأن تلم بأطراف كل معرفة حتى تنسق الأخلاق، والحياة البشرية، وتلقي الضوء عليها، لقد فهموا أن ميدان الفلسفة ليس لغزا صغيرا يختفي وراء السحب، ويخلو من الاهتمام أو التأثير في أمور الناس، ولكن ميدانها هو المشكلة الشاسعة الشاملة لمعنى الإنسان وقيمته وإمكانياته في هذا العالم اللانهائي المتدفق.

٤- العلماء

وإذا كان هذا كله يصور لنا ما ليس للفلسفة، أو ما لا ينبغي أن يكون لها، فقد بقى لنا أن نقول ما الفلسفة؟ أو ماذا يمكن مثاليا أن تصبح؟ أيمكن أن نعيد ملكة العلوم إلى ميدانها وقتها السابقين؟ أيمكن أن نتصور الفلسفة مرة أخرى على أنها المعرفة الموحدة للحياة؟ أنستطيع أن نضع تخطيطا لنوع من الفلسفة قد يجعل عشاقها قادرين أولا على حكم أنفسهم ثم الدولة، أولئك الجديرون حقا بأن يكونوا ملوكا فلاسفة؟[١]

والفلسفة في الاصطلاح الفني، كما عرفناها منذ زمن طويل، هي: "دراسة التجربة ككل، أو دراسة شطر من التجربة في علاقته بالكل[٢]، ويتضح في الحال أن أي مشكلة يمكن أن تكون مادة للفلسفة بشرط أن تدرس من زاوية شاملة في ضوء سائر التجارب والرغبات الإنسانية، ذلك أن طابع العقل الفلسفي ليس في دقة النظر بمقدار سعة النظرة ووحدة الفكر، يجب أن نستبدل الأنواع الكلية بالأنواع الأزلية Sub

(١) يشير المؤلف إلى نظرية أفلاطون عن الملك الفيلسوف التي بسطها في "الجمهورية" (المترجم)

(٢) Philosophy and the Social Problem. P. I.

specie eternitatis Sub specie totius التي ذهب إليها اسبينوزا، الواقع كلتا النظرتين تتركزان على النتيجة نفسها كما تلتقي العينان على الشيء المرئي، غير أنه إذا كان في استطاعة الإنسان أن يجمع تجاربه في كل منظم نسبيا، فإن رؤية الأشياء من عين الأزل ميزة الآلهة المخلدين، ولعلهم غير موجودين.

ولا تحتاج صلة العلم بالفلسفة إلى مزيد من الإيضاح، فالعلوم هي النوافذ التي ترى الفلسفة العالم من خلالها، أو هي الحواس لهذه النفس؛ وتصبح معارف العلوم بغير الفلسفة عاجزة مضطربة كالإحساسات التي ترد إلى الذهن المشوش فيؤلف منها الأبله قصة، لقد كان سبنسر على حق حين قال: الفلسفة هي أعم معرفة؛ ولكنه كان كذلك على باطل، لأنها ليست معرفة فقط، إذ تتضمن ذلك النظر السامي والصعب الذي ترتفع فيه مجرد المعرفة لتصبح نظرة شاملة تنظم اضطراب الرغبة وتوضحها، إنها تشتمل على تلك الصفة الغريبة المتميزة التي تسمى حكمة.

والفلسفة بغير العلم عاجزة ، إذ كيف تنمو الحكمة اللهم إلا على أساس المعرفة المكتسبة كسبا صحيحا، بالملاحظة الأمينة والبحث الصادق، تسجلها وتوضحها عقول بعيدة عن الهوى؟ وبغير العلم تتدهور الفلسفة وتنحط، إذ تنعزل عن تيار النمو الإنساني، وتقع أكثر فأكثر في سخافات المدرسية الكئيبة.

ولكن العلم بغير فلسفة لا يصبح عاجزا فقط بل مخربا ومدمرا، والعلم وصفي.. إنه ينظر بالعين أو التلسكوب، بالميكروسكوب أو الاسبكتر سكوب، ثم يحدثنا عما يراه، ووظيفته أن يلاحظ الوقائع المعروضة بعناية، ويصفها موضوعيا وبدقة دون نظر إلى نتيجتها بالنسبة إلى الإنسان، هذا نتروجلسرين أو غاز الكلورين، فمهمة العلم تحليلها في هدوء، وإخبارنا ما هذا المركب أو هذا العنصر بالضبط، وماذا يكن أن يعمله كل منهما، من إهلاك مدن بأسرها، أو تخريب أبهى صروح الفن الإنساني، أو إفساد حضارة كاملة ومحوها بجميع ما فيها من لطائف مدخرة وحكمة مدونة – يخبرنا العلم عن ذلك كله وكيف يمكن عمله علميا، وسريعا، وبأقل نفقة لدافعي الضرائب إذا قدر لهم أن يعيشوا.

ولكن هل يجب أن تخرب الحضارات؟ .. أي علم يخبرنا عن ذلك؟ أتكون الحياة أحلى حين تتضخم بالكسب وتتعلق بالملك، أم حين تستغرق في الإبداع والبناء؟ هل الأفضل أن نبحث عن المعرفة وننشد الحقيقة العارية عن الوهم، أو نطلب النشوة العابرة للجمال؟ وهل يجب أن نحاول التنازل عن جميع الجزاءات العلوية Supernatural في حياتنا الخلقية؟ أيجب أن ننظر إلى المادة من وجهة نظر العقل، أم ننظر إلى العقل من وجهة نظر المادة ؟ وما جواب العلم عن هذه المسألة ؟ وكيف نلقي الضوء على هذه الاختيارات القصوى في حياتنا، اللهم إلا إذا كان ذلك بنور تجاربنا الشاملة، وبتلك الحكمة التي ليست المعرفة إلا مادتها الخام، فتجد جميع العلوم من خلال نظرة الحكمة الكلية المكان والنظام والمعنى المرشد؟

والعلم هو الوصف التحليلي للأجزاء، والفلسفة هي التأويل التركيبي للكل، أو هي تأويل جزء من الأجزاء من حيث مكانة من الكل، وقيمته بالنسبة إليه.

العلم مجلس يقرر الطرق والوسائل، والفلسفة مجلس يصدر القرارات والمناهج، فالوقائع والآلات لا قيمة لها ولا معنى لها إلا في علاقتها بالرغبة، فإذا كان لابد للرغبات ذاتها أن تكون متماسكة، وأن تصبح أجزاء منظمة لشخصية مؤتلفة وحياة موحدة، فهذا أيضا من مهام الفلسفة، ومن أعلى أهدافها.

والفلسفة بالضرورة أكثر اعتمادا على الفرض من العلم، حقا العلم نفسه يجب أن يستخدم الفرض، ولكن بشرط أن يكون مجرد بداية فقط، ويجب على العلم ليكون علما بمعنى الكلمة، أن يصدر في ثوب من المعرفة التي يمكن تحقيقها مستقلة موضوعيا عن المنفعة الفردية أو الهوى الشخصي، أما الفلسفة، على العكس من ذلك، فتتخذ من العلم والوقائع والمعرفة المحققة بدايات لها (فإذا لم تكن قد فعلت فقد حان لها أن تفعل)؛ ثم تشرع في افتراض فروض أوسع حول المشكلات القصوى التي لم نصل فيها بعد إلى حقائق مقررة نهائية، والفلسفة تكميل خطر وخيالي للفهم، فهي تملأ الفجوات الموجودة عندنا عن المعرفة العلمية بالعالم بافتراضات لا يمكن إثباتها تجريبيا، ومن هذا الوجه يعد كل إنسان فيلسوفا، ولو بالرغم منه؛ ذلك أن أكثر

الشكاك حذرا، أو أشد اللاإراديين تواضعا، أو أعظم السلوكيين تمسكا بالواقع، يتفلسف في الوقت نفسه الذي يعلن احتجاجه للعالم أجمع أن الفلسفة مستحيلة، فلو فرضنا أن أحد اللاإراديين كان يعيش في حيدة كاملة بحيث لا يعتقد أو لا ينكر وجود الله، ولو فرضنا انه قد يوزع أفكاره وأعماله بغير تحيز بين القبول والإنكار، فقد يتوقف حكمه على الفلسفة توقفا لا حراك فيه ولا حس، أشبه ما يكون بالإغماء الفلسفي وحالة عدم الوعي بالكون، وهذا شيء عسير وبعيد عن الإنسانية، لأننا في الواقع نتخذ جانبين: إما أن نحيا في الإنكار أو نحيا في القبول، ونتصرف كما لو أننا قد اخترنا إحدى المتهتين المفزعتين اللتين تكونان الفلسفة، فنحن نصنع الفروض، ولو كما فعل نيوتن، ذلك أن سحر المطلق يجذبنا دائما.

هل لنا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذاهبها؟ وأن الفلاسفة جميعا خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة فلا يهدأ لهم بال حتى يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة؟ وكيف يجد الإنسان المشغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات العلمية أو ما يهدئ به هذه الحرب؟ ألا يهدم هؤلاء الفلاسفة بعضهم البعض؟ انظر إلى عمر الخيام يقول في تجربته:

كنت أغشي وأنا صغير مجالس الأطباء والفقهاء.
وسمعت منهم مناظرات حول الطب والفقه
فلم أظفر بنتيجة عن حقيقة الأمر
وكنت أخرج من الباب الذي أدخل منه

أكبر الظن أن عمر الخيام كان يصور قصة، ولعله لم يخرج حقا من الباب نفسه الذي دخل منه، اللهم إلا إذا كان قد ترك عقله مع نعليه عند باب المسجد كما يفعل المسلم الورع، ولست تجد أحدا يغشي صحبة عظماء الفلاسفة دون أن يغير عقله ويوسع نظرته فيما يختص بآلاف من المسائل الحيوية، فماذا بدل إيمان طفولة عمر إلى عبادة مشوبة بالشك في الجمال والخمر؟ أليست الفلسفة هي التي تضيف إلى رباعيات الخيام هذه العظمة؟

فليدرس أحدنا تاريخ العلم وسوف يكشف فيه من التغيرات العجيبة ما يجعل تذبذب الفلسفة بين اليمين والشمال يتبدد في غمار سعة وعمق إجماع العلم الأساسي واتفاق كلمته، إلى أي نجم بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة؟ هل يؤيدها علم الفلك الحديث، أو يسخر من وجهها المغبر؟ وأين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب أينشتين ومينكوفسكي وغيرهما الكون رأسا على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم؟ وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة في الفيزيقا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع؟ وأين إقليدس المسكين اليوم، وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية، ليرى كيف يصوغ الرياضيون لنا أبعادا جديدة بحسب أهوائهم، ويبتدعون لا متناهيات يحتوي أحدها الآخر كجزء منه، ويثبتون في الفيزيقا والسياسة كذلك أن الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين؟ وأين علم الأجنة اليوم ليرى البيئة الناشئة تحل محل الوراثة التي كانت إله العلم؟ وأين جريجور مندل الآن ليشهد انصراف علماء الوراثة عن وحدة الصفات ..؟ وأين دارون الهدام الدقيق ليرى كيف حلت طريقة التغيرات السريعة محل الاختلافات الذاتية والمتصلة في التطور؟ وهل هذه التغيرات هي الثمرة المشروعة لاختلاط الهجائن؟ وهل نضطر إلى الرجوع في تفسيرنا للتطور إلى الوراء عند نظرية انتقال الصفات المكتسبة؟ أنجد أنفسنا وقد عدنا مرة أخرى أكثر من قرن إلى الماضي نعانق رقبة زرافة لامارك؟

وماذا نصنع اليوم بمعمل الأستاذ فونط Wundt وباختبارات ستانلي هول، حين لا يستطيع أي عالم نفساني من أتباع السلوكيين أن يكتب صفحة واحدة في علم النفس الحديث دون أن يلقي بمخلفات أسلافه في الهواء؟ وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يضع كل عالم في تاريخ قدماء المصريين كشفا بالأسرات وتواريخها على هواه، ولا يختلف عن كشوف غيره إلا ببضعة آلاف السنين؟

وحيث يسخر علماء الأجناس البشرية من تيلور ووستر مارك وسبنسر، وحيث يجهل فريزر كل شيء عن الدين البدائي لأنه قد رحل إلى العالم الآخر؟ فماذا أصاب علومنا؟ هل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية؟ أيمكن أن تكون "قوانين

الطبيعة" ليست سوى فروض إنسانية؟ ألم يعد هناك يقين أو استقرار في العلم؟

لعلنا إذا شئنا التماس الاستقرار في العقل والنفس لوجدنا أنه أقل في العلم منه في الفلسفة، ذلك أن اختلاف الفلاسفة يرجع إلى تغير مدلول الاصطلاحات في عصرهم أكثر مما يرجع إلى العداوة بين أفكارهم، أو قل إن هذا الاختلاف يرجع إلى حد كبير إلى تقلب العلم نفسه، من جهة تعلقه القوي بفرض من الفروض فترة من الزمن، ثم تشبعه به، ثم كراهته له، وتحوله إلى وجه جديد لنظرية حديثة، وبعد، فأي اتفاق عجيب يوجد في حكم عظماء المفكرين على المشكلات الحيوية للحياة الإنسانية عندما تنحل أساليب كلامهم المختلفة في تفكيرهم الأساسي، أما سنتايانا فإنه يعلن في تواضع أن ليس عنده شيء يضيفه إلى أرسطو، وكل ما سيقدمه عبارة عن تطبيق لتلك الفلسفة القديمة على عصرنا الحديث، فهل يمكن أن يتحدث أي عالم طبيعي معاصر أو بيولوجي أو رياضي مثل هذا الحديث عن أي عالم يوناني؟ لقد نقض العلم الحديث اليوم علم أرسطو في كل ناحية، ولكن فلسفته ستبقى مشرقة وعميقة في الوقت الذي يصبح فيه علم اليوم موضعا للاحتقار والسخرية عندما يلقيه جانبا علم مقبل وثيق لعصر جديد.

٥- ملكة العلوم

قد نشعر إذن أن الفلسفة لا تزال ملكة العلوم Regina Scientiarum، ويجب أن يعترف بها كذلك في كل مكان إذا لبست ثوب عظمتها القديم، وأخضعت جميع العلوم لخدمتها، واتخذت من سائر أنواع المعرفة آلة لها، فالعالم موضوعها، والكون ميدان اختصاصها، ولكن كما أن الملكة الحكيمة تعين مهرة الحكام في الأقاليم المختلفة من المملكة، ويعهد هؤلاء الحكام إلى أتباعهم بجمع الوثائق وتصريف الأمور الجزئية، على حين يقصر الحكام وملكتهم أنفسهم على تنظيم التدبير والسياسة، كذلك الفلسفة تقسم مملكتها إلى ميادين متعددة، وتوجد في جنتها قصور كثيرة.

وأول ميدان في مملكتها، ودهليز في دارها، هو ذلك الذي يسمى باسم يخلو من

السحر وهو "المنطق"، وكأن الفلسفة قد أخفت جمالها بمحض إرادتها عن أعين الغرباء، وأوجبت على طلابها أن يمروا خلال هذه المحنة أولا حتى يثبتوا جدارتهم بالمشاركة في مباهجها العزيزة، ذلك أن مباهج الفلسفة تشبه مراقي الحب التي لا تسمو إليها أي نفس وضيعة. وكيف نعلم الحقيقة حين ننظر إليها إذا لم نكن على أقل تقدير قد تعلمنا أن نتصور شبحها، ولم نكن قد تدبرنا شتى الاختبارات والامتحانات التي تؤمن أنفسنا من "حضورها الحقيقي"؟ كيف يمكن أن نجيب عن سؤال بيلاطس الخادع؟ أنتبع عقلنا العاجز المغامر، أم إلهامنا العميق الغامض، أم الحكم الغشيم لأعيننا وآذاننا وأيدينا التي تتحسس؟ كيف نصفي حواسنا وأفكارنا من جميع الآراء المتحيزة التي تشوهها، ومن سائر "الأصنام" الخادعة، محتفظين بمصابيح العقل مضاءة حتى تجد كل حقيقة طريقها إلينا، فنرحب بها، ونضعها في موضعها اللائق؟ كيف ندرب أنفسنا، كما يفعل الرياضيون، على طلب الحكمة ومحبتها؟

وثمة ميدان آخر لا يزال بعيدا عن عرش المملكة وقبلها، هو بيت ذلك التنين العظيم المسمى الأبستمولوجيا "نظرية المعرفة" Epistemology وإذا كانت أقدامنا قد تعثرت في مفاوز المنطق، فأعيننا في هذا الميدان لن تبصر في الظلام.

سوف نترنح في أكثر من طريق، وقد نهيم على مقربة شديدة من فم التنين، فتسحرنا لغته العظيمة، ثم نبتلع فجأة في كهفه الفارغ، ونصبح بعد ذلك من أصحاب المعارف إلى الأبد، ولكن لابد أن نواجه هذا الامتحان أيضا، وأن نجيب بطريقة مقبولة عن لغز المعرفة، ومشكلة حقيقة العالم الذي ندركه ومبلغ صدقه، ولعلنا بعد ذلك نخطو إلى الأمام ونقف في تواضع في بلاط الملكة العظيمة.

وهناك ميدان ملكي أيضا هو "الميتافيزيقا"، وهو مظلم كذلك ولا يستضيئ إلا بالنور الذي نجلبه له، ولكنه زاخر بكنوز تتغذى بها النفس، وهنا نجد أن الطبيعة تخفي ماهيتها الباطنة وتحيرنا بما تقدمه من مئات الحلول، وهنا نجد أن الفلسفة تكشف لنا عن جانب من تلك "الأنغام السامية" التي كانت تغنيها لفيثاغورس، ذلك أن الطبيعة تصبح بوساطتها واعية، وتنتقد أهدافها الخاصة، وتصبح شيئا له معنى، وهنا قد

نستطيع أن نتعمق مشكلات الحياة، والمخ والعقل، والمادية والروحية، والميكانيكية والحيوية، والجبر والحرية، وما الإنسان؟ أهو شيء مركب من أسلاك وزنبركات وعجلات متشابكة تتحرك من خارج بقوى عمياء من الأرض والسماء؟ أم هو إله خالق بطريقته الصغيرة المضحكة؟

وميدان آخر هو "التاريخ" حيث يقدم لنا مئات الألوف من الدهماء وبعض العباقرة من بلاد بعيدة وأزمنة سحيقة حكمتهم ليتسنى لنا أن نتأملها موحدة، ونتعلم دروسها، أهناك أي معنى في الماضي؟ أهناك أي قوانين لنشأة الدول وانهيارها تبين، وقد تحدد، قيام الأمم والجناس والحضارات وسقوطها ؟ وهنا نعرض لمنتسكيو وباكل Buckle يتحدثان عن أثر الجغرافيا في مصائر الشعوب.

وهنا نجد كوندورسيه Condorcet وهو على فراش الموت يعزي نفسه بفكرة التقدم وقابلية الإنسان اللامحدودة للكمال، ونجد هيجل Hegel يعرض لنا ألعابه الجدلية، وكارليل أبطاله، ونجد المتطرفين من الغلاة يغنون أنشودة قوة جنسهم ويلعنون ظهور المتبربرين، ونجد ماركس يخيفنا بجبال من الأرقام والحجج التي يسوقها للدلالة على نظرية الجبر الاقتصادي للتاريخ، ولعلنا نصادف في طريقنا باحثا أو أكثر يفسر لهؤلاء المفتونين أن حقائقهم ليست إلا وجوها من الواقع، وأن التاريخ والطبيعة أكثر اختلافا مما توهموا في فلسفتهم، وسوف نجد في ركن بعيد نيتشه المتشائم يغني أنشودته عن "الدورة الأزلية"، ونجد شبنجلر يثبت بحماسه انهيار العالم الغربي.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ميدان آخر سنسمع بحثا عن "السياسة". سنفرغ بعض الوقت خشية اكتشاف أمريكا، ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى الفزع، لأن رجالها يناقشون الديمقراطية بغير توقير، والفوضى بغير خوف، إنهم يحبون الاشتراكية مع علمهم بنقائصها، ويمجدون الأرستقراطية مع احتقارهم ظلمها المواهب غير ذات الحسب، وفي بعض الأحيان يتحدثون في حماسة الشباب عن بلاد جميلة تسمى طوبيا utopia (مدينة فاضلة) لا يحكمها إلا الحكماء، وتزخر كل مدينة بالغنى والجمال.

بهذه الكلمة الأخيرة التي لا تزال تطربنا نغمتها ننفذ إلى قلب الميدان، ونشخص إلى الفلسفة ذاتها وهي تكشف للمغرمين بها عن الجمال والخلود والخير، ذلك أن للفلسفة غيرة مكتومة من "الفن"، وتنفس عليها شغفها الخالق للجمال، وهنا، لا في العلم، نجد منافسها العظيم الذي يسعى لغزو قلوب أنبل الناس وولائهم له، وقد تخضع الحكمة في رقة وهي تسلم بأن عبادة الجمال أولى من البحث عن الحقيقة، ذلك أن الحقيقة الأزلية تهرب متعاظمة حتى لا تكاد تسمح لنا بأن نلمس أطراف جلبابها، على حين يرحب الجمال الذي يعلم أنه مقضي عليه بالفناء بإعجابنا ويكافئنا عليه، ولذلك تدرس الفلسفة الجمال في تواضع، أما الفن فيجله ويخلقه خلقا ثانيا، الفن يلتمس الجمال في حرارة مودة الحب، وفي عظمة بناء المعابد، وجلال أشكال التماثيل، وحرارة الألوان، وموسيقية الألفاظ، وتتابع الأصوات العذب، أما الفلسفة فلا تعرف مع الأسف إلا مشكلات الجمال: ما مصدر الجمال، وماذا يعني، أيوجد في الصورة نفسها؟ أم لا يوجد إلا في قلوبنا العطاش؟ وهذا هو ميدان "علم الجمال" Aesthetics الذي جعلته عقول المدرسين قرونا طويلة موحشا، ولكنه لا يزال زاخرا بالعجب والبهجة.

وهنا أيضا في قلب المملكة ميدان "علم الأخلاق"، وهو ميدان قاحل بالتجريدات الأكاديمية، ولكنه من بعض الجهات أغنى قصور الفلسفة، لأن فن الحياة أسمى حتى من حياة الفن، وعلم الأخلاق هو حكمة فن الحياة.

وهنا نجد الفلسفة تسمو بمعارفها المتعددة إلى حكمة حية، وتجمع من قصورها المختلفة الهداية للإنسانية، وبعد فما هي أفضل حياة؟ وما نفع الخير، وأي حق يوجد في القوة؟ أنجد أسمى الفضائل في حكمة سقراط، أو شجاعة نيتشه، أو سماحة المسيح؟ أنكون رواقيين مع زينون وسبينوزا، أو أبيقوريين مع أبيقور ورينان ؟ أتكون اللذة غاية الحياة؟ هل الحب ينافي الأخلاق إلا إذا وافق القانون؟ وما العدالة؟ وما رأي العدالة في عالمنا الصناعي؟ وهنا نجد أكثر من أي مكان آخر مشكلات حيوية تجعل مصير حضارات بأسرها في كف القدر، هنا معضلات تمس كل دولة وكل قلب، وهي مشكلات يبدو بجانبها العلم بتسجيلاته واختصاراته وسائله وصلبه وغازه شيئا بعيدا

وغير إنساني، شيئا أدنى إلى الصلة بالموت منه إلى الاتحاد بالحياة.

غير أن الموت يتعلق أيضا بالفلسفة، وعندما يصمت لسان جميع المناقشات، يتحول الفكر في خوف لينظر إلى "العدو الأكبر" وتدخل الفلسفة أبواب "الدين". واللاهوت Theology هو البحث في الكائنات العلوية Supernatunal وصلتها بالإنسان، ولا تدلي الفلسفة برأي عن هذه الكائنات، ولكنها تتحدث عن علاقة الإنسان بجملة الحياة ومجموع الأشياء، وعن أصله على هذه الأرض ومصيره الأخير، ولو أنها تتحدث حديثا متواضعا يتناسب مع الجهل البشري.

إنها تتعلق بمسألة الخلود تلك المسألة التي تتعلق بكل نسيج حيوي، ولعلنا يمكن أن نعرف الفلسفة بأنها مسألة حياة أو موت، وأخيرا فإنها تتعلق بالله، ولسنا نعني إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة، بل إله الفلاسفة، وهو قانون العالم وهيكله، وحياته ومشيئته، فلو كان ثمة أي عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه حتى تسايره في الفكر مع الاحترام.

فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر، فلابد أن تعرف ذلك أيضا حتى تواجهه بغير خوف، هل النجوم ليست إلا تجمعات عابرة لسدم اعتباطا؟ وهل الحياة عرض غروي Colloidal مستمد من تلقاء نفسه وفائض فيضانا ذاتيا؟

وهل الإنسان ليس إلا مركبا كيميائيا مصيره إلى الانحلال ثم الفناء تماما؟ وهل نشوة الفن، وحكمة الحكيم الهادئة، وتشهد القديسين بإرادتهم، كل ذلك ليس إلا لمحات بارقة في البراعم البروتوبلازمية للأرض؟ وما الموت إلا الجواب عن كل مشكلة ومصير كل نفس .. إذن فعلى الفلسفة أن تواجه هذا أيضا، وان تسعى إلى إيجاد بصيص من الدلالة والسمو في عين الإنسان داخل هذه الدائرة الضيقة.

هل لنا أن نشرع في البداية؟

الجزء الثاني

المنطق والأبستمولوجيا

الفصل الثاني

ما الحقيقة؟[١]

١- الإحساس في مقابل العقل

يقول السيد نيتشه المتشبه بالقديسين مهاجما ما أمكنه إلى ذلك سبيلا: "لا تظهر في العهد الجديد بأسره شخصية وحيدة جديرة بالتبجيل، هي شخصية بيلاطس نائب الإمبراطور الروماني .. ذلك أن الاحتقار النبيل لأحد الرومانيين ممن كانت تبتذل أمامه لفظة "الحقيقة" في غير خجل، قد زود العهد الجديد بما فيه من عبارة وحيدة لها أي قيمة .. ما الحقيقة؟"[٢] وقد عهدها أناتول فرانس أعمق سؤال أثير على الإطلاق[٣]، إذ أي سؤال آخر لا يتوقف عليه؟

والمنطق صفحة صغيرة (طبق) من المشتهيات في مأدبة الفلسفة، وهو يغلق ألف شهية في مقابل شهية واحد يفتحها، إننا نحذر المنطق لأننا تعلمنا أن معظم الاستدلال عبارة عن رغبة مغشاة بغلالة رقيقة من التعقل Rationality. فنحن نزعم أننا نقيم صروحا من التفكير المحايد، على حين أننا في الواقع لا نختار من الحقائق والأحكام إلا ما يعزز رغبة شخصية أو وطنية، إننا نحذر المنطق لأن العصر الوسيط علمنا أن الحياة أوسع وأشد ثقة وأكثر عمقا من قياساتنا، والمنطق ساكن Static قائم على أساس من "الحقائق الثابتة"، في حين أن الحياة متدفقة ومتغيرة، وتفاجئ القوانين Formulas بما لا تتوقعه. "وإن عدد الأشياء التي رفض العقل أول الأمر الاعتراف بها ثم قبلها في

(١) انظر هامش الفهرست

(٢) ضد المسيح **Antichrist** القسم ٤٦؛ يشير إلى القديس يوحنا، **XVIII** ٣٨

(٣) الحياة والرسائل، السلة الأولى ص ٨.

النهاية كبير جدا"[1] ولعلنا في الشباب قد حفظنا جميع قواعد التفكير السليم، فإذا بنا نجد أن درك المعرفة، والتعرف على الحقيقة، وحكمة الحياة، كل ذلك يقع بعيدا البعد كله عن هذه الدائرة المنظمة نظاما أنيقا، فما أسعدنا حين نلقي إلى الأبد بهذا المنطق الذي يجعل حتى الفلسفة جافة وبغير روح، بدلا من الاحتفاظ بها سدا يقف في وجه مشكلات لعلها ليست أساسية إلا بمقدار بسيط، ولكنها أدخل في حياتنا وأكثر حيوية لها، ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نطرح المنطق، لأننا لا نستطيع أن نمضي في بحثنا عن الحقيقة بغير أن نحدد من قبل ماذا نبحث عنه، وما الطريق الذي نعتزم أن نسلكه له، وكيف نعرف أننا بلغنا ما نريد بلوغه. ولن يكون أي نظام آخر منطقيا.

ونحن نجد في أطراف الدائرة مشكلة المنطق الرئيسية وقد وضع أيديهم عليها بوضوح، وأجاب عنها بوضوح، أولئك المعلمون الأحرار الذين لم يقدروا في العالم القديم حق قدرهم، ونعني بهم السفسطائيين، فقد قالوا: (ويقال إن لوك بعد ألفي عام من زمانهم قد كشف ذلك) إن المعرفة تأتي من الحواس فقط، وبناء على ذلك فإن معيار Test الحقيقة هو الإحساس، وفي هذا جواب سؤال بيلاطس، فالحقيقة هي ما تذوقه وتلمسه وتشمه وتسمعه وتراه.

أي شيء يمكن أن يكون أبسط من ذلك؟ ولكن أفلاطون لم يقتنع وقال: إذا كانت هذه هي الحقيقة فليس ثمة حقيقة، لأننا جميعا نذوق ونشم ونسمع ونلمس ونرى الأشياء بشكل مختلف، وبناء على ذلك يكون القرد مقياس الحقيقة كالحكيم سواء بسواء – ومن بفصل بينهما؟ لقد كان أفلاطون على يقين من أن العقل هو مستقر الحقيقة، فمعاني العقل بالنسبة إلى شهادة الحواس كالساسة بالنسبة إلى الشعب من حيث تجميعهم مراكز للنظام وسط جمهور فوضوي.

ووافق أرسطو في ذلك وجعل المنطق لأول مرة دراسة منفصلة، وذلك بالسعي إلى وضع قوانين العقل؛ فلا يجب أن نحكم على أمر بأنه صادق إلا إذا أمكن أن

---

(١) ليبون: تطور المادة، ص ٧٢.

نجعله نتيجة لقياس مضبوط، مثال ذلك: الإنسان حيوان عاقل (ولا تزال هذه القضية الساذجة مستعملة في كتب المناطقة)، وسقراط إنسان، إذن سقراط حيوان عاقل، ولقد أنكر فيرون[1] أن يكون الأمر كذلك، فكل قياس مصادرة على المطلوب، لأن المقدمة الكبرى لا يمكن أن تكون صادقة إلا إذا كانت النتيجة صادقة مقدما، وليس من حقك أن تزعم ذلك، وإذا لم تفترض أن سقراط عاقل فلا يجب أن تبدأ بهذه القضية وهي أن الإنسان (الذي يشمل سقراط) حيوان عاقل، لعله ليس إلا حيوانا يستعمل العقل، وبناء على ذلك فالعقل دائما غير يقيني، وهنا قال أبيقور: حسنا، فلنرجع إلى السفسطائيين، ولنثق في جواسنا، ولكن الشكاك Sceptics تساءلوا مرة أخرى وقالوا: كيف يمكن ذلك؟ فالشمس في نظرنا صغيرة كالبطيخة (القرعة)، وقد تكون النجوم كالطفح المتناثر على صفحة السماء، فهل نصدق حواسنا؟ وانتهى فيرون إلى القول بأنه لا شيء يقيني، وعندما توفي لم يحزن تلاميذه عليه بالرغم من محبتهم له، لأنهم لم يكونوا واثقين من موته.

وظلت لعبة الحواس في مقابل العقل تشغل أيام الفلاسفة، إلى أن توارى اليونان والرومان من المسرح، تاركين أوربا للمسيحية والكنيسة، وعندئذ نسى الناس السفسطائيين وأبيقور، لأن العقائد الإلهية كانت تقصرهم على الإيمان، فكانوا يعتقدون عن طريق التقديس فيما تنكره الحواس، ومع أن المدرسيين عرفوا الحقيقة بأنها مطابقة الفكر للأشياء، إلا أنهم اتبعوا أفلاطون وأرسطو في تمجيدها للعقل، وعندهم أن التفكير القياسي Deductive هو أفضل تفكير لأنه يستخلص من عقائد محدودة وثابتة نظاما متماسكا للعالم، والمعاني حقائق أعظم من الأصوات والمرئيات، لأن هذه الأشياء المجسدة ظهرت إلى الوجود ثم اختفت، أما "الكليات" Universals أو الأنواع فإنها لا تموت، وتوجد قبل الأشياء الفانية ومعها وبعدها، وتتشخص بها، فالإنسان أكثر حقيقة من هذا الإنسان أو ذاك، والجمال أكثر حقيقة

(١) Pyrrho – ٣٦٠ – ٢٧٠ ق. م – (أو عاش من ٣٦٥ – ٢٧٥ ق. م – فيلسوف يوناني من الشكاك كان يعتقد في عدم إمكان معرفة الحقيقة) (المترجم)

من هذه الوردة أو تلك. بل إن ديكارت ظل عبدا لما حرر الناس منه، فطلب من كل فيلسوف أن يطرح شهادة الحواس، ولا يقبل شيئا على انه يقيني إلا الفكر الواضح.

وبدأ التجديد بإعادة الإحساس إلى عرشه، مع جاليليو في العلم، وبيكون في الفلسفة. فقد ضاعف الفلكي الحواس بالآلات، وأدب الفيلسوف العقل بالملاحظة، وساق أشد الاستدلالات قداسة إلى محكمة الاستقراء، ولو وجب أن يقرأ أحدنا المنطق فليبدأ قبل كل شيء بكتاب بيكون "الأورجانون[١] الجديد Novum Organum" حيث يجد فيه المنطق مشرقا كأنه مبارزة، ويصبح التفكير مغامرة وفتحا، ويقرأ الفلسفة قصة بوليسية، الحقيقة فيها هي اللص المطارد، وما اكثر ما نجد فيه من أمثلة وحكم! انظر إلى استهلال الكتاب حيث يقول: "إن الإنسان باعتباره المهيمن على الطبيعة والمفسر لها يسيطر على نظام الطبيعة ويفهمه بمقدار ما تسمح له ملاحظاته، وهو لا يعرف ولا يستطيع أن يعرف أكثر من ذلك" أرأيت قط نذير حرب على كل تصوف، وكل مذهب مظلم Obscurantism، وكل حذلقة، أكمل من هذا النذير؟ لقد كان هذا هو: "الناقوس الذي اجتمعت على رنينه العقول" ونبه الأذهان إلى خطر عصر النهضة.

ثم نشب جدال عنيف بين إنجلترا والقارة الأوروبية، ذلك أن ليبنتز وكانط وهيجل غشوا الحواس بالشكوك، وأيدوا مزاعم العقل باعتباره الحاكم في كل شهادة للحس، وازدرى هوبس ولوك ومل كل عقل اجترأ أن يطلب الحقائق دون أن تكون في متناول البصر واللمس والذوق والشم والسمع، ولكن كانط قال: لا ريب أن الرياضيات مستقلة عن الإحساس، وأنها صادقة أوليا apriori، أي قبل التجربة، فغن مربع ٥ هو ٢٥ بقطع النظر عما يمكن أن تقوله الحواس، وأجابه مل بقوله: لا، إننا لا نعتقد في أن ٢ * ٢ = ٤ إلا لأننا شعرنا أو رأينا أن ٤ هي نتيجة ٢ * ٢ مرة بعد أخرى في تجربة الأفراد أو في تجربة الجنس التي انتقلت اجتماعيا. وقال لوك بأن

(١) "أورجانون" يعني آلة، وكان القدماء يعرفون المنطق بأنه آلة الفكر، فجاء بيكون يعارضهم بآلة جديدة. (المترجم)

كل معرفة مستمدة من الحس، بل إن أعظم الاستنتاجات في الرياضيات العالية تظل مزعزعة غير يقينية حتى تدمغها تجربة الحواس بالتأييد.

ولم ينته أي جدال إلى نهاية أغرب مما انتهى إليه هذا الجدال: فالمذهب الأولى Apriorism الذي يدافع عن وجود الحقائق مستقلة عن التجربة، مات في القارة، وهاجر إلى إنجلترا والمذاهب التجريبي Empiricism الذي يرجع كل معرفة إلى الإحساس باعتباره أصله ومعياره، مات في إنجلترا، وبعث في أمريكا، لقد كان اتجاه إنجلترا قرونا طويلة عمليا، وانعكست نتائج منطقها على قواعد حياتها في الطبقة الوسطى، أما الآن فعلى الرغم من أن هذه الطبقة الوسطى مازالت توالي على رجال القارة، فإن المفكرين الإنجليز بعد أن أصبحوا فجأة مراوغين وغير مفهومين، واستوردوا جميع مخلفات كانط وهيجل، جعلوا الحواس لا تفيد شيئا، وأقاموا من التفكير القياسي قوانين جديدة للفكر لا تصلح للمنطق فحسب، بل للعالم أيضا. وسمي برادلي Bradley التجربة المطلق Absolute، ثم حللها بعد ذلك وبددها هباء، ورد بوزانكيه Bosanquet المنطق إلى الاستدلال نفساني، ثم عرف الاستدلال بعظمة توتونية بأنه: "هو الإشارة غير المباشرة لحقيقة الفصول الداخلة في كلي، بوساطة عرض هذا الكلي في الفصول التي ترجع مباشرة إلى الحقيقة"[1]. وانصرف برتراند رسل عن تعريف المنطق بأنه "علم التفكير"، وذهب إلى أنه "علم أكمل المجردات". واشترك هو والأستاذ هوايتهد Whitehead في بناء أساس رياضي من الحقائق القياسية اليقينية، وفصل هذا البناء فصلا كاملا عن كل تجربة، ثم أضاف إلى ذلك تعريفه للحقيقة:

"تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا كانت لها صلة معينة بواقعة Fact معينة. وأي صلة بأي واقعة؟ إني أعتقد أن الصلة الأساسية هي ما يأتي: تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا انتهى الشخص العارف باللغة إلى هذه الصيغة حين يجد نفسه في بيئة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية، مادة "منطق".

تحتوي على معالم هي دلالات تلك الألفاظ، وتحدث هذه المعالم في نفسه آثارا من القوة بحيث يستعمل الألفاظ التي تدل عليها"[١].

يا للأسف! هل يتعلم البريطانيون إنجليزيتهم بالألمانية؟ وهل نحن في عصر آخر من الفلسفة المدرسية .. التي تطلب المعاني بغير صلتها في التجربة أو نفعها في الحياة؟ كم من فكر معاصر يقوم على وضع ما يعرفه كل إنسان في معرفة لا يمكن أن يعرفها أي إنسان؟

وقد بدا لوليم جيمس، وهو يستند إلى أرض أمريكا الفياضة بالعمل والتي لا تصبر على التجريدات، أن الغموض ليس ضروريا للفلسفة، وان معنى الحقيقة هو من البساطة بحيث يصاغ في عبارات يفهمها حتى رجل الأعمال.

فالحقيقة Truth هي ما كان فعالا Efficacy. وبدلا من الحكم على المعنى بالرجوع إلى أصوله، أو بالاستدلال من مبادئ أولى ثابتة، أخضع جيمس المعنى لاختبار العمل، وتساءل عن آثاره العملية حين يطبق، وأعاد وجه الفكرة مرة أخرى للأشياء، أما عمد جون ديوي فقد بدا له أن الفكرة أداة Instrument كالمعدة والرجلين، ومعيار الفكر هو بناء على ذلك قيام الفكر بأداء وظيفته أداء صحيحا، أي فهم الحياة والتحكم فيها، وهنا نجد أن التقاليد الإنجليزية الاستقرائية التجريبية قد عادت إلى الشباب، وأصبح البرجماتزم: "اسما جديدا لطريقة غريبة في التفكير".

والبرجماتزم هو الصياغة الوحيدة لوجهة نظر بيكون من أن "القاعدة الأشد فعلا في العمل هي كذلك الأصدق في النظر" ولفلسفة بنتام الصناعية من أن المنفعة هي معيار كل شيء.

وهناك أخطاء كثيرة في البرجماتزم، لأن مبدعها العبقري سمح لبسطاء العقول أن يفترضوا أن جميع معتقداتهم العزيزة عليهم صادقة إذا كان لها أي أثر في معاونتهم،

---

(١) كتاب "الفلسفة" ص ٢٦٢. ويجب أن نضيف أن هذا الغموض غير معهود في شخص هو أوضح الفلاسفة المعاصرين وأكثرهم إصابة للموضوع.

والعمل على راحتهم ضد عدالة العالم القاسية، ولكن ما من شك في أن المنفعة الشخصية والمؤقتة لا تخلع على العقيدة رداء الحقيقة، بل المنفعة الدائمة والكلية فقط هي التي تجعل الفكرة صادقة، ولما كان ذلك شرطا لا يمكن تحقيقه تماما، فلم تصبح الحقيقة قط أكثر من احتمال. وعندما قال بعض البرجماتيين عن عقيدة إنها صدقت "مرة" لأنها كانت نافعة وقتا ما، فقد كانوا يتكلمون بعلم لا معنى له، لأن تلك العقيدة كانت باطلا نافعا لا حقا، ولن نكون أبدا على يقين من أن أعز حقائقنا قد لا تكون كما يقول نيتشه إلا "أنفع صور للخطأ" عرفناه، فالعالم لم يخلق للعقل.

وبذلك نعود وراء إلى السفسطائيين، فنجد أن النتيجة التي انتهينا إليها ليست إلا ما انتهوا إليه، نعني أن الحواس هي معيار الحقيقة، ولكن المعيار هو الحواس "كلها"، فقد تخدعنا حاسة واحدة، كما يخدعنا الضوء بالنسبة للألوان، أو المسافة بالنسبة للحجم، ولا تستطيع أن تصحح ما تحدثه حاسة من خطأ إلا حاسة أخرى. "والحقيقة هي الإحساس الثابت" غير أن الإحساس يجب أن يشمل كل ما نتعلمه من الآلات التي نوسع بها دائرة الحواس ونجعلها دقيقة، فالمطياف (اسبكترسكوب) والمكبر (تلسكوب)، والمجهر (ميكروسكوب) والأفلام الحساسة، وأشعة إكس، هي كلها وسائل لمضاعفة ما تبصره عيوننا. والتليفون، وسماعة الطبيب، بل الراديو، هي امتداد لآذاننا العجيبة، وأخيرا يجب أن يشمل الإحساس الحاسة الباطنة، فشعورنا الداخلي بحياتنا الخاصة ونفسنا، هو شعور مباشر وصادق بهذه الحياة وهذه النفس كأي خبر يأتينا من أعضاء الحس التي تتصل اتصالا مختلفا بالعالم الخارجي.

وبعد، فعلى الرغم من براعتنا في خداع أنفسنا، فليس هناك شيء يفضل معرفتنا بأنفسنا ذاتها.

ومن الحق أن الإحساس يخطئ في إصابة اليقين، وكذلك الحياة، ولقد كان هيوم على صواب: فالحواس لا تكشف عن أي "سببية Causality" غامضة، ولكنها تبين فقط التتابع، ولا يمكن أن نستيقن تماما من أن "ب" سوف تقع بعد "ا" دائما، أن "ب" كانت تتبع "ا" دائما. فالإحساس لا يمكن أبدا أن يضمن أي لحظة في

المستقبل، ويجب أن نخاطر برؤوسنا اعتمادا على هذا الاحتمال، وهو أن النظم الملاحظة في الماضي ستستمر في المستقبل وهذا هو كل ما نحتاج إليه، غير أن المنطقي يطلب أكثر من ذلك، فالعالم فيه من الاختلاف والتغير ما يجعل "حقائقنا" على الدوام ذات جانب واحد وناقصة. وليس ثمة أمور مطلقة، بل أمور نسبية فقط، وعلينا أن نتعلم كيف نساير الأمور النسبية.

وهناك غيرنا من الناس في هذا العالم، ولن تتفق حواسهم دائما، وبالتالي حقائقهم، مع حواسنا، فعندما تقول السنيورا شيني Cini في رواية بيرانديللو، إنها سوف تصدق ما تراه بعينيها وتحسه بأصابعها، يقول لها لوديزي Laudidi: "يجب عليك أن تظهري بعض الاحترام لما يراه غيرك من الناس بأعينهم ويحسونه بأصابعهم، حتى لو كان ذلك هو الضد لما ترين وتشعرين"(١).

نعم، عندما تختص الحقيقة بأكثر من واحد منا، فيجب أن تكون إحساسا متماسكا اجتماعيا، وعندما تختص بأكثر من لحظة من الزمان، فيجب أن تكون إحساسا متماسكا على الدوام، فالحقيقة عبارة عن قبة من البلور المتعدد الألوان، ويرى كل واحد منا من ركنه الصغير تأليفا مختلفا من الألوان خلال نظارته اللونية.

ولعل الحق ليس إلا الدليل المشترك لأوهامنا، ولعل اليقين خطأ يتفق عليه جميع الناس، ويجب علينا أن نقنع بذلك.

أين إذن موضع العقل من منطقنا الشعبي المضحك، ذلك المنطق الذي يؤيد آراء رجل الشارع المتحيزة؟ وظيفته هنا كما هي في كل مكان، التنسيق .. ينسق الإحساسات إلى معان، والمعاني إلى معرفة، والمعرفة إلى حكمة، والغايات إلى شخصية الفرد، والأفراد إلى جماعة، والجماعات إلى سلام، إن عمل العقل في الظفر بالحقيقة ثانوي ولكنه حيوي: إذ يجب أن ينسج فوضى الحواس المختلفة وما بينها من تناقض في نتائج موحدة ومنسقة، تكون عرضة للتحقيق والتأييد أو الحذف بواسطة

---

(١) **Right You Are If You Think You Are, p. 161**

الإحساس المتكرر. ولست تجد ما يقرب من نصف اليقين كالإحساس، ذلك: "أننا حين نتخطى ما يعرض بواسطة الإدراك الحسي الحاضر، فلا ريب أننا نستعمل نوعا من الاستدلال"[١] ، وكل خطوة استدلالية تبعد عن الإحساس المباشر تخفض من احتمال الحقيقة، ولكن هذا أيضا مقامرة يجب على الحياة أن تفعلها، إذ يجب أن نحاول التوفيق بين الحواس المتنافرة والآراء المتحيزة إذا شئنا فهمنا على العالم وسيطرتنا عليه، وكما أن قردة كوهلر Kohler كانت تبلغ أفضل تفكير لها وهي في تمام الموقف الملائم، فكذلك الحقيقة التي نستدل عليها بالعقل بالنسبة إلينا، مثل الفلسفة والحكمة، والأخلاق والجمال، هي منظر كلي، هي الوحدة المتسقة للجزء مع الكل، إننا نقف على أقدامنا ثابتين على الأرض بواسطة الإحساس، أما بواسطة العقل فإننا نرفع عين العقل إلى ما وراء دائرة الحس الحاضرة، فنبصر حقائق جديدة قد تحققها الحواس يوما ما، فالإحساس معيار الحقيقة، ولكن العقل هو المكتشف لها.

٢- سر المعرفة الغامض

ها نحن نقف معرضين للخطر في كل ناحية، ذلك أن المثالي يحتقر صدق Veracity الإحساس وينكره، ويتساءل الصوفي عن صلاحية العقل للاعتماد عليه فماذا نحن قائلون لهما؟

"بالعرف والعادة يوجد الحسن والقبيح، والحلو والمر، أما في الواقع فليس ثمة إلا الذرات Atoms والخلاء Void". بهذه العبارة أقام ديقريطس الفيلسوف المادي أساس نظرية المعرفة (الأبستمولوجيا)، وأساس المذهب المثالي، فمن الواضح من ذلك النص الغريب أن الفيلسوف الضاحك[٢] كان يذهب إلى "ذاتية الصفات المستمدة من الحواس"، بألا يكون اللون، والصوت، والثقل، والحرارة، والشكل، والطعم، والرائحة، والألم، موجودة في الأشياء التي نحسها بل في الكائن الذي يشعر بها، ولقد

(١) برادلي: مبادئ المنطق ص ٢٢٥.

(٢) اشتهر ديمقريطس في الزمن القديم باسم الفيلسوف الضاحك، لنه كان يسخر من الناس وتهافتهم على الشهوات. (المترجم)

قال هو بس بعد عشرين قرنا من رصيفه اليوناني: "جميع الصفات التي تسمى حسية موجودة في الشيء الذي تنبعث منه حركات كثيرة للمادة، تلك الحركات التي تضغط على حواسنا بشكل مختلف".

فالصوت حركة الهواء، والضوء حركة الأثير أو تأثير الجسيمات على العين، والحرارة ليست إلا حركة جسيمات سريعة، ويعتمد اللون على سرعة أمواج الضوء وسعة انتشارها والجزء من الحدقة الذي يتأثر بها، "فالحقيقة الموضوعية" في ذاتها ليست حارة ولا باردة، ولا متهوسة ولا عادلة، بل معتمة لا لون لها وصامتة.

كيف يمكن أن يوجد ثمة ضوء لولا وجود عيون أو غشاء حساس في العالم، وكيف يمكن أن توجد أصوات لولا وجود آذان، إن أجمل قوس قزح هو في أبصارنا لا في السماء.

ولندع المثالي يتكلم، ذلك الذي يعتقد أننا لا نعرف شيئا سوى المعاني، فيقول: "هذا العالم الذي تفترض أنه موجود وجودا مستقلا إلى جانبك، هو أول كل شيء عالم من الألوان، ولكن الألوان ذاتية .. إنها موجودة فيك لا في الشيء الذي تراه، وهناك بعض الناس مصابون بعمى لبعض الألوان، فلا يبصرون مثلا أي لون أحمر في الطبيعة، فلو أننا كنا جميعا مثل هؤلاء، أكانت الوردة حمراء؟ ويتغير اللون كلما انتقلت من الفجر إلى الظهر إلى السحر إلى الضوء الصناعي، فأي هذه الألوان "حقيقي Real"؟ أهو لون النسيج الذي تشتريه حين تراه في الدكان، أم لونه في ضوء الشمس في الهواء الطلق؟ وتختلف عيون الحيوانات الدنيئة مثل القشريات Crustacea في تركيبها عن أعيننا، ومن المفروض أنها تسجل الأشكال والألوان بطريقة تختلف عنا، فأي شكل أو لون هو "الحقيقي"؟ ثم إن عيوننا لا تحس بمساحات كبيرة من الطيف، على حين ترى بعض الحيوانات الأشكال والأطياف اللونية أكمل منا، فأينا يرى العالم "كما هو" الحيوان أم الإنسان؟ وهذه المنضدة التي تقول عنها غنها مستديرة، أحقا تبدو لك مستديرة حين تنظر إليها بعين بعيدة عن الهوى أم أنها تبدو بيضاوية؟ وهل جميع الأشكال، مثل جميع الألوان، تتوقف على المدرك لها؟.

"وانظر إلى الروائح والطعوم، فإنك تجد طعاما يستفيد منه شخص، وهو سم لشخص آخر، وهناك آلاف من الناس يحبون الكافيار، وملايين يزعمون أنهم لا يحبونه، ويستطيب فقراء الصينيين طعم السمك الفاسد، وأغنياء الأوروبيين طعم الجبن العفن، كذلك الحال بالنسبة للحرارة والبرودة: ضع إحدى يديك في ماء حار، والأخرى في ماء بارد، ثم ضعهما بعد ذلك في ماء فاتر، فيبدو هذا الماء باردا بالنسبة لإحدى يديك، وحارا بالنسبة للأخرى، فأيها يكون "في الحقيقة"؟

وكذلك الأمر في اللذة والألم: إذا قطعت الأعصاب التي توصل بين الحلق والمخ، أو أصابها برد، لا نحس بطعم ما نأكله؛ فهل الطعم في الغذاء أو الحلق، أو المخ؟ هل تتألم من سنك؟ خدر العصب الموصل بينها وبين المخ، ولن تحس بألم السن، أهي السن التي تؤلم، أم المخ فقط؟ وكذلك الحال في الجمال والقبح: أنت تقول هذه المرأة جميلة، فهل هي بمثل هذا الجمال في نظر أخيها أو منافستها، كما هي جميلة في نظرك؟ أيكون جمالها في ذاتها أم في رغبتك؟ أنزع عن العالم "الموضوعي" سائر هذه الصفات التي تخلعها عليه بوجودك وإدراكك، فماذا يبقى بعد ذلك؟ "الذرات والخلاء"؟ – المادة والمكان والزمان؟

"ولكن هذه المادة كيف تعرفها، اللهم إلا بالإحساسات التي اجتمعت في هيئة معان في عقلك؟ وما المكان إلا أن يكون الوراء والأمام، والجانب، والتحت، وفي القمة، وهنا، وهناك، وقريبا، وبعيدا، وصغيرا، وكبيرا، وما هذه كلها سوى مواقف للعقل المدرك؟ أتكون الأشياء في ذاتها إلى الأمام أكثر منها إلى الخلف، هنا لا هناك، كبيرة لا صغيرة، أم أنها ليست كذلك إلا بالنسبة إلى أنفسنا؟ "ا" للعين، و "ب" للميكروسكوب، و "ج" للتلسكوب، فما "ا" في الحقيقة؟ وقال كلب مسيو برجيريه: "يصبح سيدي أكبر حين يقترب، وأصغر حين يبتعد؛ أما أنا فالكائن الوحيد الذي يحتفظ بحجمه كما هو أني ذهبت". وما الحجم الحقيقي للبرتقالة .. حجمها بالنسبة إلى الذبابة التي تطير حولها، أو كما تبدو لي حين أمسكها بيدي، أو كما تبدو للرجل الذي يعبر الطريق؟ ولن تهرب من المشكلة حين تقيس الشيء بالمسطرة وتسمى هذا

القياس حقيقة، لن البوصة في مسطرتك أو مقياسك كالبرتقالة نفسها، أصغر بالنسبة إليك منها بالنسبة إلى الذبابة، وأكبر في نظرك مما قد تبدو لمخلوق ضخم يزورنا من المريخ، حقا: "الإنسان مقياس الأشياء جميعا"[١] وهو الذي يخلق معظم العالم الذي يدركه.

"ويعلن أينشتين كنتيجة أساسية لنظريته في النسبية: "إن البقية الأخيرة للموضوعية الطبيعية تؤخذ من المكان والزمان"[٢] ما الزمان سوى شعورك بالقبل والبعد عن نقطة تقسم تجربتك نفسها؟ وهل يكون ثمة قبل وبعد إذا لم يوجد أي عقل؟ لعل الإحساس بالزمان أحد عند الحشرة التي تسحقها على الحائط منه في حياتك البطيئة الحركة، وأي زمان "حقيقي"؟ لقد اشتكى إنسان زحل في قصة فولتير من أن طول الحياة فوق ذلك الكوكب السريع الدوران لا يبلغ إلا خمسة آلاف سنة، فماذا يستطيع المرء أن يتعلمه أو يعمله في هذه المدة القصيرة؟ إن السنة التي تزخر بالتجارب تبدو أطول من السنة التي لا نجد فيها وقفة لذكرى، ويتضاعف الزمن دائما فوق كرسي طبيب الأسنان، وحكي فلاماريون قصة الرجل الذي رأى حوادث الثورة الفرنسية تتابع مقلوبة على عكس نظامها في الزمان، لنه كان يبتعد من الأرض بسرعة تفوق سرعة الضوء، والمكان يغير الزمان كما يحدث ذلك في رحلة على سطح المحيط، أو كما حدث للمسيو باسبارتو Passepartout في "رحلة حول العالم في ثمانين يوما". والزمان يغير المكان: فالنجم الذي نراه في أقصى الشمال من السماء ليس هناك، لأنه تحرك منذ أن أرسل الضوء الذي يصل إلينا الآن، فالزمكان[٣] أمر معقد شديد التعقيد يتركب من الوضع والحكم، غنه ضرب من الإدراك وليس شيئا خارجيا، وعقلك عبارة عن سجن، ولا يمكن أن يعرف أبدا مقدار ما يعرفه من الشيء، أهو في الشيء أو في العقل الذي يعرف، فهذه هي الإحساسات التي يعطيك حكمها "الحقيقة"

---

(١) يشير إلى عبارة بروتا جوراس السفسائي المشهور. (المترجم)

(2)Cassirer, E. Substance and Function p. 356.

(٣) مركب مزجي من لفظي الزمان والمكان **Space – time** (المترجم)

"كلا، لا يمكن أن يكون الإحساس معيار الحقيقة، فكل ما نعرفه هو أفكارنا، ولا يمكن أن نختبر هذه الأفكار بوساطة عالم خارجي ساهمت إحساساتنا في صنعه مساهمة كبيرة، وكيف يمكن أن نكتشف حقيقة الشيء وقد اضطر إلى التخفي في هذه الإحساسات البصرية والسمعية واللمسية والشمسية والذوقية، وهي وحدها التي نعرفه من خلالها؟ وهذه "الأشياء" التي تفترض أنها أحكام الفكر هي من بناء الفكر نفسه؛ إنها المعاني التي نكونها من الإحساسات المتعددة التي جاءت إلينا من طرق مختلفة أشد الاختلاف عبر أعصابنا، وقد تجمعت في خليط متعسف كالفسيفساء، فنحن نجمع بين المرئيات والأصوات والضغوط والطعوم، ونسمي التكوين الناتج هذا الشيء أو ذاك، إننا نخلق "الشيء" بإدراكه، والعالم الوحيد الذي لا شك في وجوده هو عالم العقل، عالم المعاني، وكل شيء عدا ذلك افتراض".

أذلك كذلك؟ قد يكون. فالفلسفة لا تختص بالأمور اليقينية؛ ولا نستطيع أن نقول في نظرية المعرفة، كالحال في الفن، إلا أنه لا جدال في الأذواق.

وفي نظر الشخص الذي يتحيز للوضوح يظل هذا الهدم المثالي للعالم الخارجي عملا من أعمال العبث المنطقي لا يقنعه، وبقية من مخلفات السحر البدائي وأسرار العصر الوسيط، ولا يمكن أن تكون التجربة هي كل شيء، إذ يجب أن نلتمس أصلها وراءها؛ وهذا الأصل هو الذي نسميه المادة، لولا أننا لا نستطيع أن نقول عنها أكثر مما قاله ستيوارت مل .. إنها "الإمكان الدائم للإحساس".

ويقوم السر في لعبة المثالي على الخلط بين المعنى وبين الوجود، فالأشياء التي لا يدركها أي كائن ليس لها معنى، ولكنها مع ذلك قد يكون لها وجود ساذج، ويقول برادلي: "يجب أن يقع الشيء، في دائرة الإحساس حتى يكون حقيقيا، أو حتى لمجرد أن يكون موجودا[(١)]. ولكن ألم توجد النجوم البعيدة قبل أن تنكشف بواسطة تلسكوباتنا؟ وهل يجب أن نقول إنه لا نجم يوجد الآن مما لم يدخل في نطاق آلاتنا؟ لا

---

(١) برادلي: الظاهر والحقيقة، ص ١٤٤.

ريب أن النجوم لم توجد، ولا توجد كما نراها بالضبط، فهذه النقطة من الضوء التي نسميها الشعري اليمانية قد تكون كتلة من المادة المعتمة ينبعث عنها جسيمات فيها من السرعة الحرارية البيضاء ما يجعلها تصبح مضيئة في الطريق، ولكن أصل الجسيمات يوجد "هناك" وليس التلسكوب خالقا لها، وقد تنبأ أحد الرياضيين بعد الحساب الدقيق بأن المرصد إذا وجهت تلسكوبا في ساعة معينة نحو بقعة معينة من السماء، فقد يكتشف الفلكيون كوكبا لم يعرف من قبل، ونظرت التلسكوبات، واستولت على فريستها؛ فهل خلق العلماء نيبتون؟[١]

ويجب أن نسلم بأن وجود النجوم قبل رؤيتها ليس إلا استدلالا، ولا استدلال مؤكد، ولكن الاستدلال الذي تحقق بالإحساس المباشر ليلة بعد أخرى آلافا من السنين، فهو استدلال معقول جدا، وكاف للحياة الإنسانية، ولكل فلسفة ترجو أن تؤثر في الحياة لا أن تلعب وحيدة على الدوام، وعندما نبرح حجرة الدرس، ولا يبقى فيها كائن حي (فيما نفترض) يدركها، هل تقف الحجرة عن الوجود؟ الأرجح أنها لا تقف، لأنها مع الحظ الغريب توجد هناك دائما عندما نعود، ومما يبعث على الراحة أن نجد السيدة ماي سنكلير، التي تسلي نفسها إلى جانب كتابة القصص بالتأليف في الدفاع عن المثالية، تسلم بأنها لا تلد حجرتها حيت تدخلها[٢]. إن علم اللاهوت يحسن خداع النساء، ولكن الرجال ينخدعون كذلك بنظرية المعرفة.

ماذا تعني ألفاظ "الموضوعي Objective" و "الذاتي Subjective"؟ لعل اللعبة تقوم على عدم تحديدهما؟ سنسلم بما يقوله المثالي، ونفضل عالم المعاني الذي يسميه وحده عالما حقيقيا، عن تلك الحقائق الأخرى التي توجد بالنسبة إلينا، ولا توجد بالنسبة إليه، سيتأنف العالم الذاتي من المعاني وحدها، وكل شيء آخر سيكون "موضوعيا" ولكن هنا تقع مشكلة، لأن هذا العالم الموضوعي يشتمل على بدن

(١) أنظر دائرة المعارف البريطانية، المجلد العاشر، ص ٣٨٦.

(٢) المثالية الجديدة، ص ٥. (ماي سنكلير **May Sinclair** ١٨٧٠ – ١٩٤٧ قصصية إنجليزية مشهورة – المترجم)

الشخص المدرك، بكل ما في هذا البدن من أجهزة كالعينين والأنف واللسان والأذنين وأطراف الأصابع، وحواسه ولا شك جزء من العالم الخارجي مثل رجليه، ورجلاه ولا شك جزء من العالم مثل الأرض التي يقف عليها هذا الوقوف الفرضي، فإذا تبين ذلك، فقد وضح أن الصفات المستمدة من الحس محدودة في الأغلب بشروط موضوعية، فهلم بنا نر ذلك.

ماذا يحدد اللون؟ أمور ثلاثة: الأول التكوين الفيزيقي والكيميائي للسبب الخارجي في إحساسنا. (إننا نفترض وجود هذا السبب الخارجي للأسباب المذكورة آنفا، وسوف نسميه بعد ذلك "الشيء"). والثاني مقدار الضوء وطبيعته وسقوطه، ويدخل في ذلك التركيب الكيميائي لأصله، وسرعة موجاته وقوتها، والثالث العينان، وأعصاب البصر، ومراكز الإبصار في المخ عند الشخص الذي يدرك، ولا شرط من هذه الشروط "ذاتي". ومن الواضح أن المرء يستطيع أن يرى حدقته وأعصابه البصرية نفسها بل مراكز الإبصار في مخه، بوساطة آلات لا تزيد في دقتها عن تلك الموجودة عندنا، وهذه كلها جزء من "العالم الخارجي" وليست جزءا من الشعور أو المعنى المدرك.

وتكون هذه الشروط المحددة للضوء ما يمكن أن نسميه "الموقف الموضوعي" والذي يتركب من السبب والوسط والحاسة، ويختلف اللون وقد يتغير بسبب أي واحد منها، فيمكننا أن نجعل الحلوى الحمراء بتركيبات كيميائية، ويمكن أن نحيل البز (القماش) الأزرق أسود بالضوء الصناعي، ويمكن أن نجعل الحدقة تنقل الإحساس بنجوم أرجوانية دقيقة بالضغط على العين، فاللون صفة تختلف باختلاف الموقف الموضوعي، وليس اللون صفة لا تتغير للشيء، ولا هو من خلق العقل المدرك، ويعتقد المثالي بحق في عدم وجود أي شجرة خضراء إذا لم تكن ثمة عين تراها، إنه يفترض افتراضا خاطئا أن إدراكه هو الذي يصنع اخضرار الشجرة.

إذا كان الأمر كذلك فقد يجعل إدراكه جميع الأشياء الخضراء .. والشجر والسحب والورد والشعر الذهبي، والحل موجود دائما: عندما تكون المتضادات

موضع نزاع، فالحقيقة في الوحدة بينها.

وهذا صحيح بالنسبة للون، ومن الواضح أن الأمر لن يكون كثير الاختلاف بالنسبة للشكل؛ وكذلك بالنسبة للصوت: فهو يتحدد بموقف موضوعي يتركب من سبب خارجي (كأن يصطدم جسمان فجأة)، وأمواج الهواء المتوسطة، وعصب السمع، والأمر كذلك في الماء الفاتر الذي يكون باردا وحارا، فالحرارة التي نحس بها مزيج من أعصاب الحس والشروط الفيزيقية، ولما كانت إحدى اليدين فرضا أدفأ من الأخرى، فإن الإحساسات الحاصلة تختلف بالنسبة لكل يد، ولكن الشروط، وهي الماء واليدان، موضوعية جميعا، ولم يضع العقل المدرك أي شرط منها، ما اللون الحقيقي، والشكل الحقيقي، ودرجة الحرارة الحقيقية، والصوت الحقيقي؟ لا يستطيع أحد أن يقول قولا جازما (دجماطيقيا) فحواس كل شخص تتدخل في الموقف، والحواس مختلفة، ويكفي لتحقيق أغراض الحياة أن نعتبر تلك الظواهر التي يدركها أفراد مختلفون إدراكا متماثلا كأنها "حقيقية". وقد نعتقد أن تلك العناصر التي يتفق في ملاحظتها أفراد مختلفون هي عناصر موضوعية، مستقلة عن ذواتهم المنفصلة، فالحقيقة هي الإحساس الدائم اجتماعيا.

ولقد أرجأنا القول في مشكلات المكان والزمان لأن الخلط بشأنها بلغ حد اليأس منها حتى سلم علماء مثل شتينمتز Steinmetz وأينشتين لكانط.

فالمكان باعتباره الإحساس بالمسافة أو مقياسها هو في شطر منه ذاتي، ما دام الوضع والمسافة نسبيين لأنفسنا، غير أن المكان باعتباره مجموع كل خطوط الحركة الممكنة هو مه الأسف مستقل عن الإنسان، وقد نتصور أن المثالية في هذا الموضع قد رفضت بما فيه الكفاية بما بينه وليم جيمس، متفقا مع العقل السليم Common Sense من أن العلاقات تدرك إدراكا مباشرا كأي شيء آخر.

وإذا لم يكن هذا القول كافيا، فإن تجارب كوهلر على القردة قد وضعت لهذا المر حدا إلى الأبد، فنحن ندرك التجاور، واللامساواة، والحركة والسكون وحين نرى

حشرة تتحرك على أرض ثابتة فإننا ندرك مباشرة الزمان والمكان معا.

ذلك أن الزمان ابن الحركة؛ وإذا لم توجد أي حركة فلا يوجد أي تغير، وإذا لم يوجد أي تغير فلا يوجد أي زمان، والزمان باعتبار أنه إحساس بالقبل والبعد، وشعور بالسيلان، ذاتي، والعقول وحدها هي التي يمكن أن تقدمه للعالم، والزمان باعتبار انه تغير موضوعي، ولا ريب أنه ماض في سبيله حتى لو مات كل عقل، فالشجرة تبرعم وتزهر، وتزدهر وتورق، على توالي الربيع والخريف حتى تموت، على الرغم من عدم وجود أي عقل يدركها، والمد والجزر دائبان على مدهما وجزرهما، ولا تزال القارات تذوب في البحار، ولو أن أي عقل لا يشعر بها أو يقيسها، ولقد كان المحيط يموج قبل أن يأمره بيرون، وبعد أن عاش ليكتب آخر بيت في قصيدته، فالعالم، وحتى الزمان والمكان، واقع غشوم Brute، يحسن بالحكيم أن يقبله، ولا يقل صحة عما يعتقده الفيلسوف.

ووجود العالم هو شرطنا، وحدودنا، وأصلنا. وما يعطيه العقل للعالم هو الدلالة وليس الوجود، وليس لعالم الأشياء من معنى إلا ما نصبه فيه، ولعل ذلك هو السبب في أنه غير مفهوم إلى هذا الحد.

إنا لنرجو أن ينتهي التجديد الأبستمولوجي (المعرفي) في حركة الفلسفة، وأن نسمع من جديد قريبا القضايا الواضحة عن مشكلات الحياة والموت، ومع أن المثالية كانت ذات فائدة في تتبع ما تجلبه الحواس للعالم الذي يدركه الإنسان، فقد كان فيها شيء من البلاهة، ولو أن حياة المثاليين كانت مطابقة لنظريتهم، ولو أنهم سلكوا سلوك من يعتقد حقا في أن العالم الخارجي غير حقيقي، فقد يمكن أن نمجدهم كما نمجد القديسين الذين يمارسون ممارسة رواقية أوهامهم النبيلة.

ولكن الغريب أن هؤلاء المنكرين للعالم عاشوا وتمتعوا كأي واقعي Realist، وهفت نفوسهم إلى الذهب غير الموجود، بل إن فشته، كما اقترحت مدام دي ستال، لا بد أنه شك في لحظاته المتواضعة أيكون قد خلق زوجته بإدراكه لها.

لقد جاءت هذه القصة الخرافية الكبيرة، قصة العقل الذي خلق العالم، من ألمانيا، بلاد القصص الخرافية، ونشأت هذه الأسطورة من الحركة الرومانتيكية كرد فعل للشعور والخيال ضد الواقعية والمادية والشكية، وهي المذاهب التي سادت في عصر فولتير، لقد كانت احتجاجا ضد احتقار كوبرنيق للبشرية.

ثم بدأت تضعف يوما بعد يوم في وجه الدارونية، ولعلها تبطل في القريب.

فنحن نسمع قليلا نسبيا عن المثالية في فلسفة فرنسا، فالناس هناك ميالون للإفصاح عن رغباتهم بغير نفاق، وهم لا يظنون أنهم لكي يصبحوا خالدين يجب أن يحطموا العالم، ذلك أن العالم كان موجودا هنا قبل مجيئا، وسيظل باقيا بعد ذهابنا إلى العالم الآخر، إن العالم ليضحك حين يسمع أن الإنسان مقياس الأشياء جميعا، لنه يعرف أن الإنسان ليس إلا بيتا في قصيدة أوديسا الطبيعية.

والفلسفة محاولة لرؤية الجزء في ضوء الكل، فلنكن متواضعين.

٣- العقل في مقابل الغريزة

لقد عالجنا هجوم المثاليين على الحواس من عل، والآن يجب علينا قبل أن يقودنا المنطق إلى أنياب الحياة أن نواجه هذا الهجوم الغامض الموجه ضد العقل من أسفل، لقد لاحظ هيوم أنه حين يقف العقل ضد الإنسان، يسارع الإنسان بالوقوف ضد العقل، وإذا لم يستطع الفكر أن يعقل الرغبة في ثوب من المنطق، فإن الرغبة قد تنكر في نهاية المر كل سلطان للفكر، ولقد كان من المتوقع في حياة تقوم على آمال تجاوز العقل تجاوزا كبيرا أن يخترع الناس منطقا لا يقوم على العقل بل يسوغ أحلامهم.

وكما أن ديقريطس المادي أرسى قواعد المثالية، كذلك أعان زينون الشاك Sceptic (١) الإيلي على ظهور قضية للتصوف، ذلك أن زينون الذي ظهر قبل سقراط بقرن من الزمان سخر من العقل بمناقضاته التي ردته إلى الخلف، فهذا أخيل

---

(١) من الغريب أن يصف المؤلف زينون بأنه من الشكاك، وهذا ولا ريب تعسف منه، لأن حجج زينون كانت تهدف إلى تأييد مذهب بارمنيدس في إثبات الوجود، لا في الشك فيه. (المترجم)

يسابق السلحفاة، ولكن السلحفاة قد سبقته، وإذن فلن يلحقها أخيل أبدا، ذلك أن أخيل حين يقطع المسافة من نقطة بدايته إلى حيث بدأت السلحفاة، تكون السلحفاة قد تقدمت مسافة معينة مهما تكن صغيرة، وعندما يقطع أخيل هذه المسافة تتحرك السلحفاة من جديد .. وهكذا إلى ما لا نهاية له، وإذا بك ترى أن العقل لا يستطيع أن يثبت أي شيء، وبناء على ذلك لا يثبت شيئا على الإطلاق[1]. وكذلك السهم المنطلق لا يتحرك ، لأنه ما دام الشيء في مكان واحد وفي المكان نفسه فهو في سكون، ولكن السهم المتحرك هو في كل لحظة في مكان واحد فقط، فهو إذن ساكن في هذه اللحظة، فهو بناء على ذلك ساكن في كل لحظة من حركته، وينتهي أناتول فرانس إلى القول بأن: "أي شيء يمكن إثباته بالاستدلال، فقد برهن زينون الإيلي على أن السهم المنطلق لا حركة له، وقد يستطيع أحدنا أن يثبت العكس، ولو أن ذلك في الحقيقة أصعب"[2].

لقد كان الإغريق والرومان رواقيين حتى حين كانوا أبيقوريين، فإذا وجدوا أن العقل يعارض الرغبة قبلوا تحديد العقل في هدوء، وسعوا إلى اتباع العقل، مع انهم كانوا يبتسمون لمزاعمه، ولكن قوى التصوف المتجددة على الدوام في أمل البشر نبعت من الشرق إلى بلاد اليونان، فقلبت حياة العقل التي ازدهرت هناك رأسا على عقب، تلك الحياة الضعيفة العاجزة، وجاء الإلهام والوحي الإلهي يبعثان الراحة إلى

---

(١) تقوم المشكلة على افتراض أن حركة أخيل والسلحفاة يمكن أن تقسم إلى ما لا نهاية له إلى "لحظات" — أنظر الهامش اللاحق.

(٢) سيرة ورسائل، لندن، ١٩٢٤، المجلد الرابع، ص ٦. ويظن برتراند رسل أن زينون على صواب في قوله إن السهم ساكن في كل لحظة من انطلاقه، ولكنه ينكر الاستدلال بأن السهم يظل في الموضع نفسه — ولو أن الاستدلال يبدو منطقيا. (مادة زينون في دائرة المعارف البريطانية، وفي مبادئ الرياضيات ص ٣٤٦). ولعله من الأفضل (إذا أراد المرء أن يلعب هذه اللعبة) أن ننكر المقدمة القائلة بان السهم الذي يكون في أي لحظة في مكان واحد وفي نفس المكان ساكنا، فهذا تفسير ستاتيكي للحركة يخرجها عن الحركة، فلا يوجد شيء يسمى "لحظة" بمعنى محطة أو وقفة في الزمان، فالزمان لا يقف في أي محطة، وله حركة بوليس له لحظات، أما اللحظات فهي تقطيعاتنا العقلية للزمان المتصل غير المنقطع.

نفوس المظلومين، وعندما تحطمت بلاد اليونان وأصبح كل يوناني فقيرا، مات العقل، ووضع الإيمان (الذي لا يموت أبدا) حدا للعالم القديم، وأصبح ما يثبته المنطق قليل الأهمية، فقد تكلم الله بأمور عجيبة، وحتى لو بدت مستحيلة فكم يكسب المرء بتصديقها، وأصبح شعار الملايين من العبيد: "إني أعتقد في المستحيل Credo quia impossibile" وظلت الحقيقة تعرف خلال خمسة عشر قرنا من الزمان، لا بالإحساس أو العقل، بل بالرجوع إلى الأناجيل وعقد مجمع الكرادلة.

ولقد أخطأت الكنيسة خطأ عظيما حين سمحت بلعبة المدرسيين في إثبات الوحي بالعقل، إذ كيف أمكنها أن تعلم أن اللعبة ستمضي في طريقها، أو أن تصدعا غير منتظر قد يستهوى ألمع العقول نحو جانب العقل؟ وهذا هو الذي حدث، فقد وقع ديكارت في هوى العقل، ومات اسبينوزا جوعا في سبيله، وأحرق برونو من أجله، ومجد الناس هذه الخليلة الجديدة وهي العقل، وكلما زادت عشاقها عذابا أغرموا بها، وأصبحت عبادة العقل نفسه دينا وإيمانا، فقد وضع عصر التنوير على أساسه اعتقاده النبيل في "كمال البشرية اللانهائي".

وأقامت الثورة الفرنسية الهياكل لربة العقل الجميلة، ولم يبق ثمة فضل لا يستطيع العقل أن يمنحه للناس.

ولم يكن روسو سعيدا في هذا الجو الخفيف الهواء، لقد كان يقاسي كثيرا وكان محتاجا إلى اعتقاد كثير، وحين سخر العقل منه سماه مرضا، فقال: "إني لأجرؤ على التصريح بان حالة التأمل مضادة للطبيعة، وأن الإنسان المفكر هو حيوان فاسد". ومثلت رواية الإغريق والشرق من جديد، فقد سئم الناس الحياة وملوا الثورة والإرهاب والعظمة، وعادوا جماعات إلى حظيرة الإيمان، وغطوا انسحابهم بالدعوة إلى الغريزة والشعور، وقال دي موسيه: "يجب أن نفكر".

وقدم هيوم الفيلسوف الشاك معونة غير بارعة للعدو برده السببية والاستقراء والعلم إلى مستوى الزعم والاحتمال، أما كانط فهو أنفذهم جميعا منطقا، فقد سار

على نهج زينون، وأعلن لأوروبا أنها تستطيع أن تعتقد كما تشاء في الله وحرية الإرادة والخلود ما دام العقل شيئا ناقصا لا يستحق أن يقبل من الإنسان تضحية السماء والمدينة الفاضلة، وأخضع شهوبنهور خدمات العقل اليسيرة للإرادة، وأثبت فرويد بآلاف من الأمثلة سطحية العقل الذي يكسو أهداف البدن الأنانية بأدلة محترمة وسمى نيتشه الغريزة: "أذكى صور العقل". وأعلن برجسون – كأي فيلسوف مادي تكويني – أن العقل عبارة عن سينما تفقد في صورها الاستاتيكية اتصال الحياة روحانية النفس، لقد كان كل ذلك العصر الطويل من "إميل" إلى "التطور الخالق"، ومن روسو وكانط إلى شهوبنهور ونيتشه، إلى برجسون ووليم جيمس، رد فعل رومانتيكي ضد عصر العقل، واليوم لا بد أن تنشب المعركة من جديد، معركة الصراع بين كونفوشيوس ولاوتسي، بين سقراط وزينون، بين فولتير وروسو، ويجب أن تسوغ مناهج العقل مرة أخرى ضد الغريزة والحدس والتصوف والإيمان غير المفهوم.

ما الغريزة؟ إذا كان لنا أن نؤمن بآخر المذاهب في علم النفس فيجب أن نستبعدها باعتبار أنها اسم لشيء ليس له وجود. غير أننا حين نرى أولئك الذين ألقوا بالغريزة من الباب يعيدونها مرة أخرى من الشباك باسم "الاستجابة التي لم تعلم" فقد نقتنع باستبقاء الزجاجات القديمة للخمر المعتقة، ونسمي بصريح العبارة غريزة ميولنا الموروثة إلى المشي والجري، والأكل واللعب، والكفاح والهرب، والإلف والزواج، ومحبة البنين حين يولدون.

فهذه أنواع من السلوك مختصرة نافعة تطورت لمواجهة المطالب السريعة في حياة الجنس دون انتظار بطء الروية، ولكن هذه الأنواع لا تلائم إلا ما بيننا وبين هذه المواقف القديمة الثابتة فقط، لقد قامت لتسد حاجات معيشتنا الحيوانية وحياة الصيد، ومع أنها تحسن خدمتنا حين لا نجد وقتا للتفكير، إلا أنها تلائم الأمس أكثر مما تلائم اليوم، فقد يجري الطفل من ثعبان ويلعب ببندقية محشوة، وقد يكون الرجل فيلسوفا عميقا ويربط نفسه إلى آخر حياته بدمية بلهاء – وكذلك تزوج سقراط اكزانثيب، وجوته كرستيان، إننا بالغريزة "لا نخشى حملة الملاريا والحمى الصفراء،

ولكننا نخشى الرعد والظلام، ولا نرثي الموهوبين المحرومين من العلم، بل المتسولين ذوي القروح الدامية، ولا يثيرنا ظلم كبير كما يثيرنا جرح بسيط، ويؤلمنا ازدراء الخادم إذا لم يأخذ حلوانا (بقشيشا) أكثر مما نتألم من كسلنا وجهلنا وحماقتنا"(١). ولعل الغريزة كانت كافية لحياة الصيد البدائية: فدوافعنا الطبيعية تلائم حالة الصيد أكثر مما تلائم حياة الزراعة، وإلى تلك الحالة نصبو في رغباتنا الموسمية وجموح الشباب، نحو "الرجوع إلى الطبيعة". ولكن منذ أن قامت الحضارة أصبحت الغريزة غير ملائمة، وطرقت الحياة أبواب العقل.

متى بدأ العقل يسير سيرته؟ لعل ذلك حين هبطت أمواج ضخمة من الجليد في بطء من القطب، فجعلت برودة الهواء قارسة، وأهلكت الزرع في كل مكان تقريبا، وأبادت كثيرا من أنواع الحيوان العاجزة القاصرة عن التكييف، ودفعت عددا قليلا من الأحياء إلى الجنوب في منطقة حارة ضيقة تعلقت عدة أجيال بخط الاستواء في انتظار غضب الشمال أن يذوب، أكبر الظن أنه في تلك الأيام العصيبة، حين بطلت جميع أساليب الحياة القديمة مع غزوة البرد، ولم تلق طرائق السلوك الموروثة أو التقليدية أي نجاح في بيئة تغير فيها كل شيء، هلكت الحيوانات مع تزودها بسلاح كامل، ولكنه غير مرن، من الغريزة، لأنها لم تستطع تغيير أنفسها من الداخل لمواجهة التغير في الخارج، أما الحيوان الذي نسميه الإنسان وقد وهب مرونة مزعزعة، فقد تعلم فنون النار والطهي واللبس، وقاوم العاصفة، وارتفع إلى منزلة يمتاز فيها بلا نزاع عن سائر أنواع الغابة والسهل.

ونشأ التفكير البشري – أكبر الظن – في مثل هذه الحال الطارئة من الحياة والموت، ونحن نرى اليوم نفس هذا النقص وهذا التكيف لردود الأفعال الطبيعية في الطفل، وهو تكيف يبيح له احتمال التعلم، ولو أنه أدنى في مستواه من وليد الحيوان – نقول هذه المرونة نفسها هي التي أنقذت الإنسان والثدييات الراقية، على حين أن

---

(١) ثورندايك: طبيعة الإنسان الأصلية ص ٢٨١.

كائنات هائلة وقوية مثل الماموث والماستودون، وهي التي كانت تتجول سيدة المنطقة، رزحت تحت عبء التغير الجليدي، ولم تصبح إلا موضعا لاستطلاع علم الحفائر الحيوانية، وقد ارتجفت تلك الحيوانات وزالت على حين بقى الإنسان الضئيل، وهنا بدأ الفكر والاختراع، ونشأ عن حيرة الغريزة المعطلة أول الفروض البسيطة، وأول محاولة للجمع بين اثنين واثنين، وأول التعليمات، وأول الدراسات الشاقة في تشابه الصفات وانتظام التتابع، وأول ملاءمة بين الأشياء المتعلمة وبين المواقف التي بلغ من جدتها أن أخفقت الردود الغريزية والمباشرة إزاءها إخفاقا تاما، ونشأت عندئذ نماذج من العمل وتطورت إلى أساليب من التفكير وآلات للعقل: فأصبح ما كان ارتقابا وتربصا للفريسة انتباها، وأضحى الخوف والهرب حذرا وروية، وأمسى القتال والوثب استطلاعا وتحليلا، وصار العبث باليد تجريبا، وانتصب الحيوان فأصبح إنسانا لا يزال عبدا لآلاف الظروف، وشجاعا في جبن إزاء المخاطر العديدة، ولكنه مؤهل بطريقته المزعزعة إلى أن يكون سيد الأرض.

ونشأ العقل من مثل هذه البدايات حتى اليوم، كما يقول جراهام ولاس، ولكنه لا يزال إلى حد ما غريزيا، فإذا عرض علينا موقف جديد ترددنا بالغريزة، إلى أن تبعث أوجه المشكلة المختلفة أثرها فينا، وتصبح استجابتنا يلوكا معقدا وردا كاملا نسبيا على موقف يكاد يكون تام الإدراك، والفعل المنعكس استجابة موضعية لمؤثر موضعي، كما يحدث عندما نحك قرحة، أما الغريزة فهي استجابة عامة لعنصر واحد في موقف من المواقف، كالحال عندما نلح في النظر إلى وجه جميل، والعقل استجابة كلية لموقف كلي، وعندئذ يحطم العقل الحب وقد يهلك الجنس، وكما تتجمع الإحساسات في ظل الرغبة فتكون نظاما من المعاني والفكر، كذلك الغرائز والعادات تقع مع الاستجابات البطيئة بعد آلاف من التجارب والأخطاء في هيئة من العقل، وليس بين الغريزة والعقل فرق في النوع، بل في الدرجة، وكل واحد منهما يقدم للآخر عناصره، فالروية بديل عن الدوافع المتعارضة، والتمييز أو الفطنة فصل الموقف إلى عناصره كمقدمة للرد الكامل والعقل تحليل المؤثر وتركيب الاستجابة.

والعلة في عجز العقل هو هذه المهلة التي تتمخض عن ظهوره، وقد أهلكت المواقف كثيرا من الفلاسفة الناضجين قبل تحليلها بما يرضيهم ولقد قال جريفويلز Griffuehles النقابي: "إذا أطلنا التفكير لم نتم شيئا". ومن أجل ذلك أحب نقابيو فرنسا مذهب الحدس Intuitionism البرجسوني، وقد اقترح برجسون أن نقفل باب الفكر، وأن نبدأ بالنتائج والدوافع أولا ثم بالاستدلال بعد ذلك .. مع الفراغ الذي يعقب ذلك، هذا إلى أن العقل حين ينسى ولاءه للإحساس قد لا يؤثر الحجة البينة Evidence، بل المراوغة Subtlety وعندئذ يصبح أشبه بالتاريخ المكتوب، فيصبح المدافع الكاذب عن أي رغبة قوية، فالعقل، كما تخبرنا أي طالبة في المدارس، قد لا يكون غير فن تعقيل الرغبة، ونحن في أغلب الأحيان لا نفعل الأشياء لأن عندنا أسبابا لعدم فعلها، ولكننا نلتمس الأسباب لأننا نود فعلها، ومن أبسط الأمور في العالم أن نبني فلسفة تقوم على رغباتنا ومصالحنا، ويجب أن نحذر أن نكون شيوعيين لأننا فقراء، أو محافظين لأن مصلحتنا في جانبهم، وكلما أدخلت الفلسفة البهجة على أنفسنا ازداد حذرنا منها، وقد أحسن برتراند رسل حين قال: "ليست النقيض تماما"[١].

ومرة أخرى قد يفضي بنا التفكير إلى الشك، والفتنة، والسخف، فكل تفكير ينشأ عنه تفكير مضاد ويساويه يكاد يبلغ من الحتمية مبلغ القانون الثاني للحركة، وفي ذلك يقول أناتول فرانس لبروسون Brousson: "هذا ولا ريب حق، ولكن الضد حق كذلك"[٢] ثم ينقل عن باريس Barres المتصوف قوله: "إن ما يميز الدليل عن اللعب بالألفاظ أننا لا نستطيع ترجمة النوع الأخير"[٣].

نعم، العقل آلة ناقصة كعلم الطب، أو عين الإنسان، ونحن نستفيد منه أفضل استفادة في نطاق ما أودعه القدر والطبيعة، ولا نشك أن بعض الأمور نحسن أداءها

---

(١) مقالات شكية ص ١٥٧ **Sceptical Essays**

(2)**Anatole France en Pantoufles**

(3)**On Life and Letters, Fourth Series. P, VI**

بالغريزة أفضل من الفكر، فلعل الأحكام في حضرة كليوباترا أن نظمأ مثل أنطونيو من أن نفكر كقيصر، ولعل الأفضل أن نحب ونفقد المحبوب من أن نحسن التفكير، ولكن لماذا يكون هذا أفضل؟ أذلك لأن الغريزة أسد، أم لأن ضربا من الحدس الصوفي قد كشف لنا عن هذه الحكمة؟ كلا، بل لأن التجربة – وهي الإحساس مع مر الزمن – قد علمتنا أن ساعة من النعيم تساوي سنة من التفكير.

وإذا كنا نفكر فليس ذلك لأننا نهوى التفكير، بل لأننا يجب أن نفكر، فعالمنا الحديث كثير المزالق والتغير بحيث لا يسمح بمواجهة الاستجابات الثابتة الطابع، لعله لا تزال توجد طرق قديمة في الحياة تفييدها الغريزة كالأمومة، والزراعة، والاستقرار في البيت، ولكن حتى في هذه الأمور يجب أن يتدخل العقل، مثل منع الحمل لتحديد الأمومة الغريزية؛ هذا إلى أن المرأة قد خرجت من البيت البسيط إلى الصناعة المعقدة؛ وأصبحت المزرعة التي كانت يوما ما منعزلة مقرا لشبكة من العلاقات مع الوسطاء والأسواق البعيدة ورجال المال المحترفين، أما نحن الذين نسكن المدن فإن الاستجابة المباشرة والغريزية تصبح يوما إثر يوم خطرة، لأن لكل غريزة أنانيتها وإيثارها الخاص لنفسها، وتسعى إلى إرضاء ذاتها بأي ثمن على حساب مجموع الشخصية، وكل غريزة هي جزء منا يزعم السيادة على غيره، ولن نستطيع أن نحقق الوضوح والوحدة والصحة والعقل إلا بالتأليف بين هذه الأجزاء من أنفسنا.

انظر إلى الغريزة الجنسية: إنها تسوقنا إلى التسافد، ولعلها تسلمنا إلى الإباحية، ويضيق نظر هذه الغريزة بما فيها من شدة، فلا تقف لتفكر في النتائج، إننا نتزوج بالغريزة، ونطلق بالعقل، وقد تلقى الغريزة بكل فتاة في أحضان أول جندي يعترض طريقها، وقد تجعل من كل زوج فاسقا، ومن كل أم مجرد أم فقط لا تكاد تفطم حتى تحمل، غنها تضاعف مقدرة الفم بالسرعة التي يضاعف بها العقل والاختراع إيجاد الأقوات، فيصبح آخر حالة للإنسان سيئة كأول أحواله، وبالغريزة يبحث الإنسان الجائع عن الطعام ثم يذبح نفسه ويموت؛ وبالغريزة يتعلم الطفل المشي فيمشي على قمة الدرج أو على حافة الطرف، وبالغريزة نرتعش في خوف لا فائدة منه حين تزأر

الأسود داخل أقفاصها في حديقة الحيوان، وبالغريزة يصبح الجندي الحديث الخائف وحشا في المعركة، حاد الأنياب والأظافر، أعمى بالبغض واليأس، معرضا لميتة قذرة، على حين يقف القائد المثقف المفكر آمنا في المؤخرة يكتب قصة انتصاره، ثم يعود إلى الوطن فيرث الأرض.

لذلك فنحن نترك لإخواننا الصابرين في الدير إلهاماتهم التي لا يمكن تحقيقها، وإيمانهم المريح ولكنه مزعزع، كما نترك لأبناء عمومتنا في الغابات والأحراش غرائزهم العالية في دقتها وسدادها، ولقد قال كونفوشيوس: "لا يختلف الإنسان عن الحيوان إلا قليلا، ومعظم الناس يطرحون هذا الشيء القليل".

أما نحن فنلقي نصيبنا من الإحساس والعقل، قانعين بقبول الحياة كمعيار لتفكيرنا، عازمين بقدر الطاقة على إضافة التفكير لحياتنا، سوف نقع في أخطاء كثيرة، وليس ثمة ضمان أننا نبلغ السعادة في النهاية، إن بهجة الفهم الممزوجة بالألم مثل نشوة الحب، وسنطرح في طريقنا الفكري كثيرا من اليقينيات، وستهوى كثير من الأوهام التي كانت تبث فينا الشجاعة، ولكن: "الحياة بغير التفكير غير جديرة بالإنسان". ونحن نؤثر أن نكون سقراط في السجن من أن نكون كاليبان Caliban[1] على العرش، فلنمض معا في التفكير.

---

(١) كاليبان شخصية ابتكرها شكسبير في رواية العاصفة، وجعله ابن الشيطان، مشوها، وعبدا (المترجم)

الجزء الثالث

الميتافيزيقا

الفصل الثالث

المادة والحياة والعقل

١- مقدمة لا أدرية

ما طبيعة العالم؟ ما مادته وما صورته، وما مكوناته وهيكله، وما مواده الأولى وقوانينه؟ ما المادة في كيفها الباطن، وفي جوهر وجودها الغامض؟ ما العقل؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها، أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها؟ أيكون كلا العالمين، الخارجي الذي ندركه بالحس، والباطني الذي نحسه في الشعور، عرضه لقوانين ميكانيكية أو حتمية، كما قال الشاعر: "ما يكتبه الخالق في مطلع الصبح نقرأه في آخر النهار"، أم ثمة في المادة أو في العقل أو في كليهما عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية؟ هذه أسئلة يسألها قلة من الناس، ويجيب عنها جميع الناس، وهي منابع فلسفاتنا الأخيرة التي يجب أن يعتمد عليها في نهاية الأمر كل شيء آخر في نظام متماسك من الفكر، إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيرات الأرض.

ولنسلم أنفسنا في الحال لإخفاق لا مناص منه، لا لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج في إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس فقط، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل، فهذه النظرة الكلية وهي فتنتنا في هذه المغامرات اللطيفة ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن، ويكفي أن نأخذ بقليل من التواضع، وشيء من الأمانة، لنتأكد من أن الحياة في غاية التعقيد والدقة بحيث يصعب على عقولنا

الحبيسة إدراكهما. وأكبر الظن أن أكثر نظرياتنا تبجيلا قد تكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شيء.

فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوي جهلنا، وكلما كثر علمنا، قلت معرفتنا، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة وشكوك جديدة، فالجزيء ينكشف عن الذرة، والذرة عن الإلكترون (الكهيرب)، والإلكترون عن الكوانتوم Quantum (الكويمية) ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا Categories وقوانينا وينطوي عليها، والتعليم تجديد في العقائد وتقدم في فن الشك، وآلاتنا كما نرى مرتبطة بالمادة، وحواسنا بالعقل، وفي خلال هذا الضباب يجب علينا نحن "الزغب على الماء" أن نفهم البحر.

لذلك فنحن نقبل على هذه المشكلات كما يقبل القسيس على المذبح لأول مرة ليتلو سر القداس، لن نحل هذه المشكلات، وأفضل ما نعلمه أن نكشف فقط عما تؤثر أنفسنا، فإذا أساء الدين إلينا بعظم معتقداته فقد نرتد محتجين إلى مادية مجردة، كما فعل شللي الطائش، الذي كان يعتقد في الله وفي الخلود، وسمى نفسه "ملحدا" ليقذف بتحديه في وجه الكنيسة الرجعية المغرورة بنفسها.

وإذا كنا من أصحاب العقول الرقيقة فسوف نتعلق بالإيمان، ونعتبر أن عالما ميكانيكا بغير إله أمر يصعب وجوده، أو لعلنا نتقدم في السن فتبدو اليوم ثورات شبابنا غير ضرورية ومسرفة، غن الحقيقة لتشرق مرة أخرى من الأفكار القديمة التي بدت يوما ما خادعة وباطلة، ونحن نقبل مرحبين شاكرين أي أنباء من عالم العلم أو التاريخ، قد تعيد إلينا بعض البصيص من معتقداتنا القديمة.

ولن تكون علومنا في الطبيعة والكيمياء والفلك والحياة سوى ميادين للصيد، نقتنص فيها الكرامة لمزاعمنا، أو الراحة لآمالنا.

ومع ذلك ...

٢- المادية

كما أن المادية هي أول فلسفة يعتنقها ذلك الذي خلع عن نفسه رداء المعتقدات الغيبية، فهي كذلك أول تصور عن العالم يظهر في أمة أخذ دينها الرسمي في الزوال، كان المفكرون قبل سقراط، وهم الذين رفع بيكون ونيتشه من شأنهم على خلفائهم، جميعا من الماديين تقريبا، فقد فسر طاليس وأنكسمندريس وأنكسمانس الكون على أنه من مشتقات الماء أو النار أو الهواء.

وقدم لوقيبوس وديمقريطس للمادية تلك الصورة الذرية التي أرضت سائر الهراطقة الصميمين، إلى أن تفتت الذرة تحت تأثير علمي الطبيعة والكيمياء الحديثين.

وظلت هذه الفلسفة التي تعد أبسط الفلسفات متماسكة عدة أجيال ضد شك زينون، وثنائية أنكساجوراس، ثم انصرف سقراط عن البحث في العالم الخارجي، واكتشف النفس التي بلغ من اختلافها عن المادة أنه ظن أنها محصنة عن الموت، وسمى أفلاطون المادة "العدم"، وأعلى من شأن العقل فوق كل شيء، وكان يرى أن العالم الخارجي خاضع للعقل في الحس، وللمثل في التركيب والعمل، وبدا له أن العالم كله صورة متوسطة لنموذج كامل مدرك بوساطة نفس خالقة، ووجد أرسطو البيولوجي العالم شيئا متغيرا متحركا، ولم يستطع أن يرده إلى الذرات والخلاء، وجوهره هو الكمال الأول (انتلخيا Entelechy)، ففي كل مادة قوة خفية لا تهدأ حتى تتحقق، وكل "صورة" هي "مادة" صورة أعلى، وكل حقيقة فهي حامل بالنمو، ولم تستطع المادية أن تصف وصفا صالحا هذه الحيوية المتفجرة، ونسى ديمقريطس قرنا من الزمان.

وتجيد ديمقريطس في شخص أبيقور الذي يكاد يسبق بلانك Planck وبور Bohr وكوري فرأى في الذرة مبدأ للحرية وعدم الثبات، ومع ذلك رمزا للهلاك والفساد، فجميع الأشياء حرة، وجميع الأشياء إلى موت، وفرح لوكريتيوس وقد سئم الحياة بأن يسمع عن هذا الموت الأكيد اللانهائي، وخيل إليه أن القول بأن الشعراء

مركبون من ذرات هو أمر جميل ولو أنه كئيب، وكذلك القول بأن كل كائن وكل ذرة إلى انحلال وزوال في أمن من الألم إلى الأبد.

ثم ظهرت المسيحية وبقيت المادية خمسة عشر قرنا منبوذة في الفلسفة، وكانت بعض الفرق القديمة المخالفة لتعاليم الكنيسة قد تصورت النفس غازا لطيفا، وأن الله نفسه غاز أكثر لطافة ... وهم بذلك يقتربون من تعريف هيكل Haeckel في شبابه الألوهية بأنها "فقرية غازية". Gaseous vertebrate ولكن المادة في الأغلب كانت الملاك الذي غوى، وإبليس الفلسفة، ومحنة الروح وسجنها، ومن الغريب أن المادة وجدت مكانا رحبا في فلسفة القديس توماس الآكويني، فجعلها قديمة بالقوة قدم الزمان، وأصبحت "مبدأ التشخيص"، فيصير الواحد كثيرا خلال صورها وتحديداتها، وينقسم محيط الروح إلى بحيرات صغيرة تسمى الأنفس الخالدة.

مهما يكن من شيء فلم تبدأ المادة تستعيد منزلتها حتى ظهور ديكارت، ومن الحق أن الفيلسوف الفرنسي[١] الحذر لم يرتفع بالمادة حتى تصبح الحقيقة الواحدة، وحين استهل فلسفته بالنفس والفكر قائلا: "أنا أفكر، إذن أنا موجود" فقد فتح الباب لتلك المثالية نفسها التي أصبحت أخبث عدو للمادة، ولكنه تصور العالم تصورا ميكانيكيا، وأشرف الحيوانات كآلات منومة، وكل شيء ما عدا نفس الإنسان يخضع لمبادئ الطبيعة، بل إن الظواهر المعقدة كالهضم والتنفس والإفراز والتناسل تدل على عظمة الميكانيكا، وفي هذه الكوسمولوجيا الديكارتية الصعبة ولدت المادية في شبابها الثاني.

وهناك حركتان كبيرتان في الفكر الحديث، دعوى Thesis ونقيضها Antithesis، كما يقول هيجل، في انتظار دعوى تركيبية Synthesis يجب على جيلنا الحاضر أن يشرع في عملها، وتبدأ الحركة الأولى بالعالم الخارجي، بالمادة، والطبيعة، والميكانيكا، والرياضة، وهي تمثل، وكأنها ثورة الفرد وهي تصوغ قوانين الحقيقة من ملاحظة المادة، ثم تفسر العقل في عبارات مستمدة من هذه القوانين الموضوعية، ونتائجها بالضرورة هي المادية

(١) في الأصل "الغالي" نسبة إلى بلاد الغال، وهي الاسم القديم لفرنسا (المترجم)

Materialism والميكانيكية Mechanism، والحتمية Determinism، والسلوكية Behaviorism التي تفخر بعجزها الطبيعي عن الانتقال من المادة إلى الشعور، وأبطالها هم جاليليو، وديكارت، وهوبس، ونيوتن، وديدرو، وهولباخ، ولامتري، وهيكل، وسبنسر، وواطسون. أما الحركة التي تكافئها وتضادها فتبدأ من الشعور، وترى نفسها عاجزة عن الانتقال منه إلى المادة، وهي تقف في داخل العالم الباطني وما فيه من عقل ونفس ومعرفة وأخلاق، وهي تمثل رد فعل متطرف ضد تصور الكون تصورا ماديا، وهي ترى جميع الأشياء كإحساسات وأفكار، وترد من أجل ذلك المادة إلى حالة من أحوال العقل.

ونتائجها بالضرورة هي الروحية Spirirualism، والمثالية Idealism والحيوية Vitalism، وحرية الإرادة، وأبطالها هم ديكارت (انظر ما سبق) وليبنتز، وبركلي، وكانط، وفشته، وهيجل، وشوبنهور، ونيتشه، وبرجسون، ووليم جيمس، وهكذا تتحارب الفلسفات المتعادية كالذكر والأنثى، ولا تصبح مثمرة إلا حين يندمج بعضها في بعضها الآخر.

وتغلبت الحركة الأولى على الفكر الفلسفي الأوروبي في القرنين السابع والثامن عشر، أما سبينوزا فقد انتحى عن هذه الحركة جانبا، وواجه المشكلة على هواه في برجه المنعزل، وقدم للعالم مذهب وحدة النفس Panpsychism [١] حلا للمشكلة: فالمادة والعقل هما الوجهان الخارجي والداخلي لحقيقة واحدة معقدة، و"جميع الأشياء مهما تختلف درجتها مملوءة بالحياة". ولم تصدق أوروبا هذه المقالة، على العكس من ذلك رد هوبس الحقيقة إلى المادة، وأعلن أن كل اصطلاح أو عبارة لا تدل على شروط مادية، فهي لفظية مدرسية.

وأثار جسندي Gassendi بأدب ضد ديكارت اعتراضات متعددة على تصوره الثنائي لاستقلال المادة عن الفكر، وزعم ان الفلسفة لم تتقدم بعد عن نظريات

---

(١) لا ندري لم عدل المؤلف عن وصف مذهب اسبينوزا بأنه وحدة الوجود **Panthesim** أي أن الله والعالم شيء واحد، كما هو معروف ومشهور، إلى القول بوحدة النفس (المترجم)

ديمقريطس، وفي الوقت الذي كان نيوتن يمارس العبادة بتقوى عظيمة، ويكتب شروحا غريبة على سفر الرؤيا، حلل العالم الخارجي إلى قوانين في الحركة بلغت من البساطة والترتيب أنها حين حملت إلى فرنسا لم يستطيع فلاسفتها المغرمون بالمنطق إلا التسليم بأن هذه القوانين تنطبق على كل شيء، على سقوط التفاحة وعلى صلاة المرأة، وأخرج لامتري بشجاعة كتابه: "الإنسان الآلة"، وبين كيف تؤثر الأحوال الجسمية المختلفة كالحماسة أو المرض على العقل، فتكشف بذلك عن تكوينها الفيزيقي، وأخضع هولباخ الإنسان والمادة على حد سواء في كتابه: "نظام الطبيعة" لهذا النظام المنطقي الدقيق، ورد هلفتيوس الأخلاق والفضيلة للقوانين الطبيعية، ولم يكن ديدرو على يقين من أن نظرية المعرفة تستطيع تفسير الشعور، واضطر إلى الخروج مع اسبينوزا بهذه النتيجة، وهي أن المادة غريزة ممزوجة بالعقل، إلا أنه صمم لمجرد النكاية أن يسمي نفسه ماديا "حتى يشنق آخر رجل بأمعاء آخر قسيس".

والمادية أخت الاشتراكية: فهي علم يرفعه الشباب الثائر والضال احتجاجا في وجه الرجعية والاستبداد، وهي راية يطويها العصر الوسيط ويخفيها في هدوء عندما يرى الفكر النامي نحو النضج والتواضع التعقيد اللاعقلي في حياة العالم.

٣- المثالية

وفي أثناء ذلك وجدت الحركة الثانية رسولها في الأسقف بركلي، وقال الأسقف إنه على الرغم من كل شيء فإن هذه المادة التي نقول بها لا نعرفها إلا خلال الإحساس والإدراك، والموجود هو المدرك Esse est percipi ، أي أن الموجود إذا لم يدركه عقل من العقول فلن يوجد على الإطلاق (بمقدار ما نعرف). وأضاف كانط أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فهذه الإحساسات هي في ذاتها خليط لا معنى له، بل "الوحدة الأولية الشرطية Transcendental للإدراك" هي التي تنسج فوضى شهادة عدة حواس في عالم من الفكر المرتب، وأكبر الظن أن الترتيب والوحدة من عمل العقل، ويخلق نصف "الشيء" بإدراكنا له. فكيف يمكن أن يكون مثل هذا العقل التكويني نتيجة سلبية للمادة التي أبدع العقل صورتها نفسها؟

وقال آرثر شوبنهور – أوضح رؤسائهم على الإطلاق :– إنك على صواب، فالحقيقة الوحيدة التي نستطيع ملاحظتها مباشرة وفي صلة وثيقة هي أنفسنا ذاتها التي نتأملها تأملا باطنا، ومن السخرية أن نرد ذلك الذي نعرفه مباشرة إلى "مادة" لا نعرفها إلا على أنها معنى في فكرنا، وإلا خلال التوسط المنحرف لحواسنا الناقصة، ولعلنا إذا استطعنا أن نعرف المادة من الداخل معرفتنا لها من الخارج كما نعرف أنفسنا، فقد نجد في قلب المادة طاقة من الإرادة أكثر شبها بقوى عقولنا الدقيقة من الميكانيكية الخارجية والحقيرة لأجسادنا، وفي مثل هذه الظروف تكون المادية في ضوء المنطق الدقيق مستحيلة، أما بخنر Buchner مولسكوت وفريرباخ فإنهم أغرار، وفي ذلك يقول شوبنهور:

"إن المادية المتفاهمة التي لا تزال حتى الآن في منتصف القرن التاسع عشر تقدم تحت ستار الوهم الجاهل على أنها أصيلة .. لتنكر بحمق القوة الحيوية، وتحاول أول كل شيء تفسير ظاهرة الحياة بالقوى الطبيعية والكيميائية، ثم تفسر هذه القوى مرة أخرى بالآثار الميكانيكية للمادة .. ولكني لا أعتقد أبدا أنه حتى أبسط التركيبات الكيميائية تسمح بالتفسير الميكانيكي، فما بالك بخصائص الضوء والحرارة والكهرباء، فهذه تحتاج دائما إلى تفسير ديناميكي"[(١)].

وورث نيتشه هذه النظرة إلى المادة إلى جانب "إرادة القوة"، وهي طبعة مسروقة من "إرادة" شوبنهور، ولن تجد زنديقا أشد عداوة للمادية من هذا الذي كان يحتقر القساوسة ورجال الدين، ويقوم برنامجه الذي لا محل فيه للتوفيق على: "الإبعاد المطلق للميكانيكية والمادة، فكلاهما لا يكونان إلا صورا من التعبير عن المراحل الدنيا، وهي أقل صورة روحية تتشكل بها إرادة القوة".

إنه يتقمص الموقف المثالي كله كأي ألماني طيب، ويرى أن المادة وهم، وتركيب عقلي نصنعه لتفسير إحساساتنا، ويقول: "أما فيما يختص بالمذهب الذري المادي فهو

(١) العالم كإرادة وفكر، المجلد الأول ص ١٥١، المجلد الثالث ص ٤٣.

أيسر مذهب رفضه من بين جميع المذاهب التي ظهرت.

وأكثر الظن أنك لا تجد في أوربا اليوم أي شخص في الوسط المتعلم يبلغ من منفاه العلم حدا يجعله يخلع على ذلك المذهب دلالة جديدة". ثم ينتهي كما فعل شوبنهور إلى هذه النتيجة فيقول: "يجب أن نجازف بهذا الفرض، وهو أن جميع الأعمال الميكانيكية من حيث إنها قوة تعمل من داخل ليست بالضبط قوة الإرادة بل نتيجة لها". فالذرة ليست إلا كمية من طاقة (كوانتوم) إرادة القوة(١).

ومن المدهش أن نرى مبلغ ما كان للمثالية من أثر في الثائرين النزاعين إلى المادية كسلاح ضد الاعتقاد الديني، وفي ذلك يقول هربرت سبنسر: "إذا كان لنا أن نختار أحد هذين الأمرين وهما: ترجمة الظواهر العقلية إلى ظواهر طبيعية، أو ترجمة الظواهر الطبيعية إلى ظواهر عقلية، فالأمر الثاني أدنى إلى القبول"(٢) ويكتب برتراند رسل في أيامنا هذه – وهو الرسول الممتع للقنوط – ما نصه:

"إن الاعتقاد في أن المادة وحدها حقيقية لن يسلم من دليل الشك المستمد من ميكانيكية الإحساس الفسيولوجية.. وقد نعد تاريخيا المادية نظاما من العقائد أعلن لمحاربة العقائد الأرثوذكسية .. وتبعا لذلك نجد أنه كلما انحلت العقائد القديمة أفسحت المادية الطريق أكثر فأكثر لمذهب الشك، وفي الوقت الحاضر نجد أن اهم الممثلين للمادية هم جماعة من أهل العلم في أمريكا وجماعة من رجال السياسة في روسيا، لأن الديانة التقليدية في هذين القطرين لا تزال قوية"(٣).

٤- ما المادة؟

بعد أن مررنا بهذه الشكوك الأبستمولوجيا – وقد نظرنا إليها بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة – ومع التسليم بأن العالم الخارجي "حقيقي موضوعيا"، هذا العالم

---

(1) **Will to power $$ 712 and 634; Joyful Wisdom $ 109; Beyond Good and Evil, $$ 12 and 36.**

(2) **Principles of Psychology, vol j, p 159.**

(3) **Introduction to Lange's History of Materialism, pp xi, xii.**

الذي لا ينفك يذكرنا بوجوده بما يقدمه لنا من أشد المثيرات وأبعدها عن التنازع، فلنمض إلى الأمام، ولنبحث في تكوين المادة.

وأول شيء نكشفه هو أن المادة القديمة غير المتحركة التي وصفتها طبيعيات القرن التاسع عشر قد ذهبت، وكانت "مادة" تندال وهكسلي غير فاسدة، فهي تقعد وتنام أنى وضعتها، كذلك الصبي البدين في قصة "أوراق بكويك"(١). وهي تقاوم بكل ما فيها من وقار الحجم والثقل كل جهد لتحريكها، أو لتغيير وجهة حركتها متى أخذت في الحركة، وبين برجسون في يسر شديد أن مادة في مثل هذا الخمود لا يمكن أبدا أن تفسر الحركة، ومن باب أولى لا تحدث الحياة والعقل، ولكن رجال الطبيعة مع ذلك، كما كتب برجسون، كانوا في سبيلهم إلى هجر المادة خامدة، وإلى الكشف فيها عن حيوية لا ريب فيها، فهذه مثلا الكهرباء لا يمكن أبدا تفسيرها في صيغ من الخمود والذرات؛ فما هذه القوة الخفية التي تضاف إلى الكتلة فتزيد في طاقتها ولكنها لا تضيف شيئا إلى أبعادها وثقلها؟ وكيف تسري الشحنة الكهربية في سلك أو في الهواء اللاسلكي؟ أهي شيء يتحرك في داخل السلك والذرات، فهناك إذن ذرات أصغر من الذرات؟ وما الذي يتحرك في تلك الموجات الكهربية التي تكاد تبلغ في سرعتها سرعة الضوء نفسه؟ أهي الذرات، أو "الأثير"، أو لا شيء؟ وفي أشعة إكس، عندما تمر شرارة كهربية في فراغ باعثة أشعة تنفذ من جدران الأنبوبة وتغير من اللوح الحساس كيميائيا، فما هذا الذي يمر خلال الفراغ أو الجدران؟ وعندما بدت المادة نشطة لا تفرغ كما هو الحال في الراديوم، وبدت الذرات (التي لا يمكن أن تنقسم) منقسمة إلى ما لا نهاية، وأصبحت كل ذرة نظاما كوكبيا من الشحنات الكهربية تدور حول شيء لا يزيد جوهره عن شحنة كهربية أخرى .. فأي مأزق وقعت المادة فيه حين فقدت كتلتها ووزنها وطولها وعرضها وعمقها وعدم قابليتها للنفاذ، وسائر تلك الخصائص الثقيلة التي ظفرت باحترام كل مفكر قويم واقعي، أفكان الخمود أسطورة؟ أيمكن أن تكون المادة حية؟

(١) **Pickwick Papers** قصة مشهورة لشارلز ديكنز، وكان مستر بكويك بطل القصة. (المترجم)

لقد كانت هناك دلائل من قبل على وجود هذه الطاقة في المادة: فالتماسك، والتآلف، والتنافر، كانت توحي بها، ويبدو اليوم من المحتمل أن تكون هذه الصفات وكذلك الكهربية والمغناطيسية صورا من "الطاقة الذرية" وطي ظواهر ترجع إلى حركة الإلكترونات الدائبة في الذرة، ولكن ما الإلكترون؟ أهو جزء من "المادة" يظهر في ثوب من الطاقة، أو هو مقدار من الطاقة منفصل تمام الانفصال عن أي جوهر مادي؟ ولا يمكن أن نتصور الفرض الأخير، ويقول ليبون: "قد يمكن ولا ريب لعقل أسمى من عقلنا أن يتصور الطاقة بغير مادة .. ولكن مثل هذا التصور في غير مقدورنا، فنحن لا نستطيع أن نفهم الأشياء إلا بوضعها في الإطار المشترك لأفكارنا، ولما كانت ماهية الطاقة مجهولة فنحن مضطرون إلى صوغها صياغة مادية حتى نفكر فيها"[١] فنحن كما يقول برجسون ماديون بالطبع، فقد آلفنا التعامل مع المادة والمور الميكانيكية، وإذا لم ننصرف عنها كي ننظر في أنفسنا فإننا نتصور كل شيء كآلة مادية، ومع ذلك فإن أوستوالد Ostwald يصف المادة على أنها صورة من الطاقة وحسب، ويرد رذرفورد الذرة إلى وحدات من الكهرباء الموجبة والسالبة، ويعتقد لودج أن الإلكترون لا يشتمل على نواة مادية أكثر من شحنته.

ويقول ليبون ببساطة: "المادة صورة مختلفة من الطاقة"[٢]. ويقول ج. ب. س هالدين: "يعتبر بعض الناس من أقدر المفكرين في العالم اليوم المادة كمجرد ضرب خاص من الاضطراب التموجي"[٣]. ويقول إدنجتون: إن المادة مركبة من بروتونات وإلكترونات، أي شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء.

فاللوح: "هو في الحقيقة مكان فارغ مشتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا وهناك"[٤]. ويقول هوايتهيد: "إن مفهوم الكتلة في طريقه إلى فقدان امتيازه الوحيد

(1)The Evolution of Matter p. 13

(٢) المرجع السابق ص ١٠

(3)Possible Worlds, p. 296.

(4)The Nature of the Physical World, p 3

باعتبارها المقدار الواحد الدائم في النهاية .. فالكتلة الآن اسم لكمية من الطاقة في علاقتها ببعض آثارها الديناميكية"[1] وإلى هذه المرتبة الوضعية سقط الجبار، ورجعنا إلى بوسكوفيتش Boscovich [2] الجزويتي القديم، إلى تلك العبارة غير المفهومة من أن المادة التي تشغل "المكان" مركبة من نقط لا وجود لها، وفي ذلك يقول نيتشه: "لقد كان بوسكوفتش وكوبرنيق حتى الآن أعظم خصمين وأكثرهما نجاحا في دحض شهادة العيان"[3].

فلا غرابة أن يستنتج ديوي أن؛ "مفهوم المادة الذي يوجد بالفعل في تطبيق العلم لا يمت بصلة إلى مادة الماديين"[4].

أيمكن أن يكون شيء أكثر غموضا وغرابة من هذا القول الذي يقوله علماء الطبيعة من أن "المادة" بمعنى الجوهر المتحيز Spatial قد بطلت عن الوجود؟ فهم يقولون إن الإلكترونات ليس فيها شيء من خصائص المادة: فهي ليست صلبة، ولا سائلة، ولا غازية؛ وهي ليست كتلة أو صورة.

وانحلالها إلى نشاط إشعاعي يلقي شكوكا على أعز عقيدة في العلم الحديث، أي عدم قابلية المادة للفناء، ولنسمع رأي أحد علماء الطبيعة مرة أخرى:

"إن عناصر الذرات التي تنحل تفنى تماما، فهي تفقد كل صفة للمادة بما في ذلك الثقل وهو أكثر صفاتها أساسية، ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها، ولا شيء يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة، فقد اختفت في عظمة الأثير ..

والحرارة، والكهرباء، والضوء، إلى غير ذلك .. تمثل آخر مراحل المادة قبل

---

(1)Science and the Modern World, p. 149

(٢) بوسكوفيتش (١٧٨٧ – ١٧١١) فيلسوف يوجوسلافي من دلماشيا أذاع في بلاده فلسفة نيوتن (المترجم)

(3)Beyond Good and Evil, $ 12.

(4)Experience and Nature, p. 74.

اختفائها في الأثير .. والمادة التي تنحل تخرج عن ماديتها بمرورها في حالات متتابعة تنتزع منها تدريجيا صفاتها المادية حتى تعود في النهاية إلى الأثير الذي لا يمكن وزنه، ذلك الأثير الذي يبدو أنها نشأت عنه"(١).

الأثير؟ .. ولكن ما هو هذا الأثير. لا أحد يعرف، ليس الأثير فيما يقول لورد سالسبوري إلا اسما على الفعل "يتموج"(٢). والأثير خرافة ابتدعت لإخفاء الجهل المثقف للعلم الحديث، فهو غامض غموض الشبح أو الروح.

وافترض أينشتاين وجود الأثير حين أعاد تفسير الجاذبية، وعزم أخيرا أن يدخره إلى حين مع تحديد سلطانه، وكلما يعجز عالم من علماء الطبيعة ويتحير يقول: "الأثير". ويقول الأستاذ إدنجتون أحدث حجة في هذا الموضوع: "ليس الأثير نوعا من المادة، فهو لا مادي"(٣). ومعنى ذلك أن شيئا لا ماديا يحيل نفسه إلى مادة بوساطة بعض التواءات Contortions الغامضة (دوامات Vortices كما سماها لورد كيلفن). ويصبح ذلك الذي لم يكن له بعد أو ثقل بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض، مادة متحيزة، ويمكن أن توزن، أهو اللاهوت قد أعيد أم هو علم مسيحي جديد؟ أم هو صورة من البحث الطبيعي؟ وفي الوقت نفسه الذي يحاول علم النفس بكل سبيل أن يتخلص من الشعور حتى يرد العقل للمادة، يأسف علم الطبيعة في تقريره أن المادة لا توجد. ولقد قال نيوتن متعجبا: "أيتها الطبيعة أحفظيني مما بعد الطبيعة(٤) (الميتافيزيقا)(٥)". فيا للأسف لن تقدر الطبيعة أن تفعل أكثر من ذلك.

---

(١) ليبون: المرجع السابق، ص ٧، ١٢، ١٤

(٢) نقلا عن وليم جيمس في كتابه (معنى الحقيقة) ص ٥٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢.

(٤) نقلا عن برسون: أناتول فرانس بالبنتوفل، ص ٢١٨.

(٥) ترجم العرب قديما لفظة الميتافيزيقا بقولهم ما بعد الطبيعة، ولكن هذا الاصطلاح طويل وتصعب النسبة إليه، لذلك احتفظنا بلفظة ميتافيزيقا، وهي من اليونانية ميتا أي بعد، وفيزيقا أي طبيعة (المترجم)

يقول برتراند رسل: "يقترب علم الطبيعة من المرحلة التي بلغ فيها الكمال"[١]. وجميع الدلائل تدل على العكس من ذلك، أما هنري بوانكاريه فيرى أن علم الطبيعة الحديث في حالة من الفوضى، فهو يعيد بناء جميع أسسه، وفي أثناء ذلك لا يكاد يعرف أين يقف، وقد تغيرت الأفكار الأساسية عن الطبيعة تغيرا تاما في العشرين السنة الأخيرة فيما يختص بالمادة والحركة كلتيهما.

ولم تعد تسمح أعمال كوري ورذر فورد وسودي وأيناشتين ومينكوفسكي لأي تصور قديم عن الطبيعة التيوتونية بالبقاء، وكان لابلاس يحسد نيوتن لأنه كشف النظام الوحيد للعالم، وحزن على عدم وجود نظم أخرى تكشف، ولكن عالم نيوتن قد انتحى اليوم جانبا، ولم يعد التثاقل Gravitaion مسألة "جاذبية" Attraction، وتمزقت "قوانين" الحركة في كل جهة بنظرية النسبية، وقد كانت الفلسفة تبحث ذات يوم في "الأشباح" والمجردات، وكان العلم يبحث في المادة، أي " المحسوس" والحقائق "الواقعية". أما الآن فعلم الطبيعة مجموعة مستورة esoteric من القوانين المجردة، "وفكرة المادة مفقودة بالكلية في الدوائر العلمية"[٢].

وكان على الفلسفة أن تنتحى جانبا (ولا يزال بعض الناس يتوقعون موتها خلال "خمسين عاما") أما العلم فعليه أن يحل مشكلاتنا، والآن – في الوقت الذي يحمل رجل الشارع العلم والعلماء جميع أفكار الإلهام واليقين التي كانت متصلة ذات يوم بالإنجيل والكنيسة – يقال لنا في تواضع: إن "البحث العلمي لا يفضي إلى معرفة طبيعة الأشياء الباطنة"[٣]. وبدلا من ذلك يقولون لنا إن الساعة الدقاقة تسير أسرع تبعا للسرعة التي تحمل خلالها في الفضاء، وإن المسطرة قد تطول بعملية بسيطة هي تغيير موضعها من زاوية قائمة إلى خط مستقيم في اتجاه حركة الأرض، فعلينا أن نتواضع إزاء القوانين غير المفهومة التي حلت محل وضوح علم الطبيعة القديم، ومن

(1)What I Believe, p 2

(٢) إدنجتون، ص ٢٨٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٣.

يدري لعلها تكون صحيحة؟ ومع ذلك فنحن نحذر العلم الذي يزيد عمقا يوما بعد يوم، ويرفض في يومه ما آمن به في أمسه، فيوما يقدم لنا الذرات، ثم الإلكترونات، ثم الكوانتا (نظرية الكم)، وأخيرا صورة مقدسة لعالم مادي مبني بأعجوبة من الشحنات الكهربية بغير نويات مادية.

وكان اشبنجلر وحده من الشجاعة بحيث يسمى هذا الأمر باسمه الصحيح: "كل نظرية ذرية هي خرافة وليست تجربة"(١).

ولنكن على حذر من اللاهوت أنى نجده، حتى إذا صادفناه في العلوم "المضبوطة". ولعل المادة تستمر في الوجود على الرغم من علمنا الواسع الكثير الحيل، ولعل الحجر الذي اصطدم بإصبع الدكتور جونسون كان حقيقيا كالألم الذي أحس به، حقا كان الحجر في نظر الدكتور "حزمة من الإحساسات" فقط، كما كان هيوم يصفه، ولكن عندئذ تكون هذه الحزمة – هذه المقاومة الصاخبة لعضلاتنا وحواسنا – هي بالضبط ما نعنيه بالمادة، وقد نلقي بأنفسنا في هذا العلم المدرسي الجديد، ولكننا في الحياة الواقعية ننتظر أن نجد كل طاقة مرتبطة بالمادة، بشيء متحيز، ذي ثقل، "شيء يختلف عن أنفسنا هو الذي يبعث الإحساسات".

ونحن لا نعرف إلى الآن ما المادة؟ ولنقل ذلك حتى لا نقع في الخطأ، ولكننا على يقين من أمر واحد، وهو أن هذه المادة اللطيفة ليست هي المادة الخامدة التي كان العلم في القرن التاسع عشر يقول بها، إنها صورة الطاقات غير المحسوبة وسبيلها، غنها حية بما فيها من التحام وجذب ودفع، وعمليات الكترولية (أي قابلة للتحليل الكهربي) واسموزية Osmotic (أي قابلة للانتشار)، وحرارة وكهرباء وضوء،

---

(١) انحطاط العرب، المجلد الأول، ص ٣٨٧. فقدت لفظة "علمي" عند المفكرين المعاصرين الشديدي العمق والاضطراب نفحة الكمال، وأصبحت عبثا لا يليق، فكل علم في نظر اشبنجلر "خرافة مريحة"، وميثولوجيا تحتل فيها "الكهرباء" و "الطاقة الموضعية" و"القوى" و"القوانين" محل الأرواح والآلهة، ويقيد العقل المصور واقعيات الحياة في صور من "الرياضة والميكانيكا". وستكون مهمة القرن العشرين التي يتميز بها التخلص من هذا النظام القائم على السببية السطحية، المجلد الثاني، ص ١٨٠، ٣٠، ٥٦، ١٤٤، ٣١.

وإلكترونات ترقص ولا تستقر، فالحركة، والطاقة، والحيوية في كل مكان، ولسنا نجرؤ على تسمية أي شيء عديم الحياة. "إن جسما صلبا في مظهره مثل كتلة من الحديد يمثل ببساطة حالة من التوازن بين طاقته الداخلية نفسها وبين الطاقات الخارجية – الحرارة، الضغط، إلخ .. – التي تحيطه .. وعندما نضع يدنا على مقربة من كتلة من المعدن تتعدل حركة جزيئاتها"(١).

ومن المفيد أن نضيف إلى ذلك التشبيه القديم الذي ذكره لوكريتيوس: "عندما تنزل فرق الجيش القوية في استعراض تحاكي فيه الحرب فتملأ السهل، ويرتفع بريقها إلى عنان السماء، وتومض الأرض بالنحاس، وتتصاعد جلبة وقع أقدام الجند، وتتضارب الصيحات في الجبال فتنعكس أصواتها إلى النجوم في السماء .. ومع ذلك فلا تزال هناك بقعة في أعلى الجبل يبدو منها جميع هؤلاء الرجال المتحركين واقفين بلا حراك، ويلمعون فقط كنقطة ساطعة في السهول"(٢).

وكلما ازدادت دراستنا للمادة نقصت رؤيتنا لها كشيء أساسي، وازداد إدراكنا لها كمظهر خارجي للطاقة فقط، كما أن لحمنا هو العلامة الخارجية للحياة والعقل، ويقول إدنجتون: "فيما يختص "بالفعل" فقد اضطلع علم الطبيعة بهذا الأمر، وألح في اعتبار الفعل أساس كل شيء"(٣) وبين عالم طبيعي هندي هو السر وجاديس شندرا بوس وجود "التعب" في المعادن – أي عجزها عن الاستمرار في رد الفعل بالنسبة لبعض المؤثرات فترة من الزمن – واختفاء هذا التعب بعد الراحة، وأوضح كذلك حساسية المعادن للمثيرات، والمسكنات، والسموم، وقد تكررت هذه التجارب وثبت صحتها في قارات ثلاث(٤).

وأصبح اصطلاح "حياة المادة" الذي كان يخلو من المعنى منذ خمسة وعشرين

---

(١) ليبون: المرجع السابق، ص ٢٤٨ – ٢٤٩.

(٢) في طبيعة الأشياء، ترجمة منرو، الكتاب الثاني سطر ٣٢٣ وما بعده.

(٣) ص ٢٤٠

(٤) ليبون، ص ٢٥٠ – ٢٥١

عاما من الاصطلاحات الشائعة الاستعمال، "وإنا لنرى الآن علماء الطبيعة والكيمياء وراء الأفكار البيولوجية، وقد يكون امتداد التصورات البيولوجية إلى الطبيعة بأسرها أقرب مما كان يبدو متصورا بضع سنين مضت"(١). فنحن نسمع عن "تطور المادة"، ويظهر أن الذرة تولد، وتنمو، وتفقد حيويتها، وتموت.

ويدعونا هذا العلم الحديث الطبيعي للطاقة إلى صياغة المشكلة القديمة الخاصة بالمادية في مقابل الروحية صياغة جديدة، أي مظهر للعالم الخارجي أكثر أساسية — المظهر المتحيز الممتد الذي كان علم الطبيعة يصفه "بالمادة" أو المظهر الفعال المحرك الذي نسميه الطاقة؟ لا بد أن تكون الطاقة هي الجواب.

والطاقة هي "ما لا يمكن معرفته" Unknowable، و"الشيء في ذاته" و"المطلق"(٢) وهل تكون الطاقة ذاتها شيئا متحيزا ممتدا، أي جوهرا ماديا؟ لا يمكن أن نتصورها كذلك، كما لا يمكن أن نتصور الفكر متحيزا وماديا، ويوجد في قلب المادة شيء غير مادي يهبها الصورة والقوة، وهو شيء له تلقائيته الخاصة وحياته، وهذه الحيوية اللطيفة، المستترة، والتي تتكشف مع ذلك على الدوام، هي الجوهر الأخير لكل شيء نعرفه.

ولكن هذين اللفظين "قلب" و "في" استعارتان تميلان بنا إلى طريق أعمى، فلا ينبغي أن نسمح لأنفسنا بالتفكير في الطاقة كشيء مستقل عن المادة، وتسكن فيها كالزئبق الذي كان يتأرجح في تماثيل ديدالس(٣) حتى يمنحها الثبات والحياة الظاهرة، وليس هذا العنصر الحيوي، هذه الطاقة الفعالة، كما يظن معظم أصحاب المذهب

---

(١) هالدين: الميكانيكية والحياة والشخصية، ص ١٠١.

(٢) يشير المؤلف إلى سبنسر في "ما لا يمكن معرفته" وإلى كانط في "الشيء في ذاته" وإلى هيجل في "المطلق" (المترجم)

(٣) ديدالس **Daedalus** أحد المثاليين في كريت قديما، وصفه هوميروس في أشعاره، وكان شضع الزئبق داخل التمثال ليتحرك، فلما بحث الفلاسفة النفس الإنسانية تصورا أنها شيء يوجد في الجسم ويحركه مثل تماثيل ديدالس، وانتقد أرسطو هذه النظرية في كتاب النفس (المترجم)

الحيوي أمرا منفصلا يمكن أن ينعزل عن المادة، بل هو مرتبط بها ولا ينفك عنها، كما يتصل العقل بالجسم، ويكون مع المادة المظهرين الداخلي والخارجي لكل واحد لا يقبل الانقسام، والمادي بمعنى واسع على حق، فهو حين يعظم المادة إنما يعني التعبير عن إيمانه بعدم وجود انقطاع في اتصال النمو والتقدم، وبأن الفلاسفة نشأوا من القردة، وأن القردة قد تطورت عن البروتوزوا Prorozoa (الحيوانات الأولية)، ونشأت هذه فرضا من المواد إلا إذا اعتقدنا كذلك في وجود مبدأ للحياة، وقوة تقسر على التطور داخل جسم المادة الخامدة في الظاهر (لا يزال التشبيه المتحيز يتسرب). فنحن لا نسد الثغرة بين المادة والعقل بأن نهبط بالعقل، بل بأن نرتفع بالمادة، والعالم كما يظن المادي عالم واحد، وكل جزئية فيه مكونة تكوينا ماديا، ولكن في داخل كل جزئية من ذلك العالم المادي طاقة من تلقاء ذاتها تماثل الحياة والعقل ويعتمدان عليها، وقد نقول عن أحقر قطعة من الطين ما قاله هرقليطس عندما استقبل زوارا من علية القوم في مطبخه البسيط البدائي: "أقبلوا، وأدخلوا، فهنا أيضا توجد آلهة".

٥- الحياة

لقد حاولنا التوفيق بين الروحية والمادية بالربط بين الوضع الأساسي لإحداهما – أن لب جميع الأشياء أقرب إلى العقل منه إلى المادة – وبين وضعين أساسيين للأخرى – أن الحياة والعقل مرتبطان بالمادة ارتباطا لا فكاك منه، وأن جميع الكائنات الراقية (أي الأكثر تعقيدا) قد نشأت من كائنات أدنى أقل تعقيدا، وقد دافعنا عن الوضع الأول بكلام علماء الطبيعة أنفسهم، ولكن لا يزال علينا أن نواجه الصعوبات التي تثيرها القضية الأخرى، ولنبدأ بالمشكلة الأخيرة، ولنبحث في الاتصال بين الصور العليا والدنيا من الحقيقة.

إذا كان هذا الاتصال يتضمن نظرية التولد الذاتي Abiogenesis – أي نشأة الحياة من الأشياء غير الحية – فأدلة علم الحياة تنقصها، فليس ثمة أي حالة معروفة لمثل هذه النشأة. ويبدو أن تجارب باستير التي أجراها في فترة تبلغ سبع سنين (١٨٦٢ – ١٨٦٩) لا تؤيد الفكرة القائلة بأن البروتوزوا يمكن أن تنشأ من المادة غير العضوية،

ويردد رأي العلم الحديث في صور مختلفة شعار سير وليم هارفي: "كل بيضة تنشأ عن بيضة، وكل خلية عن خلية، وكل حياة من شيء حي". ويقول ج. س. هالدين: "ليس ثمة أي احتمال بعيد لاستخلاص العضوي من غير العضوي"[١]. ويقول جوستاف بونييه متعجبا: "أن نخلق المادة الحية؟ كيف يمكن أن نأمل في ذلك مع الأحوال الحاضرة للعلم، حين نفكر كم من الخصائص المتجمعة، والوراثة، والمستقبل المعقد يوجد في قطعة من البرتوبلازم الحية؟"[٢]

ولكن على الرغم من صورة هذا الشك، فلنا أن نرتاب في أن هؤلاء الشكاك يوازنون بغير شعور تقريبا بين المادة "الميتة" وبين الكائنات المعقدة.

وتقل الصعوبة حين نقصرها على الثغرة بين أبسط الكائنات وأعقد الغرويات[٣] Colloid. وتنتج الكيمياء التركيبية اليوم ١٣٠٠٠٠ مركب كربوني عضوي.

والدجماطيقي فقط الذي لم يتعلم بعد إمكان ممارسة "المستحيل" هو الذي يقف على يقين من أن الكيمياء لن تحدث الحياة أبدا، وما تفعله الطبيعة ممكن، وقد يتعلمه الإنسان ذات يوم، ولكن عندما يحيل النبات أشعة الشمس والمواد الكيميائية الموجودة في الأرض إلى عصارته وأنسجته نفسهما فنحن، أمام التحول من المواد غير العضوية إلى المواد العضوية، حقا تتدخل هنا وساطة الكائن الحي، ولكن التحول مع ذلك حقيقي وهو المقابل الطبيعي وميزان تلك العملية التي يتغير بها العضوي إلى غير العضوي في فساده وموته، وهي عملية غامضة كذلك، ولكن من الواضح أنها غير مستحيلة، ولعل العضوي وغير العضوي مظهران أو قطبان في عملية واحدة من التطور والانحلال، ومن يدري لعل المادة كما ذهب إلى ذلك فشنر ليست إلا فسادا للمادة الحية، وأن غير العضوي و"الميكانيكي" أثران وفضلتان عن الحياة الماضية؟

(١) الميكانيكية والحياة والشخصية، ص ١٠٠

(٢) نقلا عن ليبون في كتابه "تطور القوى"، ص ٣٦٩.

(٣) الغرويات، أو الهلاميات، مادة عضوية لا تذوب عادة ولا تتبلور (قاموس شرف).

ومن المفروض أن الأرض كانت ذات يوم غير صالحة للكائنات الحية، ومن المفروض أن الحياة لم تظهر على وجهها إلا حين تهيأت البيئة الملائمة.

ولن يفيدنا أن نتبع أرينيوس[1] Arrhenius إلى النجوم البعيدة باعتبارها أصل الحياة، وتأجيل المشكلة هو الهرب من مواجهتها، ولنفرض أن كارثة قتلت سائر الحياة النباتية والحيوانية على ظهر الأرض، ولنفرض أنه بعد فترة طويلة عاد إلى الظهور طقس يشبه في اعتداله ورطوبته ما يسود كوكبنا اليوم مع سائر الشروط الطبعكيمائية[2] Physico – chemical أليس من المحتمل أن تعود الأرض فتنتج البكتريا، والبروتوزوا، والنباتات، وملايين الصور من الحياة؟ فمتى سلمنا بالتطور لا نستطيع أن نحدده، فلا موضع في الخط من شكسبير إلى الباراميكيوم Paramecium يمكن أن نقف عنده ونهجر الاتصال لتدخل معجز.

وكما احتج هكسلي بأن الثغرة بين الإنسان والشمبانزي ليست من السعة بمقدار الثغرة التي بين أدنى النسانيس وأرقى القردة، فكذلك يمكن أن نقول إن الثغرة بين البروتينات التركيبية وبين الأميبا أضيق من الخط غير المنقطع الذي يفصل بين الأميبا والقديس ويربط بينهما.

إن التصور الجديد عن المادة بأنها "حية" يلطف من حدة التباين بين العضوي وغير العضوي، ويخفض من صعوبة تصور التطور المتصل، والحياة نتيجة لا لذلك المظهر الخارجي من الحقيقة التي تعطي لنا الثقل والصلابة والامتداد، بل لذلك المظهر الداخلي الذي يقدم لنا طاقة الذرة، وكهرباء "الأثير" التي لا تستقر، وحيوية الخلية التي تتحسس بها، لقد جعلت تصورات القرن التاسع عشر في الطبيعة والكيمياء الثغرة بين الحي وغي الحي مما لا يمكن عبورها، حتى غن سبنسر مع أنه كان تواقا أن يجعل التطور كاملا إلا أنه اضطر إلى الهرب من المشكلة فكتب يقول: "نحن مضطرون

(١) أرينيوس كيمائي سويدي كان عميد جامعة ستوكهلم، ونال جائزة نوبل عام ١٩٠٣ في بحث عن نظرية الانحلال الإلكتروني، وأصبح مديرا لجائزة نوبل منذ عام ١٩٠٥، ولد ١٨٥٩ وتوفي ١٩٢٧ (المترجم)

(٢) مركب مزجي من لفظي الطبيعة والكيمياء (المترجم)

إلى الاعتراف بأن الحياة في جوهرها لا يمكن أن نتصورها في اصطلاحات طبعكيمائية"[١] وعندما تأخذ الطبيعة والكيمياء في التسليم بالتصور الخاص بالحياة على أنه موافق لنهاية التصور الخاص بالمادة، يختفي تقسيم الحقيقة والنشوء إلى نصفين لا يمكن التوفيق بينهما، وتتحد المادة التي يكون قلبها الحيوية، مع الحياة التي تكون صورتها المادة، حتى يهبان العالك لتلك الوحدة الكاملة والائتلاف التام اللذين بغيرهما لن يهدأ للعلم أو الفلسفة بال.

٦- المادي يتكلم

ولكن إذا كان ثمة بعض الصعوبة في قبول فكرة تطور الحياة عن المادة غير العضوية، فكم يبدو الأمر أكثر صعوبة في قبول فكرة التطور الطبيعي لما نسميه تسمية غامضة "العقل". ولقد قال نيتشه: "إن نمو المادة (أسلوب قديم في التعبير) إلى شخص مفكر أمر مستحيل". وسوف نجد هنا، كما وجدنا من قبل، أن تصور المادة خامدة يفضي إلى مأزق من الصعوبات لا يمكن التغلب عليها إلا بتضحية نظرية اتصال التطور، وتقدم لنا الروحية والمادية مرة أخرى أدلتهما التي لا يمكن دحضها، ثم يتركاننا موزعين بين نصفين من الحقيقة لا يقنعان بأن يكونا جزأين من كل، فلنتابع هذين النصفين من الحقيقة بعض الوقت.

يبدأ المادي بأن "يضع الاتصال". وتشير تجارب بوز Bose إلى سياسة خاصة في المادة، فلو وضعنا قضيبا رفيعا من البلاتين في مقياس التشعع (البلومتر bolometer)[٢] لاستجاب لارتفاع في درجة الحرارة يبلغ واحدا من مائة مليون درجة[٣]. ولا ريب أن هذه الحساسية مختلفة في نوعها عما نجده في الكائنات الحية، وهي لا تؤدي إلى رد فعل متلائم يرتفع بقوة الكائن فوق بيئته، ولكنها توحي لنا بالطريقة التي سدت بها الطبيعة الثغرة بين المادة والعقل.

---

(١) مبادئ علم الحياة، المجلد الأول، ص ١٢٠.

(٢) آلة دقيقة لقياس إشعاع الحرارة.

(٣) ماكيب: تطور العقل، ص ٣٣.

وتظهر المرحلة الثانية في تطور العقل في حساسية رد فعل النباتات للوضع، والتماس، والحرارة، والرطوبة، والضوء، ويعتقد يركس Yerkes أن أهم خاصة للعقل وأقواها – القدرة على التعلم، والقدرة على الاستجابة استجابات مختلفة نتيجة التجربة – علامة تميز حتى أدنى بروتو بلازم، وقد روع "بوز" مرة أخرى[١] اللجنة البريطانية لتقدم العلوم حين أوضح أمامها التشابه المفصل بين الجهاز الدوري في النبات والإنسان، وقابلية العصارة السائلة للتأثر بالمؤثرات والمسكنات والسموم، واكتشف إدوارد تانجل خيوطا دقيقة من البروتو بلازم تمر في النبات من خلية إلى أخرى، ويعدها معظم النباتيين شبيهة بالألياف العصبية في الحيوانات[٢]. وهناك بعض النباتات شديدة الحساسية للضوء، حتى لقد تحولت "ساعات نباتية" Floral Clocks . وثمة خمسمائة نوع من النباتات آكلات الحشرات، ولبعضها كما بين دارون حليمات حساسة قادرة على كشف ما مقداره ١/٧٨٠٠٠ من الجرام[٣]. ونحن نجد أول بدايات محدودة للعقل في هذا التكييف البدائي لرد الفعل نحو غايات تفيد الكائن الحي.

وتزيد الحساسية مع القابلية للتحرك، فليس على النباتات مع قوتها على تحويل المواد غير العضوية إلى غذاء أن تتحرك، فيما عدا الذهاب بجذورها في الأرض، أو بسوقها في السماء، ولكن النباتات تدفع ثمن هذه الحياة البسيطة بتضحية كثير من قواها الخاصة بالاستجابات الموجهة، وأصبحت النباتات التي كانت تتحرك حيوانات، وتقدم فيها عضو المغامرة والضبط: الجهاز العصبي، ذلك العضو النفيس والمؤلم، ومع ذلك فإن أدنى الحيوانات لا يوجد فيها جهاز عصبي، إذ تعمها الحساسية – أو الاهتياج irritability كما سماها بعض علماء الحياة المختصين في الأعصاب – وتظهر دون تمييز في سائر أنسجة الكائن.

ولكن حتى في تلك العوالم المنحطة يبدأ بعض التخصص؛ ففي الفطر volvox

---

(١) جلسة ٦ أغسطس سنة ١٩٢٨.

(٢) هولت: فكرة الشعور، ص ١٧٢.

(٣) ماكيب، المرجع السابق، ص ٢١.

وغيرها من البروتوزوا المتجمعة تظهر الخلايا الخارجية اهتياجا خاصا، على حين تظل الخلايا الداخلية أو التناسلية غير حافلة نسبيا بالمؤثرات الخارجية، ويزيد التخصص في الحساسية عندما نرتفع مرحلة أخرى في السلم، ففي الحيوان البحري المسمى "فرج البحر" Jelly Fish ترتبط بعض الخلايا العصبية الخارجة من سطح الكائن بحلقة من "شبكة عصبية" مكونة من خلايا موصلة تدور حول حافة "ناقوس العوم" Umbrella وهنا نجد أن التخصص قد فصل الخلايا العصبية إلى نوعين: "أعضاء طرفية" end – organs حساسة، وأنسجة عصبية موصلة، وهذا أول ظهور لجهاز عصبي، وهو الآلة المحركة للعقل.

أما الدودة المسطحة flatworm فخليتان عصبيتان من خلاياهم ذات حجم غير عادي، وتؤديان عمل "المركز العصبي العقدي" central ganglia أو المخ للخلايا الأخرى من الجهاز، وقد خلق تحديد هذه الخلايا العقدية بالقرب من الفم الرأس، ونما الرأس لحماية الفم، كما نما البدن حول المعدة لحماية عملية الهضم ومساعدتها، وفي دودة الأرض يعقد الخط العصبي نفسه إلى مراكز عقدية في كل فلقة أو قطعة من الجسم، ومن هذه المرحلة إلى الإنسان "يقطع" الجهاز العصبي: أي يقسم إلى مراكز عقدية موازية في الخيوط العصبية لفقرات العمود الفقري، وهذه المراكز العقدية على الرغم من اتصالها في دودة الأرض فإن كل مركز منها يكاد يكون مستقلا عن الآخر بحيث يمكن أن يتلوى أي جزء يقطع على هواه، ولكن مع تعقد تركيب الأنواع العليا وتعقد وظائفها، نمت الضرورة للاتصال والتنسيق، ومع أن مراكز النخاع الشوكي استمرت في أداء عملها كمراكز للأفعال المنعكسة الموضعية، فقد ازداد عدد الألياف التي تمر من هذه المراكز إلى مراكز المخ في الدماغ، وظهر "جهاز عصبي مركزي" قادر على الشعور وعلى حكم الجسم ككل. وليس التكامل تاما حتى في الإنسان إذ تظل وظائف كثيرة خارج رقابة المخ، وتخضع فقط "للجهاز العصبي السمبتاوي" وهو البقية من مرحلة الشبكة العصبية. أما ما نسميه "العقل" فإنه يعمل في أظهر الأمر بطريق الجهاز "المركزي" أو "المخي الشوكي" قبل كل شيء، ووظيفة

العقل الأولى والأولية هي تكامل السلوك، وإخضاع الاستجابات الحركية للهداية المركزية ورقابتها. ومن الواضح أن الفكر بطريق الجهاز العصبي أصبح حقيقة.

ولو كان لنا أن نستدل من علم الأجنة، فقد نشأ العقل من توسيع العصب الشمي، فقد كان عصبا متواضعا متصلا بالأنف، وظل العقل يعمل عصورا عدة بطريق حاسة الشم، ثم ارتبطت أعصاب أخرى بالمراكز المخية: أعصاب من العينين، والوجه، والأذنين، والحلق، واللسان، والرقبة، والأمعاء.

وانتقلت الأعصاب الشوكية شيئا فشيئا إلى الجهاز المخي، وأخذ الرأس يحكم البدن أكثر فأكثر، ونمت وظائف التنسيق والتكيف والرقابة بين الفعل ورد الفعل مع نمو المخ. ويزن المخ في الأسماك ١/٥٦٦٨ من وزن الجسم، وفي الزواحف ١/١٣٢١، وفي الطيور ١/٢١٢، وفي الثدييات ١/١٦٨، وفي شمبانزي عمره سنتان ١/٢٥، وفي طفل عمره سنتان ١/١٨، فهذا هو السلم الذي ارتقيناه.

هناك إذن أمر واحد واضح: أعقد عقل هو تطور طبيعي من الاهتياج غير المتخصص لأبسط بروتوبلازم في أدنى درجة من الحياة، إنه يمثل فقط تخصصا واحدا أكثر في المادية الحية، وعضوا واحدا أكثر للتحكم في البيئة.

هذا إلى أن تعقد العقل ينمو خطوة بعد أخرى في الجنين والفقريات، وفي الفرد والجنس، مع نمو تعقيد التركيب في الجهاز العصبي، ويصحب النمو من الحساسية العامة إلى المراكز العقدية إلى المخ بالتقدم من الانتحاء tropism إلى الفعل المنعكس، إلى الاستجابة عن تعلم، ولا يقضي انتزاع مخ الحيوان عليه، كما بين جلوتز على كلبه، ولكن ذلك الانتزاع يقضي على الإنسان دائما لأنه لا يستطيع أن يعيش إذا نسى كل ما تعلمه منذ الولادة، ويبدو أن هذه التجارب الفردية تختزن في ألياف الترابط الموجودة في السحاء، والتي تبين نموا كبيرا من الطفل إلى البالغ، ومن الحيوان إلى الإنسان.

ولم يجب أحد قط عن هذا السؤال وهو: كيف يمكن أن يؤثر الجسم والعقل أحدهما في الآخر إذا كانا من التميز التام كمادة لا عاقلة وعقل لا مادي؟

وفي ذلك يقول لوكريتيوس: "حين نرى الروح تحرك أطراف البدن، أو توقظ الجسم من النوم، أو تعدل المزاج، أو تهدئ المرء كله وتوجهه، وعندما نرى أن شيئا من هذه الآثار لا يتم بغير لمس، ولا يتم اللمس بغير البدن، أفليس لنا أن نسلم بأن العقل والروح من الطبيعة نفسها كالبدن؟"[١] أو فلنقفز ألفي عام لنجد الفيلسوف العابث مارك توين يقول:

"الشيخ (يتهكم): ألا يمكن للعقل ما دام روحيا أن يتأثر بالمؤثرات الطبيعية؟

الشاب: كلا

الشيخ: أيظل العقل متزنا حين يسكر الجسم؟"[٢]

وقد ينشأ الجنون عن إصابة المخ، وقد ينشأ النوم عن التعب، وقد يغيب المرء عن الوعي بالعقاقير، أو المرض، أو نقص الأكسجين، أو الدم.

ويتوقف الوعي عن الإحساسات، وكان صبي سترمبل strumpell وليس له من الحواس إلا البصر يستغرق في النوم دائما حين يغمض عينيه، وعند الإحساس بالشعور ينشأ الوعي من الصراع بين الدوافع أو الأفعال المنعكسة، فإذا انعدم الصراع يؤدي العمل أداء أفضل بدون الانتباه إليه، ولعل الوعي مرحلة انتقال مضرة، فالحيوان إذا كان كامل التكييف لحاجاته بطريق دوافعه وحواسه لا يكون واعيا، وذهب نيتشه إلى أن الوعي قد يضعف ويختفي عندما تتطور عادات الإنسان التي تستلزمها البيئة إلى أتوماتيكية ثانوية.

أما النفس فليست إلا المجموع الكلي لصفات الكائن الوراثية وتجاربه المكتسبة، فإذا تغيرت التجارب تغيرت النفس، فالرجل ينظر إلى نفسه عندما كان صبيا كأنه يتأمل شخصا خارجيا أجنبيا، وإذا أصيب أحدنا ببعض الاضطرابات ازدوجت شخصيته، وذلك إذا انفصل مركز من مراكز التجربة أو عقدة من الألياف في المخ

---

(١) الكتاب الثالث – سطر ١٦١ وما بعده

(٢) ما الإنسان؟ : ص ٩٧.

عن الباقي، واستقل المركز أو العقدة بالعمل لحسابه، فمن الواضح أن النفس وحدة مزعزعة تتكون من الوراثة والذاكرة والغاية، وهي إلى الفناء أدنى منها إلى البقاء.

والتفكير فعل بدائي؛ فالانتباه توتر، والنفور تجنب، والشهوة بحث، والانفعال حركة، والفكرة أول مراحل الاستجابة، ونحن نسمى الفكرة كذلك لأن نزوعا آخر إلى الفعل قد اعترض طريقها قبل تحققها الخارجي، والروية بديل عن استيلاء بدايات الأفعال والانفعالات والرغبات المتنافسة على البدن.

والانفعالات كما بين "كانن" Cannon شروط للدم تحدث عن إفرازات الغدد، فلن نغضب دون وجود الغدة الأدرينالية (الكظران)، ويصبح المرء أبله بلا غدة درقية، فكل فعل، وكل فكر، محدود بالرغبة، والرغبة احد شروط البدن، فالجوع فراغ في بعض الخلايا، والحب امتلاء في بعضها الآخر.

وتنشأ التصورات الشهوانية من النضج الفسيولوجي، ويرجع نصف الشعر في العالم إلى اختلال الخلايا، فالعقل في جميع وظائفه جزء من الجسم، ينمو مع نموه، ويفنى بفنائه، وليس العقل أكثر بعدا عن الطبيعة الجسمية من الهضم، والتنفس، والإفراز، فهو ليس إلا أرقى وظائف الجسد.

٧- المثالي يرد

يقول المثالي: هذا مخجل؛ فلا شيء أكثر سخرية من هذه المادية الساذجة، أيمكن أن نتصور أن المادة يجب بأي نحو من أنحاء التحويل أن تصبح قادرة على التلفت حولها لتحس وتعرف وتحكم نفسها؟ فأحط صور العقل غير مفهومة في العبارات المادية، إذ كيف تستطيع المادة مثلا أن تحس الألم؟ قد نتصور أن المادة تتذكر، أما مادة تتبصر أو تتعرف فكيف يكون ذلك؟ إذا كان العقل هو المخ فيجب أن نعثر على آفات بالمخ لكل فجوة في الذاكرة، ولكننا لا نجد شيئا من ذلك[١]. وقد أخفق سائر الجهد الذي بذل لربط العقل بالمخ، اللهم إلا إذا كان ذلك على

(١) برجسون: المادة والذاكرة، لندن ١٩١١، ص ٣١٦.

سبيل التوجيه، والأداة، والسيادة، والآلية، أتوجد هزيمة عقلية في عصرنا الحاضر أعظم من إخفاق علم النفس الفسيولوجي؟

غير أن هذه اعتبارات بسيطة: فلتتلفت حولك، ولتتأمل الفكر، حقا لقد أخبرنا وليم جيمس وهو يستبطن نفسه أنه لم يجد شعورا آخر سوى: "أنا أتنفس". ولكن ال "أنا" هي الشيء المهم هنا، لا "أتنفس". فنحن لا نرى شيئا عند الاستبطان introspection لأننا نبحث عن شيء متحيز ومادي.

إننا نجد مشقة في الإخبار عما "نرى" لأننا نسعى وراء الصور المحسوسة، بل إن "نرى" عبارة عن افتراض مادي، ولكن أحدا لم يشرع في سد الثغرة بين العلاقات المكانية التي تكون العالم الخارجي، وبين عمليات العقل اللامكانية.

فنحن نستطيع أن نفكر في مساحات كبيرة بمثل السهولة التي نفكر فيها في مساحات صغيرة، ولا يشغل تصورنا الميل من الحيز أو الجهد أكثر مما تشغله البوصة، وقد نفكر في دهور عظيمة من الزمان، أو نركز انتباهنا في لحظة من الذاكرة، ونستطيع بالإرادة أن نعظم الصور الذهنية، أو نرد بعضها إلى بعض، أو نربط بينها، بصرف النظر عن كيفية ارتباطها في التجربة، وليست الصورة الذهنية هي الفكر، فكثير من الملاحظين لا يجدون في بعض الأحيان أي صور في تفكيرهم، ومهما يكن مقدار الصور الموجودة عندنا فإنها ليست أساسية، بل أدوات نستعملها، فقبعة مثلثة، أو يد موضوعة على بطن شخص بدين، من الصور التي تفيد في نقل فكرة idea نابليون في مئات من المظاهر والمفهومات، وكلما كثر تفكيرنا في شيء قلت الصور التي نحتاج إلى استعمالها، ولا تكون الصورة مهمة إلا حين تكون إعادة لفعل من الأفعال، أي صورة منطبعة في المخ لحركة ننوي أن نفعلها، أما حيث لا يوجد أي فعل، فالفكر يجري في طريقه بأقل ما يمكن من الصور، ومن الواضح أنه يصبح عملية تتخطى كل قالب مادي أو استعارة مادية.

والشعور بوجه عام بندقة يصعب على المادي كسرها، وهو يحل المشكلة

بالاعتماد على الشجاعة أكثر من اعتماده على الصراحة؛ فيزعم أن الشعور لا وجود له، فهو على قدم المساواة عقليا وخلقيا مع المثالي المتطرف الذي ينكر إنكارا تاما حقيقة العالم الخارجي، فالفلاسفة هم دائما آخر من يكتشف الحقيقة، فقد ظلوا ثلاثمائة عام يبحثون حتى اكتشفوا أن العالم الخارجي موجود، وعندما نفخ الواقعيون والمحدثون New Realists في أبواقهم، ودقوا طبولهم، فأعلنوا أن الشيء يكاد الآن يكون يقينيا، امتلأت سماء الفلسفة بالدهشة والشك .. فأخيرا لعل ثمة عالما خارجيا؟ فلعل بعد ثلاثمائة عام يكتشف السلوكيون والماديون العالم الداخلي كما يكتشفون حقيقة الشعور وفعله، وعندئذ ينتهي علمهم آخر الأمر إلى مقدار ما يعلم رجل الشارع.

وقد سلم هكسلي في أمانة غريبة أن المادية لا يمكن أن تفسر الشعور، وأنها بمقتضى منطقها ومقدماتها مضطرة إلى القول بان الشعور "ظاهرة ثانوية" epiphenomenon، أي زيادة لا نفع فيها تضاف إلى المخ والأعصاب، كالحرارة في المصباح، أو الضوء في النار، حقا هناك أبنية structures لا نفع لها تعيش بعد التطور، ولكن لعل ذلك لأنها لم تكن مضرة، ا وانها بقية لأشياء كانت نافعة في وقتها، ومع ذلك فالمادي ممنوع من الاعتقاد بأن الشعور كان نافعا أبدا، أو حتى انه لم يكن مضرا، أو إذا كان المادي في أكبر الظن من المفكرين على استيحاء، فقد يسلم بأن الشعور بالذات يمكن أن يكون تعديلا أو ضررا. وبعد فمن منا يستطيع أن يحسن المشي وهو يفكر في رجليه؟ وكيف يغفل المادي الدليل الواضح بأن الشعور قد نما جنبا إلى جنب مع قوة الحياة ومرونتها، وأن تلك الحيوانات الموهوبة أعظم درجة من الشعور تتحكم في الخلق؟

٨- التركيب

لقد حان الوقت الذي نجمع فيه بين هذه الخيوط، وننسج أنصاف هذه الحقائق نسيجا واحدا، وقد اقترح ليبنز أن ينقذ السفينة الغارقة بنظرية "التناسق الأزلي preestablished harmony": فالعقل والجسم يتوازيان، ولكنهما مستقلان، فيجري أحدهما إلى جانب صاحبه رأسا برأس ولكن دون أن يتماسا أبدا أو أن يؤثر أحدهما في الآخر، أما وفاقهما الظاهر في كل لحظة فليس إلا دليلا من جملة الأدلة على العناية الإلهية،

والمزية الوحيدة لهذه النظرية أنها ليست في حماقة غيرها من النظريات، وليس مجال الاختيار بينها وبين أحدث الأزياء الفلسفية وهي "المادة المحايدة" كبيرا، فعلم الطبيعة في نظر "الواحديين المحايدين" الذين يعد برتراند رسل أقلهم إقناعا، قد رد المادة إلى نظام من العلاقات والأحداث، والإدراك هو العبور الزائل لهذه العوامل المتقاربة، فهذا أيضا لا بد أن يكون توفيقا إلهيا للمتناقضات القديمة، ومن هذا البحر من "المادة المحايدة" — هذا النسيج الغشائي من العلاقات والأحداث — ينشأ كلا المادة والعقل، لقد انكمشت الأنفس والأبدان إلى مثل هذا الغشاء الرقيق.

أما نحن فسنستمر في الاعتقاد بأن "الأحداث" التي تكون معرفتنا بالعالم الخارجي تكشف عن حقيقة ملموسة ومؤثرة جديرة كل الجدارة بأن تسمي مادة، ومستقلة مع الأسف عن رغباتنا ومشاعرنا، ولما كانت المادة غير خامدة بل حية، فإن مشكلة المادة والعقل تنتهي إلى مغالطة تقوم على فساد المقدمات، ولا ريب في أنه من الصعب أن تتطور المادة الخامدة التي يقول بها الماديون إلى العقل، ولكن الشخص الذي يتتبع مغامرات علم الطبيعة الحديث لن يكون على يقين من أن المادة الديناميكية التي يقول بها العلم هذه الأيام ليست حيوية وغامضة مثل حيوية العقل نفسه وغموضه، وليس من العجيب أن يكون العقل قد تطور عن مثل هذه المادة، ولكن ليس موضع السؤال أن يكون أحدهما قد تطور عن صاحبه، بل المشكلة حين توضع من جديد هي ما يأتي: أيمكن أن تنمو أدنى صور العقلمادة mind- mater[1] إلى أرقى الصور؟

ذلك أن العقل ليس المادة ولا المادة هي العقل، بل ثم عقلمادة. وليس العقل شيئا متميزا يقوم في داخل المادة، كما أن الحياة ليست شيئا يسكن في البدن كالرجل في البيت، "العقل" اسم مجرد، وهو اسم جمع نطلقه على عمليات المادة الحية حين تفكر، كما أن البصر اسم نطلقه على عمليات المادة حين تبصر، أو كما نطلق اسم الحب على عمليات المادة حين نحس بالجوع إلى الامتلاك أو الصلة الجنسية، فهناك

(١) العقلمادة مركب مزجي من اصطلاحي العقل والمادة معا (المترجم)

"تدخل بين العقل والجسم" لا على معنى وجود شيئين متميزين أحدهما في الآخر، بل فقط على معنى أن شيئا واحدا هو عضو من أعضاء الجسم ووظيفة له (الأعصاب – الفكر) يؤثر في أعضاء الجسم ووظائفه ويتأثر بها (الرئتان – التنفس، المعدة – الهضم، الأطراف – النقلة، الغدد التناسلية – التناسل، الغدد – الإفراز). فجزء من المادة الحية الأرقى تطورا يتكامل بوساطة "فعل الجهاز العصبي الموحد" مع بقية الكائن ويهديه السلوك، إن أرقى صور "العقل" قريبة في طبيعتها ومتصلة في نموها بأدنى صور الحياة والحيوية الأولية للذرة، بل إن الشعور، مع أننا لا نستطيع تفسيره (أن نرسم له رسما بيانيا ماديا وميكانيكيا) يقع بشكل مفهوم داخل خطة التطور، لأننا لا نستمده من مادة الماديين الخامدة الهامة، بل من تلك الطاقة الغريرة وهي مادة الحياة.

فإذا كنا نتحدث عن الفكر كأحد وظائف الجسم، فليكن مفهوما أن هذا الجسم لا نتصوره على أنه "مادة" بل على أنه حياة، والحيوية حتى في أبسط الخلايا مركزية، والهيئة المادية ليست إلا قشرة، مع استعمال الاستعارة الخادعة مرة أخرى، وليست الحياة وظيفة للهيئة، بل الهيئة أو الصورة Form من نتاج الحياة، وثل المادة وصلابتها نتيجتان للطاقة الذرية الباطنة وتعبيران عنها[1]، وكل عضلة أو عصب في الجسم آلة مشكلة للرغبة، ومن الخطأ افتراض أن الحياة والعقل يبدآن من الإحساسات التي تبني نفسها آليا إلى فكر، فالأمر على العكس من ذلك، إذ أن الرغبة أو الطاقة المتشكلة هي جوهر الكائنات العضوية بالذات، فالرغبة فيما عدا الاستدلال الخارجي هي التي تحدد الغرض والميول والحركة، وتختار من أجل ذلك الإحساس والتجربة، وليست التجربة هي "المطلق" كما ظن برادلي، لأنها آلة مخلوقة للرغبة، وإذا وجب أن يكون لنا "مطلق" فهو الطاقة التي ترتفع من حيوية الذرة غير الموحدة إلى النشاط الموحد الخاص بالعقل الناضج الذي يجعل أغراضه غرضا واحدا، ويبصر جميع الأشياء في ضوء الكل، إنها طاقة المادة الحية التي خصصت الأعضاء والأعصاب والأمخاخ وشكلتها، فإذا كنا نستطيع التفكير اليوم فذلك لأن لنا أمخاخا؛ ولكن الحياة – وهي

(١) ليبون: تطور المادة، ص ١٠، ٣٠٩.

تحاول التفكير في قديم الزمان — كما خلقت المخ، فلا يزال المخ ينمو حتى اليوم عن طريق محاولة الفكر الراغب وخطئه، فالحياة هي أول كل شيء، وفي كل شيء، والمادة القديمة قدم الحياة في الزمان، والتي لا تنفك عنها في المكان، تأتي في المحل الثاني بعد الحياة في الجوهر والمنطق والمفهوم، فالمادة هي صور الحياة وما به يمكن رؤيتها.

فهذا هو المذهب الحيوي vitalism، ولكنه مذهب واحدي monistic يسلم بالحياة على أنها الحقيقة الأساسية، والمادة (أي الامتداد) هي رداؤها الخارجي، ولكن المذهب لا يسلم مع برجسون بأن المادة والحياة قد ينفصلان، فالأثنان في كل مكان شيء واحد، ولن نسمح لأحد أن يتهمنا بالغموض في هذا الموضع؛ فلم تعد وحدة المادة والعقل الموجودة في كل مكان شيئا أغمض أو أعسر فهما من الاتحاد بين الفكر المقصود والجسد غير المستقر في الإنسان الحي.

وكيف يكون ثمة غموض في التسليم بأن الحياة أساسية، حين تكون معرفتنا لها أكثر مباشرة وأوثق صلة من أي شيء آخر، وتكون معرفتنا لسائر الأشياء الأخرى بوساطة هذه الحياة؟

ولقد كانت الميكانيكية المادية هجوما على الدين، والمثالية الذاتية حملة على الإلحاد، فإذا لم نرهب أفكارنا أو عصرنا فقد نرفض المذهبين معا، ومع ذلك ففي هذه الواحدية النفسطبعية psycho- physical monism لم ترفض مذاهب المادية، والمثالية، والروحية، إذ تتلقى وتتداخل، فالمادية من جهة أنها ترى جميع الحقائق مرتبطة في حقيقة واحدة من التطور والوحدة المتصلين بغير انقطاع؛ والمثالية من حيث أنها ترجع جميع حقائق المعرفة للتجربة، والروحية من جهة أنها ترى جوهر الحقيقة لا في الامتداد والصلابة والثقل بل في القوة الدافعة إلى الفعل، وهي في وقت واحد حياة الذرة وسر العبقرية والطاقة المولدة لها — "وهي حركة وروح تدفعان جميع الأشياء المفكرة، وموضوعات جميع الأفكار، وتنفذان إلى باطن كل شيء". وقد أثبت العلم صحة هذا الخيال الشعري.

لقد حاولنا نظرة تركيبية تسعى إلى حد ما أن تلم بأطراف المنظر الكلي للعالم وما فيه من تعقيد شديد، ولا ريب في أننا قد أخفقنا في هذه المحاولة، اللهم إلا أن نكون قد جعلنا ما ندركه ونشعر به أكثر غموضا، ومرة أخرى كيف للقطرة أن تفهم البحر؟

لا العقل يقنع ولا العظات تفيد

رطوبة الليل تسري إلى أعماق نفسي

وأقلب اليوم نظري في الفلسفات والأديان

إنها قد ترضيني كل الرضا في قاعة الدرس

ولكنها لا تصلح أبدا في رحاب السحاب

وفي بساط الأرض والمياه المتدفقة

وليس ذلك إلا لأن المياه المتدفقة والأرض الواسعة، بل السحب الشاسعة، تتزاحم في خضم الحياة.

الفصل الرابع

هل الإنسان آلة؟

١- استعراض

ننتقل الآن من العالم الخارجي إلى الداخلي، لا لنبحث في طبيعة العقل، بل في كيفية عمله، وليس لنا أن نفصل بين العالمين، فقد رأينا أنهما منفصلان في الفكر فقط، أما في الواقع فهما وحدة في المكان والزمان معا: فكل ذرة لها نواة حية، ولكل عقل صورة مادية، ويرتبط أرقى عقل في تطوره المتصل بأدنى ذرة، ويجب أن تكون قوانين أحدهما هي قوانين الآخر، فإذا كانت الذرة آلية mechanical، فالإنسان آلة.

ومذهب الحتمية أقدم الفلسفات، كما أن مذهب الأنيمزم Animism أقدم الأديان، فالإيمان الساذج يرى في كل شيء إرادة غريبة؛ وكان أول رد فعل من أصحاب النظر العقلي على هذا الاعتقاد الظاهر هو التسليم بعجز الفرد أمام القانون في كل مكان، فقد يبلغ الدين والفلسفة هدفا واحدا من هاتين البدايتين المختلفتين؛ إذ يمكن أن تجرد الإرادة الكلية من أهوائها وتصبح شيئا واحدا مع نظام العالم الثابت، ففي الشرق القديم، حيث كثر التناسل حتى فاق ما يتناسب مع ما تجود به الأرض، وانكسرت نفسه بالعمل الشاق وضاقت بزحمة السكان المتزايدة، فقد أخذ الاعتقاد البدائي في الإرادة يتجه نحو الزوال من الدين كما أخذ في الزوال من الفلسفة، وأصبح الناس يتصورون السعادة على أنها خمود الرغبة، ونعمة الشخصية المستسلمة، واصطنع الكاهن والحكيم مذهب القضاء والقدر، ولم يكن من الممكن أن يحصل الفرد على قيمة أساسية أو أهمية في تلك المراجل من الإنسانية التي كانت تغلي بمن فيها، وكان الفرد يرى نفسه وهو معتمد على هذا الماضي المفجع

اللانهائي ذرة تافهة قد ألقيت في هذا الخضم، غير مسئولة عن شيء، تكافح عبثا بعض الوقت، ثم تبتلع في الظلام ولا حيلة لها في دفع هذا الغائل كأنه أمام عدو مجنون، وقد تبين الخيام تلك الحال فنظمها في أبيات حفظها عن ظهر قلب كل شاب ثائر.

أما في الحضارات الفعالة والمتقدمة – حيث تسيطر شعلة الفكر الغامضة، التي تخترق وتبرق في وجه القدر، بعض السيطرة العابرة على البيئة، وتترك المعابد الطاهرة للألوهية وللنظم الفلسفية المختالة – فإن الفرد يجد أمامه سببا أفضل للإيمان بشخصيته الخالقة، فهو يحس في نفسه بشرارة من التلقائية، ويصوغ على مثاله حتى آلهة أوليمب، ثم رأى الإغريق الكون ينمو ويتطور فقالوا بوجود الآلهة في كل مكان، وظهور الائتلاف بين الأضداد، وظن أفلاطون وأرسطو أن العالم كله يتحرك نحو غاية كاملة وكأنه منجذب بما تراه عين العاشق، ومع ذلك فلم تكن تلك الحضارة الخصبة إلا فترة سعيدة نشأت عن ازدياد الثروة والنصر في الحرب، ولم يعد يبدو أن الناس أشبه بالخالدين حين حطمت إسبرطة أثينا بعد عصر بركليس، وحين هدم الإسكندر مدينة طيبة، وانتهت الفلسفة مع زينون الرواقي إلى النتيجة التي أعلنها سوفوكليس عدة أجيال من قبل من أن القضاء الأعمى Moira صاحب السلطان على الآلهة والبشر.

والحضارات الكليلة كالنفوس الهرمة تعظم في أحضان مذهب الحتمية، فهي حين تعجز عن التغلب على قوى الموت تعظم كلاها وتسميه قضاء، وترفع من شأن هزيمتها وتسميها قدرا، ونمت المسيحية في سواد هذا اليأس كأنها زهرة بسيطة من الأمل في عالم متفكك الأوصال، وفي قلب الدين الجديد يستقر دائما التشاؤم الذي خرج منه ذلك الدين، (ولم يكن الدين الجديد مثقلا بالطقوس الوثنية والمباهج) فالجانب الآخر من الإيمان بالآخرة يقابله الارتياب والخوف من الحياة. وبلغ هذا الشك القاتم في الإيمان مداه في مذهب كالفين Calvin الحزين عن العناية الأزلية: فقد قر الله كل شيء وكذلك مصير كل إنسان، وكتبت على كل نفس سعادتها أو شقاوتها قبل مولدها، ولن يجرؤ المستقبل على الخروج عما سبق في علم الله الأزلي، وانتهت المسيحية بعض الوقت إلى عقائد أقسى وأمر من الحظوظ الأرضية، تلك

المسيحية التي جاءت تسعى إلى راحة المحروم، وعزاء المظلوم.

وأخذ المفكرون في العصر الحديث يعظمون هذا اللاهوت القاسي بعصمة العلم الجديدة، فذهب جاليليو، وقد افتتن بما كشفه في النجوم من نظام دائب صابر، إلى أن هذا النظام هدف كل علم، ويجب أن يرد العلم ميدان معارفه إلى القوانين الرياضية والكمية، وسحرت شهرة نيوتن العالية، وكمال عمله المؤقت في الميكانيكا، كل طالب، وبحث علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس عن التفسيرات الميكانيكية والقوانين الرياضية لتعليل نمو الخلية واضطرابات الرغبة وعندئذ أصبحت الفلسفة مفتونة بالرياضة؛ فذهب ديكارت في غموض مشوب بالحذر إلى أن العالم كله آلة، أي هندسة في حركة، وطابق نيوتن بين نظام الكون الدقيق وبين التركيب الأوقليدي لفكره، وابتهج ثوار عصر النور حين علموا أن الإنسان ليس مخلوقا على صورة الإله ومثاله، بل الأولى أن يكون ذلك على نسق الآلات التي أخذت في عصرهم تحل محل عمل الإنسان وإراداته.

أما الثورة الصناعية فهي التي قوضت أركان فلسفة الحرية؛ لأنها أولا عودت العقل العمل بالآلة، ثم بعثته على التفكير أكثر فأكثر في العلل على أنها ميكانيكية، وأما العامل المحصن داخل جدران المصنع، حيث يرى جميع الحياة الخفاقة من حوله تسير على بكر وتدور على عجل، فقد نسى الحياة الزراعية القديمة التي بدت فيها الحياة مسألة بذور تنبت بأعجوبة من الأرض التي تستجيب في نشاط لكل فلاحة، وتفيض بخصوبة تلقائية، وأما العالم الذي كان ذات يوم ميدانا لنمو النبات، والأطفال ذوي الإرادة، والأمهات المغرمات، والرجال الطامحين، فقد أصبح كل أولئك في نظر العقل الحديث نظاما شاسعا من الميكانيكيات ابتداء من الكواكب التي تدور دورانا ميكانيكيا حول الشمس، إلى الحياة الميكروسكوبية التي تتجمع ميكانيكيا حول شعاع من الضوء، كان العلم على يقين من أنه قد دخل آخر الأمر خلف ستار الدراما الكونية، فتعجب من هذه الآلية غير المنتظرة التي خلقت الأوهام، وبدلت آلافا من المناظر، واستنتج العلم في إعجاب متواضع أن الإنسان الممثل هو صاحب الرواية، وأن الأسلاك هي الرواية.

ولكن مرة أخرى الثورة الصناعية هي التي خلقت المدن، وخلقت المدن الجماهير، وحطمت الجماهير الناس، ومرة أخرى ظهرت في المدينة الجديدة تلك الشروط التي مزقت في الشرق شخصية الفرد وقيمته، فأفضت إلى فلسفة مماثلة من الجبرية واليأس، وأصبح المرء في هذا الحشد المضطرب من السكان رقما أو "يدا"، فالعقل أداة للقياس والحساب، والإنسان جزء من الآلات التي يديرها، وأصبحت الديمقراطية ذاتها التي استهدفت تحرير الفرد آلة، وسلسلة من "الآلات machines" التي تقود الجماهير غير العاقلة آليا إلى صناديق الانتخابات، وكان من العبث أن يحتج الفرد على هذا النظام من الأسلاك والدوافع والمحركات، كما كن من العبث أن يعتز بنفسه في وجه الجماهير الساحقة والمعايش المحطمة في الشرق القديم، بل أصبح "القادة" أجزاء نصف حية من البدعة الجديدة يبلغون من البلادة وفقدان الإرادة مبلغ القطعان الضالة التي تدرج رؤوسها (أولا تدرج) في جداول الانتخاب.

فإذا كان العبيد قد ثاروا في وجه هذه الميكانيكية فذلك عن فلسفة تعترف بامتياز وقداستها، ولم تترد الاشتراكية socialism في ربط نفسها بعجلة الحتمية determinism والعلم الميكانيكي، فكانت تغذي جنودها على مائدة بوخنر وهيكل وسبنسر وماركس، ولم يكن العالم وحده آلة، بل التاريخ آلة لا تتم فيه أي حركة إلا بثمن الخبز، ويستطيع الاقتصادي البارع إذا كان على معرفة كافية بالحاضر والماضي أن يتنبأ بيقين محتوم بكل وجهة أو مصير في المستقبل، فالإنسان هو الآن مخلوق مركب من الوراثة والبيئة، وأي شيء يعمله فهو ثمرة العلل الموروثة أو الطبيعة، والتي لا سلطان له عليها، فالإنسان إن هو إلا آلة متحركة بذاتها عجيبة ذات حياة ظاهرية، ويترتب على ذلك أنه "غير مذنب". فإذا ارتكب جريمة فاللوم يقوع على المجتمع؛ وإذا كان مجنونا فتلك غلطة الآلة التي سمحت عجلاتها بتوليده، ولا ينبغي أن يحرم لهذا السبب من حقه في الانتخاب أو أن يكون رئيسا للدولة، كل ما كان العالم في حاجة إليه هو آلة أكبر وأفضل، آلة مؤممة nationalized، إلى مائة مليون آلة تديرها آلة واحدة منفذة حين يضغط الرئيس على أحد الأزرار ضغطا ميكانيكيا.

وقد كان من الممكن أن يسمح القادة في العصر الأرستقراطي للجماهير المضطهدة باحتكار هذه الفلسفة المحذرة، أما في عصر الديمقراطية فقد أحس أعظم المفكرين بأنفسهم مندوبين للمشاركة الوطنية في فلسفة الجمهور، وأصبح الشك في الآلة الموجودة في كل شيء والقادرة على كل شيء بدعة قديمة تليق بعصر ما قبل الطوفان، وأسرع المفكرون فأعلنوا أنهم أنفسهم آلات وضعت فيها الأفكار متصلة بالزمان، منذ ملايين الملايين من السنين من قبل، واعترف تين Taine بالإله الجديد، وابتكر نظرية نقدية في تمجيده، وكتب زولا تمثيليات كثيرة يبين فيها أن المرء يجب أن يدفع ثمن أجداده، وعرض توماس هاردي الإنسان في هيئة العاجز بين مخالب الظروف، ورثى أناتول فرانس في عبارات رشيقة نقية عبودية النفس، وعبث الحياة، ورأى دانتزيو في كل مكان انتصار الموت وسخريته.

لعل نزول الشخصية عن عرشها أحد أسباب هذا الحزن الغامض الذي يختفي وراء بريق الفكر الحديث وبراعته، لهذا لن يجد من يقرأ كتاب "ما الإنسان" تشاؤم مارك توين غامضا أو غريبا، ذلك أن هذا الكاتب الساخر البائس كان من غلاة مذهب الحتمية، وكان يعتقد أن سائر نكاته (قفشاته) المرحة مفروضة من قبل في التركيب الغازي للسدم الأولية (أي جرائم لم يسأل عنها هذا الغاز المسكين؟) ولم ير في حيوية توم سوير Tom Sawyer النابضة سوى فوران مركب كربوني، حقا إن اليسير من الفلسفة عظيم الخطورة، إذ تميل بعقل الإنسان نحو التشاؤم، ويقال إن الآلة المرحة التي خلقت هكلبري فن Huckleberry Finn واجهت بعض الصعوبات مع زوجته، ولكن كيف يمكن أن تشارك المرأة في سلام في مخدعها وطعامها مع آلة ثائرة تنظر إليها على أنها مجموعة من العجلات دارت في طفولة الزمان، وتبطل الآن عن الدوران مصدرة أصواتا صاخبة لا لزوم لها وسطحية، حتى تنتهي إلى عجز وصمت أبدين؟

ولا ريب في أن فقدان إيمان طفولتنا قد أحزننا؛ كما أن الحرمان المزدوج لكل بالغ فقدت نفسه مثل طفولتها اللاهوتية ثم بعد ذلك مثل شبابها الاجتماعية، مما يترك قلب الشاب مثقلا بعض الشيء بعبء هذا العالم غير المفهوم، وقد يرجع بعض

الصوت الخافت الكئيب الذي يجري تحت مرحنا الظاهر إلى الاندفاع التافه لفكرنا، فلم يكن مطلوبا منا أن نهجر اللاهوت الذي كان يحتقر الأساس الطبيعي للوجود، إلى فلسفة تتجاهل ما في الحياة من قوة خالقة وما في العقل من ابتكار، ولم يكن مطلوبا منا وقد هجرنا زعمنا الصبياني من أننا قلب التاريخ الكلي وذروته أن نحقر أنفسنا إزاء الآلات في المصانع، ونتقبلها كأنها المثل الأفلاطونية التي صاغت التغيرات الذاتية نفوسنا على مثال نماذجها السامية.

وليس علينا أن نترك نصيبنا في حيوية العالم، أو في الامتداد غير المستقر للحياة، أو في البناء المستمر للفكر، ولكن هزيمتنا في جناح من جبهة القتال أدت إلى هربنا من الميدان كله مع التسليم التام.

أكان من الضروري أن نسلم مثل هذا التسليم الكامل؟ وهل يشبه السلوك الإنساني عملية تفتت التلال، أو هبوب الرياح، أو مد البحر وجزره؟ وهل قلق الأمومة الذي لا يهدأ، أو شهوة الشباب الجارفة، أو تقدير الحب الهادئ، ليست إلا توزيعا ميكانيكيا توزيعا جديدا للعناصر الكيميائية والقوى الطبيعية؟ أيكون تشبث الحياة مع سعة الحيلة مجرد مظهر، والسعي نحو الكمال ليس إلا إلزاما أعمى، وقدرة الفكر وهما، وحقيقة الإرادة حلما؟

هل الإنسان آلة؟

٢- الميكانيكية

ولنبحث في أمر النقلة، ولنأخذ آلة بسيطة ولنكن لعبة هي سيارة تجري عندما نملأ زنبركها، ونطلقه، ونربط في مقدمتها قطعة مربعة من المطاط تكون حاجزا حساسا، ثم نضع اللعبة على أرض غرفة ملساء بحيث تواجه مباشرة حائطا قريبا، ثم نملأ الزنبرك ونطلقه، ولنفرض أن تخطيط الحائط والأرضية واللعبة من الكمال كما نفترض في النظرية الرياضية والميكانيكية، سترتد السيارة مقيدة بهذه الشروط من الحائط في نفس الطريق الذي جاءت منه، ثم تعود إلى الحائط في نفس الخط مرة

أخرى، وتظل تكرر هذا العمل نظريا ودائما في خط مستقيم عمودي على الحائط، حتى تستنفد طاقتها الصناعية تماما، إنها تسلك سلوكا ميكانيكيا.

والآن املأ إناء مستطيلا من الزجاج بالماء، ضع في الوسط حاجزا شفافا من الزجاج أقصر من عرض الإناء، بحيث يترك مسافة ضيقة من الجانبين.

ضع في أحد جانبي الإناء قطعة من الطعام، وضع في الجانب الآخر كائنا حيا دنيئا، أبسط ما يمكن ، وليكن الشق الطولي paramecium، راقب الكائن تحت الميكروسكوب، غنه يتجه مباشرة نحو الطعام؛ ثم يصطدم بالحاجز الزجاجي، فيتراجع في خط مستقيم، من الظاهر أنه آلة، ولكن فجأة ينحرف الكائن متجها حوله، ثم يشرع في السير مرة أخرى بزاوية، فيصطدم بالحاجز مرة أخرى، ثم يتراجع، وينحرف ويصطدم مرة أخرى .. ويتراجع، وينحرف، ثم يمر من خلال الفتحة إلى الطعام، ولا يوجد شيء في تركيب أي آلة، أو شيء في مبادئ علم الميكانيكا، يفسر هذا الاتجاه الحكيم، هذا المظهر من "الغرض" الموجه في أدنى الحيوانات المعروفة للإنسان.

أو تأمل سلوك حيوان ميكرسكوبي مشابه له هو ستنتر رازيلي Stentor raselii وهو نقاعة[1] في هيئة البوق يتصل بالنباتات أو الأعشاب في المستنقعات.

دع تيارا رفيعا من الماء يسقط على محيط الفم أو القرص عند فم الكائن، وإذا به يتقلص في الحال ويتجعد على ساقه، وبعد دقيقة ينبسط إلى حجمه الطبيعي، ويصبح في الظاهر كما كان، والآن دع تيار الماء يضربه ثانيا كالمرة السابقة بالضبط، ولكن حيوان ستنتور لا يحفل به، حرك الشيء الذي تتعلق به حركة بسيطة، وإذا به يتقلص مرة أخرى إلى أنبوبته، أعد المؤثر نفسه بعد دقيقة، فلا تجد أي استجابة، فلماذا هذا التكيف السريع الاكتساب؟ أيرجع إلى التعب – إلى الإنهاك من عنف الاستجابة الأولى؟ كلا، إذ في الوقت الذي يظل فيه الاستنتور غير حافل بتيار الماء

(١) النقاعة هي الانفيوسوريا، قسم من البروتوزوا ذوات الأهداب، وسميت كذلك لأنها تتكاثر في نقوعات المواد العضوية، (المترجم – عن قاموس شرف).

المتساقط على قرصه، نجد أنه يرتد بشدة عن المؤثرات الضارة، أما إذا تكرر المؤثر "غير الضار" عدة مرات، فإن الكائن يكيف نفسه تكييفا فلسفيا مع البيئة الجديدة، ويتراجع تماما عما لا حيلة له فيه[1]. فليشحذ العالم الميكانيكي ذهنه لتفسير هذه الردود الانتخابية والمتكيفة التي نجدها في أدنى صنف من المملكة الحيوانية، سيربح نفسه مجادلا، ويؤكد لنا كأي ملحد قائلا: "سنجد ذات يوم، بطريقة ما، تفسيرا ميكانيكيا لهذه الأمور". لقد كان أناتول فرانس يقول: ليس العلماء محبين للاستطلاع les savants ne sont pas curieux : لقد فقد العلماء فن الشك.

أو فلنبحث في الهضم، بعض النباتات الحساسة مثل الدوينية أو ورد الشمس drosera يطبق على الغذاء الموضوع على سطحه ويتصه، أما إذا وضعت على سطحه مواد غير صالحة للغذاء فلا يستجيب هذا النبات أبدا.

وتنفى الأميبا بطبيعتها ما لا يصلح لتغذيتها، والحيوان الميكرسكوبي الذي يشبه التم swan – animalcule المسمى ديلبتوس أنسر dilepyus anser، يبرز عنقا مملوء أكياسا شعيرية trichocysts (خيوط ملفوفة لاسعة)، لا يلقيها إلا على الغذاء الملائم، ونجد أن خلايا أمعاء الإنسان انتقائية في فعلها، فكل نوع من الخلايا يؤثر في أطعمة معينة ولا يؤثر في غيرها، وكل خلية في بدن الإنسان تنتقي من مجرى الدم ما تحتاج إليه من المواد الخاصة بنوعها specific وتتجاهل غير ذلك، وتصب في الدم نفاية ما تنتجه من تغيرات كيميائية، إنها تفتت المواد التي تنتقيها إلى أجزاء، ثم تعيد تركيب عناصرها إلى مركبات تحتاج إليها في بقائها ونشاطها، إنها تتنفس، وتأكل ، وتفرز، وتنمو، وتتكاثر، وتموت، كما لو كانت كائنا حيا له فرديته الخاصة، وفي ذلك يقول ليبون: "إن ما تحققه هذه الخلايا في كل لحظة من حياتنا يسمو سموا بعيدا على كل ما يستطيع العلم المتقدم أن يحققه، وإن الطالب القادر أن يحل بعقله المسائل التي تحلها كل لحظة خلايا أدنى المخلوقات لهو أسمى بكثير عن غيره من البشر حتى

(1)**Jennings, H. S. Behavior of the Lower Organisms. Pp. 170 - 3**

لقد يعدونه بالنسبة إليهم إلها"[1].

ولنتأمل النمو؛ كيف يمكن أن تنمو الآلة؟ ولماذا تعني بالنمو؟ أوجدت قط آلة تبلغ من العجب أن تشبه امتداد الحياة المدهش؟ انظر إلى زنابق الوادي؛ أي قوة ساحرة تجذبها من سجنها في الأرض، وترفعها ببطء وصبر نحو الشمس؟ أو تأمل العصافير تطير في الهواء، فلا تجد فيها تروسا ولا بكرا ولا عجلات. ومع ذلك فنحن كما قال الشاعر:

إننـــــا نحتقـــــر ونـــــبغض — ونفخـــــر كـــــذلك ونرهـــــب

ولـــــو كنـــــا جنســـــا خلـــــق — لا للبكـــــــاء والنصـــــــب

كيـــــف يمكـــــن لســـــت أدري — مـــــــن ســـــــرورك نقـــــترب

هذا طفل، فلماذا يجوع ويتعطش للغذاء، ويمد أصابعه الرقيقة ليمتلك العالم ؟ انظر إلى الطفل ينمو: إنه لا يحتاج إلا لغذاء واحد يصنع به خديه السمينين، وشعره الغزير، وعينيه الضاحكتين، تأمل الطفل يقف وحده لأول مرة، في خوف وشجاعة، منتصب القامة في كرامة، لماذا يشتاق هكذا إلى الوقوف والمشي؟ لماذا يضطرب بالفضول المستمر، والطموح الشره الخطر، يلمس ويذوق، يتأمل ويسمع، يعبث بيديه ويجرب، يلاحظ ويفكر، "ينمو" إلى أن يبحث في الأرض، ويقيس أبعاد النجوم؟ وما أغمض هذا التغير في الهيئة الذي يحدث مع المراهقة، ذلك التغير الذي ينقل الصبي إلى رجل هادئ عريض، ويصوغ الفتاة إلى قطعة حية من الجمال أبهى من أي أثر فني؟

انظر إلى تجدد النمو، اقطع غضروفا من جناح نجمة البحر، تجد أن الغضروف ينمو ثانية، اقطع جميع الغضاريف تجد أن المركز يولدها ثانية، اقطع المركز كله تجد أن الغضاريف تعيده نموه، إن الآلة إذا تعطلت فلا تصلح أجزاءها بنفسها، إنها تقف لا

(1) Le Bon, The Evolution of Force, p. 363.

حراك بها ولا حس، في انتظار لمسة من يد حية تعيد إلى أجزائها نظامها في تأدية مهمتها، وليست هذه الظواهر الكبرى التي وصفها برجسون أعظم دلالة، فأبسط شفاء لأتفه جرح أمر غير ميكانيكي، ويكفي في الدلالة على العجب، ما هذا الفن الذي تنمو به الخلايا الجديدة فوق اللحم المصاب كما لو كان ثمة عقل خلوي يهدي إلى هذا العمل المفيد، نعم نحن نقدم معونة ميكانيكية أو كيميائية إلى هذه العمليات الحيوية، ولكننا نعلم أن لها نفس الصلة بالقوة الطبيعية على الشفاء، كالرخام أو الطين في يد الفنان، ونحن نعلم أن طاقة الحياة ودفعتها ستحملنا، بطريقة لن توضحها الميكانيكية أبدا، خلال آلاف من المعارك وآلاف من الإصابات حتى تستنفد هذه الحيوية المرنة، وتلتمس لنفسها صورة تعيد إليها الشباب.

تأمل الشعور، ما هذه الملكة الغامضة التي ندرك بها أننا نشعر بما نعمل، أو ما عملنا، أو ما ننوي عمله، وندرك بها الصراع بين أفكارنا ورغباتنا، ناقدين بعضها ببعضها، وبها نتصور أنواع الردود الممكنة ونتوقع بوساطة الذاكرة النتائج الممكنة؛ وأخيرا نواجه بها الموقف فنحلله في صبر معتمدين على كل ما فينا من أفكار ورغبات فننسق بينها ونعيد صياغتها في رد فعل خالق؟ وقد نقضت تجارب كوهلر، التي بينت عمل الاستبصار insight الكلي في التعلم ضد الفعل المنعكس الشرطي، التصور الميكانيكي للعمليات العقلية(١).

ما هذا الكذب الغبي الذي أصابنا ففرض علينا أننا اليوم إذا شئنا مسايرة الجمهور فيجب أن ننكر وجود الشعور حتى نظفر بفلسفة ميكانيكية لا يمكن في أكبر الظن أن تفسره؟

إننا نبدأ من الأشياء التي لا نعرفها إلا خارجيا فقط، في هيئتها الخارجية والسطحية (كالمادة التي هي في علم الطبيعة الحديث الهيئة الظاهرة للطاقة)، ثم من الطبيعي أن نجد انفسنا في حيرة كيف ننتقل من هذه الميكانيكيات الظاهرة إلى ذلك

---

(١) انظر كتاب دين مارتن البديع عن "معنى التربية الحرة"، ص ٣٦ – ٣٩.

الشعور الباطن وهو اكثر الحقائق الواقعة مباشرة ووضوحا في معرفتنا كلها، ولكن السلوكي behaviorist لا يتردد في التضحية بالوقائع الواضحة في سبيل نظرية مشكوك فيها، فهو يعلن في شجاعة أن هذه العقبة المزعجة من الشعور التي تعجز الميكانيكية عن تفسيرها من النوافل وليس لها وجود حقيقي.

إنه يتلقى عقائده مثل رجال الدين الطيبين من الخارج (مثلا من رجال الطبيعة الأموات)، ويعني باستبعاد الوقائع التي تضايق تعميمه، حقا السلوكي عالم نفساني ممتاز، ولكنه ليس إلا فيلسوفا ضعيفا، ولو أنه في بساطته المتسامية يعتقد أيضا ألا قيمة للفلسفة، وأنها ستموت بعد جيل (واحد). أما أن هذا اللاهوت المقلوب آخذ في كسب الأنصار بالسرعة التي كسب بها مقابلة ومكملة العلم المسيحي فهذا دليل على شعبية الفكر المعاصر وسطحيته، أي مأزق نوجهه الآن حين ينكر بعضنا المادة، وينكر بعضنا الآخر الشعور، ونستطيع أن نتصور الإنسانية الحزينة التي قد ترتسم على وجه جيته أو فولتير عند رؤية هذا الجنون الفكري في عصرنا.

وتأمل آخر الأمر التناسل، فهذه بويضة صغيرة جدا لا ترى بالعين، وهذه نطفة لا تستقر وتتحرك من حولها في عوالم لم تتحقق، وكل من هاتين الخليتين المكروسكوبتين غنيتان غنى عظيما بالصفات الموروثة التي تحمل ذكرى آلاف من الأجيال، وتحمل كل منهما في داخلها صفات فريدة ودقيقة عن الجسم والعقل، ودوافع وميولا واستعدادات، وجوعا وشوقا وحبا، ولعل في بلازمتهما[١] plasm تستقر من قبل شهوة العبقرية وصبرها، حسنا، فلتتحد النطفة بالبويضة، وإذا بتلك الإمكانيات تصبح فجأة حقائق، وتظهر معجزة حياة جديدة، وتنقسم الخلية المخصبة بنوع من الضرورة الباطنة وقد نفذت بدم المشيمة إلى خليتين، ثم أربع، ثم ثمان، إلى مئات الملايين من الخلايا التي يبدو أنها تنمو في وحدة كلما تكاثر عددها، ويتكون القلب ويبدأ في النبض؛ ويتكون المخ ويأخذ في الحس، وتبرز اليدان والرجلان وتتحرك في الرحم.

---

(١) البلازم هو السائل الدموي، أو صورة الدم، أو المادة الأولى الحية. (المترجم – عن قاموس شرف)

ثم تخرج الأعجوبة الصغيرة إلى العالم فتصطدم بالهواء والبرودة والصوت والضوء، وتتفتح العينان والشفتان والأذنان، وتهتز بالإحساس، لقد نفذت الحياة من خلال الموت مرة أخرى، وأخذت تتدفق بغزارة في هيئتها الجديدة، مرحة وقوية وشابة من جديد.

أهذا شيء ميكانيكي؟ لقد اكتشف جاك لوب Jacques Loeb أنه يستطيع تخصيب بويضة قنفد الماء[1] بمحلول من الملح أو بوخزة دبوس، فسارع إلى استنتاج أنه أثبت الطبيعة الميكانيكية للتناسل، الحقيقة أنه بين فقط أن بويضة الأنثى في بعض الحالات يمكن أن تولد بنفسها خلفا حتى بدون تلك المعونة العارضة التي تحددها الطبيعة للذكر، لقد أعاد كشف التناسل بدون نكاح الذكر[2] parthenogenesis الذي عرفه علماء الحياة منذ ألف عام، ولا حاجة بنا إلى القول بأن الأنثى ذاتها تكاد تكون ميكانيكية كالدبوس، أو بسيطة كيميائيا كالملح، الحق أن تناسل الأنثى بغير ذكر يبدو أكثر عجبا من أخواتها الأكثر حظا، وهذا الضرب من التناسل نذير سوء كذلك، ويدل على أن تحرر الجنس الذي كان ذات يوم أضعف قد يفضي في عصرنا إلى نهاية لا تسر.

وكانت كشوف هانس دريش Hans Driesch [3] المشتركة أكثر دلالة من تلك التجارب التي أجراها لوب، وقد نشأ دريش في معمل إرنست هيكل في مدينة يينا Jena، وكانت جميع البواعث تدفعه إلى أن يكون من أصحاب المذهب الميكانيكي الخالص، غير أنه وجد ظواهر لا يحلم بها أستاذه. لقد قطع بويضة مخصبة نصفين، ومع ذلك نمت نموا طبيعيا، ثم شوش نظام الخلايا اعتباطا بعد القسمة الثالثة وتشويش نظام الخلايا، والآن حاول أن تتخيل أولا مزاوجة آلتين من جيل الآلة الثالثة، وتخيل أن كل جزء من الآلتين موهوب بقوة التناسل واعتياده، وأنه يستمر في التكاثر والنمو، وتخيل بعد ذلك أن بعض أجزاء الآلة الأب تلتئم لتكوين نموذج للآلة

---

(١) Sea – Urchin، هو الرتزا المعروفة بالإسكندرية (المترجم – عن قاموس شرف).

(٢) التولد الذاتي أو التناسل بدون ذكر بأنثى ومثله في أنواع من المدوزة والتنيا والنحل (عن قاموس شرف)

(3)Science and philosophy of the Organism.

الجديدة؛ وأن النموذج يولد الآلة الكاملة بأن ينقسم تلقائيا إلى اثنتين، وأربع، وثمان ...؛ وأنها كلما تكاثرت كلما أصبحت واحدة، وتخيل ظهور شخص جبار مثل دريش، فيقطع الآلة الملتئمة إلى أنصاف، أو يوزع أجزاءها إلى فوضى، جملة القول تخيل أن الآلة نشرع في العمل بشكل طبيعي وبنجاح كما لو أن شيئا لم يحدث، أوجدت قط أضحوكة أبدع من ذلك في العلم أو الفلسفة؟ أثمة أي معجزة في أي دين قديم أو متوسط أو أمريكي يمكن أن تقارن بهذه الأسطورة البديعة والمهولة.

٣- الحتمية

يقول لنا صاحب المذهب الميكانيكي إننا غير منصفين، وإننا حملنا مصطلحه على معنى حرفي، وهاجمناه في موضع لم يكن مستعدا فيه للدفاع، وقد نتصور جوابه على هذا النحو:

"ليس ما نعنيه بصفة السلوك الإنساني الشبيه بالآلة أكثر من التتابع الضروري بين السبب والنتيجة في العالم العقلي والعالم الطبيعي، فالإنسان جزء من الطبيعة، وأكبر الظن أنه خاضع لقوانينها، فلا يمكن أن نتصور وجود انقطاع في سلسلة السببية، لأن مثل هذا الانقطاع قد ينشأ عنه فناء الطاقة أو تولدها.

ولكت استمرار الطاقة وبقاءها ماثلان بوضوح في كل مكان، أو قف تغذية إنسان تجد أن ردود أفعاله تبطل، أطعمه الغذاء الصحيح يصبح فاضلا محبا لوطنه.

أطعمه غذاء غير ملائم تجعل منه شخصا عاجزا، أو مجرما أو متشائما، أو أحمق، أو مؤمنا بحرية الإرادة. قس نشاط إنسان منذ ولادته إلى وفاته، تجد أن ذلك النشاط يكاد يتطابق بالضبط مع الغذاء الذي تناوله، فمن الواضح أن الطاقة العقلية في الإنسان ثمرة الطاقة الموجودة في المواد العضوية التي يتغذى بها، ولكن هذه المواد مستمدة في النهاية من مواد غير عضوية موجودة في الأرض والهواء ويتم تحويلها في خلايا النبات، فإذا سلمنا بوجود سلسلة محكمة من الأسباب والمسببات في العالم غير العضوي، فلا بد أن نسلم بوجودها حتى في أدق عمليات الحياة الإنسانية أو الفكر الإنساني.

"ومرة أخرى يتضح أنه كلما ازدادت معرفتنا بالسلوك الإنساني ازداد نجاحنا في التنبؤ به، واكبر الظن أننا إذا عرفنا جميع الشروط المؤثرة في أصدقائنا تنبأنا باستجاباتهم نفسها بالدقة التي نتنبأ بها عن أوجه القمر وخسوفه، فإذا كانت الحتمية غير صادقة، ولو كانت أعمال الإنسان لا تتبع قوانين لا تتغير، لكان من المستحيل أن نتطور بالتنبؤ عن السلوك الإنساني والتحكم فيه عن طريق زيادة معرفتنا بالإنسان.

"ومن الواضح فوق كل شيء أن سلوك المرء هو ثمرة صفاته والظروف التي تحيط بأفعاله. وصفاته ثمرة بيئته الماضية (ها هو ذا يعود إلى مكانه) ووراثته.

ونحن نهاية سلسلة التطور عن الدودة الشريطية Tape – Worm [1]، فنحن لا نولد شيئا، ولا نبرم أمرا، بل تحركنا وتوجهنا وتقصرنا في النهاية قوى خارجية عنا، وليست عنا عليها عند التحليل الأخير رقابة، والاختيار وهم، فهو مجرد تأليف بين القوى المحتومة، وفي ذلك يقول سبينوزا: "يظن الناس أنفسهم أحرارا لأنهم شاعرون بإراداتهم ورغباتهم، ولكنهم يجهلون الأسباب التي أفضت بهم إلى الإرادة والرغبة"[2] الحق أن سلوكنا تحتمه في إحكام القوى التي تولدنا وتحيطنا، كما تحدد كتلة الحجر وسرعته واتجاهه سقوطه في الزمان والمكان، فالإنسان على هذا المعنى آلة".

فليواجه الحتمي بصراحة ما تتضمنه فلسفته، فإذا كان كل فعل هو بالضرورة ثمرة الشروط الطبيعية الموجودة سابقا في نهاية المر، فيجب علينا أن نستنتج أن الميكانيكية والحتمية شيء واحد، وان تقوى ميخائيل أنجلو، وعاطفة شكسبير، وأنف سقراط، وابتسامة كليوباترا، كل ذلك يرجع إلى التركيب الميكانيكي والكيميائي للسديم الأولي، فهذا نظام شاسع، ولقد يعجب المرء حين يبادر جماعة من الشكاك المحترفين مثل تين ورينان وأناتول فرانس إلى ابتلاع مثل هذا الجمل المحتوم، ولكن حتى الشكاك مؤمنون بهذا "العصر الجديد من الإيمان". ذلك أن رفضهم العلمي المتعالي

---

(١) Mark Twain, What is Man? P. 5

(٢) سينيوزا، الأخلاق، الكتاب الأول، ملحق.

لعقيدة من العقائد، يتبعه في الحال قبولهم الإنساني الأعمى لعقيدة أخرى، ولا يشك الميكانيكيون أبدا كيف يختفي اعتقادهم الساذج خلف شكهم غير المنهجي.

سيعد المؤرخون كيف أن هذا السديم الهائل لم يقطع رقبة الاعتقاد أعجوبة من الأعاجيب، ما هذا التنويم المغناطيسي الذي جعلنا مدة جيل نسلم بأنظمة الطبيعة العابرة على أنها قوانين حياتنا ورموزها؟ من منا اعتقد حقا أنه آلة، وتصرف بصراحة حسب هذا الغرض المضحك؟ أو هل علمنا سرا من خلال هذا الزعم البيروني Byronic أن الحس والعقل فاعلان ومنفعلان كغيرهما من الأمور، وأننا في طرائفنا الصغيرة مراكز للخلق في تيار القوة؟ كيف يمكن أن نتصور حقا في اصطلاحات من الميكانيكية والحتمية تعدد أنواع الحياة الهائل وخصوبتها، وتجاربها وصورها غير المحدودة، وأفانينها التي لا تنفد، وتعديلها الجازم للأرض وغزوها إياها؟

لقد جاء مذهبنا الحتمي من تصور لوك العقل لوحة بيضاء تسجل عليها الإحساسات، أو قطعة سلبية من الشمع تشكلها الأشياء الخارجية وتعيد تشكيلها ولا حيلة لها في ذلك، ولكنهم يعلموننا اليوم ضربا آخر من علم النفس.

ففي أعماق أنفسنا نجد الرغبة، هذه الرغبة التي "هي جوهر الإنسان بالذات" ويمكننا أن نتبع بآلاف من الوسائل أثر الرغبة الانتقائي والتكويني في إحساساتنا وإدراكاتنا، وذاكراتنا، وأفكارنا، وقد قسمت الحياة جوعها الكبير إلى دوافع وقوى متخصصة، وهذه هي التي تحدد أفعالنا واتجاهاتنا، ووجهة حواسنا.

إننا لا نشعر بمؤثرات لا يحصيها العد تحاول عبثا أن تبعث برسائلها إلينا، إننا نجهل عوالم شاسعة من الحقيقة المحسوسة، لأننا نختار من خلال أغراضنا الإحساسات التي نحتاج إليها، غننا نسمع بعض الأصوات التي تهمنا، ونصم أنفسنا عن آلاف غيرها، غننا نتأمل بعض الأشياء التي تخلو مؤقتا من المعنى ونرى من خلالها هدفا يشغل أذهاننا، ويوجه بناء على ذلك أعيننا.

فأغراضنا هي التي تؤول الإحساسات إلى مدركات وأفكار، يقال لنا مثلا أن

نجمع عددين، وإذا "بالهيئة الذهنية mental set" للجمع "تحتم" بغير مجهود ارتباط المؤثر بالاستجابة، وحين نسمع ما حاصل جمع "٧ و ٧"، نجيب "١٤". أما إذا طلب منا الضرب، فرد فعلنا على ذلك الإحساس المطابق هو "٤٩" فالغرض إذن، لا الجدة ولا كثرة الوقوع ولا الوضوح، هو الذي يفسر ترابط المعاني، ولسنا شيئا عاجزا وفريسة تنفعل بأي مؤثر يطبعها الحظ على بدننا، بل نحن فاعلون للاختيار، وهذا الاختراع المنشئ نفسه الذي ملأ مصانعنا بالآلات هو أفضل نقض للنظرية التي تشبه عقل المخترع بالنتاج السلبي لمخه.

في هذه العملية من التكيف الفعال نأتي بأعاجيب عقلية يصعب تصورها على أنها ميكانيكية، فنحن نحلل الكل إلى أجزائه، ثم نعيد تأليف الأجزاء في كلات Wholes جديدة، ونحلل الأفكار إلى مدركات، ثم نعيد تركيبها في استدلالات، إننا ننزل الأغراض منزلة الاعتبار، ونزن القيم، ونتخيل النتائج، ونبتدع في الاستجابات السابقة، ونرى ما يشبهها في محيطها، ونحكم عليها في ضوء أغراضنا، فالمعرفة هي تذكر نتائج الأساليب المختلفة من الفعل، وكلما عظمت معرفتنا ازداد بصرنا بالمستقبل، وكلما كانت بصيرتنا foresight أعظم اتسع نطاق حريتنا، ويمدنا الشعور بمرحلة نقف عندها لنستعيد الاستجابات المتخيلة، فنحن نستبعد بوساطة الذاكرة والتخيل والتفكير الاستجابات الحمقاء، ونعبر في شيء من النجاح عن هدفنا الأخير، والحرية، كالتفكير، هي استجابة متمهلة تؤدي إلى الاستجابة الشاملة، وتنمو حريتنا لأننا بالتمهل نسمح للموقف المعقد أن يثير فينا جميع الدوافع المناسبة، ولأننا بالتخيل نضم هذه الدوافع الجزئية إلى استجابة كلية تعبر عن نفسنا الكاملة والناضجة.

فالميكانيكية ثانوية؛ أما ما نراه كشيء أولي، وأساسي، ومباشر، وما نقبله قضية مسلمة في فلسفة حياتنا الواقعة والصحيحة، فهو أن كل كائن حي بالنسبة إلى مرونة تركيبية مركز لقوة يعاد توجيهها، ولبداءة تلقائية إلى حد ما، والحياة خالقة لا لأنها تبتدع قوة جديدة من لا شيء، بل لأنها تضيف طاقتها المصاغة من جديد إلى القوى التي تتدخل من خارج، وليست الإرادة حرة إلا بمقدار ما تعيد الحياة، التي هي صورة

لها، تشكيل العالم بنشاط، ولكي تعيد الحياة تشكيل العالم "تخترع" و"تنشئ" الرياضة والميكانيكا للتعامل بها مع الأشياء الخارجية، فالحياة تسخر من هذه المخلوقات التي ابتدعها عقلها وإرادتها، وتتعالى عليها حين تتلفت هذه المخلوقات بصلف حولها تحاول فهم الحياة في ضوء تلك الاصطلاحات التي ابتدعتها الحياة ذاتها.

أيستطيع هذا التصور للحرية الصمود في وجه حملات الحتمي؟ سيذكرنا إذا كان بارعا بأن "الإرادة" اصطلاح مجرد، وسيجعل نصب عينه أن يتناسى أن "القوة" ليست أقل تجريدا، وجوابنا على ذلك أننا لا نعني بالإرادة شيئا مجردا بل السلوك المسير والموسع للحياة نفسها، أما ما الحياة؟ فقد حاولنا الإجابة عن ذلك في صفحات سابقة، ولكننا لا نريد أن نقلب الحقيقة إلى سر غامض.

أو سيذكرنا الحتمي بعدم فناء الطاقة؛ فالكائن الحي لا يمكن أن يستنفد من الطاقة أكثر مما يتلقى، غنه ينسى أن الحياة نفسها طاقة من الواضح أنها تحول ما يأتيها من قوى ومواد إلى مركبات تهدف إلى السيطرة على البيئة بالفكر، وقد نجحت في ذلك عرضا، وقد لا تزيد كمية ما يخرج مع الفعل عن مقدار ما يدخل مع الإحساس، ولكن ما اعظم اختلافهما في الكيفية، فقوة الحياة المشكلة هي أسمى طاقة نعرفها، ومعرفتنا لها اكثر مباشرة وتأكيدا من أي طاقة أخرى في العالم، وهي منبع حريتنا المتواضعة واملها.

يفترض الحتمي أن الحرية وهم؛ لأن الدافع motive "الأقوى" يتغلب دائما، ولا ريب أن هذا لغو باطل، فالدافع القوي بما فيه الكفاية للغلبة، أقوى من تلك التي تنهزم، أليست موافقة الدافع للإرادة والرغبة وجوهر النفس هي التي جعلته أقوى من غيره؟ — "ومع ذلك فلا فعل بغير سبب". وهذا صحيح، ولكن الإرادة جزء من السبب، ويجب أن تشمل ظروف الفعل مطالب الحياة المقبلة، وكل "حالة state" للعقل تنشأ طبيعيا من مجموع الحالة السابقة للحقيقة كلها، ولكن هذه الحالة وتلك تشملان الطاقة المشكلة للحياة والإرادة. — "نفس النتيجة تتبع دائما نفس السبب". ولكن السبب ليس هو ذاته أبدا، لأن النفس التي نحن بصددها في جريان دائم،

والظروف متغيرة على الدوام – "إذا عرفت جميع ماضيك وحاضرك استطعت أن أتنبأ باستجابتك دون خطأ". وتستطيع ذلك إذا عرفت أيضا طبيعة دفعة الحياة وقوتها الموجودة في داخلي، لعلك تستطيع ذلك إذا هجرت المبادئ الميكانيكية، وسألت نفسك مسترشدا ماذا أنت – أي الحياة – فاعل في هذه العقدة المعقدة من الظروف.

أكبر الظن أنك لن تستطيع – حتى مع ذلك – التنبؤ بنجاح، أكبر الظن أن الحياة فيها عنصر لا يمكن حسابه، وفيها تلقائية لا تتفق مع قوالب عقولنا "وقوانيننا" categories، وهذا العنصر هو الذي يخلع على التطور العضوي وأمور الإنسان لذة وصفة خاصتين. فلنطلب من الله ألا نعيش أبدا في عالم محكوم بالقضاء والقدر، ألا تبدو صورة مثل هذا العالم متناقضة بشكل مضحك مع الحياة – فالميكانيكية كما قال برجسون مزاح عابر؟

"ولكن كل فعل فهو نتيجة الوراثة والبيئة". ليس الأمر كذلك بالضبط، فالحتمي مع التواضع في معرفة نفسه، فهو يفترض مرة أخرى أن الحياة ثمرة سلبية لقوى خارجية، غنه يهمل (مع استعمال اللغو) حيوية الحياة نفسها وحياتها.

إننا لسنا مجرد أسلافنا وظروفنا، بل نحن أيضا بحار من الطاقة المشكلة، وأجزاء من ذلك التيار للقوة الموجهة، للقدرة على الاختيار والفكر المكيفين مما كان أسلافنا كذلك يتحركون ويعيشون فيها، فهؤلاء الأسلاف هم في الحقيقة أحياء يعملون في داخلنا، ولكن الإرادة والحياة اللتين كانتا فيهما فيما مضى من الزمان توجدان في كل واحد منا الآن وتخلقان "الأنا التلقائي". والحرية أضيق وأوسع مما كانوا يتصورونها في القديم، ولا ريب أنها تخضع لتحديدات موروثة وبيئية من كل نوع، ولكنها مع ذلك عميقة عمق الحياة، عريضة عرض الشعور.

إنها تنمو في مداها وقوتها مع تعدد التجارب، وسعة المناظر، ووضوح الفكر[١] فالإرادة حرة بمقدار ما تكون الحياة خالقة، وبمقدار ما تدخل بطاقتها المشكلة كشرط "واحد" من الشروط المحددة للاختيار والفعل، وليس في مثل هذه الحرية انتهاك لحرمة "القانون الطبيعي"، لن الحياة نفسها عامل factor طبيعي، وعملية process طبيعية، لا قوة خارج ميدان الطبيعة المتغير، والطبيعة نفسها، كما يدل عليها اسمها اللطيف، هي تلك القوة الحية التي تنشأ عن طريقها جميع الأشياء، ولعل هذه التلقائية وهذه الدفعة القاهرة مما زعمناه للحياة تتخفيان خلال العالم، إذ بأي سبيل أخرى استطاعت الحياة أن تكتسب هذه التلقائية؟[٢]

---

(١) انظر جيته: "ليس على المرء إلا أن يعلن حريته فيحس باللحظة التي يخضع فيها للشروط، أما إذا كان المرء من الشجاعة بأن يعلن نفسه مشروطا فعندئذ يحس بأنه حر". نقلا عن شبنجلر في "سقوط الغرب" الجزء الثاني، ص ٢٦٧.

(٢) يمكن أن نضيف بعض الاعتبارات الفنية التي توحي بهذه الوجهة من النظر، وليس طلاب مناهج العلوم في حاجة إلى تذكيرهم بأن ماخ وبيرسون وبوانكاريه قد غيروا تصورنا من "القانون الطبيعي" من قوة خارجية تنظم الظواهر، إلى صياغتنا الذاتية لبعض الأحداث المتتابعة في التجربة الإنسانية، وجميع اصطلاحات العلم وقوانينه هي تعبيرات "مختصرة" لنظريتنا الفرضية عن العالم، ويذهب الحتميون إلى أن كل ما نعرف يدل على الحتمية، وهذا لأنهم يعنون بلفظة "كل" معرفتنا بالعالم الطبيعي والكيميائي، فمن السخرية القول بأن كل ما نعرفه عن العالم العقلي أو الطبيعي يدل على الحتمية، على العكس تجربتنا المباشرة وهي آخر معيار للحقيقة تطلعنا على تلقائية غريبة في كل مكان، و"قوانيننا" مستمدة من عالم "المادة"، ثم تطبق اصطناعيا على "العقل".

"لقد وضع العقل بقوته الانتقائية عمليات الطبيعة في إطار من القانون، وهو قالب إلى حد كبير من اختياره نفسه ... والعقل في كشفه هذا النظام من القانون يمكن أن ننظر إليه كأنه يسترد من الطبيعة ما سبق أن وضعه العقل في الطبيعة" (إدنجتون، طبيعة العالم الفيزيقي، ص ٢٤٤)، بل إن قانون عدم فناء المادة والذرة نفسه قد كشف في "الكوانتوم" عن درجة من اللا تحديد واللا تعيين تكاد تكون إنسانية.

إن نظرية الكوانتوم، التي يسلم بها اليوم عمليا جميع علماء الطبيعة، تصف حركة الإلكترونيات على أنها منفصلة وغير منتظمة، فليس ثم نظام يمكن التنبؤ عنه في سلوكها، ومع أنها قد تغير مكانها أو سرعتها، فمن الواضح أنها تتحرك من مكان إلى آخر أو من من سرعة إلى أخرى دون أن تمر بالمواضع أو بالسرعات المتوسطة، وفي ذلك يقول الأستاذ هوايتهيد: "إنها كما لو أن سيارة تتحرك بمعدل ثلاثين ميلا في الساعة لم

ومن الصواب أن نقول إن صفاتنا تحدد أفعالنا، ولكننا وصفاتنا شيء واحد We "are" our characters فنحن الذين نختار، ومن الصواب – ومن اللغو كذلك – أن نقول هكسلي إننا قد نكون أحرارا في إبراز رغبتنا في صورة من الفعل، ولكننا لن نكون أحرارا أبدا في اختيار ما يجب أن تكون عليه رغبتنا؛ لأننا ورغباتنا شيء واحد، والرغبة، هي الحياة ذاتها؛ وفي تحقيق رغباتنا إنما نحقق أنفسنا، ولا يكفي

تعبر الطريق في اتصال، بل كانت تظهر على التتابع في معالم متتابعة، وتبقى في كل معلم دقيقتين". (العلم والعالم الحديث، ص ٥٢).

ويقول إدنجتون: "من نتائج نظرية الكوانتوم أن علم الطبيعة لم يعد مغمورا في نطاق القانون الحتمي، فقد فوجئت الحتمية مفاجأة تامة بالقوانين الأخيرة للطبيعة النظرية، وأصبحت عودتها إلى مكانتها موضع شك... فالقوانين الكبرى التي كانت تقبل على أنها خاضعة للسببية تظهر عند الفحص الدقيق أنها ذات صفة إحصائية، وأن كل تنبؤ إنما يرجع إلى الانتظام الإحصائي لجزيئات غير محدودة (إدنجتون، ص ٢٩٤، ٢٩٨). وهذا يعني أن التنبؤ بخسوف القمر يرجع إلى متوسط السلوك الخاص بالذرات المكونة للشمس والأرض والقمر، ويمكن التجاوز عن عدم حساب الفعل الذري في كتلة كبيرة، وهذا بالضبط كما يستطيع موظف البريد أن يحسب بدقة كبيرة عدد الخطابات المجهولة التي ترسل خلال عام، ولكن كيف يكون الحال إذا كانت العمليات العقلية مختلفة عن هذا، الظواهر "الواسعة النطاق" التي منها نستمد "قوانينا".

ومع ان برتراند رسل لا يزال من الحتميين فإنه يصور الموقف تصويرا صادقا، قائلا: "لقد رأينا أنه على أساس علم الطبيعة نفسه يمكن وجود حدود للحتمية الطبيعية، فنحن لا نعرف قانونا يدلنا متى تقع عملية الكونتوم، أو متى تفنى الذرة المشعة، ونحن نعرف جيدا جدا ماذا يحدث "إذا" حدث شيء ما، ونعرف المتوسطات الإحصائية التي تكفي في تحديد الظواهر الواسعة النطاق، ولكن إذا كان العقل والمخ متداخلتين تداخل السبب بالمسبب، فإن أصغر تغيير في المخ يجب أن يصحب بتغيير عقلي ملحوظ، وهكذا قد نضطر إلى النزول في ميدان التغييرات في الكوانتوم، وأن نهجر المستوى الكبير الذي تصلح له المتوسطات الإحصائية، فلعل الإلكترون يطفو حين تريد؛ ولعل الظاهرة الدقيقة في المخ التي تسبب الخلاف كله في الظواهر العقلية تتعلق بالميدان الذي لم تعد القوانين الطبيعية تحدد تحديدا نهائيا ما يجب أن يحدث، وليس هذا بالطبع إلا مجرد احتمال نظري ولكنه اعتراض يقف في سبيل الدجماطيقية المادية" (الفلسفة، ص ٣٩٣).
"وبمقدار ما تستطيع نظرية الكوانتوم أن تقدمه في الوقت الحاضر فقد يمكن أن تكون الذرات موهوبة بحرية الإرادة، ولو أنها محدودة مع ذلك باختيار طريق واحد من بين عدة طرق ممكنة" (تحليل العقل، ص ٣٨).

ولن يهتم المرء بإقامة فلسفة من الفعل على مثل هذا الأساس المزعزع في النظرية الطبيعية المؤقتة، فأفضل أساس يستند إليه الاعتقاد في حقيقة الاختيار هو إدراكنا المباشر والشخصي بالطبيعة غير الميكانيكية لحيويتنا الخاصة وفكرنا ذاته، ولعل تصور السببية كعملية حية سيكون الخطوة التالية في الفلسفة.

أن نقول إن القوى الخارجية والموروثة ترغمنا وتقهرنا، فهناك جانب آخر من الحق هو أن الحياة نفسها قوة ذاتية لها، ولها وجهتها الخاصة ومقدرتها، ولو أنها محدودة ومرغمة، إلا أنها تؤثر بإرادتها إلى حد مدهش، مرتفعة من أدنى الكائنات الحية إلى سمو العبقرية الفذ، منتشرة في أرجاء العالم بصورها وانتصاراتها، ولو لم تكن الحياة قوة فعالة ومشكلة، ميالة إلى جانب النمو، ما ظهر أي تطور قط.

هذا التحقيق لحيوتنا الموجهة يعيد إلينا مسئوليتنا وشخصيتنا، وتكامل نظريتنا بحياتنا، ذلك أننا حين كنا نتحدث عن الحتمية كنا نعرف بطلانها، وبم يحدث أن تعاملنا مع انفسنا أو مع أبنائنا كالآت[1]. فإذا كان البحث في فلسفة الحرية يتكرر على الدوام فذلك لأن الإدراك المباشر لا يمكن أبدا أن يخضع للقوانين، ولا الإحساس للتفكير، وفضلا عن ذلك فقد رأينا في الميكانيكية شيئا من الجبن بإرجاعها الجريمة إلى الوراثة والمجتمع – وهما الضحيتان المجردتان المسكينتان اللتان نقدمهما ستارا لرذيلتنا وكسلنا، ولعل ضعف الخلق في عصرنا وعدم استقراره مرتبطان ارتباط المسبب بالسبب بسيطرة الفرد بالآلة في الفلسفة والحياة، فالآلات تكسب نصرا بعد آخر، وتبسط بشكل عظيم قوتنا على تحقيق غايات قديمة ومتناقضة: فنحن نتحرك فوق السحب، وفي أعماق البحار، ونتج ملايين من البضائع الموحدة كل واحدة منها رخيصة في الثمن وفي الصناعة، وهكذا تختفي المهارة خطوة أمام الميكانيكية، ويتوارى الكيف أمام الكم، والفن أمام الصناعة، والخلق أمام الثروة، وسيختفي الإنسان نفسه قريبا ولا يبقى إلا الأزرار والمحولات Switches.

فهل يستغرب من جيل يقنع بالسينيما الناطقة بدل المسرح، وبالناطحات بدل البيوت، بأعمدة التلغراف بدل الأشجار، بالساسة بدل رجال الدولة، أن يسلم آخر

(١) انظر برود **Broad** "لو أن شخصا أشار إلى أخيه أو إلى قطته قائلا: هذه آلة عجيبة، فلا بد أن نعرف أنه إما مجنون أو عالم فسيولوجي، فلا أحد في الحياة العملية يسلك مع نفسه أو مع زملائه أو مع حيواناته المستأنسة سلوكه مع آلات، ولكن العلماء الذين لم يدرسوا الفلسفة النظرية يظهر في الغالب أنهم يظنون من واجبهم أن يتمسكوا نظريا بما لا يمكن أن يسلم به عمليا أي شخص بعيد عن مستشفى المجاذيب.

الأمر بجميع شخصيته وقدرته على المبادأة، وأن يسمح لنفسه أن يوصف بأنه عملية آلية؟

وقد انعكست الميكانيكية أيضا على ظلال الشخصية بوساطة المدن المتزايدة في النمو، والديمقراطيات الجشعة؛ فمن العسير أن يحتفظ الفرد في الغوغاء أو في الانتخابات بمبادأته أو بفرديته، وفضلا عن ذلك فقد كانت الحتمية نتيجة افتتان علم الطبيعة بعظمته الخارجية ذاتها، فظن أنه يطوي عالم العقل والفن والحب في قوانينه المزعزعة والجزئية، وعندما ننتقل ببطء من عصر الآلات إلى عصر الثقافة المبدعة، سنتعلم أن نرى من وراء الميكانيكية السطحية الأرض والحياة النابضة تحتها، وسنفهم بعد كثير من الأخطاء والشكوك أننا بحالتنا البسيطة نساهم أيضا في نشاط العالم، وأننا إذا شئنا فقد نكتب بالخيال والمعرفة بعض السطور في المأساة الغامضة التي نلعبها.

٤- عصر البيولوجيا (علم الحياة)

نود أن نشير في الختام إلى أن التفسير الميكانيكي الساذج أخذ يختفي من الفلسفة، وعلم الحياة، وعلم النفس، وعلم وظائف الأعضاء، بل في علم الطبيعة نفسه. وفي ذلك يقول لوسيان بوانكاريه: "لقد هجرت على وجه العموم اليوم الفكرة القائلة بأن جميع الظواهر تخضع لتفسيرات ميكانيكية"[١]

ويقول كاسيرر: "إن النظرة الميكانيكية للعالم في علم الطبيعة الحديث قد استبدلت أكثر فأكثر وحل محلها النظرة الديناميكية الكهربية"[٢]. ويقول ليبون: "لقد أصبحت الفسيولوجيا على الرغم من جهود آلاف العمال عاجزة عن إخبارنا شيئا يختص بطبيعة القوى التي تنتج ظواهر الحياة، وليس لها مثيل مما يدرس في علم الطبيعة"[٣] وكما يحتاج علم الكيمياء إلى فكرة الكيف بالإضافة إلى فكرة الكم التي يحاول علم الطبيعة الاكتفاء بها، كذلك يحتاج علم الفسيولوجيا إلى جانب الكيف

(١) ليبون، تطور القوى، ص ٨.

(2)Substance and Function p. 355

(٣) ليبون: ص ٣٦٧.

والكم، إلى فكرتي الكائن الحي organism والمجموع totality. فالطبيعة والكيمياء يدرسان الأجزاء التي تحدد سلوك مجموعها؛ وعلم الحياة يدرس الكلات Wholes التي تحدد سلوك أجزائها، حتى العلم يجب ذات يوم أن يتعلم كيف يرى الأشياء كلا.

لقد أصبح رفض الميكانيكية بين علماء الحياة أنفسهم امرأ مألوفا: فأسماء دريش وبافلوف وهالدين تجعل أي ميكانيكي يفكر طويلا وينعم النظر.

وكانت حركة "الجشتالت Gestalt" في علم النفس رد فعل عدل عن وجهة النظر الميكانيكية إلى العضوية، ويقول هالدين:

"لقد سارت النظرية الميكانيكية على وجه العموم سيرا غاية السوء، فقد هجرت نظرية شوان Schwann البسيطة الميكانيكية، ونحن نعرف الآن أن جميع الخلايا بالانقسام عن خلايا سابقة، وأن مشكلة عملية نمو الخلية وتغذيتها ليست من العمليات التي نرى حلها في الوقت الحاضر بأي اتجاه ميكانيكي.

كما أنها ليست مختلفة أي اختلاف عن مشكلتي الإفراز والامتصاص، فالنظريات البسيطة الكيميائية الخاصة بالتنفس وغيره من عمليات التحويل .. قد اختفت كذلك .. وأصبح من الواضح أن أي نظرية بسيطة فسيو كيميائية physio chemic – تفسر الحركة العضلية أو أي حركة أخرى فسيولوجية غير كافية ... فكل عام من التقدم الفسيولوجي يبعدنا فيما يظهر أكثر فأكثر من أي أمل في مثل هذا الحل .. فأبحاث شرنجتون Sherrington وغيره تجعل من الواضح تمام الوضوح أنه ينبغي هجر الفكرة القديمة عن الأفعال المنعكسة الميكانيكية البسيطة والمحددة الخاصة بالجهاز العصبي .. ولست أرى – بصفتي عالما في الفسيولوجيا – أي فائدة من النظرية القائلة بأن الحياة ككل عملية ميكانيكية، فهذه النظرية لا تساعدني في بحثي، وأظن أنها ولا ريب تعوق الآن بخطورة تقدم الفسيولوجيا، وإني لأوثر أن أعود إلى أساطير أجدادنا السكسون من التمسك بالفسيولوجيا الميكانيكية"[١].

---

(1)Mechanism, Life and Personality, p. 61

ومن الأمور التي لها دلالتها أن شوبنهور ونيتشه – على ما فيهما من عداء للاهوت التقليدي – قد رفضا باحتقار قبول الميكانيكية، وفي ذلك يقول نيتشه ساخرا من العالم الطبيعي الميكانيكي.

"زعمك بأن تفسيرا واحدا للعالم صواب، وهو تفسير تؤيد به موقفك، وبه يتقدم البحث وينجح علميا في "نظرك"، هذا التفسير الذي يعترف بالعد والحساب والوزن والمشاهدة واللمس ولا شيء بعد ذلك – مثل هذه الفكرة إلا تكن جنونا وبلاهة فهي بشاعة وسذاجة .. إني أقول هذا القول هامسا في أذن أصدقائي الميكانيكيين الذين يودون اليوم مسايرة الفلاسفة، ويعتقدون اعتقادا مطلقا أن الميكانيكا تعاليم أول القوانين وآخرها .. التي يجب أن تبنى عليها جميع أنواع الوجود .. أليس العكس أكثر احتمالا، وهو أن صفات الوجود الخارجية الأكثر ظهورا .. هي التي تفهم أولا؟"(١)

ويقف علم البيولوجيا ساكنا اليوم، لنه كان يبحث في الموت أكثر مما يبحث في الحياة، في نماذج محفوظة في الكحول، في الفراشات المقيدة بالدبابيس لا الطائرة بالأجنحة، في الجثث التي سمحت بها المشانق لغرض التشريح، في "مستحضرات" من الأنسجة موضوعة على الزجاج Slides الميكرسكوبي، ولقد تنبأ جوته بهذا كله منذ مائة عام وقال على لسان شيطانه البارع:

إن من يدرس كائنا حيا ويصوره

يظن من الأليق أن يبدأ بالبحث

عن طريقة لانتزاع الروح منه

فإذا فعل ذلك أمسك بيديه

---

(١) **Joyful Wisdom, Eng. Tr, p. 339** ويبدو أن فلاسفة الألمان في الوقت الحاضر قد انقلبوا على الميكانيكية، وفي ذلك يقول شبنجلر: "من العبث محاولة الحصول على علم "مضبوط" من النفس الغامضة على الدوام" (سقراط الغرب، الجزء الأول، ص ٣٠١) ويقول كيسلرنج: "إذا كان المثقفون قد اجتازوا مرحلة المادية، فالجماهير في طريقهم إليها" (العالم في التكوين، ص ٢٦٥").

الأجزاء التي عليه أن يسميها ويثبتها
ولكن وأسفاه إن رباط الروح
الذي غزل الأجزاء وجمع بينها
قد تبدد وذهب وتبخر
هذه العملية هي التي يسر
علماء الكيمياء أن يطلقوا عليها
"اسم الاشتغال بالطبيعة"
Nature encheiresis
وهم حين يفعلون ذلك يجعلون أنفسهم
سخرية دون أن يشعروا[(١)]

لعل علم الحياة سوف يثور قريبا على سيطرة الميكانيكية بمناهج علم الطبيعة وتصوراته، سيكتشف أن الحياة التي يمتاز بدراستها أدنى إلى أسس الحقيقة من "مادة" الطبيعة والكيمياء، وحين يتحرر علم الحياة آخر الأمر من قبضة المنهج الميكانيكي الميتة، سوف يخرج من المعمل إلى العالم، سوف يشرع في تعديل الأغراض الإنسانية كما غير علم الطبيعة وجه الأرض، وسيقضي على الاستبداد المتوحش للآلات على البشرية، وسيكتشف، حتى للفلاسفة الذين ظلوا خلال قرنين من الزمان عبيدا لعلماء الرياضة والطبيعة، عن الوحدة الموجهة، والمعين الخالق، وتلقائية الحياة الباهرة.

(١) فاوست، ترجمة مارتن ص ٨٧، وهذا مثال لما يحدث لجوته حين يترجم.

الجزء الرابع

مشكلات الأخلاقية

الفصل الخامس

أخلاقنا المتغيرة

١- نسبية الأخلاق

تتغير الأخلاق اليوم، وهي التي تتغير ببطء شديد، كما تتغير السحب تسوقها الرياح، فقد ذابت أمام أبصارنا التقاليد والنظم القديمة قدما لا تعيه ذاكرة الإنسان، كما لو كانت عادات بسيطة، اكتسبت حديثا ويسهل نسيانها، فالفتوة التي هي كما يقول نيتشه "لا يستطيع المرء أن يكون شديد الرقة مع النساء"، والظرف gallantry الذي يكسو الأبدان رشاقة والعقول كياسة، لم يسلما من تحرر المرأة، فقد قبل الرجال تحدي المساواة، ووجدوا من الصعوبة عبادة جنس يطريهم بما لا يليق تقليدا، أما العفة والحياء مما كان يغري العاشق بأعمال البطولة، ويضاعف قوة كل قوة، فقد سقطا إلى الحضيض، وأخذت المرأة في سن الشباب تخطب ود أعدائها بالإفراط في إظهار مفاتنها، حتى لم يعد حب الاستطلاع معينا على الزواج، وجمعت حياة المدينة ملايين من جياع الذكور فوقعوا فريسة سهلة في أيدي عملاء اللذة، واخذ المسرح ينافس أيام شارل الثاني، وأصبح الأدب الحديث من الإباحية Phallic [١] كما كان في عصر التدين قديما، وبدأ الزواج يفقد ما كان له من رواج، وهو الذي كان السبيل إلى كل متعة جسدية، والذي إذا تم مبكرا أدى إلى شيء من الاستقرار في الحياة الإنسانية وفي السلوك.

(١) يشير المؤلف إلى أعياد اليونان الدينية قديما حين كانوا يحتفلون بإله التناسل ويحملون عضو التناسل أثناء الاحتفال من جملة المراسيم، وفي صورة قدماء المصريين الموجودة على جدران المعابد ما يدل على هذا النوع من التقديس (المترجم).

فقد أخذ الرجال يظنون أن فوائده يمكن الحصول عليها بغير آلامه، فهو يضيق من كل جانب ويتوقف بالتأجيل إلى سنين غير طبيعية، وبمشاغبات الطلاق، أما الأسرة التي كانت فيما مضى مهد الأخلاق والأساس المنيع للنظام الاجتماعي، فقد انحلت إلى فردية الصناعة في المدينة، وتمزقت إربا إربا خلال جيل واحد، وأصبحت البيوت التي بنيت بعرق الجبين لستر البنين والبنات صامتة ومهجورة، فقد تفرق الأطفال سعيا وراء أشغال بعيدة، تاركين الأب والم وحدهما في بيتهما الكئيب ينظران إلى الكراسي الخالية، ولا تردد أي غرفة أصوات الأسرة.

فلننظر كيف أصاب التحول العظيم الذي نجتازه أخلاقنا وبد لها.

من المسائل الدقيقة التي يبحثها علم النفس في الوقت الحاضر هذه المسألة وهي: هل يشعر صغارنا في خطاياهم التي يباهون بها بلذة أعظم مما يشعر به من هم أكبر سنا في الشكوى منها؟ ويبدو أن الحياة من وجهة نظر الأخلاق تنقسم إلى مرحلتين، ننغمس في اللذات في الأولى، ونعظ في الثانية، ثم ينتهي الأمر بالشهوة إلى الحذر، وتصبح تيارات الرغبة المتدفقة كلاما يتبدد في الهواء، ويتراخى وقع الحياة، ويتغير المزاج، ويصعب على الشيخوخة أن تغفر للشباب، و"الحقيقة" في هذه الأمور وظيفة العمر، و"اللاأخلاقية" immorality عند قوم هي أخلاقية عند الآخرين.

ونحن الذين قد انصهرنا في بوتقة الشباب، ولم نجمد بعد إلى الشيخوخة (من يدري؟)، قد نحاول إذا واتانا الحظ فهم خلفائنا، وقد ننجح في بلوغ هذا الفهم، وأفضل سبيل إلى هذا الفهم هو النظر التاريخي، فعلينا أن نتأمل في تغير "الخير"، وفي النسبية السيالة للأخلاق، يجب علينا أن ننظر في أصل الأفكار الأخلاقية الأرضية وغير المعصومة، وفي اعتمادها على الأسس المتغيرة للحياة الإنسانية.

والأخلاق Morals، في الاصطلاح اللغوي والتاريخي، مستمدة من التقاليد (mores) customs والأصل في الأخلاقية هو التمسك بتلك التقاليد التي تعد

جوهرية لسلامة الجماعة وحفظها، وبعض التقاليد مجرد اصطلاحات، مثل استعمال الشوكة والسكين على المائدة، وليس لها مظهر أخلاقي، فإذا قطعت "سلطة Salade" غيرك بسكين فليس ذلك ذنبا، مع أنه يعاقب بشدة أكثر من الفسق، ولكن بعض التقاليد مثل عدم تعدد الزوجات monogamy أو تعددها polygamy، والزواج من داخل القبيلة endogamy أو من خارجها exogamy، وتحريم القتل داخل القبيلة وإباحته خارجها، تعتبر حيوية للصالح العام، وتصان بضروب عاطفية من الحظر والوعظ والحرمان.

والاصطلاحات تقاليد إلى الممارسة أدنى منها إلى الوعظ، والأخلاق تقاليد إلى الوعظ أدنى منها إلى الممارسة، هي واجبات نطلبها من جيراننا.

ومن المدهش أن نرى كيف اختلف القانون code الأخلاقي من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى آخر، فقد انزعج القديس أغسطين من تعدد زوجات إبراهيم، ولكنه بين بحق أن قدماء اليهود لم يروا "لا أخلاقيا" أن يدفع أحدهم نفقات عدة زوجات، فهي عادة الوقت، ولم تكن تعتبر مضرة بالجماعة.

حقا قد يصبح تعدد الزوجات في عصر الحرب فضيلة تبارك بكثرة الأولاد، وقبل أن يحل النظام الاجتماعي محل النزاع المستمر بين قبيلة وأخرى، كان معدل الوفيات بين الرجال يزيد زيادة عظيمة على مثله بين النساء، فكان تعدد الزوجات نتيجة طبيعية للتفوق العددي في الجنس الذي كان فيما مضى ضعيفا، إن المرأة لتؤثر امتلاك ظفر من رجل على الحرمان من الرجال على الإطلاق، أما الاقتصار على زوجة واحدة فعقوبة من عقوبات السلم القبلي.

وهلم بنا نستعيد بعض الأمثلة على نسبية الأخلاق، فالشرقيون يغطون رءوسهم دليلا على الاحترام، والغربيون يكشفونها، والمرأة اليابانية (ولو أن ذلك مثل كثير من الحقائق قد تغير) لا تلقي بالا إلى عري عامل، ومع ذلك قد تبلغ من الحياء مبلغ بريسكيلا دين Priscilla Dean، وكان من "الفحش" Obscene (المعنى الحرفي

"على المسرح" – إشارة إلى إباحية أرستوفان في كوميديته القديمة)[١] أن تكشف المرأة العربية عن وجهها، أو المرأة الصينية عن قدمها، وتغطية هذا الجزء أو ذاك يدعو إلى إثارة الخيال وبعث الرغبة، فيخدم مصلحة الجنس، وكان سكان الملايو يئدون المريض والشيخ، وظنوا أن ذلك طريقة كريمة للتخلص من نفايتهم[٢]. ويقول لابوك Lubbok: كانوا في الصين يعدون إهداء تابوت لشيخ من ذوي القربى من الهدايا الملائمة، وبخاصة إذا ساءت صحته[٣].

ويقول سومنر: "يباع لحم الإنسان في جزيرة بريطانيا الجديدة في الحوانيت، كما يباع عند القصابين في بلادنا، وفي بعض جزر سولومون على الأقل يسمن الوطنيون من البشر كالخنازير (ويفضلون النساء) إعدادا إياهم لوليمة"[٤]. ومن أيسر الأمور أن نجمع مئات غير ذلك من الأمثلة تبين أن "اللا أخلاقي" في عصرنا وبلدنا "أخلاقي" في عصور أخرى وبلاد أخرى.

وفي ذلك قال أحد مفكري الإغريق القدماء: إذا جمعت في كومة سائر التقاليد التي تعد في بلد مقدسة وأخلاقية، ثم نزعت منه جميع التقاليد التي تعد في بلد آخر كفرا ولا أخلاقية، فلن يبقى في الكومة شيء[٥].

٢- القانون الزراعي

من الواضح أن القوانين الأخلاقية قد تتغير، فما الذي يغيرها؟ ولماذا تعاد بعض الأفعال حسنة في زمان أو في مكان، ثم تصبح قبيحة في زمان أو مكان آخر؟

---

(١) يشرح المؤلف الاصطلاح الإنجليزي ويرده إلى أصله اللغوي، وكان أرستوفان أعظم شعراء الكوميديا في أثينا، وكان معاصرا لسقراط، وله تمثيليات كثيرة مشهورة، ولم يكن الأدب المكشوف عيبا، كما لم يكن ذلك عيبا في الاحتفالات الدينية. (المترجم)

(2)Summer, W. G, Folkways, pp. 324m 431, 440

(3)The Origin of Civilisation, p. 24

(٤) المرجع السابق، ص ٣٢٤.

(٥) جومبز، مفكرو الإغريق، الجزء الأول، ص ٤٠٤

من المحتمل أن تتبدل الأساس الاقتصادي للحياة هو الذي يحدد التغيير الأخلاقي، ولقد وقع في التاريخ نوعان من التغيير العميق من هذا القبيل: أحدهما الانتقال من الصيد إلى الزراعة، والآخر الانتقال من الزراعة إلى الصناعة، فهذان هما الحادثان المحوريان في التطور البشري، وعليهما تدور سائر الحوادث والعمليات الأخرى، وفي كل طور منهما اتضح أن القانون الأخلاقي الذي كان يرعى صالح الجماعة في الطور السابق من الحياة أصبح غير ملائم، وأخذ يتعدل بطيئا مضطربا في ظل النظام الجديد.

وقد عاشت جميع أجناس البشر تقريبا في القديم على مطاردة الحيوانات، وقتلها، وتقطيع أجسادها – في نفس المكان عادة – ثم أكلها، وغالبا نيئة، ودائما بما يملأ معدة الصياد إلى أقصى ما تطبق، ذلك أن الحضارة بمعناها الاقتصادي من التموين والأمن Security، لم تكن قد ظهرت بعد، وكانت الشراهة فضيلة لازمة لحفظ الذات، كان الإنسان البدائي يأكل كما يأكل الكلب في العصر الحديث، لنه لم يكن يعرف متى يتناول وجبته التالية، والقلق insecurity أم الشراهة، كما أن القسوة بنت الخوف، وما أكثر ما ترجع القسوة والشراهة، والعنف المتجدد، ونزعة الإنسان العارضة للحرب في الوقت الحاضر، إلى مرحلة الصيد، استمع إلى هذا الرجل في المطعم يهمس في أذن الخادم: "هات الشواء ناقص النضج". غنه لا يزال في مرحلة الصيد.

وكل رذيلة كانت ذات يوم فضيلة، وقد تسترد اعتبارها مرة أخرى، كالكراهية التي يصبح لها احترامها في الحروب، وكانت الوحشية والشراهة ضروريتين في قديم الزمان للكفاح في الحياة، وهما الآن ارتداد atavism سخيف، وليست خطايا الإنسان ثمرة سقوطه، إنما بقايا تخلفت عن صعوده، وعندما نختار الدوافع الملائمة للحاجات الجارية يمطرنا الآباء والجيران والوعاظ بوابل من المدح أو الذم كما نعطي الكلب الذي ندربه السكر أو نضربه بالسوط، وعلى هذا النحو تشجع بعض الخصال التي وهبتها لنا الطبيعة في اعتدال، وتهذب بعض الخصال الأخرى التي تفيض عن الحاجة الاجتماعية المعاصرة

بأساليب من الصرف مثل الحجز بعد المدرسة، أو الكي في الكرسي الكهربي، دع ضربا من السلوك يذم الآن أو يمدح، ويزيد أن ينقص إلى حد الإفراط – أي إلى حد تعريض الجماعة للخطر – تجد أن الذم censure أو المدح praise يتحولان بالتدريج إلى اللوم blame أو التشجيع encouragement. وعلى هذا النحو احتضنت أمريكا دوافع الكسب، واستعاذت من الفضائل الحربية ما دام أن مواردها في حاجة إلى الاستغلال في الداخل، وإلى حماية يسيرة من الخارج، أما الآن فيبدو أن الحاجة إلى الاستغلال أقل، وإلى الحماية أكثر (كما يولون)، فلم يعد أحدنا يبجل أصحاب الملايين لمجرد ثروتهم في الوقت الذي يطير فيه ضباطنا بعظمة غير مألوفة، فهناك عرض وطلب في الأخلاق كما يوجد في البضائع، وإذا كان الطلب يخلق العرض في ميدان أبطأ منه في الآخر، فذلك لأن النفس ألطف من الأرض وأقل منها انقيادا، ولكن النفس ستتلقى كذلك بذورا مختلفة فتنتج ثمارا حلوة أو مرة.

ولسنا نعرف بالضبط متى وكيف انتقل الناس من الصيد إلى الزرع، ولكنا على يقين من أن هذا التحول العظيم خلق طلبا لفضائل جديدة، وانقلب كثير من الفضائل القديمة رذائل مع "روتين routine" المزرعة المستقر والهادئ.

وأصبح الدأب على العمل ألزم للحياة من الشجاعة، والاقتصاد مرغوبا فيه أكثر من القسوة، والسلم أعظم نفعا من الحرب، وفضلا عن ذلك تغيرت منزلة المرأة، فأصبحت أعظم قيمة في الأرض منها في الصيد، لأنها الآن تكسب بأداء مئات اللوازم في الدار ثمن بقائها أضعاف المرات، والزواج أرخص من استخدام امرأة تكلف نفقة أكثر لأداء هذه المهام المتعددة، بل أكثر من ذلك: كل طفل تلده الزوجة تصبح المعونة التي يقدمها أكثر من تكاليف غذائه اليسير وكسائه البسيط أضعافا مضاعفة، فالأبناء يساعدون آباءهم في الحقل حتى يتم بلوغهم، ولا يحتاجون إلى مال ينفق في تعليمهم، حتى البنات كن نافعات إلى حد ما، من أجل ذلك ارتفعت الأمومة إلى مرتبة القداسة، وعد منع الحمل منافيا للأخلاق، وكسبت الأسرة الكثيرة العدد رضا الإله.

وفي ذلك الوسط الزراعي اتخذ قانوننا الأخلاقي الموروث شكله، لأن الإنسان كان ينضج في الحقل في سن مبكرة، ينضج في العقل كما ينضج في الاكتفاء الذاتي، فكان يفهم في العشرين من العمر مهام الحياة كما يفهمها وهو في الأربعين، إذ كان كل ما يحتاج إليه محراثا، وساعدا قويا، وعينا يستطلع بها تقلبات الجو، ولهذا السبب كان يتزوج في سن مبكرة، حالما تتطلب الطبيعة منه ذلك؛ ولذلك لم يطل تبرمه بالقيود التي يفرضها القانون الأخلاقي على الصلات الجنسية قبل الزواج، ولهذا بدت الحاجة إلى الطهارة أمرا معقولا، حتى إذا أطلق لنفسه العنان، أما عفة النساء فكانت أمرا لازما لأن انتهاكها يفضي إلى أمومة بغير حماية.

وكان من المعقول كذلك أن تقبل تعاليم المسيحية عدم تعدد الزوجات وعدم انفصال الزوجين، ذلك أن زوجة الفلاح كانت تلد له كثيرا من الأطفال، وكان من الصواب أن يحتفظ الأب والأم بولاء أحدهما للآخر إلى أن يستقر هؤلاء الأطفال في العالم، حتى إذا بلغ آخر أطفالهما سن البلوغ ذبلت شهوة التنويع مع فتور الجسد وامتزاج روحهما ومشاكلتهما، وكان قانون البيوريتان[1] puritans (المتطهرين) على شدته عمليا في الريف، وأنتج جنسا قويا استطاع أن يغزو قارة في قرن واحد، لقد طلبت الفضيلة دائما أكثر مما توقع كي تحصل على حاجتها.

وظل هذا النظام الأخلاقي الزراعي: من العفة، والزواج المبكر، والاقتصار على زوجة واحدة بغير طلاق، والميل إلى كثرة النسل، متماسكا خمسة عشر قرنا من الزمان في أوربا ومستعمراتها، وكان ذلك أمرا في غاية اليسر، ما دامت الأسرة في الريف هي وحدة الإنتاج، يتعاون أفرادها على زرع الأرض، ويقتسمون ثمارها، بل إن الصناعة حين أخذت في الظهور كانت صناعة منزلية، تجري في البيوت لا في المصانع، وتملأ أرجاء الدار بجلبة جديدة وشغل جديد، ووظائف جديدة ومعنى جديد، حتى إذا انتهى أداء العمل اليومي، اختلف الأسياد من الجماعة الصغيرة إلى مائدة واحدة في

---

(١) فرقة دينية ظهرت في إنجلترا في القرن السابع ودعت إلى التشدد في الدين وإلى الطهارة: واضطهدت أسرة ستيوارت أصحابها فهاجروا إلى أمريكا وكانوا سببا في استعمارها. (المترجم)

المساء، أو تجمعوا أمام نار المدفأة، يلعبون الألعاب، او يقرأون الكتب التي تقص عجائب العالم البعيد.

كان كل شيء يتآمر على تقوية الأواصر التي تربط الأخ بأخيه، والأبن بأبيه، والرجل بزوجته، لقد كان لتلك الحضارة البيوريتانية (المتطهرة) فضائلها.

٣- القانون الصناعي

ثم ظهرت المصانع فجأة وأخذ الرجال والنساء والأطفال يهجرون البيت والأسرة، والسلطة الواحدة، ليعملوا كأفراد يأخذ كل منهم أجرة بمفرده، وذلك في أبنية موحشة أقيمت لتأوي الآلات لا البشر، ثم نمت المدن فأخذ الناس بدلا من البذر والحصاد في الحقول يكافحون معركة حياة أو موت في ورش مظلمة قذرة مع السيور والطنابير وضخام السكاكين والمناشير، وآلاف العجلات والمكابس، وأذرعه وتروس من حديد، وتوالدت الاختراعات كما توالدت الطبقة العاملة التي تشتغل بها، وفي كل عام كانت تظهر أنواع جديدة من الآلات تجعل الحياة أصعب تناولا وفهما، وأصبح النضوج العقلي أكثر تأخرا عما كان في الريف، فالرجل في العشرين من العمر في المدينة الحديثة لا يزال صبيا في وجه عالم متغير ومعقد، ويحتاج إلى عقد آخر من السنين حتى يتخلص من أوهامه العظيمة عن الرجال والنساء والدول، ولعله قد يبلغ في الأربعين النضوج العقلي، وطالت فترة البلوغ وأصبح التحلي بقدر عظيم من التعليم ضروريا ليتلاءم الذهن مع مطالب الحياة الحديثة.

وأخذ انتقال الإنسان من الزراعة إلى الصناعة يؤثر في الحال على سلوك الناس الأخلاقي، وتأخر النضوج الاقتصادي إلى الحد الذي تأخره النضوج العقلي تقريبا، إلا في طبقة العمال اليدويين حيث يبلغ الفتى سن الاكتفاء الذاتي في الواحدة والعشرين من العمر ويستطيع أن يتزوج، أما في الطبقات الأعلى فإن سن الاكتفاء الذاتي ترتفع مع ارتفاع المنزلة والرفاهية، إذ يتأخر النضوج الاقتصادي كلما ارتفعت المهن، وفي التجارة والصناعة ظهرت آلاف من العوامل تؤثر في عمل المرء من قريب

أو من بعيد، وقد تؤدي إلى فقدان عمله في أي وقت.

وأخذ الرجل – وقد أثقلته مطالب الحياة ومراوغاتها بما لم يعهد من قبل – يرى المرأة وقد تجردت من وظائفها مع نمو المصانع والآلات، وإذا تزوج كان مضطرا بحكم التقاليد المنحدرة عن القانون الزراعي إلى الاحتفاظ بزوجته في البيت، وهو بيت أصبح الآن مجردا من الأهمية والعمل، فتكون الزوجة حملا جميلا، أو تمثالا حيا يزين داخل البيت ولا شيء أكثر من ذلك، فجميع أنواع العمل التي كان عليها أن تقوم بأدائها في الأيام الخوالي أصبحت الآن تؤدي في المصانع، وعلى الرجل أن يدفع ثمنها مما يكسبه من عمله، وإذا أرادت المرأة شغل وظيفتها بالحمل ازدادت مصاعبها لوجودها في المدينة: فالحمل في الوقت الحاضر يكلف المال كثيرا أجرا للأطباء والممرضات والمستشفيات والأدوات.

وليس من اليسير على المرأة في العصر الحديث أن تنجب من الأطفال بالسهولة والبساطة كما كانت جدتها تفعل من قبل، وكلما كثر عدد أولادها ازدادت الحالة سوءا، فكل ولد منهم غرم لا غنم، وهم في حاجة إلى التعليم حتى السادسة عشرة، وقد يمتد تعليمهم إلى السادسة والعشرين، هذا إلى أنهم يضاعفون أجرة البيت ونفقة السفر، ويذهبون إلى المسارح والملاهي بانتظام، كما يحتاجون إلى ملابس من أحدث طراز لمسايرة غيرهم من الأطفال الذين يرغبون في مجاراتهم بالمثل، حتى إذا بلغوا السن التي يكسبون فيها قوتهم هربوا من سلطان الأبوة إلى حرية الحياة الفردية الخالية من المسئولية، بل حتى إذا لم يهجروا البيت بمحض رغبتهم فإن نداء العمل والكسب، وتفرق الأسواق والمصانع والحرف في أماكن بعيدة، ينتزعهم من البيت ويبعثرهم كما تتناثر الشظايا من القنبلة المنفجرة، من أجل ذلك بدا الحمل في المدن صورة من الاستبعاد، وتضحية سخيفة في سبيل حفظ النوع، تؤخر المرأة الحصيفة وقوعه إلى أكثر ما تستطيع، وكثيرا ما تؤثر العقم على تأجيل الحمل، وارتفع تحديد النسل إلى فضيلة تتضاعف مكانتها، وأصبحت وسائل منع الحمل إحدى مشكلات الفلسفة.

واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا، فقد كان

القانون الأخلاقي قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج، لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج، أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه، لن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل، ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة.

وأثمرت هذه الشروط كلها علة أوسع وأعم لتغير أخلاقنا، وهي الزواج المتأخر. فقد كان متوسط سن الزواج بين الرجال في باريس سنة ١٩١٢ الثلاثين وكان في إنجلترا ستا وعشرين[١]. ومن المحتمل جدا أن يكون هذا المتوسط قد ارتفع في إنجلترا خلال السبع عشرة سنة الأخيرة، ومن الواضح أن باقي العالم "المتحضر" (أي المصنع) أخذ في الاتجاه في نفس الوجهة، لأن الأخلاق كالأزياء تفد من باريس، وهذا التأخير في الزواج أشد بين طبقات الموسرين في مجتمعات المدن، مع انهم في منزلة تجعلهم أقدر على تربية الأطفال عقليا وجسميا تربية حسنة، وكثير منهم لا يتزوج على الإطلاق، فمن بين ٣٦ مليونا وهم سكان إنجلترا وويلز سنة ١٩١١، تخلص ٧ ملايين من الزواج، من جملة عدد البالغين وهم ٢٠ مليونا[٢]. وكلما هجر الناس الريف وازدحمت بهم المدن ارتفعت سن الزواج، وطالت صحبة الرجل لخلية تنتهي به إلى العجز عن الزواج.

واتجهت أكثر فأكثر نزعة رجال الطبقة المتوسطة إلى اعتبار الزواج خسارة عليهم، فهناك آلاف من النساء ينتظرون إقبال الرجل لإشباع رغبته الجنسية، وماذا يمكن للزواج تحقيقه أكثر من ذلك، وقد أصبح الأطفال حملا ثقيلا، والبيت شقة في عمارة كبيرة؟ ويتأمل الأعزب حال أصدقائه المتزوجين، ويرى كيف يتهالكون على العمل ليحتفظوا للزوجة بحياة ناعمة وفاسدة تتفق مع وضعها، فيعجب ما الذي دفع

(1)Gallichan, W, M. The Great Unmarried, p. 47.

(٢) المرجع السابق.

هؤلاء الذكور إلى هذا الاستعباد الذي لم يسبق له مثيل.

أو يرى المستوى الراقي من الحياة والوجاهة حين يحيط الأب من الطبقة المتوسطة بناته بهالة من الفرو والسيارات والخدم اجتذابا لزوج ثمين؛ فيعجب كيف يستطيع بدخله المحدود في أول الشباب مسايرة هذه الرفاهية التي حققها الأب في بيته بعد زمن طويل، ويرجع الشاب إلى رصيده في البنك فيقرر إيثار السلامة إلى حين.

فحياة المدينة تفضي إلى كل مثبط عن الزواج، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها، ولكن النمو الجنسي يتم مبكرا عما كان من قبل، كما يتأخر النمو الاقتصادي فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا في ظل النظام الاقتصادي، أما الآن فإنه يبدو أمرا عسيرا وغير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين، ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم، وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعا للسخرية؛ ويختفي الحياء الذي كان يضفي على الجمال جمالا، ويفاخر الرجال بتعدد خطاياهم، وتطالب النساء بحقها في الانغماس في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا.

وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس، ولقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي، ولم يعد العالم المدني يحكم به.

وذهب ليبنز إلى أن زواج الرجل مسألة يستغرق في بحثها طول عمره[١]، ومن الواضح أن شباب اليوم يوافقون على ذلك، فبعضهم يفكر طويلا وطويلا، ثم يصبح أعزب، وينتهي أخيرا إلى الزواج عن ملال، وإنك لترى هذا الصنف في الحدائق العامة يسعى أحدهم إلى الاستمتاع بالحياة مع فتاة عرفت مع غيره الحياة، متنقلا مع ذلك

(1)Williams, H. S., The Science of Happiness, p. 218.

من ساقطة إلى أخرى، أو يتردد على (الكباريهات) حتى تفتر نفسه ويسأم استعراض السيقان العارية المختلفة الأشكال، ويكتشف أن جميع الفتيات في (الجوقة) متشابهات، فيمل آخر الأمر الرذيلة نفسها، ثم يجد أن صعوبات الزواج ليست شيئا مذكورا بالقياس إلى الفراغ الذي يحس به معظم العزاب في حياتهم، فتلك المسئوليات المتزايدة، والمشكلات المتلاحقة أفضل ألف مرة من الشعور المتزايد بعدم الكمال، وحياة الإنسان وحيدا كالغصن المعطل عن حمل الثمار.

ولسنا ندري مقدار "الشر الاجتماعي" الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه، ولا ريب في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب، لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة، ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملال الذي يحسبونه في حصار قلعة مستسلمة، ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية، وما يحدث من إباحية بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله، وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسان، وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر، غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهي تعرض علينا في المسارح أو كتب الأدب المكشوف، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين وهم في حمى الفوضى الصناعية من حمى الزواج ورعايته للصحة.

ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة، لن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ابتذال ظاهر، ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزا بأحدث التحسينات ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية، ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها، ولكن الفتاة التي سوف يتزوجها بعد تجربة استغرقت عشر

سنوات، يجب أن تحافظ على عفتها، فلا يقربها احد حتى يتلقاها بين أحضانه المجربة، (شبه بلزاك العروس في ليلة الزفاف بقرد يحاول العزف على الكمان). وهذا وضع غير معقول بعض الشيء في ترتيبه، ولا نزاع في أن ذلك يرجع إلى حد ما إلى ما كان يقتضيه الآباء المغرمون ببناتهم من مهر غال ثمنا لعفتهن، وقت أن كان الزواج يشترى صراحة، ولا ريب كذلك في ارتباط هذا الأمر بذلك العرف المزدوج الذي أصبح مقدسا على مر الزمن، والذي يقتضي إخلاصا من جانب واحد وهو جانب الأم حتى يمكن التعرف على الورثة، وإثبات حقهم في الميراث، وهذا في نظر "العقل الخالص" ظلم فادح، ولن يطول استمراره على الأرض.

ولا يشك عاقل يخلو من الهوى في أن كبح جماح الشهوة بعد البلوغ أمر غير طبيعي، فالكبت الجنسي يؤدي إلى ضروب كثيرة من الأمراض العصبية والانحرافات، وهو ضغط لا مسوغ له على العقل والجسم في هذه المرحلة الدقيقة من التحول، حين يحتاج العقل والجسم إلى صحة وافرة، ومن التناقض أن يقدح عالم الأخلاق في العلاقات الجنسية قبل الزواج إلا إذا هيأ مقاومة فعالة للقوى المفضية إلى تأخير الزواج، ولن نستطيع تحقيق هذه الحاجات إلا إذا أمكن أن تعود ثانية تلك الشروط التي كانت معقولة في ظلها، وقد حان الوقت لمواجهة هذه المشكلة دون مواربة: فيجب إما أن نطلق حرية العلاقة الجنسية قبل الزواج، وإما أن نحث على الزواج بالرجوع إلى السن الطبيعية.

٤- رجالنا المتحررون[1]

جرت العادة أن نربط بين العربدة الجنسية والشباب، ولكن هذه العربدة تسود جميع الأعمار التي لم تزل فيها بقية من قوة ولم ينهكها العمل، فقد فاضت المدن بسبب تأخير الزواج بالرجال والنساء الذين يسعون إلى استبدال مثيرات التنويع

(١) يتكلم المؤلف عن المرحلة التي تلي مرحلة الشباب، وسمى أصحابها "الأكبر سنا **elders**"، وفي اللغة العربية تسمى هذه المرحلة بالرجولة وتعقبها الكهولة ثم الشيخوخة. (المترجم)

الخارجية بمهام الأبوة وتدبير المنزل مما كان يستغرق وقت الآباء والأمهات.

وهذا الضرب من الناس بوجه خاص (وكذلك الرجال من أهل الريف حين يذهبون إلى المدينة في إجازة) هو الذي يملأ حانات الليل night – clubs، حيث يذهب الغر وحيدا ويسمح لنفسه أن يحذر بالشراب، وأن تسلب ماله تلك الفريسة اللطيفة التي يظن انه قد يجد في أحضانها بديلا عن الزوجة، وعادات هذه الطبقة آخذة في الانتشار بسرعة بين جميع الطبقات، فقد أصبحت الإباحية بدعة، ولا يجرؤ أي رجل على التسليم بانه أمين لزوجته، أو يؤثر الصحو على السكر، فطابع العصر في الوقت الحاضر أدنى إلى إباحية الرجولة منه إلى رومانتيكية الشباب.

وقد رأينا أن تأخير الزواج هو الأصل في تحول أخلاقنا الجارف في المجتمعات الحديثة، وهنا أيضا بمقدار ما تتدخل العوامل الشخصية يجب أن نلتمس علة التغير في الآباء لا في "الجيل الأصغر". وغرائز الشاب الراسخة قوية وقد تقوده سريعا إلى التقييد بحبل الزواج، ولكن الأب الحذر والأم الغيور يسألان الشاب في سخط كم يكسب من مال يبيح له متابعة هذا الغرام المجنون.

ويبدو أن حكمة الحبيب هي التي تكون فلسفة الوالدين الأساسية وهما في منتصف العمر، ولكنهما ينسيان شهوتهما الخامدة ولا يخطر ببالهما أن عاطفة الشاب قد تسوغ أمورا لا يستطيع عقل الشيخ فهمها، فالجيل الأكبر سنا إذن هو الأكثر بعدا عن الأخلاق، فهو الذي لا يحفل بصالح المجتمع أو الجنس ويجد من دوافع الطبيعة الحكيمة، فينصح بالفعل أن يقضي الشاب سنوات عدة من الإباحية تمهيدا للظفر بزواج سعيد وأطفال أشداء، أما إذا كانت نظرة الآباء أوسع فيجب عليهم أن يضعوا المال في المرتبة الثانية بالنسبة إلى سعادة وصحة الفرد والجماعة، وأن يتعاونوا مع الطبيعة، وان يقدموا بعض التضحية يتمكن بها أبناؤهم من الزواج المبكر، وإلى أن تسود هذه النظرة فلنا أن نرد لا أخلاقية الشباب إلى فلسفة الآباء التجارية.

ومن الذي يقول إن خلاعة الشباب أسوأ من عدم استقرار الزواج في سن

الكهولة؟ انظر إلى طغيان الطلاق المستمر على الزواج تجد انه يزعج حتى أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالإحصاء، ففي دنفر عام ١٩٢١ كانت نسبة الطلاق مأساوية لنسبة الزواج، وارتفعت نسبة الطلاق عن الزواج في السنوات الأربع السابقة من ٢٥ إلى ٥٠[١]. وفي شيكاغو عام ١٩٢٢ تم ٣٩٠٠٠ زواج، و ١٣٠٠٠ طلاق، وفي ولاية نيويورك عام ١٩٢٤ قلت نسبة الزواج ٤.٦ في المائة عن عام ١٩٢٣، وارتفعت نسبة الطلاق إلى ٨.٢ في المائة[٢] و[٣]

أما "الأسباب" التي تبني عليها المحاكم الحكم بقطع حبل الزواج فسطحية مع بارعتها: مثل الهجر، والقسوة، والإهمال، والسكر، وما إلى ذلك .. كأن هذه الأسباب كانت مجهولة حين كان الطلاق نادر الوقوع، ذلك أنه تحت هذه العوامل السطحية يوجد هذا النفور الجديد من الأبوة، وهذه الشهوة إلى التنويع المتأصلة في طبيعة الإنسان والتي تضاعفت اليوم أضعافا مضاعفة مع فردية الحياة الحديثة، وتعدد المثيرات الجنسية في المدينة، والإتجار في المتع الجنسية.

وترجع جاذبية المرأة كزوجة إلى جمالها إلى حد كبير، فالرجل يختار الزوجة لما فيها من جمال، لأن الجمال كان في القديم سبيلا إلى أمومة قوية، ولكن الزواج يطول على مر الزمان، ويأخذ الجمال في الذبول، والرجل الذي يتزوج المرأة لجمالها لا يستمتع بها إلى الأبد، أما جاذبية الرجل كزوج فترجع إلى حد كبير إلى الشخصية والفحولة، ومع ذلك فإن ألمع شخصية، وأقوى رجولة يجب أن تخبو بعد ألفة وصحبة إجبارية تدوم سنين عدة، لذلك ينجو الرجل بنفسه بالتغيب عن البيت بعض الوقت كل يوم، وتسعى المرأة إلى الاحتفاظ بجمالها بأن تؤجل الحمل، وبمعالجة بشرتها بألوان من المستحضرات الكيميائية تصبح الأسمدة الزراعية إلى جانبها بدائية، ولكن سرعان ما

---

(1)Literary Digest, Feb. 17, 1923

(2)New York Times, Nov. 15, 1925

(٣) في عام ١٩٤٩ كانت نسبة الطلاق الربع في ولاية نيويورك – أنظر لوس انجلز تايمس، ١٠ أبريل سنة ١٩٤٩.

يظهر جوهر المسألة إلى الوجود، إذ يجب أن تحل جاذبية الأمومة محل الجاذبية الجنسية حتى يحتفظ بكيان الزواج، وعندئذ تزدهر الزوجة بألوان من البهاء لم يكن الزوج يحلم بها في فلسفته، فهي تتغير الآن، وتنمو، وتتفتح مرة أخرى، ويلفها الإعجاب الغريزي بالطفل بغلالة جديدة قوية من السحر، وإذا فقدت الزوجة هذه الصفات أصبح البيت دارا عبارة عن جدران ميتة تضم جسد الزوجين، ثم لا تلبث أن تضم شخصين متباعدين ولا غير، حيث كان من المحتمل أن تنشأ في تلك الدار أسرة.

٥- الأسرة

ومع ذلك فالأسرة أكثر النظم الاجتماعية تلقائية، وأشدها قربا من الطبيعة، لنها ترتكز مباشرة على ميول موروثة لا تدفع إلى مجرد الاتصال الجنسي فقط، بل إلى إنجاب الأطفال وتربيتهم، ولذلك لا نجد في العادة ضرورة لطرح هذا الموضوع على البحث الأخلاقي، وما نسميه "غريزة التناسل" عبارة عن متاهة معقدة من دوافع واستعدادات واتجاهات يأثرها صاحبها، واكبر الظن أن الدافع إلى الاتصال الجنسي يجب أن يتميز تميزا دقيقا عن الميول التناسلية كالرغبة في الإنجاب، والميل إلى المثابرة على العناية بالأطفال بعد ولادتهم، ذلك أنه ولو أن بعض النساء وكثيرا من الرجال يعتقدون في خلوهم من الرغبة في الإنجاب، فهناك قليل من الرجال وقلة أقل من النساء لا يكتشفون في الحال أن الطفل ظاهرة رائعة ومحبوبة حتى إذا كان مكروها ومشكلا، إن أبرد الفلاسفة متحيز لصالح طفله، فإذا كان الطفل سقيما نما حبه في القلب مع العناية به، كما يزداد حب الفنان للصورة التي تتشكل بين يديه، وإذا كان الطفل قبيحا أعمت الطبيعة الرحيمة عين الآباء وبسطت جناح الخيال على الحس، وكما قيل: "إن الله ينزل الدواء مع وقوع المرض". وقد كان القدر رحيما لأنه حرمنا هبة رؤية أنفسنا كما يرانا غيرنا من الناس.

ولا نزاع في أن الأطفال لا يعيشون من أجل آبائهم، بل الآباء هم الذين يعيشون من أجل الأبناء، وتستمد الأسرة أصلها ومعنى وجودها عن عجز الطفل الشديد، ولقد كانت الأسرة أداة حماية لتلك العادات والفنون، والتقاليد والأخلاق

التي تكون مادة تراثنا الإنساني، وتقوم مقام الملاط في البناء الاجتماعي، فالطفل فوضوي، ولا يشعر باحترام لأي قانون أو عرف، ويعتبر ألوان الحظر فريسته الطبيعية، ولكن الأسرة – بطريق الأطفال والآباء كذلك – تحيل الفردي الصغير بالرشوة والعصا، وبالحلوى والأوامر، إلى كائن اجتماعي راغب في التعاون – بل وبعض الوقت إلى شيوعي راغب في القسمة، والأسرة هي أول وحدة اجتماعية يتعلم الفرد الولاء لها، ويجب أن يقوم نموه الأخلاقي على تعلم الولاء لكل وحدة أكبر، إلى أن يبلغ قلبه أخيرا أقصى حدود بلاده، ولكن الشاب حين يخرج عن أرض البيت الثابتة، تبتلعه دوامة المنافسة، فيفقد مع الزمن الرغبة التي غذتها الأسرة في التعاون، والإنسان في منتصف العمر، مع أنه ناجح ولكنه غير سعيد، يرجع بين حين وآخر إلى بيت الأسرة مع شعور بالراحة والتفريج، وكأنه يرجع إلى جزيرة شيوعية في بحر من الفردية.

وقد نشأت هذه الوظيفة للأسرة، كمركز أخلاقي وموحد للمجتمع، من وضعها باعتبار أنها الوحدة المنتجة للنوع الإنساني، وكلنا يعلم أن هذا الوضع المركزي للأسرة قد انتهى، وأن السكان المصنعين يعيشون معلقين بشرط متغير يهددهم بتحويل قانونهم الأخلاقي عن نظام فقد أساسه الاقتصادي والسياسي، ذلك أن هجرة الصناعة من البيت والحقل إلى المصنع والشارع، وتطور المهن الحرة مع تغير المركز الجغرافي بحياة الفردية، وحركة العمل المتغيرة التي تنسب إلى وفرة رءوس الأموال أو ظهور موارد طبيعية جديدة، كل ذلك قد مزق الروابط التي كانت تصل بين الأبناء والآباء لحفظ وحدة البيت، وأخذ الإخلاص للأسرة والولاء لها يذبلان، وامتصت الوطنية ما فيهما من عاطفة قوية، كما تذوب قوة الأبوة عاما بعد آخر في وظائف الدولة المتوسعة وقواها النامية، ففي كل مكان ينهار التعاون التلقائي الصادر عن الرابط الطبيعي في الإنسان، ويجد بديلا مزعزعا في الروابط الصناعية والخارجية للقانون والنظام، والخضوع للمذهب والقهر، وفي نهاية الأمر نجد أن هذه الفردية الاقتصادية والسياسية تعكس نفسها في فردية أخلاقية ليس لها مثيل من جهة نظام توزيع الأرباح، ولا توجد إلا في تلك العصور التي ذابت فيها الحضارات الكبرى في غياهب الماضي.

٦- الأسباب

ولنلخص ما سبق أن ذكرناه، فالعلة الأساسية لهذه التغيرات الأخلاقية هي الثورة الصناعية التي كان لها يد، إن خيرا أو شرا، في معظم كل تحول حديث؛ فقد أخر قيام نظام المصانع الزواج لأنه جعل الفرد غير آمن، وزادت الإباحية بهذا التأخير الداعر، وبإلقاء الملايين من الناس في بحر حياة المدينة، وما فيها من صلات مثيرة وستارة المساواة، كما أدى قيام المصانع إلى تحرير (تصنيع) المرأة فنتجت عن ذلك عرضا تجربة الصلة الجنسية قبل الزواج؛ وإلى إضعاف أثر الأسرة الأخلاقي؛ وإلى استبدال الزهد والحرمان البيوريتاني بالانغماس الأبيقوري في كل لذة وفي كل انحراف، وتوافق نمو وسائل منع الحمل مع ظهور كل سبب من هذه الأسباب، وتعاون وإياها على العمل والتأثير.

وكما كانت ثروة عصر النهضة سبيلا إلى تحريره وحريته وفنونه، كذلك ثروة العصر السائدة في كل مكان، والتي فاقت كل ثورة أدبية، هي التي بدلت قانون الحجاج القاسي بتساهل النفوس المتحررة، ويعد تغير أيام الآحاد عندنا من أيام راحة وعبادة إلى رحلات وأفراح وثنية لا حد لها، دليلا واضحا على تبدل أخلاقنا وحياتنا المتحررة، ومن الأسهل أن يكون الإنسان فاضلا حين يكون فقيرا، وقد يقاوم الإغراء في بعض الأحيان إذا كان فادح الثمن.

ولكن دع جيوبنا تتضخم بالمال، ودع عزلة الناس تحجبنا عن أعين الجيران، وسوف نلتمس نسيان الهموم في وجوه الحسان، ونتحرق لإظهار رجولتنا لقلوبنا ذاتها، ومن العبث أن يرثي علماء الأخلاق لحال رفاهيتنا الحديثة في الزينة والمزاج، فهذا الأمر يقوم على دوافع كانت موجودة على الدوام وتجد الآن أمامها فرصة نادرة للظهور، وستظل النتيجة على ما هي عليه حتى تغير الظروف الاقتصادية من هذه الحال، فما دام نظام الآلات يضاعف أوقات الفراغ، ويستبدل الأعمال العقلية بالأعمال اليدوية، فإن الطاقة التي كانت تصرف مع الأعمال الجسمانية سوف تصعد إلى الدم، وتجعلنا في غاية الحساسية للمؤثرات الجنسية.

وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم مذهب دارون على المتعقدات الدينية، وحين اكتشف الشبان والفتيات وقد أكسبهم المال جرأة، أن الدين يشهر بملاذهم، التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين، وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفا للحياة، وكان علماء اللاهوت قديما يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذلك ذنبا[١]، أما الآن فلنا أن ندهش ونقول: أليس من الإجرام أن نرى مثل تلك اليد ولا نقبلها.؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة.

إنها عقوبة جماعية تدفع الأخلاق اليوم ثمنها لأنها ارتبطت بالعقائد الغيبية، فقد بنى القانون الأخلاقي على الخوف – الخوف من العقاب في الحياة الدنيا، ومن النار في الآخرة – ولكن المعرفة عدو الخوف، وهي آخذة في النمو، فلا يمكن أن يعيش القانون القديم إلى جانب التعليم الجديد، غن حياتنا الصاخبة تنادي اليوم بأخلاق جديدة تستند إلى طبيعة الإنسان وقيم هذه الحياة، وتنقذ سفينة الحضارة التي تركت لتهتدي بنفسها بعد أن طارت الآلهة عنها فجأة.

ويجب أن نضيف إلى زوال الزراعة وانحلال الدين تدهور الحضارة النجلوسكسونية، فقد هوى المذهب البيور يتاني، لا لن قيوده على الدوافع الإنسانية والتي كانت معقولة أصبحت غير معقولة في ظل الشروط المتغيرة في العصر الحاضر، بل كذلك لأن أولئك الأقوام الذين لا يزال القانون القديم يجد فيهم مثلا وعضدا قد أصبحوا في مدننا[٢] قلة لا حساب لها ولا حيلة، وقد أدت الهجرة وارتفاع نسبة المواليد إلى التسامي بالعامة وانتزاع ذوي السلطان من مراكزهم، فالأجناس "غير الشمالية" من إيرلندا وروسيا وجنوب أوربا هم الذين يسيطرون اليوم على الحياة السياسية في مدننا

(1)Ellis, Studies in the Psychology of sex, vol, VII, p. 180.

(٢) يشير المؤلف إلى المدن في الولايات المتحدة، ولذلك يتحدث فيما بعد عن الهجرة إليها من الخارج. (المترجم).

الكبرى، ويضفون على الأدب والحياة طابعهما العام الذي يتميز بالتهاون في القانون الأخلاقي، ففضائل الأنجلوسكسون المنزلية لا تناسب مرح الايرلندي، أو حماسة الإيطالي، أو تساهل السلافي، وكما أن عصر نيو إنجلاند قد زال من أدبنا حين أخذ المهاجرون المتأخرون يتلمسون في بطء وخشونة هيئة جديدة وأسلوبا جديدا لفلسفتهم الواقعية والتشاؤمية، كذلك أخلاقنا في الوقت الحاضر تتعثر في حال من الفوضى، على حين أصبحت الأقليات التي كانت مضطهدة من قبل هي صاحبة السلطان على الأدب والمسرح والكنيسة وعلى الدولة بشكل أوسع، لقد غيرت الأخلاق في أمريكا أساسها البشري كما غيرت أساسها الاقتصادي.

وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في هذا التغيير، ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين في ظل الصناعة والتجارة، وعودت الجند الوحشية والإباحية، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقي، وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رءوس، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم

القائمة على الاضطرابات النفسية، وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية، وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة، ظهر جيل مخدوع ألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي، وأصبحت الحكومات في واد والشعب في واد آخر، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها، واستهدفت الصناعات الربح، وبصرف النظر عن الصالح العام، وتجنب الرجال الزواج خشية مسئوليته، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة، أو إلى طفيليات فاسدة، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة، تحميه الاختراعات المغامرات النسائية في الماضي، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة.

فهذه هي الأسباب المتعددة لتغير أخلاقنا، وفي ضوء انتقال هذه الأسباب من الحقل والبيت إلى المصنع والشارع في المدينة يجب أن نفهم الجيل الذي يحل محلنا في

حال شديدة من الاضطراب، فمشاكل هذا الجيل وحياته جديدة ومختلفة عن الجيل السابق، وهو واقع بين براثن الثورة الصناعية التي تعدل عاداته وأزياءه وعمله ودينه وسلوكه، وليس من العدل ولا مما يتفق مع التاريخ أن نحكم على هذا الجيل في ضوء القانون القديم، وإلا كنا كمن يفرض عليه أن تلبس الفتاة (الكورسية) والعجيزة، وأن يلبس الشباب الحذاء ذي الرقبة ويطلق لحيته كما كان بفعل أجدادنا، فصاحب الخلق وعديم الخلق كلاهما في تغير مستمر، بين التقاليد الثابتة المولية والعادات الجديدة التي تشق طريقها إلى الظهور، ولا يعرف أحد بالضبط مدلول الأخلاقية أو اللاأخلاقية، وكيف يمكن تعريفها من جديد لنستعين بهما في فهم سلوك الإنسان في العصر الصناعي والمدني[1].

إننا نقف بين عالمين، أحدهما ميت، والآخر لم يكد يظهر إلى الوجود، ومصيرنا فوضى لا يليق بالجيل الجديد، فنحن أشبه بسقراط وكونفشيوس، في قولهما بأن الأخلاق القائمة على القهر والخوف قد فقدت سلطانها على الناس.

ونحن كذلك نحاول أن نلتمس قانونا أخلاقيا طبيعيا يقوم على العقل لا على الخوف، ويتمكن من إقناع الناس، حتى المتعلمين منهم، ويواجه الآباء في الوقت الحاضر آلافا من الأسئلة الأخلاقية والنفسانية لم تعد الإجابات القديمة تصلح لها، فنحن مضطرون على الرغم منا إلى أن نكون فلاسفة، وإلى فحص أفكارنا المزعومة وعاداتنا، حتى نبني لأنفسنا مذهبا في الحياة والفكر متماسكا مع نفسه ومع تجارب العصر ومطالبه، إننا نقف إزاء النجوم ونكاد نكون مجردين من العقيدة الغيبية ومن القانون الخلقي الجديد، فكل شيء يجب أن يبنى من جديد كأننا قد رجعنا إلى حياة القفار نشرع في إقامة حضارة جديدة.

وأين نجد قانونا أخلاقيا يتفق مع شروط حياتنا المتغيرة، ويرفعنا مع ذلك، كما

---

(١) مدني هنا بمعنى النسبة إلى المدينة وذلك في مقابل عصر الزراعة، واللفظة في الإنجليزية **urban** (المترجم).

رفع القانون القديم الناس، إلى الرقة والدعة والحياء والأدب والنبل والكرامة والفتوة والنجدة والحب؟ أو يرفعنا إلى فضائل جديدة كهذه الفضائل؟ وكيف نعرف الخير تعريفا جديدا؟ وكيف نعيد بناء الأساس الخلقي للمجتمع الكبير؟

الفصل السادس

١- الأخلاقية واللاأخلاقية

لنستمع بعض الوقت إلى ما يقوله الفلاسفة عن موضوع الأخلاق سيضاعفون بلبلة فكرنا وأحكامنا، ولكننا لن نستطيع أن نجد استجابة توافق هذه المشكلة إلا إذا أدخلنا في حسابنا جميع العوامل المتدخلة في الموقف.

وأقدم من نصادفهم يقذفون بنا في قلب المتاهة الأخلاقية الشائكة هم سفسطائيو الإغريق، وهم المؤسسون القساة الأخلاق الأوروبية، ذلك انهم قدموا اقتراحات وتحليلات تجعل نيتشه بالنسبة إليهم متواضعا، وتضعه إلى جانبهم في المحل الثاني، فقد استلبوا قبل ظهوره بألفي عام نصف صيحته التي نادى بها أقوى رجل في الفلسفة الألمانية، يقول كاليكليس في محاورة جورجياس التي كتبها أفلاطون: إن الأخلاق ابتكار الضعفاء لتقييد الأقوياء، وطريقة تحد من سلطان السوبر مان داخل قوى طبقة الشعب، والحكم هو الذي يعلو على مستوى الفضيلة والرذيلة، ويصدر عن رغبات قوية، وينشد صفات القوة والشجاعة والمهارة في تحقيقها، باعتبار أنها انبل الصفات[١]. ويعلن ثراسيماخوس في محاورة الجمهورية أن: "القوة هي الحق، وأن العدالة ليست إلا مصلحة الأقوى، وأن "الظالم" سيد البسيط والعادل، وأن "العادل" هو الخاسر بالإضافة إليه على الدوام"[٢]. واهتم بأن يضيف أنه "يتحدث عن الظلم على نطاق واسع" ويحذر من النصح بالظلم إذا لم يستطع المرء أن يرتكبه جملة.

هذا النقد القديم للفضيلة له دلالته، أي هل يتعلق مذهب نيتشه بشباب الفكر

(١) أفلاطون، جورجياس، ٤٨٣.

(٢) الجمهورية، الكتاب الأول.

أكثر مما يرجع إلى مرحلة نضوجه؟ لقد كان السفسطائيون يمثلون نشوة الحرية التي أصابت الفلسفة اليونانية حين رفعت عن كاهلها قيود الشرك والتقاليد.

كان القانون الخلقي القديم في اليونان يعتمد اعتمادا مزعزعا على أساس وعلى أجزاء من الدين، كما يعلق المرء من رجليه في الهواء، فلما ظهر أن الأساس غير وطيد أصيبت الأخلاق بالضرورة، وأصبحت اللاأخلاقية، كالإلحاد والمادية والحتمية، حدثا طبيعيا لثورة الشباب العارضة، كذلك الحال بالنسبة إلينا، فنحن حين نكتشف أن يهوذا الذي كان يخيفنا في طفولتنا – موسى الملائكي الموجود في السماء – ليس إلها حقيقيا بل مجرد إنسان مخيف يهدف إلى كفنا عن سرقة البلي ومشاكسة المدرسين، فإننا نخلص إلى هذه النتيجة المؤقتة، وهي: أنه ما دام هذا الإله الخاص غير موجود، فسائر الأشياء التي كان يحرمها هي الآن مباحة، وأن السرقة والقتل والنصب هي ألوان محترمة من النشاط إذا زاولها المرء بصواب مع احترام أوامر البوليس، وفي ذلك قال دستوفسكي: "إذا لم يكن ثمة إله (على المعنى السابق من الرعب الليلي) فكل شيء مباح". فليس على المرء إلا أن يكون حذرا، ومشكلة الأخلاق (وهي البحث العقلي في الأخلاقية) تنحصر في هذا البحث وهو: هل المطلوب أن يكون الإنسان "فاضلا" كما يكون حذرا ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن نحث الناس بناء على ذلك؟

ولا نستطيع أن نفهم منزلة سقراط العظيمة في تطور الأخلاق الفلسفية إلا في ضوء هذه النيتشية السفسطائية الفتية، فقد رأى سقراط أثينا تتأرجح بين خطرين: ضغط الأكثرية الديمقراطية للرجوع إلى المعتقدات القديمة، وهذه الفردية المتحررة من الخلق المستهترة التي نشأت من زوال الأوهام عن العقيدة الموروثة، تلك الفردية التي جعلت من أثينا فوضى تعجز عن الوقوف في وجه أرستقراطية إسبرطة القوية، أنحن في حاجة إلى الموازنة بين تلك الصورة وبين صورة عصرنا الحاضر؟ لقد تصور سقراط مشكلة الفلسفة الكبرى في تطور أخلاق طبيعية تحل محل الأخلاق الغيبية التي كانت الفلسفة قد هدمتها.

وإذا استطاع المرء أن يقيم مذهبا أخلاقيا مستقلا عن المعتقدات الدينية، فمن الممكن أن تعيش هذه المعتقدات دون أن تحل الروابط الأخلاقية التي تجعل من الأفراد المنفصلين مواطنين مسالمين في الدولة، فمثلا لو أن "الخير" كان يعني "العاقل"، وكانت "الفضيلة viryue" تعني "الحكمة Widom"، ولو امكن أن يعلم الناس معرفة مصالحهم الحقيقية، والبصر بالنتائج البعيدة لأعمالهم، ونقد رغباتهم والتوفيق بينها للخروج بها من فوضى تمحو النفس إلى رغبة كلية خالقة وتهدف إلى غاية – فلعل هذا يمد المتعلم والسفسطائي بالأخلاق التي تعتمد عند العامة على الجزاء الإلهي وأحكام رجال البوليس، ومن المحتمل أن يكون مرجع كل ذنب إلى الجهل، وإلى الإخفاق في الوصول إلى نظرة كلية، ألا يمكن أن يكون العقل النامي بالعلم الغزير فضيلة تكفي في حفظ كل نظام اجتماعي ضروري؟

وفي هذا المذهب تختبئ فردية داهية، كانوا يرونها المقابل الأخلاقي لفلسفة سياسية أرستقراطية، وكان ذلك المذهب يزعم أن شرف طبقة النبلاء يمكن أن يبث بتعليم الجيل، ولم يخطر ببال أصحاب المذهب أن العقل قد يجعل المجرم أكثر بالعقل إجراما، وبذلك بقيت المشكلة القديمة بدون حل: أن نجعل العقل اجتماعيا، أو أن نلتمس للأخلاق أساسا خارج العقل والتفكير، وأخذ أفلاطون بالحل الأول: فليس العقل، كما يقول، مسألة عقلية فقط، بل هو التناسب الجميل أو الفني بين العناصر في صفات المرء، هو التماثل، والترتيب، وهو التوافق في السلوك الإنساني، وليس أسمى الفضائل في صفاء الذهن، أو في القوة العارية من الأخلاق، بل هي ائتلاف الأجزاء في كل، سواء أكان ذلك في الفرد أم في الدولة، وهنا نجد أساسا سليما يقوم عليه أبحاث أخرى في الأخلاق، ولكن الفلسفة لم تتابع السير في هذا الطريق، ثم تدهورت بلاد اليونان على الرغم من وجود فلاسفة الأخلاق، حتى إذا جاءت المسيحية كان العالم بأسره مستعدا لقبول قانون أخلاقي يقوس بالأمل في حياة آخرة والخوف منها ما يحسه الناس من ضعف في الإيثار والعدل، وبقيت المشكلة القديمة الخاصة بأخلاق طبيعية مستقلة عن الأديان بغير حل.

٢- الأخلاق الطبيعية

وهنا نجد أن فرانسيس بيكون هو الذي قدم مفتاح الحل، كما فعل في ميادين أخرى كثيرة، وتجمل إحدى العبارات الهامة من كتابه "تقدم العلم" نظرية كاملة في الأخلاق الدنيوية، يقول الوزير الأكبر: "في كل شيء نزعة إلى نوعين من الخير، إحداهما نزعة باعتبار الشيء كلا في نفسه (ونحن نسمي هذه النزعة بالغرائز الفردية)؛ والأخرى باعتبار الشيء جزءا من كل أعظم (ونحن نسمي هذه النزعة الأخرى بالغرائز الاجتماعية) وهذه الأخيرة أهم وأقوى من الأولى، لأنها تتجه إلى حفظ صورة أكمل"[١] ومعنى ذلك أن أساس الأخلاق، كعدم الأخلاق، موجود في الطبيعة البشرية، فهناك دوافع اجتماعية كما توجد دوافع أنانية، وغرائز لحفظ الجماعة والجنس كما توجد غرائز لحفظ الذات، ويذهب بيكون إلى أن هذه الغرائز الاجتماعية هي على الإطلاق أقوى من الغرائز التي تستهدف حفظ الفرد، فإن صح هذا القول فهو ولا ريب في غاية الأهمية. وفي هذا الطريق يجب أن يتجه البحث عن أخلاق طبيعية.

وظل هذا الرأي الجديد الذي قال به بيكون بغير أساس علمي حتى وجد عرضا عند ظهور دارون، وقد بدت النتائج الأخلاقية لمذهب دارون أول الأمر مؤيدة للنيتشية، ذلك أن التطور إذا كان كفاحا من أجل الحياة وبقاء الأصلح، فالبقاء هو معيار الصلاحية في كل شيء، ولا تستثني الأخلاق من ذلك، فلا ينجح إلا الرجل الفاضل فقط، وتصبح القوة هي الحق مرة أخرى، ولقد فزع هكسلي حين رأى إلى أين تقودنا نظرية التطور، ووافق تنيسون على أن الطبيعة (التي كان يعني بها عملية الانتخاب الطبيعي) كانت "حادة الناب والمخلب" وهي في غاية العداء لجميع المبادئ الخلقية التي رفعت من شأن الحياة الإنسانية هذا الارتفاع، فالتطور يدل في جميع مظاهره على استعباد القوي للضعيف (وكان بعض علماء التطور مثل كارل بيرسون

(١) الكتاب السابع، الفصل الأول.

يحتجون على الآثار السيئة التي يولدها الإحسان). أما الأخلاق فإنها تعني مساعدة القوى للضعيف .. ويقتضي التطور الكفاح من أجل الحياة بأي سبيل؛ وتقتضي الأخلاق الحد من الكفاح، اللهم إلا داخل حدود الإنسانية والشرف، والغاية القصوى من الأخلاق هي السلام، والمعيار الأعظم للكفاح هو الحرب، وينتهي هكسلي إلى قوله: "لا يعتمد التطور الخلقي للمجتمع على محاكاة عمليات الكون .. بل على حربها"[١].

وكان اتخاذ ذلك الموقف خطيرا، إذ لو كانت الأخلاق مضادة للطبيعة فالأخلاق مقضي عليها قضاء مبرما، وقد كان هكسلي نافذ البصر حين رأى هذه النتيجة: "إن الطبيعة الكونية التي تولد مع مولدنا، والضرورية إلى أقصى حد في بقاءنا، هي ثمرة ملايين من السنين من التجارب القاسية، ومن الحماقة أن نتصور أن بضعة قرون تكفي في إخضاع سيطرتها لأغراض أخلاقية خالصة"[٢].

فالمشكلة الأخلاقية، نعني تأديب الإنسان بغير طريق الخرافات أو القوة، لا يمكن حلها إطلاقا، إذا كانت الأخلاق والطبيعية متعارضتين هذا التعارض الحاسم.

ويرجع الفضل إلى دارون المتواضع في التماس مخرج لهذه المشكلة، فلم يكن الفلاسفة قد لاحظوا – وما كانوا ليلحظوا لولا أن دلهم كروبتكين[٣] Kropotkin على ذلك – أن "المخرب"[٤] الأكبر في الفصل الرابع من كتاب "تسلسل الإنسان" وضع أسس القانون الخلقي الذي يعتمد على وقائع بيولوجية لا على عقائد إلهية، كان أرسطو وبيكون على صواب، فالإنسان اجتماعي بالطبع، لأن المجتمعات وجدت قبل وجود الإنسان بزمن طويل، وورثت الإنسانية العادات الاجتماعية – أي حملت النزعة الاجتماعية في دمائها – إلى جانب الدوافع الفردية إلى المنافسة والقتال، وقد

---

(١) التطور والأخلاق، ص ٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٥.

(3)Mutual Aid as a Factor in Evolution

(٤) يشير المؤلف إلى دارون (المترجم)

تطور التنظيم الاجتماعي، حتى في المراحل الدنيا من الحياة الحيوانية، كما هي الحال في النمل والنحل، إلى حد من التعاون أرقى من أي ضرب نراه في الجنس البشري، ومع تطور المجتمعات ضاق نطاق التنافس من الداخل للحاجة إلى حفظ التماسك الداخلي في وجه المنافسة الخارجية.

وأخذ تأثير الانتخاب الطبيعي يقل في الفرد، ويتزايد في الجماعات؛ فقد يمكن الاحتفاظ بالضعاف من الأفراد مع نمو العادات الاجتماعية لأترابهم في المجتمع، أما الأمم الضعيفة مثل إسبانيا، والأجناس الضعيفة مثل أهل طسمانيا(1)، والأنواع الضعيفة مثل المستدون(2) Mastodon والجاموس، فيمكن أن تهلك في الحرب والمنافسة بين الجماعات لقد وقف التطور عن أن يكون طبيعيا وأصبح اجتماعيا، وجاء بقاء الأصلح من تماسك الجماعة وقدرتها لا من قوة الفرد، وجعل التنظيم أجهزة الدفاع الثقيلة، التي تحملها على الدوام الحيوانات المتوحدة المعتمدة على قوتها الفردية فقط وعلى دهائها في الدفاع عن نفسها، زائدة عن الحاجة، أما في النمل والنحل حيث يكاد يبلغ التنظيم الاجتماعي حد الكمال، فقد اختفى تقريبا حمل السلاح الفردي، كالأنياب والأسنان والمخالب والجلد السميك، ووحد نمو الخطر الخارجي والمنافسة الخارجية بين أفراد الجماعة بضروب من التعاطف (بين الفرد والفرد)، والشفقة (بين الفرد والجماعة)، وحب العشرة، وتبادل المعونة، وكان نيتشة يعد وجود النساء ضرورة اجتماعية لبقاء الجماعة، فظهر بذلك تناقض غريب مؤداه أن عنف المنافسة والتنازع بين المجتمعات هو علة التعاون والسلام في داخلها، فالحرب، أو خطر الحرب، هي التي أدت إلى ظهور الأخلاق كما أدت إلى ظهور الروح المعنوية.

وفي ضوء هذا النظر البيولوجي يصبح من الواضح بما فيه الكفاية أن أساس الأخلاق وتعريفها الطبيعيين والضروريين هو اتفاق الجزء في العمل مع الكل، إنها

---

(1) طسمانيا جزيرة صغيرة في الجنوب الشرقي من أستراليا (المترجم)

(2) حيوان منقرض يشبه الفيل (المترجم)

النظرة الشاملة التي تتعاون فيها كل رغبة مع جميع الرغبات، وكل فرد مع أسرته، وكل أسرة مع الدولة، وكل دولة مع الإنسانية، والإنسانية ذاتها مع حركة الحياة العليا، ونحن في الشباب نحاول تعريف الأخلاق في عبارات تصدر عن الفرد الثائر؛ فنخضع العقل للقوانين غافلين عن خضوع العقل المخادع للرغبة، واستعداده الحقير لالتماس الأسباب لكل عمل مشكوك فيه، إننا نمتدح الاعتماد على النفس، والتوافق conformity والشجاعة، وننشد أغنية "الإنسان البسيط والمتوحد"، ونقول مع إبسن المتوحد إن الأقوى هو الذي يقف وحده، كما لو كان براند Brand أو بيرجنت Peer Gynt[١] قد وجد الأمر كذلك.

وهذا رد فعل سليم ضد عشرة الأسرة الثقيلة، ولا يدل إلا على أن الصبي قد نضج ويرغب في إثبات وجوده في العالم، وبعد أن نجتاز مرحلة الشباب نكتشف أن "المجتمع" الذي كنا نزدريه، والذي كنا نعارض بينه وبين الفرد العظيم، لا يشمل شيئا آخر سوى أفراد أيضا، كل واحد منهم ثمين كأنفسنا الغالية، ثم نسلم بعد مقاومة طويلة أن الأخلاق لا يمكن تعريفها بأي حال في صيغة الفرد، ويجب علينا أن نقبل خير المجموع باعتبار انه المعيار الأقصى الذي به نحكم (حين يجب أن نحكم) على سلوك الفرد.

أما العبارة التي وضعناها بين قوسين فهي السبيل الممهد إلى النتيجة التي نريد بلوغها، فمتى يجب أن نحكم؟ وكما أن أفضل حكومة هي التي تحكم أقل، كذلك أفضل أخلاق ما كانت أوامرها أقل، وحرية الحياة نعمة عظيمة، حتى ليعد بحق أولئك الذين يرغبون في فرض الأخلاق على جيرانهم أعداء الجنس البشري، وقد رأينا إلى أي حد من التزعزع يبلغ الحكم الأخلاقي، وأن الأمر المنافي للأخلاق قد لا يكون إلا مرحلة انتقال تتحسس طريقها بين قانون أخلاقي وآخر، وفضلا عن ذلك فهذا الزهد في الحكم الأخلاقي "يوصف" لعلاج الرجال والنساء المصابين بالعبقرية، فمثل

---

(١) براند وبيرجنت مسرحيتان لإبسن، ويشير المؤلف إلى شخصية كل منهما (المترجم)

هؤلاء الأشخاص، كما يقولون، تعزلهم الطبيعة لتجربة أساليب جديدة من العمل والشعور والتفكير، فإذا أخضعناهم لأخلاقنا الاجتماعية المألوفة والضرورية كنا يمكن يبطل الغرض نفسه الذي من أجله وجدوا، ولسنا في حاجة إلى أن نكون أكثر قسوة مع هؤلاء العباقرة من البابا بولس الثالث الذي قال حين نصح بسجن شليني[1] cellini لما ارتكبه من أعمال القتل في ساعة من الحماسة: "يجب أن تعلموا أن قوما مثل بنفنوتو Benvenuto الأفذاذ في مهنتهم هم فوق القانون". فلنبسط على عباقرتنا بعض التساهل الذي نمنحه لأصحاب الملايين عندنا.

لقد انتهينا بعد انحراف إلى نتيجة من أقدم النتائج وأشدها احتراما، وهي أن معيار الأخلاق هو الصالح العام، ولكن لا ينبغي أن يخدعنا النظر البيولوجي فنفترض أن غرائزنا تتفق مع العقل، فالطبيعة لا تعرف جماعة ولا أخلاقا إلا ما يتصل بالخلية والأسرة والقطيع، لقد كان بيكون ودارون وكروبتكين متفائلين في اعتقادهم أن الغرائز الاجتماعية أقوى من غرائز الذات، وقد يكون الأمر كذلك داخل الأسرة حيث نجد التضحية بالذات أمرا طبيعيا ولا تحتاج إلى مؤثر من خارج أكثر من الحب أو المدح، أما خارج هذا الميدان الصغير فالدوافع الفردية هي الحركة لنا في سلوكنا، ولذلك كانت البطولة heroism متصفة بالنجدة heroic لندرتها، وهذا هو السر في ابتداع المجتمع شبكة واسعة من النظم التي تقوى الدوافع الاجتماعية كالدين، والتعليم، والنشرات، والتماثيل المقامة في الميادين، ولسنا أكثر الأنواع ميلا إلى الاجتماع، فنحن في وسط الطريق بين فردية حيوان الغابات وتعاون النمل، وأقصى ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن الغرائز الاجتماعية – التي تبدو أحدث من حيث أصلها من المنافسة والاكتساب، وأضعف مؤقتا بسبب تدهور الدين والأسرة – آخذة في التقوى ببطء مع نمو قيمة التعاون وأثره في البقاء، وفي المستقبل البعيد لعل أولئك الذين تعلموا العمل مع أقرانهم في ائتلاف وعدل يقضون على أولئك الذين يتعطشون

(١) بنفنوتو شايني (١٥٠٠ – ١٥٧١) نحات مشهور إيطالي ولد في فلورنسا، ودعاه فرانسوا الأول إلى البلاط، وله تماثيل مشهورة في فونتنبلو. (المترجم)

إلى التملك الفردي وإلى السلطان، ولكن سنكون عندئذ قد انتقلنا إلى عالم آخر.

وإذا كان المحافظون راضين كل الرضا عن صيغة هذا المبدأ الخلقي، فليتأملوا بعض نتائجه، فلا شيء ينافي الأخلاق إلا إذا أضر بأقراننا، وبناء على ذلك فالانتحار في بعض الظروف ليس جريمة، وإذا اعتقد المرء أن الموت نعمة، وأنه أدى واجبه نحو بني جنسه، ولم يخلف من بعده محروما أو عاجزا، فحياته ملك نفسه يفعل بها ما يشاء، ثم إذا دعتنا الغريزة أو اللذة فلا ضير من تلبية ندائهما بشرط ألا يصاب أحد أقراننا بأذى، وبشرط ألا يصيبنا نحن أي ضرر جسمي أو عقلي على حساب الجنس، وليس "للجريمة" أي معنى إلا إذا تعرض صالح المجموع للخطر.

ويجب أن نسلم آخر الأمر بأن التعاون الذي تقوم الأخلاق على أساسه لا ينشأ من نمو النفس بمقدار ما ينشأ عن اتساع ضروريات الحياة الاقتصادية.

فكما تخرج الزهرة من الأرض، تنتشر الأخلاق مع ازدياد الوحدات الاجتماعية والاقتصادية، ويزداد المجموع الذي يجب أن تتعاون الأجزاء وإياه على السلامة عظما ما دام نسيج العالم يغزل من وحدات يتزايد عظمها مع انتشار القطارات والبرق والسفن وأمواج الأثير التي تربط أطراف العالم، لقد أحالت التجارة والمصالح المشتركة القبائل في الزمن القديم إلى أوطان، وانحلت الأخلاق القبلية فلا يتبعها إلا سفلة القوم، وشيئا فشيئا تحيل التجارة والمصالح المشتركة الأوطان إلى جماعات وطنية مترامية الأطراف، وتصبح أساس أخلاق دولية، وسوف يؤمن العالم في المستقبل القريب بأن الوطنية ليست كافية.

٣- ميزان الأخلاق

هناك إذن ميزان خلقي يبدو صالحا في كل مكان وزمان مهما تختلف الألسنة التي تنطق، ولكن كل حل هو أيضا مشكلة؛ إذ لا نكاد نبلغ تعريفنا الأخلاق أنها تعاون الجزء مع الكل حتى تبرز مئات الأسئلة، أي جماعة سنتعاون وإياها؟ مع الأسرة، أو الدولة، أو الإنسانية، أو الحياة؟ وماذا نحن فاعلون إذا تنازع حلفاؤنا؟

عندما يبلغ المرء الأربعين من العمر يصبح أعظم همه أن يتصور الأخلاق في إخلاصه لأسرته فقط، وليس معنى ذلك أنه يعيش بهذا التصور فقط، إذ لو فعل ذلك فأكبر الظن (كما رأى كونفوشيوس) أنه لن يحتاج إلى أي أخلاق أخرى، ولو نمت الدولة نموا نمو عظيما حتى تبتلع حقوق الأبوة ووظائفها الواحد بعد الآخر، فليس ذلك فقط لأن الحياة الاقتصادية أدت إلى تطور العلاقات والمنازعات المعقدة التي تحتاج إلى سلطة منسقة وحاكمة في قلب الجماعة؛ بل أيضا لأن فردية الصناعة قد ضعضعت سلطان الأبوة وانتزعت من الأسرة مهامها القديمة، فعندما كادت كل أسرة أمريكية أن تكون مملكة اقتصادية، تزرع طعامها، وتغزل لباسها، وتقتل بنفسها الهنود الحمر، وقل أن تتعامل مع غيرها من الجماعات، فقد كان من الممكن أن تكفي أخلاق الأسرة، فإذا كان الأب فاضلا، والأم صالحة، وسلم الأبناء بسلطة الأب على أنها السلطة العليا، كانت الأسرة وحدة قوية في النظام الاجتماعي تبلغ من الاكتفاء الذاتي حدا يجعل الدولة إلى جانبها كمية ضئيلة تكاد أن تكون مهملة، ولك أن تتخذ من الصين مثلا يوضح ما نذهب إليه، أما إذا تمزقت أوصال الأسرة، أو إذا لعبت العلاقات بين أفرادها وغيرهم من الأفراد والجماعات دورا حيويا في حياتها الاقتصادية والخلقية، انهارت عندئذ الأخلاق الطبيعية القديمة؛ فقد يكون الرجل كريما مع أبنائه، فاسيا لا يرحم عماله؛ وقد يبيع الرجل وطنه من أجل حفنة من المال، ويكون مع ذلك نموذج الزوج والأب، وقد يلجأ الرجل إلى السرقة أو الغش خلسة ليقتني المال ما يسد به حاجة زوجته، ويمجد مع ذلك في كل كنيسة يذهب إليها، فأخلاق الأسرة ليست كافية.

فهل نحن مساقون إذن إلى أحضان الدولة المشرفة على كل شيء؟ أيجب أن يذوب قانوننا الخلقي ولاء للساسة – لرئيس الضبط، وقائد المنطقة، و"المنظمة"، والحاكم، وعضو الشيوخ، وقائد الجيش أو الأسطول؟ هذا هو الجواب الذي يقول به رجال السياسة، ثم تسكت الدولة وهي مؤيدة بالسلاح وثقة الناخبين كل صوت يرتفع للحد من سلطانها، وفي ذلك كثير من الحق، إذ إلى أن يصبح النظام العالمي

حقيقة واقعة، وتنظم الإنسانية بحيث تأمن وتؤمن إخلاص الفرد، فلن تكون الأخلاق المثالية الكاملة – أي تعاون الجزء مع المجموع الكامل – إلا مجرد نصيحة لتحقيق الكمال، كالأمر بعدم مقاومة الشر، فكل نظام في العالم يجب أن يستند إلى القوة حتى تظهر جماعة أكبر، فإذا كانت الحال على وجه الأرض كما نرى من تزايد عدد سكانها وتحركهم بغير رقابة، وتهافت أهلها للحصول على أفدح الأجور محطمين كل تجربة في مكافحة الفقر، فمن الخير أن تحمي أعلى وحدة منظمة نفسها من عدوان الوحدات الأدنى، كما يجب على الإنسان مهما يكن مخلصا للحياة أن يحمي نفسه من الحيوانات المتوحشة، ومن الخير على مر الزمن لسائر البشر أن تحمي الطبقة الممتازة نفسها على هذا النحو، إذ لا غنى في التطور عن وجود فئة ممتازة تكون نموذجا يحتذى مثاله، فإلى أن تبتدع الصناعة لونا من الرقابة الدولية، فإن المجموع الذي يجب أن تتعاون وإياه، والذي لا يجب أن تضر بمصالحه، سيكون المجتمع الوطني[1].

ولكن ضميرنا لا يزال ناقص التكوين حتى في داخل حدود هذا المجتمع الأصغر، فهناك أخلاق للصناعة والسياسة، كما توجد أخلاق للحب والزواج، وأولئك الذين يتذمرون من أهواء الجنس في الوقت الحاضر قد يكونون ممن يختلسون المنافع أو يخونون الأوطان، إننا نغضب لفساد الفتاة، ولا نجد في قلوبنا الشجاعة للزج بالمفسدين في غياهب السجن، إننا نفترض الرقابة على الكتب، ولا نحفل بأصحاب مصانع السلاح الذين يثيرون الحروب، والصعوبة الوحيدة التي تلفت النظر من بين الصعوبات غير الجنسية التي تواجه الأخلاق اليوم هي تلك الخاصة بشرب الخمر إلى حد السكر، ولا ريب في ظهور نتيجة أخلاقية عن ذلك، لأن الخروج على القانون،

(١) ليس معنى ذلك أن قيودنا الحالية المفروضة على الهجرة معقولة أو عادلة، بل على النقيض ليس لهذه القيود فيما يبدو أي أساس آخر سوى الخوف والتعصب الجنسي، وسوف يحد رجال الدولة الهجرة، ومن المحتمل أن يشتد تقييدها عما هو اليوم حتى تتم القضاء على البطالة، ومع ذلك فلن يتم هذا التقييد بالتمييز العنصري الباطل الذي لا يعتمد على أي سند من العلم، بل يرفع مستوى الصحة والثقافة المطلوب من المهاجر.

معارضة لقانون هو موضع خلاف، مما يضعف النسيج الخلقي للجماعة بأسرها، ومن دلائل عدم نضوجنا أن تدور أحاديثنا ومعاركنا بالجدل حول شرب الخمر، في الوقت الذي تفسد فيه مشروعاتنا الجوهرية لحاجتها إلى العناية والفهم.

ها نحن أولاء بإزاء أضخم نظام صناعي عرفه التاريخ، فماذا يحدث لو أنه أدير بغير تفكير صادر من الجميع، وبغير نظر إلى السياسة الصناعية والتجارية والمالية وأثر ذلك على مستقبل الوطن والجنس البشري ..؟ أهذا شيء يسير؟ عندما نقول: "الشغل شغل" business is business نعني في أكبر الظن أن الشغل لا يعرف الأخلاق، وأن العملية الصناعية بطريق الإنتاج الواسع النطاق، بصرف النظر عن أصحاب العمل والمنافسة غير المشروعة، قد أصبحت غير إنسانية وغير شخصية، أصبحت نظاما آليا للشراء الرخيص والبع الغالي، أصبحت آلة تحليل المدارس (ورشا) ومصانع عسكرية، تؤثر استخدام النساء على الرجال، والأطفال على النساء، وتهدم كيان الأمة وأخلاقها .. ولكنها تجني أرباحا، وهذا التصور عن الحياة الاقتصادية صحيح بالنسبة إلى الطبقة العاملة، كما هو صحيح بالنسبة إلى أصحاب المصانع، فصاحب المصنع يفكر في مصلحته الذاتية أو في مصلحة طبقته، وقلما يفكر في صالح المجموع، فكل فئة لها "مثلها"، ولكن المثل الأعلى في الصناعة أو السياسة هو عادة الرغبة المكبوتة لطبقة من الطبقات تغلف في أثواب كريمة من العقل، ومعظم نظرياتنا الأخلاقية ليست إلا أفكارنا نحن لما ينبغي أن يكون عليه سلوك غيرنا من الناس.

ولقد قال ناسو سينور Nassau Senior: "علم الاقتصاد علم الثروة لا الرفاهية". ومعنى ذلك أن الصناعة يجب أن تقصر نفسها على إنتاج أكبر قدر ممكن من البضائع بصرف النظر عن النتائج التي تصيب المنتج أو المستهلك.

وكان علم الاقتصاد سابقا أفضل ولو أن كارليل وصفه بالكآبة، وكان ذلك العلم يسمى نفسه "الاقتصاد السياسي"، واعترف بأن الاقتصاد على صلة بالهيئة الحاكمة، وشاع في بعض الأوقات الحديث عن "حقوق" الإنسان، ومع أن هذا

الاصطلاح فقد الآن ما كان له من شهرة إلا أنه كان يصيب كبد الحقيقة ويدل على قيمة كبيرة، وهي أن ثمة بعض الحاجات يتطلبها الفرد أو الطبقة من المجتمع، وأن هذه الحاجات إذا أشبعت تؤدي إلى صالح المجموع، ومن المعقول أن مثل هذا الطلب قد يسمى "حقا". فإذا كانت الزراعة مثلا ضرورية لسلامة الوطن من الحصار والمجاعة، فللفلاحين عندئذ "الحق" في معونة حكومية قد يحتاجون إليها للاحتفاظ بمستوى معتدل من الحياة، وقد أخذت إنجلترا تعي هذا الدرس، وإذا كانت الصناعات الكيميائية تفسد صحة العمال، فلهؤلاء العمال "الحق" في كل حماية تستطيع الدولة تقديمها لهم، لأن صحة مواطنيها تخص الجماعة كلها، وإذا كانت النساء قد أصبحن غير صالحات للأمومة بما يشغلنه من وظائف، فمن الحق أن تحمي الحكومة من ترغب منهن في الحماية، وإذا اتبع المخترعون والتجار من الأساليب ما قد يثير عداء الدول الأجنبية ضد أمريكا.

فمن حقنا إخضاع مثل هذه الاختراعات والتجارات للوائح الحكومية، ففي كل خطوة تؤثر العمليات الاقتصادية على ثروة المجتمع وتصطدم بالأخلاق.

ولكن الأداة الوحيدة في الوقت الحاضر التي يمكن عن طريقها إخضاع الصناعة للصالح العام هي الدولة، وليست الدولة أمرا أخلاقيا، بل مزيجا دائم التغير من المنتجين، ويتطلع المصطلح إلى حكومة مطلقة القوة ناسيا أن مثل هذه الحكومة تقتضي حكما سياسيا مطلقا، ولخير ألف مرة أن يبتدع الناس أساليبهم الخاصة في التعاون والرقابة من أن يعتمدوا على العمد ورجال البوليس، ولعل نظاما اجتماعيا في سبيله إلى الظهور مقتصرا على طبقات العامة في التوزيع، وعلى الجمعيات التعاونية التي تتكون كل عام (وتكاد أن تفشل كل عام) حتى يسد الثغرة الواسعة، ويتجنب جيش الوسطاء المتزايد بين المنتج والمستهلك، وهنا نجد أن الاقتصاد يمس الأخلاق مرة أخرى، ويتحمس فلاسفة الأخلاق للفكرة القائلة بأن مجهود وتجربة قرن آخر قد يستبدل المنافسة الفردية بالتعاون الذي يجب أن نعتمد عليه في تسيير أمور العالم، إن صورة قوم يعملون معا، ويوظفون الفنيين والإداريين جنبا إلى جنب، ويقتسمون

الأرباح والخسائر سويا، قد تبدو بعيدة عن الحقيقة، كما بدت صورة التعاون الحديثة بعيدة التحقيق أيام أن كانت الصناعة آخذة في الظهور.

وغرائزنا فردية على الإطلاق[1]، ولكن منظماتنا وحاجاتنا الاجتماعية تصوغنا أكثر فأكثر نحو التعاون، فالصناعة الحديثة أكثر رحمة بالنسبة إلى فظاعة نظام المصنع منذ مائة سنة مضت، فالرفاهية أصبحت جزءا في كل مؤسسة حديثة، وأخذت الصناعة تمول بجانب كبير من أرباحها المستشفيات والمدارس والمكتبات والبحوث العلمية، ولا يزال العالم يلد القديسين، وما زلنا نقابل أهل النجدة في كل ركن من الشوارع، ويمكن أن نجد الفتاة ذات الحياء إذا رغبنا في البحث عنها، وتنزوي الأمهات الصابرات في آلاف البيوت، ونقرأ عن منافسة البطولة للجريمة في الصحف اليومية، فهذا فيضان يغرق البلاد، وإذا بآلاف من الناس يهبون للمساعدة، ويساهم الملايين في تقديم المعونة المالية، وهذه أمة يصيبها القحط وتتعرض للموت جوعا، فيسرع أعداؤها لنجدتها. ويضل الجوابون الطريق فيعرض زملاؤهم أنفسهم للخطر إنقاذا لهم، الحق لم يستطيع أحد أن يبلغ أغوار قوى الإنسان في سبيل الخير، فوراء ما عندنا من فوضى وما نرتكبه من جرائم تقوم الشفقة المتأصلة في النفس الإنسانية، إنها تنتظر حتى تزول الثورة العابرة، ثم يظهر نظام جديد من الأخلاق يتحسس طريقه بالتجربة ليرفع بالنفس إلى مراتب الشرف والنبل.

٤- الأخلاق الكبرى

أكبر الظن أننا في الوقت الذي ننتحي فيه جانبا نتأمل الأمور في سخرية ينشأ عالم من النظام العالمي تحت بصرنا دون أن نراه، وهو عالم تخلقه التجارة والتمويل، وذلك بالرقابة على الاستثمار، والرغبة في ضمان المدين وازدهار السوق.

وليس العمال هم اليوم أكبر أعداء الحرب، بل أصحاب الملايين، وإن كنت في ريب مما نقول فاستمع إلى تهليل الجمهور حين تتحدث الحكومة عن الحرب، ثم ارقب

(١) هذا يناقض ما ذهب إليه المؤلف قبل ذلك من أن بعض غرائزنا اجتماعية. (المترجم)

آلة التسجيل الأخبار وانظر كيف تشل آلاف الأعمال خوفا كلما انتشرت أنباء الأعداء، ولم يكن الأمر كذلك فيما مضى من الزمان، ولكنه يجري على هذا النحو الآن.

وهذا بالضبط ما كان العالم ينتظره، نعني أن شبكة التبادل التجاري الكبرى، التي وحدت بين الولايات، وجعلت من الدول إمبراطوريات يجب أن تبنى آخر الأمر نظاما عالميا اقتصاديا، ذلك أنه كما أن الانفعالات المثالية في الفرد تكون ضعيفة ومزعزعة إذا لم تقم على أساس فسيولوجي طبيعي، كذلك الآراء الخلقية والسياسية لا تقف على أقدامها في ثبات إلا إذا قامت على حقائق اقتصادية، وحين يكون لنا نظام عالمي اقتصادي سيكون لنا نظام عالمي سياسي، فإذا تم لنا هذا النظام العالمي السياسي سيكون لنا أخلاق عالمية.

فالضمير يتبع رجل البوليس، لنه ينشأ من الخضوع للنظام، وينمو مع التعود ومن الواضح أن نظاما عالميا أخذ اليوم في الظهور، ونحن الآن كلما بدا لنا الصالح الوطني معارضا لمصالح البشرية، فليس ثمة ما يمنعنا من الولاء للإنسانية، ومن التسامي بالأخلاق والدبلوماسية إلى ذلك الشعور بالمجموع وهو سر الحياة الفاضلة، كما انه السبيل الذي يهدي إلى الحكمة، والمعيار الذي يزن الحق.

من أجل ذلك فلنرحب بكل حرية، ولنشجع كل محاولة تتجه نحو نظام العالم الجديد، وليستمر العلم في تنظيم نفسه على أساس يتجاهل الحدود، وليجدد العمل عهوده التي نقضت ضد الحرب، وعلى الرغم مما في عصبة الأمم[1] من ضعف، وجبن، وإبعادها روسيا، ودستورها المستحيل التحقيق (عن قصد) فلننضم إلى العصبة نقويها بالتعاون، ونضع حدا لنزعتنا الإقليمية، ونعرتنا الوطنية، وتنافسنا على التسليح، وحلم بعض الأوغاد للسيطرة سرا على العالم الحق أننا نجد هنا —كما قال ميرابو — الأخلاق الصغيرة هي عدو الأخلاق الكبيرة La petite morale est l'ennemie de la grande فلا يمكن أن نتوقع من الدولة أن تلقن الضمير العالمي

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٢٧

لأبنائها في المدرسة، ما دام خطر الحرب قائما، أما نحن أحرار الفكر البعيدين عن الأحزاب فما بالنا نظل منقسمين على أنفسنا في هذه المسألة؟ ما الذي يمنعنا من قبول الأخلاق الكبرى، ومن الولاء لسائر ألوان الحياة؟

وخلف هذا الانقسام المستمر بين الأحرار توجد الفردية التي تختفي كالسوس الذي ينحر في عظام كل حرية، فأشهر المحامين عن المجرمين الأمريكيين[1] يطرب لسخف عصبة الأمم، على أساس أن نظاما سياسيا يتجاوز حدود الأوطان هو ضرب آخر من الطغيان، وأن انفصال الدول، وتجاربها بين حين وآخر، أفضل من سلطة سياسية هائلة قد تقف كما يقف الطاغية غير المسئول في سبيل تفكير البشرية وحركتها، وهذا شك صادق ومعقول، ولكن إذا كان قد أمكن التجاوز عن هذه المخاطر بتوحيد المستعمرات، فلا بأس من مواجهة هذه المخاطر ذاتها بتوحيد الدول اليوم، وقد بلغ العلم حدا يستطيع معه في يوم واحد أن يمحو جيوشا بأكملها، وأن يدمر مدنا بأسرها، وأن يرد كل حياة، وكل نظام، وكل حرية، وكل فكر إلى مستوى الهمجية مرة أخرى، إن الخطر على الحرية يكمن في الحكومات الضعيفة لا القوية، ذلك أن الدولة لا تقيد الحريات إلا حين تشعر بالخطر الذي يهددها، وعلينا أن نختار بين سلم روماني أو عالم بلقاني.

٥- الحياة الجنسية والأخلاق

لا شيء يحزن له صاحب المذهب الفردي كهذا التعريف للأخلاق الذي يكاد يكون فسيولوجيا بأنه التعاون بين الأجزاء والمجموع، سيحتج بأن الأخلاق الوحيدة الصحيحة هي الذكاء[2]، أو يمضي إلى آخر الشوط ويقول مع أناتول فرانس: "الصحة هي الأخلاق الوحيدة L'hygiene est la seule morale" ولكن المجرم قد يستعمل جميع وسائل النظافة ، ومع ذلك يحصل على ثروة كبيرة من الإتجار في

(١) هو كلارنس دارو **Clarence Darrow**

(٢) كما فعل المؤلف في كتابه "الفلسفة والمشكلة الاجتماعية".

المخدرات، وقد يكون رئيس وزراء فرنسا على ذكاء نادر ومقدرة ممتازة، ومع ذلك يقتل مليونا من الفرنسيين ليفرض ضريبة على الألزاس واللورين، وقد يقلب الفسق النظيف الزواج إباحية، والأطفال كلابا مدللة، والرجولة الوطنية انحلالا، قد يكفي الذكاء إذا كان كاملا، وامكن أن يستحيل إلى حكمة.

ولكن ماذا نعمل في انتظار كماله؟ سيسرق الناس ويقتلون ويموتون قبل أن نجعل منهم فلاسفة، كلا، يجب أن نبدأ بالشباب ونعلمهم التعاون في صبر، يجب أن نبث التعاون في عادات الفرد الناشئ وشعوره، يجب أن نلتمس طريقة ما نعطي بها حتى الأذكياء من الناس المعنى الرادع للمجموع، ومن يدري لعل هذا المعنى لا يختلف في النهاية كثيرا عن الذكاء الحقيقي، ذلك أن النظرة الكلية للفكر ستشمل النظرة الكلية للمجتمع، وسوف يؤدي الفهم إلى الولاء.

بل إن خلفاءنا الصغار سوف يفهمون حين يكبرون أنه ما دامت حياة الجماعة تقوم على صفات الجنس والعناية بتربية الأطفال، فينبغي أن تخضع شهواتنا الجنسية لبعض القيود الأخلاقية، قد نتجاوز عن لا أخلاقيتنا المبتكرة، وقد نرغب في دراسة ألوان من الشذوذ الجنسي كالجنسية المثلية، ومباشرة الحيوانات، وعشق القذارة .. وقد نبتسم حين نرى على المسرح محاولات جريئة تتحسس على غير هدى ضربا آخر من القانون الخلقي، ولكن قلوبنا لن ترضى عن أي أخلاق تتجاهل الجماعة، وإنا لنشعر عقب أي فعل يتنافى مع المجتمع بالحاجة إلى حياة أصح وأنظف، ونحن في حاجة إلى حياة لا نعرف فيها لذات البدن فقط، بل رضا النفس الناشئ عن حسن الصحبة والتعاون، نريد أن نكون حيوانات سليمة، كما نريد أيضا أن نكون مواطنين.

أيمكن أن نفعل شيئا لنبدل أخلاقنا من الفوضى إلى النظام، ومن الترخص إلى المسئولية؟ ولا ينبغي أن نجسم تأثير الجدل والآراء في هذا الأمر، فهذه التغيرات في العلاقات الجنسية لم تنشأ عن طريق التفكير، ولن يخفيها منطقنا.

ذلك أننا نواجه عملية غير شخصية تختص بالتحول الاقتصادي وأثره على الحياة الخلقية، فإذا لم يساير فكرنا ذلك التيار من الاختراع الذي يحدد مجرى التاريخ، فسوف يلقينا التيار على الشاطئ، مستقيمين ولكن عاجزين.

ومع ذلك فلن تدعنا شهوة الفهم في راحة، إذ علينا أن نتنحى بهذا التغير الخلقي جانبا، فنحلل أسبابه ونتائجه، ولن نفقد الأمل في أن المعرفة هنا أيضا هي القوة، وأن الوضوح مطية الإحكام، فلنبدأ من البداية، ولنفحص تلك الشعلة من الحب التي تنفذ في كل قانون خلقي، وتستهلك الفرد، وتحفظ الجنس.

ولندرس صفات الجنسين، لنتبين طبيعة هذين الكائنين الغريبين — الرجل والمرأة — اللذين يولد تجاذبهما وتنافرهما مشكلات الأخلاق الجنسية، ولنتأمل بعض الوقت المرأة المتحررة، وننظر في أثر تحريرها المفاجئ على أخلاق هذا العصر ومستقبل البشرية، وسنكون بعد ذلك مستعدين لمواجهة إخفاق الزواج مسلمين بشيء من العلم بأصله وأسبابه، وسنقدم في تواضع بعض الاقتراحات للتوفيق بين هذا النظام العسير وبين سعادة المرء وصحة المجتمع، وأخيرا سوف ننزل الأخلاق من السماء إلى الأرض، ونناقش تربية الأطفال وتكوين الخلق، وبهذا تكمل الدائرة.

الفصل السابع

الحب LOVE

١- لماذا نحب؟

الحب باعتراف جميع الناس أمتع صور التجارب الإنسانية جميعا، ومع ذلك فمن الغريب أن يعني عدد قليل جدا من المفكرين ببحث نشأته ونموه.

وما أكثر ألوان الأدب التي تحدثت عن الحب في كل لغة وبكل أسلوب، من أناشيد، وتمثيليات وقصص، وشعر يزخر بالعاطفة، ومع ذلك ما أقل المباحث العلمية وما اندر الجهود التي بذلت لفحص هذه المسألة العجيبة فحصا موضوعيا، ومعرفة أصلها في الطبيعة، والكشف عن أسباب نمو الحب العجيب من اندماج البروتوزوا البسيط إلى إخلاص دانتي، وهيام بترارك، ووفاء هلويز لأبيلارد.

نعم لا نزاع في اشتياق الرجال إلى النساء، وفي أن الحب "الذي يحرك الشمس وغيرها من الكواكب" يتسامى بالنفس إلى ضرب من الرفعة أعلى من غايات الحياة، ولكن لم كان ذلك؟ لقد أعلن الشعر وجهة نظره فذهب إلى أن الحب ينبع منذ الأزل من قلب البشر، ولكن أين يوجد الينبوع الخفي لماء الحب؟ لماذا يهتاج الفتى عند رؤية خصلات الشعر المتهدلة فوق الحاجب؟ أو عندما تلمس أصابع المرأة ذراعه؟ أيكون ذلك لأن الفتاة جميلة؟ ولكن ألا يخلق حبه جمالها، كما يخلق جمالها حبه؟ ولماذا يحب؟

ولست تجد في أمور الإنسان أغرب من إقبال الرجال – مع ما في ذلك من خوف – على مطاردة النساء، اللهم إلا أن يكون استعداد النساء – وهذا من جانبهن رزانة – لقبول المطاردة، ولست تجد في سلوك الإنسان أثبت من نظرة الرجل

الفاحصة التي يرمي بها المرأة في كل لحظة من النهار، تأمل هذا الحيوان المختال وهو يختلس النظر إلى فريسته زاعما أنه يقرأ في الصحيفة، استمع إلى حديثه وكيف يدور به حول صيده الأزلي، تخيل ما يتخيله في خياله وكيف يرفرف حائما حول هذه الشعلة المغناطيسية، فلماذا؟ وكيف حدث ذلك؟ وما جذور هذه الرغبة العميقة، والمراحل التي اجتازتها حتى بلغت ما هي عليه من سمو وجنون؟

فلنجازف بالبحث عن إجابات لهذه الأسئلة التي لا تخطر أبدا على بال المحبين، ولنضم أطراف هذا العلم بقدر ما نستطيع راجعين إلى ستندال، وإليس Ellis ومول Moll، وبولش Bolsche، وديجور مون De Gourmont، وفرويد، وستانلي هول، لنرى أيمكن أن نركب صورة فيها نظرة شاملة تكشف عن وظيفة الحب ومعناه، ولنتتبع بقدر الطاقة الطريق الذي يسير الحب فيه.

٢- من الناحية البيولوجية

كما تدور حياة الفرد بالتبادل بين الجوع والحب، كذلك الحياة في مجموعها تدور على التغذي والتناسل باعتبارهما المركزين الكبيرين في فلك الحياة، فالتغذي سبيل إلى التناسل، والتناسل طريق إلى التغذي، فنحن نأكل كي نعيش، وننضج، ونحقق أنفسنا عن طريق الأبوة، وبالتناسل تنفصل من جسدنا الصائر إلى الموت حياة جديدة فيها القوة على التغذي والنمو من جديد، ولعلها تبلغ في المستقبل هيئة أبدع مما كانت عليه من قبل.

ومن الواضح أن النمو في أبسط الخلايا هو الدافع إلى الانقسام، الذي يعد أحط أنواع التناسل، ذلك أن جسم الخلية ينمو أسرع من غشائها الذي تتغذي من خلاله، ولكي تحتفظ بالتناسب بين جسمها المتزايد وغشائها تنقسم قسمين، بحيث يتكافا الغشاء مع الجسم، وإذا كنا في التفسير العلمي نلجأ إلى افتراض نظرية من النظريات فهذا الانقسام نفسه مع الوقائع التي لا تحتاج إلى تفسير، فالبكتريا — وهي أصغر الكائنات الحية المعروفة — تتكاثر بالانقسام، ثم تكرر الانقسام إلى الحد الذي

يتعب الذهن من حسابه، وتنفصل عناصر جسم الأميبا المركزي، أو النواة، انفصالا غريبا إلى نواتين، ثم تنقسم الخلية كلها وتكون أميبتين جديدتين، فهذه أبوة، ولكن تمايز الجنسين يوجد بعد، وأكبر الظن لا يوجد حب.

مثل هذا الانقسام للكائن الحي قسمين هو جوهر حيلة الطبيعة للاستمرار في الحياة، حتى في الحيوان العاقل Homo Sapiens. ومع أن الطبيعة تتطور بهذه الصيغة إلى آلاف من الصور المعقدة إلا أنها لا تهجرها أبدا، ويسود هذا التوالد عن طريق الانقسام البروتوزوا (أي الحيوانات ذات الخلية الواحدة).

فالهيدرا[١] Hydra الصغيرة تبرعم من ساق هيدرا أكبر، وتنمو بالتغذي من حياة أبيها، حتى إذا تم نضوجها برزت للبحث عن الغذاء فتنافس الكائن نفسه الذي برعمت منه، وأخيرا تنفصل في حرية، وتلتمس مكانا آخر، وتهيئ لنفسها معيشتها.

وفي بعض الأحيان تبقى خلايا البروتوزون المنقسمة كالحال في بعض الفطريات Volvox مستقرة في قالب هلامي وتكون "مستعمرة Colony". وعندئذ يظهر تميز غريب في الوظيفة، إذ تتخصص الخلايا الخارجية بالتغذي، والداخلية بالتناسل، وتصبح المستعمرة كائنا اجتماعيا تعتمد أجزاؤه بعضها على بعض وتتعاون، فمنذ بداية مظهر الحياة، تقدم الحياة لنا مثالا عن "انعزال جرثومة البلازما" ذلك الانعزال الذي أقام فايسمان Weismann على أساسه النظرية السائدة الخاصة بالوراثة في الإنسان.

ولكن مع أن الانقسام عام إلا أنه لا يكفي، إذ يأتي وقت بعد عدة أجيال يبدو فيه أن البروتوزوا التي تكرر انقسامها تفقد الطاقة اللازمة لتكوين كائنات جديدة، وهنا تظهر ظاهرة جديدة، إذ تتحد اثنتان ضعيفتان من البروتوزوا، وتصب كل منهما من نواتها تيارا من البروتوبلازما ينفذ إلى جسم الأخرى، ثم تنفصلان، ويظهر مع

---

(١) اسمه الشجاع – بالعربية (قاموس شرف) وهو ثعبان مائي متعدد الرؤوس، إذا قطعت إحداهما نمت أخرى، أو هو جنس من الديدان المائية التي تتكاثر بالانقسام، وفي حياة الحيوان الدميري: الشجاع الحية العظيمة ... وتزعم العرب أن الرجل إذا طال جوعه يعرض له في البطن حية يسمونها الشجاع. (المترجم)

الغرابة أنهما قد قويتا بهذا "التزاوج المجدد للشباب"، إذ تنقسم كل منهما بقوة فطرية، ويحقق الانقسام لعدة أجيال مرة أخرى أغراض استمرار الحياة، فالشأن في البروتوزوا في هذه الحالة شبيه بأنفسنا الإنسانية وجماعاتنا، إذ يقوي المرء عندما يتزوج، ويتجدد شباب الأجناس عندما تختلط.

وعلى ما في هذا الاتحاد البسيط من دلالة فهو لا يشبه ذلك التزاوج بين الأفراد المختلفة، وهو أصل زهرة الحب، أيمكن أن نجد مثيلا لذلك في الحيوانات الدنيئة؟ نعم، نقترب من ذلك في البندروينا pandorina، وهي مستعمرة بروتوزوية مكونة من ستين خلية، وتنقسم كل منها لا إلى خليتين مستقلتين، بل إلى أجزاء متناهية الصغر أو إلى "خلايا جرثومية Spores" كلها متشابهة فيما يبدو، ولا ينشأ كائن جديد إلا باتحاد جرثومتين، ولننتقل إلى مستعمرة بروتوزوية أخرى هي الإيدورينا Eudorina فنجد الظاهرة نفسها، إذ تنقسم كل خلية إلى جراثيم مختلفة، بعضها كبير وساكن، وبعضها صغير ونشط، ولا يتكون كائن جديد إلا عندما تنفذ جرثومة صغيرة في داخل جرثومة كبيرة، ففي الإيدورينا تبدأ الطبيعة في اكتشاف الجنسين.

وهنا نجد أن الطبيعة تتردد بعض الوقت؛ ففي بعض الفطريات نرى طريقة التناسل القديمة تتبادل بغرابة مع الطريقة الجديدة، ففي الجيل الأول تتكاثر خلايا المستعمرة بالانقسام المعروف، ولكن خلايا الجيل الثاني التي حدثت بالانقسام، تتكاثر كالإيدورينا إلى جراثيم غير متشابهة، ويجب أن تتحد جرثومتان لتكوين خلايا الجيل الثالث، وهكذا لا يمكن أن يتسبب أمر الأشياء الجديدة إلا إذا ألقت بنفسها في أحضان القديم .. وهذا درس يتعلمه الشباب بعد أن يولي الشباب!!

وبعض أعضاء الجسم في الكائنات الأكثر تعقيدا، كأعضاء التذكير والتأنيث في النبات تتخصص لإنتاج الجراثيم، فيتميز نوعان من الجراثيم تميزا كبيرا ويصبح كل نوع منهما في المراحل المتأخرة من تطور الحياة البويضة Ova والنطفة Sperm، ولكن هذين العنصرين المتضادين لا يزالان في كثير من الأنواع يحدثان في الجسم بوساطة

الأب (أو الأم)[١] فقط، فدودة الأرض مثلا تفرز في فلقة من فلقها بويضات، وفي فلقة أخرى في موسم آخر نطفا، والحال كذلك في المحار والهلاميات الأخرى، وبعض ذوات الأغشية، وسمك الفرخ Perch، بل الرنجة herring المعروفة، ولما كانت الطبيعة قد ترددت في التمييز بين العناصر المولدة، فقد ترددت كذلك قبل التمييز بين الذكر والأنثى في الكائنات التي تولدهما.

ويظهر أبسط صور التمييز المعروفة في السنجام syngame – وهو طفيلي يعيش في داخل الطيور، وهنا نجد كائنا كبيرا يبدو أنه أنثى، أي يفرز بويضة.

ثم كائنا أصغر منه كثيرا يعيش متصلا على الدوام بجانب الأنثى، ولا يعطي بسبب صغر حجمه أي فكرة عن سيطرة الذكر، ويشبه هذا الكائن الصغير الذي يفرز النطفة طفيليا يعيش عل طفيلي أكبر منه، أو يشبه عضوا في كائن ولن يشك أحد في أنه زوج الأنثى.

وانظر كذلك إلى دودة البحر المسماة بونيليا bonellia، ويبلغ طول أنثى هذا النوع نصف قدم، وهي عريضة إلى حد ما، أما الذكر فهو شحمة ضئيلة يبلغ طولها جزءا من ستة عشر جزءا من البوصة، أي إنه أصغر مائة مرة من أنثاه، وتعول كل أنثى نحو عشرين ذكرا من هذه الذكور الضئيلة، التي تنفذ من داخل مجرى الهضم في الأنثى إلى جسمها، حيث تلتقي بالبويضات الموجودة داخلها وتلقحها، وأنثى الحشرات تكاد تكون دائما أكبر وأقوى من الذكر، فأنثى الفراشة أطول من الذكر خمس عشرة مرة وتزن عشرات أضعاف وزنه، وفي بعض أنواع الحشرات يبلغ الذكر من الصغر حدا يكون فيه "أشبه بالنملة التي تدب على ظهر الخوخة"[٢]. ولا يتفوق الذكر إلا في الطيور والثدييات، وهنا نجد أن قوته ترجع إلى أن الأنثى بعد اضطلاعها بمعظم أعباء التناسل تغلب جسمانيا على أمرها في الحرب الجنسية الأزلية.

---

(١) في الأصل **parent**، وهي في الإنجليزية تدل على أي الوالدين، لا الأب فقط أو الأم فقط (المترجم)

(2)**Gourmont, R. de, The Natural Philosophy of Love**

ويبلغ هذا الاعتماد الذي نراه في الذكر وهو أصغر الجنسين على الأنثى ذروته في تضحية الذكر بنفسه عند عملية التلقيح، ففي كثير من الأنواع تأكل الأنثى الذكر بعد الاتصال الجنسي مباشرة، ويعيش ذكر العنكبوت من فصيلة إبيروس Epirus بعيدا عن الأنثى طلبا للسلامة إلى أن يصاب بنوع من القلق، وعندئذ يقبل في حياء كأنه دانتي يقترب من بياتريس ويتصل بالنسيج الخارجي للأنثى، ويبني لنفسه بعناية طريقا للانسحاب والخروج، ثم يتقدم بحذر، والغالب أن الأنثى تلتهمه في الحال دون أن تسمح لهذا المسكين بمعرفة أي شيء عن لذة الحب، ولعلها تظنه من الأعداء، وقد تكون ممن يؤثر الطعام على الغرام، أما إذا سادها مزاج السفاد فإنها تمارس شعائر الحياء، فتتراجع في خفر مع أنها أكبر وأقوى من الذكر، وتنزل خيطا من نسيج بيتها وترفع خيطا آخر، على حين يتبعها الذكر الهائج، وأخيرا تستلم لقبضة الذكر وتهيئ له وهم السيطرة اللذيذ، ويبلغ انفعالهما في هذه المرحلة مبلغ الرومانتيكية والسمو، فيربت أحدهما برقة على صاحبه بملامسة peelers، ويفصحان عن رغبتهما برشاقة، ولا يكاد ينتهي التسافد حتى تنقض الأنثى على الذكر وتلتهمه بكل ما في الحب الكامل من سخرية، وقد يكون الذكر في بعض الأحيان يقظا إلى الحد الذي يجعله يهرب من قبضتها المهلكة، فينزلق متراجعا على خيطه ناجيا بحياته العزيزة، ويصبح بعد ذلك فيلسوفا، حتى ينتابه القلق مرة أخرى.

ويقول فابر Fabre إن أنثى الجراد mantis تأكل عشاقها بمثل هذه الوحشية مع شراهة أعظم، وترفض الحشرات اقتراب الذكر منها بعد تلقيحها، ولكن أنثى الجراد تسمح لأثنين إلى سبعة من الذكور وتقبل مغازلتهم، ثم تأكلهم الواحد بعد الآخر في وقت فراغها، وفي كثير من الأحوال لا تستطيع الأنثى أن تصبر في انتظار وجبتها، فتدير رأسها وتأكل الجزء الأعلى من الذكر حين يكون مشغولا بتأدية مهمته الجنسية، ويروي بواري poiret حالة أنثى أطاحت برأس الذكر بمجرد ظهوره، ولكن المغرم المقطوع رأسه مضى في أداء وظيفة التناسل وكأن شيئا لم يحدث له، وكأن الرأس لا قيمة له في الصلة الجنسية، وقطع جاك لوب Jacque Loeb بطن الحاماروس

gammarus وهو ذكر من القشريات حين كان يسافد، ولكنه استمر في عمليته دون اضطراب، ومن الواضح أن سائر قواه الحسية اتجهت وجهة أخرى، وفي ذلك يقول لوب: "الواقع إلا إذا كانت ذاكرتي تخدعني أن هذه الذكور المنزوعة بطونها على استعداد إذا أبعدت عن الإناث أن تتصل بغيرها متى وجدتها"[١].

وإنا لنعجب حين ننظر إلى تبعية دور الذكر في الأنواع الدنيئة، أيمثل ذلك ضربا من التخصص تطور إليه أخيرا بالطبيعة عن نوع من الكائنات مثل دودة الأرض، حيث يعيش كلا الجنسين في جسم واحد، وكل ما كان لازما لظهور الجنس هو تباين يحدث لبعض الكائنات التي مع تولدها من أنواع خنثى bisexual إلا أنها تصبح مع ذلك متخصصة الجنس unisexual، أي قادرة على إنجاب نوع واحد فقط من الأعضاء التناسلية.

ولكن ما الذي أعان على ظهور هذا التباين؟ وما فائدة هذا الانفصال الجديد في الحياة إلى أنثى وذكر؟ لا يمكن أن يكون ذلك لأن الذكر الجديد لا غنى للأنثى عنه، فالطبيعة والتجربة تشكان في ذلك، فهناك حالات كثيرة تستطيع الأنثى، حتى في الأنواع التي تم فيها انفصال الجنسين، أن تنجب فيما يبدو بغير معونة الذكر، مثال ذلك أن بق النبات المسمى أفيس aphis يتسافد الذكر والأنثى عادة وقت سقوط الأوراق، وتضع الأنثى "بيضة شتوية" كبيرة تعيش حتى الربيع، على حين يموت سائر النوع، وتفقس هذه البيضة الكبيرة في الربيع إناثا بغير أجنحة، وهي، مع أنها لم تر أي ذكر من جنسها، إلا أنها تنجب خلفا كلها من الإناث حتى نهاية الصيف، ثم تظهر فجأة بين اليرقات ذكور، ينضج بعضها، وتلقح إناث جيلها التي تضع بيضات شتوية من جديد.

لعل هذه الحالات من التوالد بغير تلقيح parthenogenesis ترجع (كما يظن ترمبلي Trembley) إلى انتقال بعض ما اختزنته الإناث الملقحة في موسم سقوط الأوراق إلى البيض الملقح من الأجيال التالية غير الملقحة، وليست هذه النظرية

---

(1)Comparative physiology of the Brain, p. 231.

مؤكدة، أما إمكان الاستغناء عن الذكر بالفعل فقد ثبت بالتجربة في كثير من، فقد شجع جاك لوب البيض غير الملقح لأصداف البحر sea – urchins، ونجمة البحر starfish على الفقس والنمو بان يضع البيض في الكحول والأثير والكلوروفورم والاستركنين والسكر والأملاح والحوامض والقلويات، فكانت هذه الأصناف المتعددة بديلا عن الذكر المفروض أنه لا غنى عنه.

فمن الواضح أن ظهور الذكر في الطبيعة لا يرجع إلى الحاجة إلى التلقيح، فإلى أي شيء يرجع إذن؟ أكبر الظن أنه يرجع إلى ضرورة التهجين cross – fertilization ذلك أن انفصال الجنسين جعل اتحاد الصفات والقوى الوراثية في الذرية ممكنا، وهي صفات وقوى تنحدر عن أصلين متميزين من الأسلاف، وتبلغ مزايا هذه الوراثة المزدوجة من الوضوح ما يجعلنا نتوقع ظهور ترتيب معين يمنع التوالد الذاتي بغير لقاح، وهذا هو الواقع: فالأزهار (وهي الأعضاء التناسلية في النبات) مركبة بطريقة تجعل نفاذ عضو التذكير في عضو التأنيث من ذلك النبات مستحيلا، حتى القوقعة التي تضم في جسمها كلا الجنسين، نجد أن أعضاءها مرتبة ترتيبا لا يسمح باللقاح الذاتي، وهكذا تدبر الطبيعة حتى نبلغ نوع الإنسان فنجد أن العوامل الاجتماعية والنفسية قد تحالفت على تحريم الزواج بين الأخ وأخته، وتوجد محرمات taboos قوية تمنع الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة، وليس تحريم الزواج من الأهل incest، وقوانين الزواج من خارج القبيلة، إلا أسمى صورة لذلك الاتجاه نفسه نحو التهجين، وهو المسئول عن التمايز بين الجنسين.

والآن وقد انقسمت الكائنات إلى جنسين، فعلينا أن نواجه المشكلة التالية وهي تعاونهما بالتقاء أعضاء التناسل، وهنا يذهلنا إسراف الطبيعة، وإسرافها أعظم في النباتات المزهرة، إذ هناك آلاف من الأنواع تعتمد على الرياح في نقل بذور التلقيح من نبات إلى آخر، ويفوح الهواء برائحة حبوب اللقاح التي تكون ذراتها أريج الزهر، حتى لتشغل ملايين من هذه الذرات مسافة تبلغ خمس ياردات وتحمل أنثى سمك الدخس sturgeon في جسمها ٣٠٠٠٠٠٠ بيضة (أي ٩٠٠ رطل)، وهذا يكفي

لعمل ٦٠٠٠ شطيرة (ساندوتش) من الكافيار، أما في سمك الرنجه فالأمر أشد إسرافا، إذ تتجمع مئات الآلاف من الإناث والذكور في مكان واحد حتى ليخيل للمرء أنها قطعة كبيرة من الجلاتين، وتفرز البيض والمني milt بكثرة شديدة حتى يصبح لون ماء البحر كاللبن، ثم يأتي الصيادون فيمسكون بهؤلاء المغرمين جملة، ويسحبونهم بالآلاف في شباكهم، ومع ذلك يلقح بعض البيض بوساطة المني، أما الطبيعة المهملة التي تحتقر من شأن الفرد فإنها تعزي نفسها بالاحتفاظ بالنوع.

ونحن نجد هذا الإسراف نفسه في نوعنا الإنساني، ولو أنه خفي، إذ من بين ٧٢٠٠٠ بيضة تفرزها الأنثى، وبلايين النطف التي يفرزها الذكر، لا يستغل في التناسل إلا قلة قليلة (في أيامنا هذه واحدة أو اثنتان فقط) ويعتقد بولش Bolsche أن هذه الوفرة ليست مجرد نفاية، إذ أنها تقدم المادة التي منها ينفي الانتقاء الطبيعي البيض والمني الضعيف وينتحب الأقوى؛ وقد يكون هذا صحيحا، ولكننا نشك في أن الأستاذ بولش قد أعلى من شأن الطبيعة أكثر مما تستحق، فهي ليست من الذكاء بمقدار ما يظن، ولا ريب في أننا قد ورثنا الغباء الذي لا ينضب له معين من أمنا الطبيعية.

ويصحح هذا الإسراف في الحيوانات الراقية ما تتخذه الطبيعة من احتياط في التركيب لهداية البيضة والنطفة واتحادهما من جهة، وما يتخذه الآباء من عناية نامية من جهة أخرى، مثال ذلك أن نجمة البحر star- fish تحتضن بيضها الملقح بيديها، وكذلك صغارها بعد فقسها، ويقود ذكر الزقزوق (نوع من السك) أنثاه إلى حفرته لتضع البيض، ثم تذهب إلى حالها ويعني الذكر بالنسل بنفسه، كما يفعل الزوج في العصر الحديث، وتضع أنثى فرس البحر من النوع المسمى كامبوس هدسونيوس Campus hudsonius بيضها في جراب على بدن الذكر الذي يعني بالبيض إلى أن يفقس، ويبلغ المتوسط السنوي لما تضعه آلاف الأسماك التي تكتفي بوضع البيض ثم تتركه حول مليون لكل زوج، وفي مائتي النوع التي تظهر شيئا من عناية الأبوة فلا يبلغ المتوسط إلا ٥٦ بيضة للزوج في العام، وتضع الطيور التي لا تبني لها عشا اثنتي عشرة بيضة في العام، أما التي تبني عشا خشنا فيبلغ ما تضعه ثماني بيضات، والتي تبني

عشها بعناية خمسا[1]. وهكذا نجد أن الحب الأبوي يحل شيئا فشيئا محل إسراف الطبيعة ويعوضها، وفي الثدييات التي تختص بعناية الأمومة ينحب الزوج ثلاثة صغار في العام، وتقل هذه النسبة في الأنواع الراقية، ثم تنمو الأسرة ببطء كأنها رحم خارجي يعني بالنسل خلال فترة أطول من الزمن، وكلما طال زمن البلوغ ارتفعت الحضارة التي تعتمد إلى حد كبير على فترة التربية إلى مستويات أعلى مما كانت عليه من قبل.

والآن ما موقف مشكلة الحب من وجهة نظر هذه الزاوية البيولوجية السريعة؟

يجيب أرستوفانس ساخرا في محاورة المأدبة لأفلاطون (١٨٩ – ١٩٢) قائلا: "كان الجنسان في الزمن القديم واحدا، ولكن الإله – بسبب خبث البشر .. قطع الإنسان نصفين، كاللفت الذي يشق نصفين للتخيل، أو كما نشق البيضة بشعرة .. وكل منا حين انفصل لم يكن إلا نصف إنسان .. يتطلع على الدوام إلى نصفه الآخر؛ فالرغبة في الكل والسعي إلى تحقيقه يسمى حبا".

وهذا لعمري تعريف شريف، يحثنا على تأويل هذه الأسطورة تأويلا علميا، فنقول: كان كلا الجنسين في قديم الزمان في بدن واحد كما هي الحال إلى الآن في دودة الأرض، ثم فصلتهما الطبيعة إلى كائنين، ولذلك يحس الآن كل شطر منهما وهو منفصل بأنه ليس إلا نصفا، فيشتاق إلى الاتحاد والتكامل.

ولكن الجواب عن سؤالنا "ما الحب" يعد جوابا غامضا. إذ يفترض ذلك وجود وعي فلسفي عال في أحط الخلايا الجرثومية البروتوزوية، وأكبر الظن أن وظيفة الذكر حين تخصصت أول مرة في كائن منفصل، لم يسع إلا قلة قليلة من تلك الذكور الأولية إلى الاتحاد "بأنصافها الحلوة". وتلك الذكور التي سعت ووفقت في الاتصال بنصفها الآخر، هي وحدها التي أصبحت آباء الجيل التالي، وهكذا كان المحبون في كل جيل – أي الأفراد الذين حققوا الكمال بالاندماج فيمن يكملهم – هم الذين نقلوا شوقهم إلى الاتحاد في مجرى الحياة.

---

(1) Sutherland, A., Origin and Development of the Moral Instincts, Vol. I, pp. 4 - 5

أما الذين فقدوا الشعور بهذه النزعة أو شعروا بها شعورا ضعيفا، فقد انقضت حياتهم بغير نسل أو بنسل قليل، وذهب فتورهم بموتهم، من أجل ذلك نما الشوق الشديد مع كل جيل، فلا غرابة أن يصبح هو العاطفة الغالبة، وهي أقوى من الموت .. ذلك الموت الذي تخدعه هذه العاطفة في صبر بالاستمرار عن طريق التبدل، ولعل .. لعل هذا هو الطريق الذي جاء منه الحب.

٣- الأساس الفسيولوجي

لقد تحدثنا عن الحب بما فيه الكفاية في تطوره خلال سلسلة الحياة. فلنتأمل الآن نموه في الفرد، أو كما قال أرسطو: إذا أردت أن تفهم حقيقة شيء ما فعليك أن تبحث نشأته وتطوره.

أيوجد في الطفل ما يضاهي عاطفة الحب التي تظهر فيما بعد؟ يجيب فرويد في ثقة عن هذا السؤال مثبتا إياه، وشيد قصورا مدهشة من علم النفس الطبي أقامها على الاحتمالات الشبقية لمص الأصابع ورضع الثدي، ولكننا حين نفصل الوقائع عن النظريات نجد الوقائع ضئيلة جدا، فهذا واطسن وأعوانه وضعوا مئات عدة من الأطفال تحت الرقابة فترة طويلة من الزمن، فلم يجدوا عندهم أي سلوك جنسي من أي نوع(١).

ومع ذلك فلا يلبث الطفل أن يظهر وعيا بالجنس الآخر، فيبدو عنده ضرب من الفضول التشريحي يشجعه عليه الإخفاء والمراوغة، ويصبح كل جنس شيئا غامضا بالنسبة إلى الجنس الآخر، ويثير فيه رد فعل عبارة عن مزيج من الخجل والجاذبية، ولا يكاد يوجد بين الجنسين الصغيرين أكثر من ذلك.

فإذا حصل الحب قبل البلوغ فالأشبه أن يكون في هيئة "عقدة أوديب"، أي يتعلق الصبي بأمه، والفتاة بأبيها، ولكن ليس ما بينه فرويد هو الشيء الفظيع، فعقدة أوديب ليست لا شعورية ولا شاذة، بل هي سبيل الطبيعة إلى إعداد الطفل لحب سليم، أما

---

(1)Watson, J.B, Behavior, p. 262.

إذا كانت العلاقة على غير تلك الصورة، أي حين يتعلق الابن عاطفيا بأبيه، أو تتعلق البنت بأمها، فعندئذ يكون من المعقول أن ينزعج علماء الطب النفسي.

وعند البلوغ يغني الحب أنشودته الواضحة، والمعنى الحرفي للبلوغ[١] puberty يدل على السن التي ينبت فيها الشعر على جلد الذكر، وبخاصة شعر الصدر الذي يتيه به في توحش، وكذلك شعر الوجه والذقن الذي ينتزعه في صبر أيوب، ويبدو أن نوع الشعر وغزارته ينبتان ويقعان (في الظروف العادية) مع دورة القوة الجنسية، ويبلغان الأوج عند ازدهار الحيوية، هذا الشعر الذي ينبت فجأة إلى جانب خشونة الصوت من "الصفات الجنسية الثانوية" التي تصيب الذكر عند البلوغ، أما الفتاة النضرة فإن الطبيعة تجعلها لينة الأطراف ثقيلة الأرداف حتى تفتن العين، عريضة الحوض لتيسير الحمل، بارزة النهدين لإرضاع الطفل.

فما الذي يسبب هذه الصفات الثانوية؟ لا أحد يدري، ولكن الأستاذ ستارلنج Starling اكتشف ما يؤيد نظريته التي تذهب إلى أن الخلايا التناسلية عند البلوغ لا تشرع في إفراز البويضة والمني فقط، بل كذلك بعض "الهرمونات" التي تنفذ إلى الدم وتكون علة حدوث تغيير جسماني ونفساني، ولا يوهب الجسم فقط بقوى جديدة، بل يتأثر العقل والخلق بألوان شتى من التأثر، وفي ذلك يقول رومان رولان: "تمر بالرجل فترات من العمل يحدث فيها تغيير عضوي صامت" – أو بالمرأة، ومرحلة البلوغ هي أهم هذه المراحل.

ثم تغمر مشاعر جديدة الجسم والنفس، ويسوق حب الاستطلاع العقل إلى الأمام، ويرده الحياء إلى الوراء، ويصاب الشاب بالارتباك في حضرة الجنس الآخر، وتتعلم الفتاة كيف يحمر وجهها خجلا، وقد يصبح الطفل فجأة ذكيا بعد أن كان غبيا، أو يصبح عنيدا بلا سبب معقول بعد أن كان مطيعا.

---

(١) هذا من جملة معاني اللفظة الإنجليزية، أما في العربية فالبلوغ من بلغ سن الرشد، ويقال أيضا الاحتلام والحلم والمراهقة، وبعضها يدل على الإدراك العقلي، وبعضها يشير إلى الحالة الجنسية المعروفة (المترجم)

وتنتاب البالغ نوبات من النظر في باطن نفسه، وأحوال غريبة من التأمل والشرود، ويتفتح الخيال وتظهر دولة الشعر، ويطمع جميع المثقفين إذا بلغوا هذه السن في التأليف ويحلمون بشهرة خالدة. وتسرع كل قوة عقلية في النمو، ويهجم العقل بأسئلة جديدة على الكون، وإذا استمر الشاب سائرا في طريق التفكير أصبح عالما أو فيلسوفا، أما إذا هجره سريعا فقد يصبح رجلا ناجحا في الحياة ويرتقي أعلى المناصب.

وفي هذه الفترة يروي ماء الحب المتدفق جذور الفن للمجتمع والإخلاص له، ذلك أن الحب يتخيل الجمال، ويبحث عنه، وقد يبتدعه، والحب يتخيل الخير، ويسعى إليه، ويبرز عازما على تحقيقه، وإذا كان الدين يعرض نفسه في هذه المرحلة على أنه عقائد إلهية فقد يثير في نفس الشباب شهوة الجدل، وتتمزق بذلك أوصال الدين، أما إذا عرض نفسه على أنه يطلب الخير تأثرت به مثالية النفس المتغيرة، وأصبح الدين جزءا لا يتجزأ من الشخصية.

جملة القول ، مرحلة البلوغ أعجب مراحل حياتنا، فهو عصر العقل، وهو مع ذلك فترة الانفعال، إذ ينثر العقل والقلب في كل جانب وابلا من أفكار جديدة ومن عواطف المحبة، ولن تجد العالم يبدو أغرب ومع ذلك أجمل، وأبعد منال ومع ذلك أسهل نيلا، كما يبدو في هذه السنين التي ينتقل فيها الإنسان من طور إلى طور، حتى ليشتاق المرء في كل عمر متأخر إلى الرجوع إليها، سن البلوغ هو ربيع كل قوة، وزمان البذر لكل حصاد، وفيها تجد سائر العواطف الشريفة غذاءها. هذه السن هي نهضة الحياة.

ومع ذلك أي قوة داهية هذه التي تسوق الفتى في خوف نحو الفتاة، وتجعل الفتيات يتمتعن وهن الراغبات؟ أي سر غامض يعمل في جنبات الجسم ليخلق أبهى زهرة في جميع حياتنا .. حب الرجل للمرأة؟

وتأخذ الخلايا الجرثومية في البدن تهتاج وتتفجر بالحيوية وكأنها قد عقدت العزم على مغالبة كل جهد للاحتفاظ بهذا النشاط الجديد، وكما أن الأصل البيولوجي للحب هو الانتخاب الطبيعي ونمو الغريزة إلى تحقيق الاتحاد، كذلك أساس الحب

الفسيولوجي في الفرد هو تجمع المادة الجرثومية، فيهتاج الكائن بأسره لإحساسه بتوقف النمو وقلق الحياة المتوسعة، ويمتلئ القلب بحزن لذيذ ولكنه ثقيل، وكأنه قد أدرك أنه ناقص فتعطش إلى أن يكمل نفسه.

وفي ظل هذا الاهتياج يتأثر الشاب بآلاف من المؤثرات كانت تمر به دون أن يشعر بها من قبل، وتروقه بعض الأصوات، وتفتنه الموسيقى والغناء إلى أقصى حد، ويتصف الصوت برخامة جديدة (لعلها بدأت في نداء الذكر من الحيوانات الدنيئة)، ويستمتع المحب بسماعه، ويعجب الشباب ببعض الروائح بعبير البدن النامي، وأريج النظافة، وقوة العطر المنبهة للغريزة، وهي جميعا كالخمر التي تسكب في كأس الحب، وتفتنه كذلك بعض الحركات: إيقاع الرقص ومخاصرته، وهزة جسم الرياضيين وثقتهم بأنفسهم، ورشاقة الفتيات وخفتهن، أما المناظر فتفتن الشباب أكثر من أي شيء آخر، إذ يفيض موسم الحب بالألوان، ويفضي اللون الأحمر إلى حب الامتلاك، ويتأنق الشباب في الملبس في زمان الألفة، كما ينبت العرف والريش للطير والحيوانات، ويطلي المتوحشون أجسادهم بالنقوش فيشوهون أنفسهم ليلفتوا إليهم الأنظار ويثيروا الحواس، ولا يصبح اللباس وقاية بل زينة، ومصدرا للوحي، وباعثا على التأثير، وتخفق القلوب الرقيقة للشجاعة والقوة، وتثير رؤية الأجسام البضة رغبة الشباب، فهذه التجارب الجديدة من الروائح والأصوات والملموسات والمناظر، ومن العطر والغناء والرقص وشتى أنواع الاستعراض، تشغل أيام الشباب وأفكارهم الحالمة، وتصبح بواعث لا يمكن صدها إلى الحب.

ثم تجتمع سائر المؤثرات وتظهر فجأة جميع الشروط، وتنطق حاجات الجنس بلسان جوع البدن والروح، وعندئذ يولد الحب ويشرق في القلب كما يبزغ النور في الصباح ثم ينتشر فيملأ الكون نورا ونارا، وفي ذلك ينشد لوكريتيوس العظيم:

"إيه أيتها الزهرة، إنك وحدك سيدة طبيعة الأشياء، ولا شيء يرتفع بغيرك إلى عوالم الحياة المقدسة، أو يصبح بهيا أو مرحا، وإنك لتملئن جميع القلوب بالحب العميق، وتسوقين كل قلب إلى أليفه يعملان على استمرار الجنس بالرغبة الحارة، من

خلال سائر الجبال والبحار والأنهار المتدفقة، وأعشاش الطيور المورقة، والسهول المكسوة بالحشائش، إذ ما يكاد الربيع يشرق مع الصباح، حتى تثب القطعان البرية فوق المراعي الباسمة، وتعوم في المياه الجارية، وقد أسرت قلوبها المباهج الساحرة، وساقها الحب إلى أتباعك[١]".

٤- النمو الروحي

على هذا الأساس الوطيد الطبيعي يقوم ذلك الحب الذي هو روح وشعر، كما ينشأ إخلاص الأليف لأليفه من شهوة الحياة للاستمرار، ومن هذا الجوع للجسد ينبع أجمل وفاء بين روحين، ومن شهوة الهمجي في الكهف ينشأ في النهاية غرام الشعراء، فهذا هو السلم الذي يرتقيه الإنسان.

ويبدو أن البدائيين من البشر لم يعرفوا من الحب إلا الشيء اليسير، إذ ليس في قاموسهم لفظة تدل عليه، وإذا تزوجوا لم يفعلوا شيئا يقرب من الغزل أكثر من الرغبة في البنين، والاختلاف بانتظام إلى تناول وجبات الطعام، وفي ذلك يقول لابوك Lubbock (وعلماء الأجناس مغرمون بالبحث في الأماكن الغريبة): "يحتفل أهل "يوروبا Yoruba" بالزواج بلا أدنى اكتراث ولا يفكر الرجل منهم في اتخاذ زوجة إلا بمقدار ما يفكر في انتزاع سنبلة من القمح .. ولا محل للحب على الإطلاق"[٢] وكان نيتشة يعتقد أن "الحب الرومانتيكي" من اختراع شعراء الأقاليم troubadours. ولكن لا ريب أن ثمة عنصرا "روحيا" ينمو في الدافع التناسلي حيثما ظهرت الحضارة، وكان الإغريق يعرفون القصص الغرامي، ولو أن ذلك كان على طريقتهم الشاذة، وتدل قصص ألف ليلة وليلة العربية على أن الحب لم ينتظر حتى ظهور الأغاني في العصر الوسيط، غير أن مغالاة الكنيسة في تقديس العفة، وإحاطتها المرأة بسحر ما يستعصى على النوال، كان مما ساعد على ازدهار شعر الغزل، ويقول في ذلك

---

(1)On the Nature of Things, Tr, Munro, Book ii, Lines 991 f.

(2)Origin of Civilisation, p. 51.

لاروشفوكو: "الحب بالنسبة إلى روح الحبيب، كالروح بالنسبة إلى البدن الذي يحييه". ويقول دي موسيه: "جميع الرجال كذابون وغشاشون ونفاخون ومنافقون ومحتالون، وكافة النساء معجبات بأنفسهن ومتصنعات وماكرات .. إلا شيء واحد مقدس وجليل، ذلك هو اتحاد هذين الجنسين الناقصين". ويقف نيتشة ليمجد الحب قائلا: "أطهر عبارة سمعتها هي قول القائل: إذا كان الحب صادقا احتضنت الروح الجسد".

كيف يمكن تعليل هذا التحول من الرغبة الطبيعية إلى الحب الرومانتيكي؟ ما الذي يجعل الجوع الجنسي يزدهر هذا الازدهار فيصبح ظرفا، واهتياج البدن رقة الروح؟ أيكون ذلك لأن الحضارة مع نموها قد أجلت سن الزواج، وتركت الجسد في شوق إلى رغبة لم يحققها، ذلك الشوق الذي انعكس في باطن النفس إلى صورة من الخيال، وألبس المحبوب ألوانا مثالية أضفتها رغبته التي لم تتحقق؟ إن ما نطلبه ولا نجده، يصبح أغلى لأننا لم نجده، وسوف نرى أن جمال الشيء في قوة الرغبة إليه، وأن الرغبة حين تضعف، تقوى إذا أشبعت بالزهد فيها.

من أجل ذلك كان الحب أكثر روحانية في شباب الفرد وأوج الحضارة، لأن الكبت يبلغ ذروته في ذلك الأوان، ويخفف الشعر ما تشعر به الأجساد من حرمان.

فلنتأمل النمو النفساني للحب، مهما يكن مصدره، إنه يبدأ في الأغلب بانعطاف الفتاة انعطافا خاصا نحو أبيها، وانعطاف الولد نحو امه، ثم يتحول ذلك إلى ضرب من التعلق القوي بشخص في مثل سن الحبيب، وتجد في كل حجرة دراسية أطفالا يحبون المعلم المخالف لجنسهم، وكتب جيته قصة مشهورة يصف فيها غرامه بامرأة حطمت قلبه، حين دعته طفلها، ويبلغ الإبداع الرومانتيكي ذروته في هذه الغراميات المؤقتة، إذ يحرك البدن النامي الخيال فيرى صورا بديعة، ولا بأس أن يرفعها إلى مقام الحقيقة، فيختزن أي شيء يوافقه في ظلال هذا الخيال، وليس للعنصر الجسماني أي مدخل يشعر به الإنسان، وفي ذلك يقول جيته: "إن أول نزعة للحب

عند الشباب الصالح تتخذ وجهة روحانية خالصة"[1].

ثم تأتي بعد ذلك مباشرة تلك التجربة اللطيفة التي نسيء تسميتها بقولنا حب "العجل Calf"[2] – ولو أن المرء لا يمل النظر في جمال ذلك الحيوان الوديع، ويكون مثل ذلك الحب خفيا لا يصرح به، ولا اسم للمواهب اليسيرة التي تنشأ عنه، والبنات في هذه المرحلة أكثر شجاعة من الصبيان، ومع أنهن يفقدن (في الظاهر) بعض هذه الجرأة حين تتقدم بهن السن الواعية، فإنهن يحتفظن إلى آخر الأمر بدراية ممتازة في فنون الحب، ويبدو الصبي خجولا، ولكن البنت تحتفظ بكيانها وتظل سيدة الموقف، وفي بعض الأحيان يبتعد الصبي عن الطريق حتى يتجنب الفتاة التي يشتاق إليها، وينفق ساعات طويلة وحيدا في ظلمة الليل، أو يهم على وجهه في النهار، يتفكر في مرارة في تلك الحركات الطائشة التي صدرت منه أو العبارات السخيفة التي بدرت منه في حضرة محبوبته، وقد تبلغ هذه الحساسية عند بعض الشباب الذين يستظلون بظل الأمومة ويتعلقون بها مبلغا يجعلهم يتقيدون بها، فيظل الشاب عزبا إلى آخر عمره، وعندما يشتد ساعد الصبي يغذي في نفسه روح حب الظهور، حتى إذا رأى فتاة أحلامه خاطر بحياته في الألعاب ليضع تحت قدميها إكليلا من الغار، ويولد الشباب في ميدان الألعاب البدنية، تلك المصارعات الدامية بين ذكور الحيوان لامتلاك الإناث، كما يمهد لتلك المنازعات الاقتصادية التي يتنافس فيها الشباب الناضج للحصول على الفاتنات، والاحتفاظ فيهن بابتسامة الرضا، وهكذا نرى أن الحب يدير عجلة الحياة.

وينتقل الحب من هذه المظاهر المبكرة التي تعقب تمام البلوغ مباشرة إلى مراحل مختلفة تكون سوية إذا عبرت وزالت، وشاذة إذا دامت، فالانحراف perversion ارتداد atavism إلى صورة قديمة من السلوك كانت، في الأصل سوية ونافعة، ثم ظهر ما يفضلها ويسمو عليها، وينقلب الكائن السليم في هذه الشروط المهمة كما تقلب دانتي في الجحيم،

---

(1) **Truth and Fiction, p. 178.**

(٢) يقال في العربية النعجة بدلا من العجل، والمقصود اتباع العجل أمه. (المترجم)

فهو يجربها، وتصهره تجربتها، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحب البالغ والسليم.

وتظهر في هذه الآونة أيام الغزل، وهي أبهى أوقات الحياة الإنسانية، وليس معنى ذلك أن الغزل ظل ينتظر حتى سن النضوج، لأن نصف ألعاب الطفولة هي ألعاب حب، حتى إن الطفلة في الخامسة تستطيع أن تغازل ببراعة، ويخدم الغزل أغراضا حيوية، فهو يدفع الحب إلى آفاق أرحب، ويفسح المجال لانتخاب الأفضل ذلك الانتخاب الذي يرفع تدريجيا نوع الحياة، وتمتاز شعائر الغزل عند البالغين بهجوم الذكر للظفر، وانسحاب الأنثى إغراء، ولو أننا نجد ضروبا من الاستثناء لهذه القاعدة، ففي غينا الجديدة تغازل الفتيات الرجال ويغدقن عليهم الهدايا، ولكن هذه العادة البديعة لم تغز بعد بلادنا، وقد نجد في بعض الأحيان امرأة مثل حنة Anne تغري بعد روية وبصيرة المستر تانر Tanner في شباكها .. على الأقل في رواية برناردشو، ولكن الذكر عادة هو الذي يلعب الدور الإيجابي والهجومي، لأنه بالطبيعة هو المحارب وهو الحيوان المفترس، والمرأة بالنسبة إليه غنيمة يجب أن ينتصر عليها ويمتلكها، فكل غزل مغالبة، وكل سفاد غلبة.

ويقول ستانلي هول: "من الجنادب ما تبلغ من شدة البأس في القتال حدا يجعلها تتمكن من المنازلة كالديكة، وتحارب ذكور السمك حتى الموت في أثناء موسم التوالد وفي مناطق بيض السمك، وتصبح أسنان ذكور السلمون البالغة حادة وتختلف اختلافا تاما عن أسنان الإناث، وقل أن تلتقي السحالي في الربيع دون أن تتقابل، وتقاتل معظم الطيور في الربيع فتستعمل المنقار والمخالب والصياصي التي تكون على الأجنحة وتبرز من الأرجل، ويتفق موسم الحرب عند هذه الضروب من الحيوان مع موسم الحب"[1]. وتنقلب الحرب عند الرجال منافسة على التجارة وضربا من المباهاة، فنحن نتحارب "بالشيكات" لا بالأنياب، وتختفي مخالبنا وراء آداب التجارة.

والمرأة إذا كانت حكيمة حاربت بالفرار والعفة، والعفة انسحاب وفق خطة

---

(1)Adolescence, vol, II, p. 368.

موضوعة، وهي تنشأ من الخوف والطهارة، وتنمو بالمداهنة والدهاء، وليست العفة من خصائص النوع الإنساني، لأننا نجد لها شبيها واضحا وأصلا في إحجام أنثى الحيوان عن المسافدة في غير موسم أو في غير موضع، ولكن الإنسان، كما قال بومارشيه، يختلف عن الحيوانات في انه يشرب وهو غير ظامئ، ويطأ في كل موسم، والعفة عند المتحضرين من أبهى مراحل النمو النفساني للحب. فهي ترتفع إلى مرتبة فذة من العظمة، وقد تقهر في بعض الأحيان أعمق دوافع النفس، واتبع حكماء المشرعين في الملايو قديما طريقة يقضون بها على موجة من الانتحار سادت بين النساء، بأن أصدروا أمرا يحتم أن تحمل جثث المنتحرات عارية في الشوارع(١).

وكان وليم جيمس يرى أن العفة ليست غريزية بل مكتسبة، فقد اكتشفت المرأة أن البذل يولد الابتذال، ونقلت هذا الاكتشاف إلى بناتها، وذهب ديدرو أبعد من ذلك وأرجع هذه المسألة إلى غيرة الأزواج الذين أدى إحساسهم بالملك إلى فرض العفة على زوجاتهم، وفي كثير من القبائل لا يأتزر إلا المتزوجات فقط، إذ يعتقد أزواجهم (وهم في ذلك أعقل من خالق "جزيرة بنجوين")(٢) أن ذلك يعين على الاحتفاظ بحقوق الملكية، وعندما حل الشراء محل الأسر، وأصبح ذلك بدعة الزواج الشائعة، ورأى الآباء أن الإبكار أغلى مهورا، شجعوا – في فضيلة – على العفة.

وقد نشأت العفة من هذه المنابع المتعددة حتى أصبحت إحدى مفاتن المرأة الداهية، ذلك أن العاهر غير جذابة إلا فترة عابرة للرجال، والتحفظ في العرض والاقتصاد في إبراز المفاتن أفضل سلاح في اصطياد الرجل، ولو أنهم علمونا تشريح الأعضاء التناسلية على قارعة الطريق لأثار ذلك فينا الانتباه، دون أن نتحرك فينا "النوايا". وينجذب الشاب إلى ناعسة الطرف لأنه يشعر دون أن يفكر في ذلك أن هذا التحفظ البارع يخفي في المرأة رقة هي أجمل ما فيها، فالعفة، بما تحتفظ به من ثمن،

(1)Ellism H., Studies in the Psychology of Sex, vol. I, p. 24

(٢) قصة لأناتول فرانس يعرض فيها تاريخ فرنسا متهكما، وفيها يتصور القسيس أنه يعمد هذه الطيور بدلا من الناس. (المترجم)

تحث على إبراز قدرة الذكر وشجاعته، وتحركه إلى أعمال عظيمة النتائج وتبعث الطاقة المختزنة وراء المستوى المتوسط المربح الذي نعيش فيه، ومن يدري إلى أي حد ترجع أعمال الرجال الإنشائية إلى المنافسة الجنسية وحب العرض، كما هي الحال في عظمة ألوان الطيور؟

ولنفرض أن الفتنة سارت في طريقها، وتكامل الحب بالأبوة، واكتملت دائرة الرغبة بإنجاب الطفل، وأكبر الظن أنه ليس ثمة غريزة نوعية باسم التناسل، بل ثمة فقط غرائز الصلة الجنسية mating وعناية الآباء بأبنائهم، فالطبيعة تحقق أغراضها بوسائل منحرفة، والنوع الإنساني ثمرة عرضية لأعظم ما فيها من لذة، ولن تجد شيئا أكثر سخرية من هذه الطريقة التي تنشر الطبيعة بها المواليد الحمر بالدماء المتفرقة عن أمهاتهم: وإن كنت في ريب فاستمع إلى صراخ النساء وصيحات الولاء في المستشفى، ومع ذلك فما أبرع طريقتها الشيطانية في تهدئة ثائرة الأم بالنشوة المخدرة، وقلق الأب بزهو أعمى يجعله يدفع باسما الأجور الباهظة المفروضة الآن لأولئك الذين يجرؤون على استمرار جنسنا الذي ربما لم يكن ضروريا.

ويتجدد حب الآباء حين يظهر الطفل إلى الوجود، ولكنه حب يختلف عن تلك الشعلة التي كانت تحترق من قبل، حقا لقد كانت تلك الشعلة خليقة أن تذبل في تلك الأيام إلى ذؤابة ضعيفة عند ولادة الطفل، والطفل نفسه جدير أن ينتزع من قلبي الأبوين العاطفة التي جعلتهما مؤقتا شخصا واحدا.

فالأم تجنح إلى نسيان الأب في غمرة عاطفتها الجديدة، ويميل الأب إذا كانت الأعجوبة الصغيرة بنتا إلى أن يخلع عليها هيامه الذي كان يضيفه على زوجته، على أن هذا اللهو يفقد آخر الأمر سحره، وتنشأ روابط جديدة تصل بين الزوجين مرة أخرى.

وبعد فهذا هو الوان الذي يجعل التآلف بين الزوجين كاملا، ذلك أن تلك الأعوام من الأبوة تزخر بكثير من التجارب والمحن، وصروف الدهر، وآلام البدن، ومخاوف القلب، ويجلب المرض للخيال المتقلب شيئا من العمق والاعتدال، ويسير

الحب في ركاب حياة جديدة مصيرها إلى الموت، وحين يشترك الزوجان في عمل المشروعات ومحاولة تنفيذها، ويظفران معا بالنجاح، ويبتسمان، يتداخل عقلاهما المتجانس في شركة روحية قد ترتفع إلى حد امتزاج الشخصيتين؛ بل إن وجهيهما قد يتشابهان، ذلك أن مراقبتهما معا مهد الأطفال، ورؤيتهما إياهم ينمون، ومنحهم بعد ذلك شيئا فشيئا حبا أصغر، كل ذلك يصوغهما شخصا واحدا.

امتزاج الشخصيتين؛ بل إن وجهيهما قد يتشابهان، ذلك أن مراقبتهما معا مهد الأطفال، ورؤيتهما إياهم ينمون، ومنحهم بعد ذلك شيئا فشيئا حبا أصغر، كل ذلك يصوغهما شخصا واحدا.

حتى إذا لم يبق في البيت الذي كان يردد رنين ضحكات الأطفال إلا ذكراهم الصامتة، أظل الحب وكأنه يعزي الزوجين بجناحيه رفيقي العمر الطويل. ذلك أن أنشودة الحب لا تبلغ تمامها حتى تسري بنغمتها الحارة وحدة العمر واقتراب "العدو الأكبر" والذين عرفوا الحب على انه رغبة لم يعرفوا منه إلا جذوره وجسده، أما روحه فهي الباقية الآن وقد تبدد كل عنصر جسماني.

وفي هذا التآلف الجديد بين القلبين القديمين يبلغ الازدهار الروحي لجوع البدن التمام.

فهذه هي دورة الحب، ولنتأمل هذه الدورة مرة أخرى في لمحة واحدة .. في خلايا البروتوزوا المندمجة، وفي شهوة الحيوان العنيفة، وفي غلمة الهمجي الغليظة، وفي عيون الشباب الحالمة الذائبة، وفي قصائد إليزابيث برواننج أو قصة فرنشسكا، وفي الرفيقين العجوزين وهما يرتعشان سعادة كلما تجمع أبناؤهما وأحفادهما لإحياء ذكرى نصف قرن من الحب، أهناك أغرب من هذا التحول، هذا التسامي البطيء من مغناطيسية العناصر إلى أناشيد الهيام والإخلاص لجميع ميادين الحياة؟ وإنا لنذكر في هذا المقام كلمات سنتايانا العميقة التي يقول فيها: "لكل شيء مثالي أساس طبيعي، ولكل شيء طبيعي نماء مثالي". فقل للحب: لا تخجل من أصلك، وللرغبة أن تذل إذا لم تسم إلى مراتب العبادة.

لقد كان حب الفلسفة هو الذي ساق أفلاطون إلى أن يقول: "إن الذي تمسه نار الحب يمشي في الظلام"[1]. ولام لابلاس عندما حضرته الوفاة أصدقاءه الذين أرادوا تعزيته بشهرة كتبه واكتشافاته، فقال لهم آسفا: إن هذه الأمور ليست أهم شيء في الحياة، فسألوه: "وماذا إذن؟" وأجابهم العالم الشيخ وهو في النوع الأخير: "الحب".

فكل شيء إلى موت، ما عدا الحب الذي يهرب وحده من الفناء، ذلك أنه يتخطى القبور، ويسد ثغرات الموت بالتوليد، وما أقصر ما يبدو الحب في مرارة الحقيقة البعيدة عن الأوهام، ومع ذلك فما أدومه إذا نظرنا إليه من خلال البشرية .. وكيف ينقذ بضعة منا آخر الأمر من الهلاك، فيحتفظ بحياتنا مجددة في شباب الطفل وقوته، ونحن قد نمل الثروة، وقد تكون حكمتنا بصيصا من النور لا يبعث حرارة، ولكن الحب يدفئ القلب بسلوان لا يمكن التعبير عنه، ويزداد دفء القلب إذا كان عاشقا لا معشوقا.

---

(١) المأدبة، ١٩٧

الفصل الثامن

الرجال والنساء

١- حرب الحب

كان جوركي وتشيكوف يتجولان في القرم ، فأقبلا على تولستوي الذي كان يجلس بجانب الشاطئ وقد مال برأسه يتأمل حتى مست لحيته الرمال، فجلسا إلى جانبه وشرعا يتحدثان عن النساء، وظل تولستوي ساعة يصغي في صمت ثم قال فجأة: "أما أنا فلن أحدثكم عن حقيقة المرأة إلا حين أضع قدمي اليمنى في القبر، سأعلنها صريحة، ثم أقفز في التابوت، وأغطي نفسي وأقول: "افعلوا ما شئتم بي الآن"[(١)].

وحين دعا الكونت كيسرلنج برناردشو للمساهمة في كتابة فصل في "كتاب الزواج" رفض شو قائلا: "لا يجرؤ أي رجل أن يكتب شيئا عن حقيقة الزواج حين تكون زوجته على قيد الحياة". ومع ذلك فسوف نشرع في الكتابة عنه، مقتصرين في هذا الفصل على تحليل أنواعه المتوسطة والتقليدية مؤجلين الفحص عن تحرير الأقلية الحديثة من النساء إلى الفصل التالي.

وتعد آداب هذا الموضوع أمتع الآداب وأبعدها عن الثقة، فهي ممتعة لأنها تتصل مباشرة بأنفسنا، إلا إذا تحدثت عن أخطاء البشرية ورذائلها، أما أن هذا الأدب مما لا يعول عليه فلأنه حكاية عن السيرة الشخصية، وكل سيرة شخصية فهي، قصة خيالية fiction، لأنها في الغالب صوت الانتقام، ولا يقدم على كتابتها إلا المحارب المهزوم، وحين يؤلف أحدنا كتابا عن النساء يدونه بجروحه (وهذا لا ينطبق

---

(1)Gorki, M. Reminiscences of Tolostoi, p. 65

على مجرد الفصول من كتاب). وعندما يكسب الرجل قلب المرأة (إذا كان شخصا مهذبا) فذلك على أمل الزواج منها كما كان يفعل اليونان بعد رقصة الحرب، ثم يحتفظ بعد ذلك بصمت حكيم.. لأن اثنين لا يتكلمان في وقت واحد، أما إذا خسر، فإنه يؤلف الكتب، وأمتع من المقالات التي كتبها شوبنهور ونيتشة وفيننجر وغيرهم من المصابين بداء الغرام الذين كتبوا عن الجنس اللطيف، هو ذلك التحليل الذي يكتبه عن الرجال النساء اللاتي يفهمن الطبيعة البشرية ويعاملنها بذكاء أعظم من ذكاء الرجال المشوب بالتردد، ولكن النساء أمكر من أن يفحصن عن ذات أنفسهن في صفحات الأدب، فهن راضيات بتحقيق رغبتهن، وعلى عدوهن إذا شاء أن يؤلف الكتب.

وكل شخص عادي لابد أن يكون متحيزا بشأن هذا الموضوع، فهو لا يعرف إلا نصفه معرفة ذاتية، وأكبر الظن أنه لا يعرف إلا شطرا من هذا النصف معرفة وثيقة، وحتى هذا الشطر فهو لا يعرفه معرفة صادقة أو جيدة. وكذلك من العسير أن يكون الإنسان منصفا في زمن الحرب، من أجل ذلك كان العلم ضعيفا في هذا الميدان، أما ملاحظات الأستاذ ثور نديك البسيطة والعرضية، ونتائج اختبارات الذكاء، فغنها محاولات سريعة لفرع من البحث لم يكد يقدم على النمو، ذلك أن آخر بحث في النوع الإنساني هو الإنسان، وآخر علم هو علم النفس، وآخر فرع في هذا العلم هو المرأة.

ومع ذلك فلنكن على حذر ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وسنقسم الطبيعة البشرية تقسيما مريحا ولو أنه صناعي، إلى الغرائز الأساسية التي تتكون الطبيعة البشرية منها، وسنسأل في كل حالة كيف يختلف عقل المرأة وخلقها عن عقل الرجل وخلقه، وسنفترض (مع احترامنا للسلوكيين) أن الإنسان خلق مزودا ببعض الاستعدادات السابقة والميول الخاصة بالاستجابة والشعور، التي سماها الفلاسفة وعلماء النفس منذ شوبنهور غرائز، وسنصطنع تصنيف الأستاذ مارشال لهذه الاستعدادات الموروثة بحسب تحقيقها لأغراض الفرد أو الجماعة أو الجنس[١]. فهناك بعض الغرائز – مثل

(1)Marshall, H. R, Instinct and Reason

الحصول على الطعام، والقتال، والهرب، واللعب – تتجه إلى خدمة الفرد، وتتجه بعض الغرائز الأخرى مثل حب الاجتماع Gregariousness وحب التوافق approval – إلى حفظ الجماعة، وغرائز أخرى أيضا – مثل الاتصال الجنسي والعناية بالبنين – ترمي إلى حفظ النوع، وها هنا بعض المسائل موضع مناقشة، ولكننا لا يجب أن ندخل في مجادلات فنية لا تؤثر في هذه المشكلة تأثيرا حيويا(١). كل ما نحتاج إليه هو أن نسأل هل يختلف الرجال والنساء في الحصول على هذه الغرائز نوعا أو درجة، وسوف نبدأ بالغرائز الجنسية أو التناسلية لأنها بالنسبة إلى غرضنا الحاضر أهم سائر الغرائز، وتكاد تفيض عن عملياتها المختلفة جميع تلك المميزات التي تفصل بين الجنسين في الجسم والخلق والعقل.

٢- اختلافات الخلق Character

(١) الغرائز الجنسية Racial

يصدم الذكر بامتياز الأنثى في عالم الحيوان، لا في الحجم فقط (كما رأينا) بل في تفوقها الحيوي باعتبار أنها هي التي تحمل مباشرة جسم الجنس. وفي المراتب الدنيا للحياة يجري التناسل بالانقسام ولا يوجد جنسان، وفي النوع الإنساني تتم عملية التوليد فعلا في الأنثى التي تولد بالانقسام تماما كالحال في الأميبا.

أما وظيفة الرجل فعرضية وسطحية، وليست مما لا غنى عنه، فقد أيدت تجارب المعمل مظاهر الطبيعة في البرهنة على أن الذكر زائد عن الحاجة على الإطلاق، ويترتب بوضوح على ذلك أن الأنثى من جهة النوع في مرتبة أولى وأساسية، وأن الذكر ثانوي ومساعد، فالذكر يتضمن الوظائف ويتخصص فيها، وهي تلك التي كانت تؤدي من قبل بدونه، وهو يلعب في مأساة التناسل التي تدور عليها الحياة كلها دورا صغيرا، يكاد أن يكون زائدا عن الحاجة، فهو ينتحي في أزمة الولادة جانبا خجلا عاجزا،

(١) الأسلوب الذي جرت عليه العادة في نفي وجود الغريزة هو بيان أنها ليست متبعة في الصبا، ولكن معظم الغرائز لا تظهر بطبيعة الحال إلا في فترة معينة من الحياة معتمدة اعتمادا أساسيا على نمو القوى الفسيولوجية المطلوبة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك المشي والقتال والحب.

ويفطن آخر الأمر إلى مقدار تفاهته وتبعيته في تطور الجنس، ويعرف في تلك اللحظة أن المرأة أشد منه التصاقا بالنوع، وأن تيار الحياة العظيم يفيض العظيم صاخبا عن طريقها، وأن الخلق من دمها ولحمها، ويفطن عندئذ لم كان البدائيون وأصحاب الديانات الكبرى يعبدون الأمومة.

ومن الواضح أن عفة المرأة الشديدة تخدم أغراض التناسل، ذلك أن تمنعها على استحياء يعين على الانتخاب الجنسي، إذ يمكنها من التمييز بين المحبين واختيار ذلك الذي سوف يظفر بأن يكون والد أطفالها، وهنا نجد أن مصالح الجنس والجماعة تتخذ من المرأة سبيلا إلى التعبير، كما أن المصالح الفردية تجد صوتها القوي في الرجل، حتى إذا نفذت غرضها وحققت ذاتها بالأمومة زال حياؤها، وإنك لتجد الأم الفلاحة التي كانت قبل أمومتها شديدة الحياء، تفخر بأن ترضع ابنها أمام الناس في بساطة بهيجة، وهي على حق في ذلك لأن هذا المنظر هو أحب المناظر والصور في عالم الحياة والفن.

والمرأة أبرع في الحب من الرجل، لأن رغبتها عادة أقل حدة من رغبته، فلا تغشي أحكامها بالغموض، وهذا هو سر حكمتها التي اشتهرت بها منذ القدم، ويذهب دارون إلى أن أنثى معظم الأنواع لا تحتفل بالحب نسبيا.

ويصور لنا لومبروزو، وكيش Kisch، وكرافت إبنج Krafft- Ebing، وغيرهم من الباحثين الذين اقتحموا أبواب هذا الموضوع الذي يخشى الملائكة بحثه، أن أربعين في المائة من الجنس الضعيف يتمتعن بمثل هذا البرود apathy، وبلادنا على العكس من ذلك، ويقولون أيضا إن المرأة لا تنشد اللذة الحسية بمقدار ما تنشد الإعجاب الشامل بحاجاتها والعناية الشديدة بها، وكثيرا ما يرضيها مجرد اللذة بشعورها أنها مطلوبة، وفي ذلك يقول توماس هاري: "حب المرأة أن تكون محبوبة يرضي نفسها غاية الرضا"[١].

ويجد ما سميناه بشكل غامض بالعنصر الروحاني spiritual في الحب – هذا الجانب من الحب الذي لا يفكر في البدن – صدرا رحبا في المرأة أكثر مما نجد في الرجل،

(1)Jude the Obscure, p. 286.

ويعتقد بعض الباحثين في قلب المرأة المغلق أن حبها أمي maternal أكثر منه جنسي، أو كما يقول لومبروزو: "ليس حب المرأة في طبيعته الأساسية شيئا أكثر من صفة ثانوية للأمومة، ولا تنشأ كافة مشاعر الحب التي تربط بين المرأة والرجل من الدوافع الجنسية، بل من غريزتي الخضوع subordination والاستسلام المكتسبين بالتكيف"[(1)]. وكان ألفريد دي فيني يظن أن حب الرجل ذكري رضاعته ثدي أمه، ورغبته فيه، ومن يدري لعل كل محب بالنسبة إلى المرأة ليس إلا طفلا آخر يدلل .. ويطعم؟

ومع أن حب المرأة أقل في عمقه من حب الرجل، إلا أنه أعظم عرضا، حتى لينفذ إلى كل زاوية من حياتها، فهي لا تعيش إلا إذا كانت محبوبة، والالتفات إليها محور حيويتها، ويروي أن أحد حكام فرنسا أنب امرأة لمعيشتها إلى جانب لص، فأجابت: "لست شيئا إذا لم أحب". ولعل هذه الحاجة النفسانية هي التي كانت في ذهن فينجر حين ذهب إلى أن المرأة لا "روح" لها.. أي أن حياتها تتجه (أو كانت تتجه؟) إلى أن تتركز حول رجل.

وهذا وهم، لأن المرأة لا تحاكي إلا أفكاره، أما فيما بينها وبين نفسها فإنها تظل وحدها، وتحتفظ بعزمها، وهي تعرف أن الرجل في حبه غير المحدود لذاته قد ينفر منها إذا أبرزت الشيء الكثير من شخصيتها.

وإذا كانت المرأة تتفوق على الرجل في فن الحب، فهو يمتاز عنها بالصداقة، وقد يرتفع الرجال إلى مرتبة الأصدقاء، أما النساء فلا يتجاوزن نطاق المعارف. وإذا ذكرت المرأة غيرها من النساء بخير اضطربت النجوم في أفلاكها، ويجد النساء صعوبة في الحديث، ويشعرن بضجر شديد في حضرة بعضهن البعض، ولا يتحملن ذلك إلا بالتحدث عن الرجال، وهذا شيء طبيعي، كما لاحظ لاروشفوكو[(٢)] La Rochefoucauld منذ

---

(1)In Kisch, The Sexual Life of Woman, p. 133.

(٢) (١٦١٣ – ١٦٨٠) أحد دوقات فرنسا، ألف مجموعة من الحكم أو التأملات (١٦٦٤ – ١٦٦٥) ومذكرات نشرها ١٦٦٢، يصف فيها هزائمه السياسية ضد الكردينال ريشلو، أما حكمه فهي نظرات صائبة حكيمة عن الحياة بوجه عام. (المترجم)

زمن طويل فقال: "العلة التي من أجلها لا يقبل معظم النساء على الصداقة، هي ما يشعرن به بعد هجر الحب من أن الصداقة لا طعم لها". فالحب كما قال الشاعر يشغل جزءا من وقت الرجل، ولكنه يملأ حياة المرأة كلها، وبعد، فأحوالنا هي ما يجب أن نكون عليه.

وغيرة الرجل كحبه أكثر عمقا، وأقل عرضا أو طولا، فالإحساس بالامتلاك أقوى في الرجل، ويؤلف نصف حبه، فليس الحب مجرد نكران الذات فقط، بل هو على ما في ذلك من تناقض توسيع للنفس وانتصار لها.

والغيرة هي غريزة الكسب التي يضايقها التنافس، إنها إجراء محاكمة للاعتداء على الأصل، أو كما قيل: "أنا السيد يا ربي، اللهم لا تجعل أربابا أخرى تقف في طريقي". ولا تهتم المرأة اهتمام الرجل بان يكون زوجها خالي القلب من قبل.

ولكن غيرتها التي تفقدها في الشدة والعمق تزيد في السعة والعرض، فهي لا تغار فقط ممن يحب زوجها، بل من أصدقائه، وغليونه، وصحيفته، وكتبه. ثم تسعى شيئا فشيئا إلى الفصل بينه وبين أصدقائه، فإذا لم تستطع أن تفعل ذلك غازلتهم، فتجمع بين المكر والخطيئة، ولا يزعجها أن يبدي الرجل غيرة من المعجبين بها، بل يلذ لها هذا الشعور، وتشجعه فيه، لأنها تعلم أنها لا تكون مطلوبة إلا حين يجد امتلاكه إياها مزعزعا، وهي تدرك بحكمتها الفطرية أن الغيرة لا يفضلها دواء آخر للحب الزائل، ومع ذلك فلا بد من أن نغفر لها هذه الأخطاء البديعة لأنها في مركز ضعيف وتحتاج إلى هذه الفنون توازن بها امتياز الذكر الجسماني، ويجب عليها أن تحمي نفسها بأي ثمن، لأن الجنس يعول عليها في استمراره وقوته، إنها تدفع ثمنا غاليا جدا لنصيبها الصغير في الحب تبرر به شكوانا من خداعها، ويقول نيتشه: "لا يستطيع أحدنا أن يكون عظيم الرقة مع النساء"(١).

---

(1)Reflections, no. 440

(٢) الغرائز الفردية

وظيفة المرأة خدمة النوع، ووظيفة الرجل خدمة المرأة والبنين، وقد يكون لهما وظائف أخرى، ولكنها تتبع بحكمة هاتين الوظيفتين، ذلك أن الطبيعة قد بثت في هذين الغرضين الأساسيين وشبه اللاشعوريين ما فينا من معنى وسعادة.

من أجل ذلك كان عمل الذكر الطبيعي هو الحماية، والكسب، والمغامرة، ومهمته أن يترك العش أو البيت بحثا عن الطعام، فهو سبيل الحياة إلى التغذية، كما أن المرأة أداة الحياة للنسل، والطعام غايته القصوى، وهو إذا أصبح محصلا لأشياء أخرى، أو لأي شيء آخر، فذلك لأن (ولو أنه لا يشعر بذلك) هذه الأشياء الأخرى تمثل الثروة التي تؤمن في الأزمات الحصول على الطعام، وكان مترودورس Metrodorus يقول: إن كافة الأشياء الجميلة ذات صلة بالبطن، ومع انه ليس من الأدب ذكر هاذ القول إلا أنه صحيح إلى حد كبير عن ذكور النوع الإنساني، فالرجل يحب الطعام حبا جما، ويمكن بسهولة إخضاعه عن طريقه، وهو أكثر غراما من المرأة بالطعام والشراب، ومنذ أن قدمت حواء التفاحة لآدم، والمرأة تحكم الرجل عن طريق معدته، مفسدة هضمه وأخلاقه في آن واحد.

وأصبح الذكر محاربا بعد أن ضرب في الأرض يبحث عن الطعام، وذكور الحيوان تحارب بالأنياب والمخالب، ويتخذ الرجال من المنافسة المالية سلاحا، أما الأمم فتتحارب بالجيوش والأساطيل والصحف، وكان كبلنج يظن أن الأنثى أشجع في القتال من الذكر، ولكن لعله قاسي من جرح (شرق قنال السويس) أفسد نظرته، ذلك أن طبيعة المرأة البحث عن المأوى لا الحرب.

وفي بعض الأنواع تبدو الأنثى هادئة بغير غزيرة القتال، وهي لا تقاتل مباشرة إلا من أجل صغارها، فإذا رأينا فيها قوة توحش فذلك بسبب هذه الضرورات الجنسية، ولكن من الواضح أنها أقل ميلا إلى العنف، وغالبا ما ترتبط جرائمها النادرة بفترات اضطرابها الفسيولوجي، وهي اكثر من الرجل صبرا، وإذا كان الرجل أكثر شجاعة في

أزمات الحياة الكبرى وأمورها، فالمرأة تلجأ إلى قوتها اليومية الدائبة لمواجهة مثيرات العيش الصغيرة التي لا حد لها، وهي تتحمل المرض أكثر هدوء، كما لو كانت تجد فيه لذة غامضة وشيئا من الراحة من عناء عملها اللانهائي، أما الرجل فلأنه لم يتعود الحياة الراكدة فيتحمل المرض في قلق، ويخبر جميع الناس بآلامه.

ومع ذلك فالمرأة مقاتلة بكهانة، غنها تقبل على الجندي، وتبتهج بالرجل ذي سلطان، ويبدو في صيحاتها عند رؤية القوة عنصرا غريبا من القسوة، حتى لو كانت هي نفسها الضحية، وهي تنتخب في جميع الأجيال الذكر المقاتل، كأنها تفكر دون وعي في الحماية التي يحتاج إليها بيتها وصغارها، وقد تتغلب في بعض الأحيان هذه المتعة القديمة بالرجولة على إحساسها الاقتصادي الحديث فتتزوج من احمق إذا كان شجاعا، إنها تخضع بفرح للرجل الذي يستطيع أن يأمر، وإذا كانت المرأة تبدو في هذه الأيام أقل ميلا للخضوع، فذلك لأن خلق الرجال أضعف مما كان من قبل، ولعل روتين الصناعة المذهل، وتكلف الحياة العقلية المثير للأعصاب، مما عود الرجال العبودية، وانتزع منهم الشجاعة.

ولا تنتصر المرأة بالقتال أو الشجاعة، بل بالمثابرة والثبات، وقتال الرجل أشد وأصرح، ولكنه أقل ثباتا، وهو أكثر منها استعدادا للصلح أو التسليم في سبيل السلام، وقد يزمجر في وجه زوجته أو يضربها، ولكنها تنتصر في النهاية بالتكرار والإلحاح، فالأنواع والشعوب والأجناس والأفراد الضعيفة غنية بالصبر والخداع.

فهذا نابليون لم يستطع حكم زوجته، مع انه تمكن من حكم قارة، ولم تجد قوته في ضعف جوزفين البدني وجبنها الهدف الذي تتجه إليه، ولم يكن عنده سلاح يقاوم به أسلحتها التي كانت تستعملها، وفي ذلك يحدثنا نابليون قائلا: "كثيرا ما كانوا يمتدحون قوة خلقي، ومع ذلك فلم أكن في نظر أسرتي إلا رجلا ضعيفا، وكانوا يعرفون عني ذلك، وكانوا يتغلبون على غضبي بالمثابرة والعناد، ويفعلون ما يريدون

مني لمجرد السأم"[1]. ويعبر هذا الكلام عن الأنشودة اليومية التي تغني في كل بيت، ولم تكن الأمور في صالح الرجل في تلك الأيام المترفة حين كانت زوجة الطبقة المتوسطة تعيش وتزدهر عاطلة في بيتها الخالي من العمل ومن الأطفال، فالرجل يعود إلى منزله منهوك القوى بعد عمل اليوم ومتاعبه ليجد عدوه القديم في انتظاره على نشاط جم متجدد فينهزم قبل أن تبدأ المعركة، أما إذا حالفه الحظ وانتصر، فليس على المرأة إلا أن تبكي فينهزم أمامها، وكانت ماريا لويزا تفخر بأنها تحصل دائما على ما تطلب إذا بكت مرتين، وتتخذ الزوجة الحكيمة هذه القاعدة الأساسية في الحرب: "إذا لم تنجحي أول مرة فعليم بالبكاء مرة أخرى".

ويبدو أن الأنثى تتخذ موقفا أقل إيجابا من الذكر مما قد نسميه غرائز الحركة، كالحبو، والمشي، والقذف، والقفز، والتسلق، والجري، واللعب.

فالذكر أميل إلى الحركة عديمة النفع، والأنثى إلى الاستقرار الزائد عن الحاجة، والمرأة أكسل، وهي كذلك أخطر الجنسين، لن البطالة رأس الفساد، ولكي يكون المرء فاضلا، كما يكون سعيدا أو لطيفا، يجب أن يشغل نفسه بشيء ما.

(٣) الغرائز الاجتماعية

رأينا في مجموعة الغرائز التي استعرضناها أخيرا، وهي الغرائز التي تحفظ الفرد، أن تفوق الرجل واضح وطبيعي، أما الغرائز التي تحفظ الجماعة، فالمرأة تتفوق كما تتفوق في الغرائز التي تحفظ الجنس، فهي أشد ميلا إلى الاجتماع والمعاشرة من الرجل، وتحب الصحبة والمجتمعات، وتستسلم في سرور لإجماع الجماهير، إنها لا تسأل عن أفضل التمثيليات، أو الحفلات الموسيقية، أو أماكن اللهو، بل تسأل عن أكثرها امتلاء بالحضور، ولو أن الفرق بينها وبين الرجل في هذه الناحية ضئيل. (على أقل تقدير تسعى المرأة أن تحب الأفضل، في حين لا ينقاد الرجل العادي إلى حضور الحفلات الموسيقية، ومعارض الفن، والتمثيليات إلا خوفا من زوجته). وهي أقل من الرجل

(1)Johnsno, R, M, The Coriscan, p. 45 - 8

قدرة على العزلة، وقل أن تجد من بينهن ناسكات، وغنها لتشعر بالنقص بدون الرجل، أكثر مما يشعر هو بدونها.. ولا ريب أن ذلك يرجع إلى حاجتها لحمايته، وعادة لقيادته إنها حيوان اجتماعي.

لذلك كانت المرأة أكثر ثرثرة، ويقال إن المرأة لا تحفظ سرا، وكان فرانكلين يظن: "أن السر لا يحفظ بين ثلاثة إلا إذا مات منهم اثنان". فإذا أردنا أن يكون هذا القول صحيحا عن الجنسين فلا بد أن نرفع نسبة الوفيات.

ومع ذلك تستطيع المرأة أن تقاسي في صمت مدة أطول من الرجل، وذلك كما يقول مرديث Meredith: "على طريقة النساء اللاتي تشبه صدورهن القبور"[١]. والمرأة أكثر من الرجل تعبيرا، لنها في الغالب أشد خضوعا للوجدان والانفعال، وهذا هو السر في أنها اكثر قبولا للأمراض العصبية – كالكوريا chorea، والرجفة، والهستيريا، والتلبس obsession، والخوف phobia، والأوتوماتزم، والوساطة الروحية، وغير ذلك – كما يرجع ذلك إلى الكبت القوي الذي يفرضه المجتمع على دوافعها الشهوانية، ونحن نجد أن وجه المرأة يكاد يكون متحركا كحديثها، فهي لم تتعلم كرجل الشعب الصابر أو رجل الأعمال الحذر، أن تحتفظ بسحنة جامدة إزاء تيار المكسب والخسارة، واللذة والألم، ويصاحب هذا التعبير السريع في وجهها مقدرة أعظم على استقراء علامات الشعور والتفكير في غيرها من الناس، ولذلك كان خداع المرأة أصعب من خداع الرجل – كما يتبين لكل من جرب الاثنين.

ويختلف حب الاجتماع كما وضح جالتون باختلاف الحياء والمحاكاة، فالمرأة تترك

---

(1) **Ordeal of Richard Feverel, p. 32.**

جورج مرديث (١٨٢٨ – ١٩٠٩) روائي إنجليزي اشتهر في رواياته بتحليل المشكلات الاجتماعية والدراسة الإنسانية، وأشهر قصصه "محنة رتشارد ففريل" كتبها سنة ١٨٥٩، وخلاصتها أن ريتشارد يقع في العشرين من عمره في حب فتاة ريفية وهي لوسي ويتزوجها، فيغضب أبوه ويفرق بينهما، ويتصل رتشارد بفتاة من بنات الهوى، وتقع لوسي في حبائل أحد النبلاء، ويرجع ريتشارد فتعلم بسيرة زوجته ويغضب (المترجم)

عادة المبادأة للرجل، حتى (على الرغم من شو) في الحب، وهنا تظهر قبل كل شيء سيادته، أما إذا لم تسكره أول كأس من الرغبة، فقد يظل مبقيا إياها سنوات تنتظر حسابه وجمعه وتجاربه الجنسية، والمرأة غير واثقة بنفسها إذ تخضع دائما لضعفها الجسماني وتبعيتها الاقتصادية، مما يحد من شجاعتها، ويحجبها عن الثورة أو العمل، غنها تتشبث بالمألوف والمتعارف، محاكية الماضي في تقوى، ومقلدة بحالة عصبية كل ريح حديثه تحمل البدع في الملابس أو السلوك أو الأفكار، وهي أسرع من الرجل إلى اعتناق (التقاليع) والخزعبلات التي تتجه في أمريكا نحو اتخاذ مكان التقدم الفكري السليم، وينقب المحلل النفساني تنقيبا شهوانيا في نفسها المضطربة، ويهدئها الوسيط الروحاني بظهور الأشباح، ويجد كويه M. Coue في خيالها السهل التصديق مادة سهلة.

والمرأة لا تجسر على مخالفة المعايير والمتوسطات دون اهتمام كالرجل، وهي تخرج للعالم عددا أقل من البلهاء ومن العباقرة، وهي اكثر شبها ببنات جنسها من الرجل بغيره من الرجال، ذلك أن ضغط البيئة المتغيرة، وتعدد الوظائف والمهن والحرف أدى إلى تميز الرجال إلى أصناف كثيرة، ولكن صناعة البيت التقليدية، واشتغال المرأة منذ القدم بالبحث عن زوج وتربية الأبناء، كل ذلك أثر في معظم النساء وصاغهن في بوتقة واحدة، وإذا كانت وجوههن مختلفة فأنفسهن دائما واحدة، ولعل إلى هذا يرجع بعض السبب في انتقال الرجل في يسر من محبوبة أو من خليلة، إلى محبوبة أخرى أو خليلة أخرى، ولا يحتاج في ذلك إلى معرفة اسم جديد لا إلى تعلم فن جديد، بل قد تفيد الحروف القديمة في بعض الأحيان، أما المرأة التي أحبت وهجرها حبيبها فقد ترى جرحها مما يصعب اندماله، لنها ربطت روحها بصورة خاصة، وسيعيش قلبها على الذكريات أني ذهبت.

وآخر ما يترتب على غريزة الاجتماع في المرأة غرامها بالتأييد الاجتماعي، فرأي جيرانها له وزنه بالنسبة إليها أكثر مما هو بالنسبة إلى الرجل، لأن العلاقات الاجتماعية تمتص من حياتها الساعات التي لا تشغلها في الحب والأمومة، وهي تمتاز

عن الرجل بالزهو، لنها أكثر وعيا بفضائلها وجمالها، وقد تقتضي نصف ساعة تضع المساحيق على وجهها، ولو أن الفرق ليس كبيرا بين زهو المرأة وغرور الرجل، ويؤدي إفضاؤها عن ذات نفسها إلى القيل والقال، ويقودها التقليد إلى التطابق، وهي أشد من زوجها شوقا إلى الظهور في العالم، وتعطشها إلى المنزلة عبارة عن نصف الريح التي تدفع شراع سفينة زوجها، ولذلك كانت تحس بنقص شديد عمن هم أعلى منزلة منها، وأسمى كثيرا ممن هم أدنى منها، ولكنها لنفس هذا السبب أكثر أدبا من الرجل، ولحساسيتها الاجتماعية مع أمومتها أكثر منه عطفا وشفقة، ويعوض عن زهوها اللطيف حسن اعتبارها، ورقتها، مسارعتها إلى العناية بالمريض ومساعدة الضعيف، وصفاتها الموهوبة التي تميل بها إلى الإيثار والخلق الحميد.

وأخيرا فإن هذه المميزات العقلية والقلبية تجعلها أكثر تدينا، ذلك أن انفعالها المرهف يهديها إلى سرعة الإحساس بنداء الدين العميق الذي يتجه للحواس والمشاعر، هذا إلى أن الكبت الشديد على ميولها الشهوانية يتركها مثقلة بولاء غامض يرتبط بكل موضوع للعبادة، وشعورها بألوان الحرمان التي تجعل الحياة حزينة أكثر حدة من شعور الرجل، كما أن رغبتها في الاتحاد مرة أخرى بأولئك الذين أحبتهم وفقدتهم يقنعها بالاعتقاد في الخلود، والطبيعة نموذج رائع لها.

ومن يدري لعل المرأة في عجزها المتواضع عن الفهم، قد تكون ألصق بسر الطبيعة من علمنا الميكانيكي؟ إنها تعبد الله بالغريزة، في الوقت الذي قد ينشد فيه الرجل الرقابة على نفسه، وهي لعجزها الجسماني تلتمس حماية الله القادر على كل شيء، وتطلب هداية السماء في صلاتها حين يضل عقلها في هذا العالم.

وهي تتعطش إلى الوجود في الحضرة الإلهية خوفا من العزلة وحبا في المجتمع، وتعمر الفضاء بالأرواح التي تؤنسها في وحدتها وتعينها على حاجتها، وهي أول من يرحب بالصور الجديدة من الاعتقاد، وآخر من يتخلى عن القديم، ولقد يقتل الإنسان نفسه في ساعة اليأس، أما المرأة حين تفقد كل أمل فإنها تعتمد على رحمة السماء، وتلتمس القوة والعزاء في الرب الحبيب.

٣- الاختلافات العقلية

هذه هي غرائز الرجال والنساء، لكن لا يجب أن نفترض أن مثل هذه الميول الأولية تظل دون تغيير مع التجربة والتعليم، ففي كلا الجنسين تنمو العادة ويقوم العقل على أساس هذه الاستعدادات، فكيف يختلف هذا البناء العقلي في الرجال عنه في النساء؟

العقل في الرجال أوسع وأعلى، فقد خرج الرجال منذ أجيال كثيرة من البيت المعروف إلى فضاء العالم المتعدد الجنبات، وكان عليهم أن يواجهوا مواقف جديدة ومؤثرات جديدة لا تصلح لها استجابات الغرائز القديمة، فاضطروا بالضرورة (بعضهم فقط) إلى تنمية هذه القوة اللينة لتستجيب بنجاح في المواقف الجديدة، وهذه القوة هي التي تكون ذكاء الغريزة، ذلك أن الغريزة أيضا يمكن أن تكون على ذكاء، وليكن المؤثر أو الموقف من النوع التقليدي الذي واجهته الإنسانية قرونا طويلة، تجد أن الغريزة خليقة بالكفاية، بل هي أجدر أن تكون أكثر ذكاء، نعني أفضل تكيفا وأكثر نجاحا من عمليات الفكر المزعزعة.

وكانت المهام الأساسية في حياة المرأة إلى عهد قريب البحث عن زوج وتربية الطفل، ولا يزال هذا الأمر صحيحا بالنسبة لجميع النساء ما عدا نساء المدن الكبيرة، وهو صحيح بالنسبة لجميع نساء المدن ما عدا نساء الطبقة الوسطى.

وهاتان المهمتان الرئيسيتان من أقدم المشكلات التي واجهتها كل امرأة بمقدار ما تعي الذاكرة، وقد هيأت الطبيعة لهذه المواقف استجابات غريزية قد تؤدي في بعض الأحيان إلى نكبة، ولكنها عادة نافعة ومعقولة.

لذلك تفضل المرأة (ما عدا الاستثناءات المدنية دائما) الرجل في وحدة غرائزها وكمالها ودقتها، أما الرجل فأكثر نقدا وشكا، وأعظم بهيئة التفكير سقما.

فقد تعطلت غرائزه بالمرونة، وفقدت ما فيها من مباشرة وثقة، وهو يرتبك دائما في حضرة المرأة، لأنها أشد بنفسها ثقة وأكثر استعدادا للعمل، وأبرع في وضع الخطط

وأسرع في تنفيذها، حيثما كانت المشكلة تتعلق باصطياد الزوج أو الإبقاء على المحب، أو إقامة البيت، ولا تجد رجلا في الثلاثين يباري امرأة في العشرين في حرب الحب اللطيفة، راقب أي رجل مهما يكن شيخا يحب امرأة مهما تكن صغيرة، وانظر أيهما يطوي صاحبه في إصبعه، فهناك بعض الأمور تعرفها المرأة قبل أن تولد، وذلك بالحق الأزلي للصبغيات الثانوية، أما الرجل فلا يعرفها إلا بالتجربة الشاقة بعد زوال الوهم عنه، والمرأة تبصر أكثر ما تقرر، والرجل يقرر أكثر مما يبصر، المرأة تفكر بغير فكر، وتكذب بغير تفكر سابق، إنها تسبق الرجل في الكذب المخترع بمراحل واسعة، وهي التي تفسر بغير اضطراب أي أزمة يكتشف فيها أمرها.

ولما كانت المرأة مهيأة منذ الولادة أفضل من الرجل لمهام الحياة العادية، فإنها تنضج أسرع، ومرحلة بلوغها أقصر، وقد وضعها بعض الرجال من أجل ذلك في مرتبة أدنى من حيث النوع، وفي هذا الحكم شيء من التسرع، إذ على هذا الأساس تكون السلحفاة أشرف مخلوقات الله، وقد يكون من المعقول أن نستنتج امتياز المرأة الفعلي من نسبة وزن مخها الكبيرة، بالإضافة إلى مخ الرجل، إلى وزن جسمها، ولعل بلوفها السريع مكتسب، وقد فرض عليها في ظروف قديمة قاهرة للأمومة المبكرة، ويستطيع الرجل كذلك أن يصبح أبا في منتصف السن التي يتزوج فيها الرجل حديثا، ولكن الظروف الاقتصادية لا تسمح بذلك، والبلوغ يكون في العقل كما يكون في الجسم، وله فروق كثيرة.

فبعض الرجال يتم نضجهم مبكرا، والبعض الآخر متأخرا، والبعض الثالث لا ينضجون أبدا، ومن الواضح أن بلوغنا الإنساني يطول، لأن عجزنا يزداد في وجه عالم يصبح كل يوم أكثر شمولا وأبعد عن التجانس لاستعداداتنا وفنوننا الفطرية، وقليل من الرجال في الزمن الحاضر هم الذين يتم بلوغهم العقلي قبل أن يصلوا إلى منتصف الحياة، أما المرأة التي تقوم حياتها على إدراك الأمور الطبيعية والعميقة ببساطة، فغنها تنضج جسما وعقلا في سن مبكرة، وهي أسرع إلى تعلم مباهج السلوك الاجتماعي، وهي أبرع في المدرسة من الصبى الذي يماثلها في العمر، وقد أثبتت أخيرا في كلية

ردكليف Radcliffe امتيازها في الاختبارات العقلية على شباب هارفارد المثقفين، ولكن هذا النمو السريع يتجه إلى بلوغ التمام في وقت أسرع عند المرأة منه عند الرجل، فالمرأة لا تنمو بعيدا عما كانت عليه منذ الولادة كما يفعل الرجل المجرب المحنك، وهي تتشبث بالوراثة، وهو يغامر فيتمايز، إنها أداة استقرار الجنس وأساسه، وهو سبيل التغير ونذيره. والمرأة جذع الشجرة الإنسانية، وجذورها تتشبث بشدة في الأرض التي تنمو عليها، وتمد جذورها في أمان كما تتطلع بفروعها في السماء.

أما الجانب من هذا الثبات فهو ضرب من المحافظة في الوجدان ولون من القصور في الفكر، ذلك أن مصالح المرأة تتعلق بالأسرة، وبيئتها عادة هي البيت، فهي عميقة عمق الطبيعة، ضيقة ضيق الجدران الأربعة، وتلائم الغريزة بينها وبين التقاليد، ولذلك تحب التقاليد كما يحب الخبير الوسط الذي يكشف عن امتيازه، وهي أقل تجريبا في العقل والأخلاق (ما عدا بعض الاستثناءات المدنية). وإذا لجأت إلى "الحب الحر" فليس ذلك لأنها تجد فيه الحرية، بل لأنها تيأس من إتمام زيجة عادية مع رجل مسئول، وكم تفرح في شبابها قد راعتها عبارات الإصلاح السياسي، وبسطت عاطفتها رقيقة على الإنسانية كلها، فإنها تسحب هذه المحاولات حين تجد الزوج الأمين، وسرعان ما تفصله، وتفصل نفسها، عن هذا الإخلاص العاملي، وتعلمه الولاء العميق المحدود بالأسرة، يقول الشاب في نشوة الغزل: "كم أود أن أهبك العالم". فإذا تزوج فعل ذلك.

والأمر كذلك في البيت، فالمرأة تعرف دون حاجة إلى التفكير أن الإصلاحات الوحيدة السليمة تبدأ من البيت، وهي تخدم الجنس حين تحيل المثالي الهائم إلى شخص يخلص لأبنائها، والطبيعة لا تحفل إلا قليلا بالقوانين والدول؛ وغرامها بالأسرة والأبناء، فإذا استطاعت حفظهم فلا تبالي بالحكومات والأسر الحاكمة، وتسخر من أولئك الذين يشغلون أنفسهم بتعديل الدساتير، وإذا كانت الطبيعة تبدو اليوم مخفقة في مهمة حماية الأسرة والطفل فذلك لأن المرأة قد نسيت الطبيعة في هذا الزمان، ولكن الطبيعة لن تنهزم طويلا، إذ تستطيع في أي وقت أن تغترف من مئات الوسائل

المدخرة، فهناك أجناس وشعوب أخرى أكثر منا عددا وأعظم انتشارا تستطيع بوساطتهم أن تحتفظ باستمرارها الثابت العزم، والذي لا تلوي فيه على شيء.

٤- المرأة والعبقرية

تولد المرأة مزودة بالذكاء، الذي يحصله بعض الرجال، ويستحثه معظمهم، وقد أصبحت الحياة بالنسبة إلى الرجل في ظل فوضى الثورة الصناعية المتغيرة ميدانا فسيحا من المسئوليات المتعددة الألوان، وليس له يد في اختيارها ولا يتوقعها، وقد انهارت أعصاب كثير من الرجال، وتطور عقل كثير غيرهم تطورا سريعا ولامعا بحيث يستخدم سائر الطاقة المختزنة في الجهاز العصبي، وينشأ عن هؤلاء القوم عدد من العباقرة والمجانين لم يعهد من قبل، وكما أن الصناعة تبتلعهم، كذلك تخضع المرأة لهذه القوة القاهرة من النمو العقلي، ولكن على الرغم من سرعة تغيرها فإنها لا تزال مختلفة عقليا عن الرجل، ويبدو أن المرأة لا تستريح إلى الفكر المجرد، فهي تلمح الوقائع وتحسن تذكرها، غير أنها لا تحسن التعميم، أو التأويل المبتكر، وقد تنحرف عن الغرض وتغرق في التفصيلات، وهي تهتم بالأشخاص أكثر مما تهتم بالعمليات العقلية أو الأشياء، وهي لا تناقش المشكلات بمقدار ما تناقش الرجال، لأن الرجل مشكلتها، وقد كتب عليها أن تشغل نفسها بالأشخاص، بالزوج والطفل، وكتب على الرجل أن يدور في عجلة التجارة والصناعة، وأن يفكر في الأسباب والعمليات والمسببات كما يتعامل مع النساء والرجال، ومن الأيسر على الرجل أن يسلي نفسه بقراءة كتاب ينشر فكرة، أما الكتاب الذي تقرأه المرأة فيجب أن يقص قصة .. عن رجل.

إنها لا تزال من أصحاب مذهب "الأنيمزم" فترى شخصيات إلهية وإرادة أبطال حيث ربما لا يوجد إلا عمليات غير شخصية لتغيرات كونية واجتماعية واقتصادية.

ومن بواعث رضا الذكور من الباحثين عن الاختلافات العقلية بين الجنسين ملاحظة قلة عدد العباقرة الذين قدمتهم المرأة للعالم، وحتى في الفن الذي قد يقال إن

له بعض الصلة بالجمال، وفي الموسيقى التي تضرب على الحساسية العاطفية، فالمرأة قد أنتجت أقل مما يظهر أن جهودها وظروفها تسمح بذلك.

وهناك نساء يعزفن الموسيقى أكثر من الرجال، وعدد الرجال الذين يؤلفون المقطوعات الحية أكثر من عدد النساء، وعندما يعترف الرجال بالعبقرية العقلية أو الفنية في المرأة فذلك ريثما يسترجعون هذه العبقرية للرجل معلنين أنها تخص الذكور، ويؤكد لنا شوبنهور أن ثمة حربا بين العبقرية والأمومة، فإذا صدقناه انتهينا إلى أنه لا توجد امرأة متفوقة عقليا دون أن تكون في مثل الشذوذ الخطر الذي كان عليه شوبنهور، وكانت جورج ساند(١) George Sand تدخن سيجارا خاصا بالرجال، وكان سبنسر يجد جورج إليوت(٢) شديدة الذكورة بحيث يصعب الانعطاف إلى روحها الباردة، وتذهب مدام جيراردين إلى أن المرء يستطيع أن يتتبع في كل رواية من روايات جورج ساند أثر آخر محبيها وسلوكه، وفي ذلك تقول: "إننا حين نتفقد أعمال الكتاب النساء نكون غالبا مضطرين إلى القول في تعجب مع بيفون:- الأسلوب هو الرجل"(٣).

وأسباب قلة العباقرة في النساء كثيرة وعسيرة البحث، ولعلنا نعرف اصطلاح العبقرية في تحيز ناسين أنه قد يكون ثمة عبقرية في الأمومة كما يكون في السياسة أو الأدب أو الحرب، ويجب أن نحكم على المساواة في العبقرية، لا بالقدرة على عمل كل شيء بمهارة متساوية، بل بالقدرة على أداء المهام والوظائف الطبيعة لكل سن وجنس أداء ممتازا، غننا هنا نقع في نفس الخطأ الذي يرى العبقرية أقل في عصرنا من عصور سابقة يبعث فيها الزمن سحرا، فنحن نميل إلى البحث عن العباقرة اليوم في

---

(١) جورج ساند (١٨٠٤ – ١٨٧٦) روائية فرنسية اسمها الأصلي أمانتين لوسيل، ثم ترجلت وأسمت نفسها جورج ساند، وأخفقت في زواجها وأنجبت طفلين، ولها مغامرات غرامية كثيرة. (المترجم)

(٢) جورج اليوت (١٨١٩ – ١٨٨٠) روائية إنجليزية اسمها الأصلي ماري آن إيفانو وتمتاز قصصها بدراسة الشخصيات والمشكلات الاجتماعية. (المترجم)

(3)**Brandesm G. Main Currents of Nineteenth Century Literaturem vol, III, p. 71, note.**

الميادين ١اتها التي ازدهرت بها في الماضي؛ ولعل بعض القوة العقلية التي أبدعت الأدب والفن قديما قد امتصتها الآن ميادين العلم والصناعة الواسعة، فنحن مستغرقون في الوقت الحاضر في بذل المجهود لصياغة العالم الطبيعي صياغة جديدة في ضوء معرفتنا وقوتنا الجديدتين، وعندنا الأن كبار المخترعين والعلماء والمنفذين للأعمال الدولية والماليين العالميين، فلا ينبغي أن نتوقع في العصر نفسه أن يظهر أمثال أفلاطون وشكسبير وليوناردو وبتهوفن.

ولعل الرجال قد تفوقوا على النساء في العبقرية، لأن العباقرة يظهرون عادة بين الأقلية المتعلمة من كل جنس، لذلك كانت الموازنة كريهة إلى أن تتكافا نسبة المتعلمين تعليما عاليا في كلا الجنسين، فالعباقرة من الذكور خلاصة ملايين من الرجال المتعلمين، والعباقرة من الإناث زبدة بضع مئات فقط من المتعلمات، فإذا أفسح المجال والتدريب للمرأة أخرجت كبار الشعراء مثل سافو Sappho، والروائيين مثل جورج إليوت، وعلماء الطبيعة مثل مدام كوري، وعلماء الرياضة مثل هيباتا Hypatia وسونيا كوفالفسكي، والمفكرين مثل إسبانيا ومادم دي ستال، بل كذلك حكاما أقوياء مثل الملكة إليزابيث وكاترين دي مديشي، ومن الملاحظ أن الظروف إذا كانت مواتية ظهرت كثيرات من العباقرة، ومن المحتمل مع ذلك أن المرأة ينقصها الحيوية الجسمانية الخالصة التي يحتاج إليها العمل الفني، ولعلهن أقل من الرجال موهبة فيما يختص بحاسة الجمال التي تفتن النفس وتبعثها إلى الإنتاج الروحي، وقد يمكن أن نشير هنا مرة أخرى إلى هذا الضرب من الفتور الجنسي – أو قل إنه حساسية متأخرة – في النساء، والذي يؤكده لنا كثير (من الرجال) من علماء الأمراض العصبية، ولكن ليس له دليل كاف في الأخلاق المعاصرة، والمرأة على وجه العموم لا تنشد في زوجها الجمال بل القدرة والقوة كعهد بالحماية، أما الذكر فهو الذي ينتخب ناظرا إلى الجمال، لا لأنه (كما نجد في عبارة ستاندال) سبيل إلى اللذة، بل لأنه عادة عنوان القوة والصحة، وإذا كانت المرأة تفقد شيئا من الهوس بالجمال فذلك لأنها لا ترغب في الامتلاك بمقدار ما ترغب في أن تمتلك، فهي لذلك تلهم

الفن أكثر مما تنتجه، ولعلها لا تجد في الرجل، هذا الرجل المتكبر المضحك، الجمال الذي يبعث على الخلق، ولماذا تنشد الجمال وهي تتجسده؟ إن الجمال الحي أفضل من أبهى فنون النحت والتصوير، وأشرف حتى من الذكاء؛ لأنها أصل الفن وغاية الذكاء، ولو أن الحياة كانت جميلة ما احتاجت إلى الذكاء، أما إذا كانت الحياة ذكية فإنها تسعى جاهدة كي ما تصبح جميلة.

٥- هل الاختلافات موروثة؟

ليس أمامنا إلا سؤال أخير: هذه الاختلافات العقلية أهي موروثة أم مكتسبة؟ والجواب عن هذا السؤال صعب، لن هذا الميدان ينافس فيه العلم الفلسفة في زعزعة المعرفة وكثرة الفروض، وقد يمكن أن نجازف فنفترض بان هذه الاختلافات ولو أنها مرتبطة بالاختلافات الموروثة للبنية والوظيفة، إلا أنها في معظم الأحيان تنتقل اجتماعيا وتكتسب فرديا، وهي تتوقف إلى حد كبير على المثل العليا التي كونها الرجال لمنفعتهم الخاصة عن النساء، وفرضوها عليهن من خلال آلاف المؤثرات البيئية، وفي ذلك تقول إحدى الأساتذة محتجة: "يشجع الصبيان على الفردية، فيدربون على الاستقلال في الفكر والعمل .. ويشجعون على التجريب وعلى عمل الأشياء بأنفسهم، أما البنات فيعلمن الطاعة، والاعتماد على الغير، والانقياد، ويحملن على الشعور بأن الإسراف في الاستقلال بالرأي أو العمل منقصة لهن، فلا يليق بهن، أو لا يوافق أنوثتهن، أما الصبي فيعلم أن يشعر بان نجاحه في الحياة .. يتوقف على قدرته على أداء عمل جديد .. ولسنا نجد مثل هذا الدافع الاجتماعي مطبقا على البنات"[(١)]

ويمكن من بعض الوجوه نتيجة تجارب واسعة أن نجيب إجابة علمية عما إذا كانت الفروق العقلية والخلقية بين الرجال والنساء فطرية أم غير فطرية وقد وجهت الظروف الاقتصادية التجارب، وكانت الحياة نفسها المعمل ويبدو كما لو أن الطبيعة

---

(1)Thomopson, H. Bm Mental Traits of Sex, p. 178.

قد وضعت لنفسها المشكلة التي تحيرنا، وعزمت على حلها باختبار يكاد يكون كونيا، فقد كان الرجال متفوقين عقليا على النساء: أذلك بالوراثة أم بالبيئة؟ وللجواب عن السؤال كان لا بد من إخضاع عدد كبير من النساء للحياة الاقتصادية المتغيرة والمتباينة التي كانت تصوغ الرجال، ثم نلاحظ بأي سرعة وعمق غيرت هذه الوظائف الواسعة عقل النساء العاملات وخلقهن، وأصبحت جميع إنجلترا ونصف أمريكا مسرحا للتجربة الكبيرة، وفتحت المصانع والوظائف والمهن أبوابها لكلا الجنسين، وانتزعت الضرورة الاقتصادية الملايين إثر الملايين من النساء عن البيت القديم وقذفت بهن في طيش وحشي إلى المنافسة الاقتصادية والتجارية مع الرجال، فماذا كانت نتيجة التجربة؟

كانت النتيجة تحولا نحو المرأة "المتحررة" بلغ من السرعة حدا جعل العالم كله يفغر فاه دهشة، ففي خلال أجيال ثلاثة شق العاملات الجديدات بالصناعة طريقهن في كل ميدان حيث لا غنى عن القوة الجسدية، واكتسبن في جميع هذه الميادين من صفات الرجل العقلية والخلقية ما يكفي لأن يجعل أي عالم أخلاقي في الممالك المسيحية يتأسف على ترجل الجنس الذي كان ذات يوم ألطف وأضعف، وأبرزت المحاميات وعالمات الطبيعة والحاكمات وقاطعات الطريق قدرة المرأة، المحدودة بنطاق فرصهن التي لا تزال ضيقة، على منافسة الرجل في فنونه التي أسسها من قديم، وتخرج في كليات الجامعات نساء لا يود أي رجل الزواج منهن، لأن امتيازهن العقلي يتنافى مع بعض مزاعم الرجال في القيادة، وهي مزاعم من لوازم الزواج ومصاحباته، لقد تناقصت الثغرة العقلية والخلقية بين الجنسين بالسرعة التي حلت فيها الورش والمصانع محل المزارع والبيوت.

وسندرس فيما بعد هذا التغيير بتفصيل أوفى، ولكننا لا ننظر إلى هذا التغيير الآن إلا على انه دليل على أن النساء إذا رغبن في حياة الرجل المهنية تماما، فعليهن منافسته والتماثل وإياه في الصفات العقلية والخلقية، ولكن أكبر الظن أن المرأة ستفصح عن ذوق أفضل من هذا، وسوف تنقضي هذه الفترة الحاضرة من التقليد،

وتكتشف المرأة أن الرجال لا يستحقون هذا الإطراء.

وسيدركن أن العقل يختلف عن الذكاء، وان السعادة كالجمال والكمال في تحقيق ذواتنا الطبيعية، ولن تسعى أولئك النساء السائرات في طريق التحرير أن يكن رجالا ناقصات بل نساء كاملات، سيجعلن من الأمومة فنا يحتاج إلى إعداد وذكاء كما تحتاج إدارة الروافع والطنابير والمفاتيح والعجلات، وقد يكتشفن أن الأمومة هي أعظم سائر الفنون.

لقد جلبت عليهن حريتهن الجديدة مشكلات من التعقيد والصعوبة كتلك التي كانت في عصر عبوديتهن، ولا يستطيع الرجال مساعدتهن في هذا المجال، لأن عقل الرجل من الميكانيكية والخشونة بحيث لا تسمح له أن يفهم بدقة وعطف التغييرات الخطيرة التي تجعل حياة المرأة وعقلها مضطربين، معرفتها الجديدة وحدها هي التي تستطيع تلمس الحل لهذا الموقف الجديد، وأكبر الظن أنها سوف تنجح، فالطاقة التي حققت حريتها سوف تواجه المطالب التي بعثتها هذه الحرية، ستجد سبيلا يجمع بين الحنان الذي يزدهر في الحب والأمومة، وبين القدرة المتنوعة، والذكاء النافذ، والجمال الزائل، مما تتميز به اليوم.

الفصل التاسع

المرأة الحديثة

١- التغير الكبير

لقد أغفلنا في التحليل السابق الحديث عن المرأة المصنعة في المدن الحديثة إلى دراسة منفصلة، لن هذا الصنف فذ بين النساء، عزيز في التصنيف، ويكاد يكون بغير سابقة في التاريخ، ولو تخيلنا أنفسنا في سنة ٢٠٠٠، وتساءلنا عن أبرز ملامح الأحداث الإنسانية في الربع الأول من القرن العشرين، لرأينا أنه ليس الحرب الكبرى ولا الثورة الروسية، بل تغير حالة المرأة، ولم يشهد التاريخ مثل هذا التحول المذهل في مثل هذا الوقت القصير. "فالبيت المقدس" الذي كان أساس نظامنا الاجتماعي، ونظام الزواج الذي كان حائلا دون الشهوة الإنسانية وعدم الاستقرار، والقانون الأخلاقي المعقد الذي رفع البشر من الوحشية إلى المدنية والتهذيب، من الواضح أنها وقعت بين براثن ذلك الانتقال المضطرب الذي أصاب جميع نظمنا وسائر أساليبنا في الحياة والفكر، منذ أن اغتصبت المصانع المزارع، وامتصت المدن موارد الريف الطبيعية والإنسانية، فإذا كانت عقولنا قد تزعزعت بعض الشيء في هذا العصر الهائج فلها العذر في ذلك.

أما أن تكون المرأة مجرد جارية في البيت، أو زينة اجتماعية، أو متعة جنسية، فتلك ظاهرة عرفتها عصور سالفة غير زماننا، فهي مجرد ظاهرة وضرب من الشذوذ الأخلاقي يستحق الملاحظة العامة والالتفات، وقد طالب أفلاطون في جرأة بفتح باب كل عمل، والمساواة في جميع الفرص، دون نزر إلى اختلاف الجنسين، ولكن أرسطو كان أكثر موافقة لميول عصره فوضع المرأة في مرتبة متأخرة من النمو، وفسر

وجودها على أنها إخفاق الطبيعة في أن تنتج رجلا، فهي تتعلق بطبقة العبيد من حيث تبعيتها الطبيعة، وعدم جدارتها بالمشاركة في الأمور العامة.

وتلك كانت كذلك نظرة يهوذا Jehovah الذي جمع الأزواج والأمهات مع الماشية والأملاك الثابتة في آخر الوصايا العشر التي يقال إنه أنزلها على موسى.

وقد صاغ اليهود (يهوذا) على صورتهم، وكانوا كأي شعب محارب يعتبرون المرأة كارثة، وشرا لا بد منه يحتمل باعتبار انه المصدر الوحيد للحصول على الجند في ذلك الوقت، ولم يكن قدماء اليهود يوقدون أي شمعة إذا كان المولود بنتا.

وكان على الأم التي تلد أنثى أن تتطهر مرتين، أما الصبي، فخورا بالآية التي كانت عهد (يهوذا) عليه، فكان يردد بانتظام في صلاته: "أشكرك يا رب لأنك لم تخلقي كافرا ولا امرأة"[١]. ولكن اليهود لم يشذوا عن غيرهم، ولو أنهم كانوا في كثير من الأمور خارجين على القوانين الأخلاقية في زمانهم، ففي كل مكان من الشرق كانت المرأة محتقرة حتى تصبح أم بنين، ولا تشرف تمام الشرف حتى يخر أبناؤها صرعى في ساحة القتال، وحتى أفلاطون نصير المرأة فقد حمد الله لأنه ولد ذكرا.

ومنذ تلك الأيام حتى عصرنا الحاضر تغيرت دون شك أحوال النساء ومعاملتهن تغيرا عظيما واختلفت اختلافا بينا، ولسنا في حاجة إلى تفصيل ذلك على هذه الصفحات؛ فالقيان Hetairai اللاتي أضيفن على الحياة الأثينية قديما صورة بديعة، والمحظيات اللاتي كن يعمرن بلاط الملوك في العصر الحديث، التمسن الحرية من سيادة الرجل بإبراز مفاتنهن الجنسية والعناية بإظهارها: فكانت أسباسيا Aspasia، وفرينا Phryne تختلطان بالفلاسفة والفنانين، كما كان صالون مدام دي باري وبومبادور مراكز عقلية لأسمى ثقافة عرفها العالم.

وكانت الثورة الفرنسية تبشر في زمانها بحرية عالمية، فقدم كوندورسيه للمجلس الوطني طلبا بحق المرأة في الانتخاب، وأضافت ماري ولشتنكرافت حقوق المرأة إلى

---

(1)Royden, A, M., Woman and Sovereign State, p. 45.

حقوق الرجل، حتى إذا انقشعت دماء الثورة بعد أن قدمت المرأة نصف مليون من بنيها لتحرير فرنسا، وجدت أن أحدا لم يفكر في تطبيق الحرية والمساواة على البيت، وأن الثوار الذين استولوا على التويلري أمكنهم أن يحكموا زوجاتهم بيد قوية كالرومان الذين كانوا يحبون اصطناع أسمائهم، كانت الحرية وقفا على الرجال لا غير، وكانت مؤنثة لغويا فقط.

وظلت هذه الآراء سارية في هذا القرن، فمن منا اجتاز الأربعين ولا يذكر الرسالة العنيفة التي أثبت فيها أتو فا يننجر أن المرأة لا روح لها؟ ومن منا نحن الرجال لم يستمتع بقراءة كتاب شوبنهور "مقال عن النساء" حيث يقول: "هذا الجنس القميء، ضيق الكتفين، عرضين الحقوتين قصير الرجلين"؟ ألم تملأنا نشوة التفوق حين نصحنا نيتشه قائلا: "إذا أقبلت على المرأة فلا تنس أن تحمل سوطك؟" لم نلتفت إلى أن هذه الكتب التي استمتعنا بها أعظم متعة لم تكن إلا جزءا من الحرب الأزلية بين الجنسين، فهي كتب حربية للذين ضرب عليهم الحصار تعبر عن حكمة المنهزمين من الرجال.

وفاتنا أن نلاحظ، لأننا نشبه هؤلاء الشهود في تحيزهم، أن شوبنهور هجرته عشيقته البديعة وآثرت عليه لقب بيرون وحسن مظهره، وان نيتشه قد هجرته عشيقته السمراء لو سالومي Lou Salome بعد أن تتبعها في نصف ممالك القارة متقربا إليها بفقه اللغة والأمثال، وأن فايننجر ذلك العبقري المتعجرف هجرته قينة في إحدى حانات فينا، وفي ساعة من ساعات اليأس قتل نفسه رميا بالرصاص في بيت بيتهوفن، غننا نقرأ تلك الكتب راضين لأنها تعبر بدهاء وأمن عن عدائنا الكامن للجنس الذي سوف نظل على الدوام نكن له الحب.

لم يكن للمرأة حتى سنة ١٩٠٠ أو ما يقرب من ذلك أي حقوق يرتبط الرجل قانونيا باحترامها، وفي القرن التاسع عشر كان نساء أفريقيا يشترين ويبعن كالرقيق أو

كالآلات الزراعية، وكن في جزر تاهيتي وبريطانيا الجديدة يرضعن الخنازير[١]. وفي مرى إنجلند قد يضرب الزوج امرأته ولا يحاسبه القانون إذا بقيت بعد (العلقة) على قيد الحياة، وقد يرتكب الفحشاء كل ليلة، وليس لها أن تفعل مثله إلا إذا هجرها، وإذا اكتسبت مالا فهو من نصيبه، وإذا كان لها مال وقت الزواج فله أن يتصرف فيه، أما أن يكون للمرأة حق العمل في مصنع، أو شرف العمل في مصنع، فشيء لم يخطر على بال أي رجل.

ثم حدث التغير الكبير، فأخذت تلك النساء اللاتي كن عبيدا يتحدثن عن الحرية وغيرها من التمائم، وعن المساواة وغيرها من المستحيلات، وحطمن النوافذ وصناديق البريد، واشتركن في مواكب لا حصر لها، ومظاهرات صاخبة، الخلاصة فلنقل على "طريقة كوميديا الأخطاء"[٢].

في الفراش لم يغمضن لنا جفن لاستعجالهن الأمر

وعلى المائدة لم نذق طعم الأكل لاستعجالهن الأمر

وفي صحبتهن كن يدمن النظر إلى هذا الأمر

لقد ركبت المرأة رأسها، وشقت طريقها، ولا يمكننا اليوم أن نضر بها، ولن تطهي لنا الطعام، بل لن تبقى إلى جانبنا في البيت ليلة واحدة، وبدلا من القلق على خطايانا فهن في شغل بخطاياهن، لقد كسبن نفوسا وأصواتا في الوقت نفسه الذي يبدو أن الرجال قد فقدوا النفوس ونسوا الأصوات، فالمرأة تدخن، وتحلف، وتشرب، وتفكر، على حين يجلس الرجل الفخور الذي احتكر في الماضي تلك الفنون في البيت يشرف على تربية الطفل.

---

(1)Thomas, W.I., Sex and Society, p. 138.

(٢) كوميديا الأخطاء Comedy of Errors تمثيلية لشكسبير، تقوم على الخلط بين توأمين شكلهما واسمهما واحد، وتخطئ زوجة أحدهما وتختلي بالآخر. (المترجم)

٢- الأسباب

كيف نفسر هذا الانقلاب السريع للتقاليد والنظم الثابتة والمحترمة المنحدرة من عصور أقدم من المسيحية؟ السبب الشامل لهذا التغيير هو تكاثر الآلات، أما "تحرر" المرأة فكان عرضا نشأ عن الثورة الصناعية.

فأول كل شيء دفعت الثورة إلى التصنيع النساء على نطاق لم يعرف من قبل ولم يحلم به، كن عاملات أرخص من الرجال، وكان صاحب العمل يؤثر توظيفهن على الذكور الأغلى أجرا والأكثر ثورة، وكان الرجال في إنجلترا منذ قرن مضى يجدون مشقة في الحصول على عمل، ولكنهم كانوا يقرأون في الإعلانات دعوة نشائهم وأولادهم يرسلونهم إلى أبواب المصنع(١). فأصحاب العمل يجب أن يفكروا في ضيع من المكاسب والأسهم، ولا يجب أن تشغلهم اعتبارات الأخلاق والنظم والدول، والرجال الذين تآمروا ببلاهة على "هدم البيت" هم أصحاب المصانع الوطنيين في إنجلترا في القرن التاسع عشر.

وأول خطوة قانونية لتحرير جداتنا كان تشريع عام ١٨٨٢ الذي نص على أن نساء بريطانيا العظمى لهن الحق في التمتع بمزية لم تكن لهن من قبل، وهي الاحتفاظ بما يكسبن من أجر، كان ذلك التشريع أخلاقيا ومسيحيا إلى أقصى حد، فرضه أصحاب المصانع في مجلس العموم ليجذبن فتيات إنجلترا للعمل في مصانعهم، ومنذ تلك السنة حتى وقتنا هذا ظل الدافع الذي لا يدفع إلى الحصول على الكسب يجتذب النساء من عبودية البيت إلى رق الورشة، ونصف نساء إنجلترا اليوم يشتغلن إما في المكاتب أو المصانع، وتتزايد نسبة العاملات في الصناعة أربعة أضعاف السرعة التي تتزايد بها نسبة الرجال، وأكبر الظن أن كل امرأة في مدينة المستقبل ستعمل خارج البيت فيما عدا فترات أمومتها النادرة.

وقد يبدو هذا المنظر لبعضنا كريها عند التأمل فيه، ولكننا سنعتاده بعد جيل أو

---

(1)Hammond, J.L. and B. : The Town Labourerm 1760 – 1832.

جيلين، لأن العادة تجعل كل شيء يبدو معقولا.

ومن الطبيعي أن ينشأ عن تصنيع المرأة فساد الحياة المنزلية، وكلما ولدت الآلات آلات جديدة بكثرة متزايدة مستمرة، وأدى الإنتاج الواسع النطاق المزود بأساليب جديدة من القوة إلى رخص الأسعار، غلب المصنع البيت وتفوق عليه مئات الحرف التي كانت تنوع حياة المرأة، وانتزع منها عملها السابق شيئا فشيئا، وأخذت المهن التي أدت إلى عبوديتها تفر واحدة بعد أخرى، تاركة البيت خاليا من الاهتمام، والمرأة نفسها عارية عن الوظيفة وغير راضية.

والمرأة هي التي خرجت لحسابها الخاص من البيت إلى المصنع، لقد بحثت عن العمل الذي طار من يديها، وكانت تعلم أنها بغير هذا العمل لابد أن تصبح طفيلية لا معنى لها، وترفا لا يقوى على اقتنائه إلا ذوو المال الوفير، أو ذوو العاهات من الرجال، وتلقت المرأة أول أجر لها بالاعتزاز والسعادة التي يشعر بهما الصبي الذي أراد أن يثبت رجولته بالعمل في المصنع والتدخين يوم الأحد، كي يهرب من المدرسة، فالابتهاج الذي استقبلت به المرأة عملها الجديد كان فرحة عثورها على شيء تعمله، فهذه هي السعادة بالوظيفة مرة أخرى.

فلما أصبح البيت فارغا، ولم يعد فيه مكان لعمل شيء أو الاستمتاع بالحياة، هجره الرجال والنساء، وأخذوا يعيشون في صناديق أو خلايا تسمى شقة في بيت، وعنابر ينام فيها أولئك الذين يقضون حياتهم ليلا ونهارا في الخارج في صخب الشوارع وزحمتها، فهذا نظام استمر عشرة آلاف سنة انهار في جيل واحد، وقد تعلمنا من علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي أن النظم والتقاليد والأخلاق لا يمكن تبديلها إلا بالتدريج البطيء غير المحسوس، ولكن ها هنا أحد التغيرات الكبرى في تاريخ الحضارة، والذي يكاد يبلغ الأوج، وقع في زمن لا يزيد عن طفولة شخص واحد إلى كهولته، وقد حذر الكتاب والوعاظ والساسة من السماح للاشتراكيين بهدم البيت، ومع ذلك لعبت العمليات الاقتصادية هذه المأساة تحت أبصارهم وفي قلب حياتهم قبل أن يتمكن علماء الأخلاق من التحقق من أسبابها.

وقد يمكن أن يظل البيت قائما لو أن الأطفال كانوا يملأنه بالمتاعب والصخب، غير أن الثورة الصناعية قد انتزعتهم بعيدا جدا، ذلك أن الأطفال الذين كانوا عونا أي عون وبهجة في المزارع الفسيحة، أصبحوا عائقا في المدينة المزدحمة والشقة الضيقة، وكان في العالم كثرة كثيرة من العمال، لذلك وجب أن يحد الإكثار من النسل على الطريقة القديمة، حتى لا يظل الناس في فقر دائم وجهل مستمر، وأدى ظهور الآلات إلى وجود المصانع، وأفضت المصانع إلى نشأة المدن، وخلقت المدن الديمقراطية والاشتراكية وتحديد النسل، الحق أن أحدا لم يرد شيئا من ذلك، ولم يكن لمظاهرات حقوق النساء البراقة المطالبات بشيء من التوقف عن كثرة الحمل إلا أثر ضئيل جدا في إحداثها ذلك التغير، ولم يكن في مقدور عظات رجال الدين والحكام وقف موجته، وكان من الواجب على تاريخ أوربا وأمريكا في مائة العام الأخيرة أن يتبدل ليستبقي هذه النتائج، ولكن التاريخ كالطاقة لا يسير إلى الوراء، فهو يحمل في طياته ضربا من القدر المحتوم، ويجب أن يجري في مجراه إلى المصير.

ولم يكن الأطفال ضربا من الترف في المدن حيث لا يمكن دفعهم إلى العمل في الخامسة من العمر، وحيث يزيد كل طفل جديد في أجرة البيت، نقول لم يكن الأطفال ترفا فقط، بل الحمل نفسه لم يعد حادثا طبيعيا، ولكنه عملية خطرة، ذلك أن المرأة الحديثة لاشتغالها في المصنع، أو ابتعادها عن العمل في البيت، أصبحت أضعف فسيولوجيا من أسلافها، ومما زاد الطين بلة تدهور حاسة الجمال عند الرجل في العصر الحاضر لشغفه بالقوام الرشيق الخائر.

أما أمثال النساء اللاتي عرفهن روبنز Rubens(١)، أو الأمهات من مثل لايتشيا Laetitia أم بونابارت، فلا يرقن في نظر فنانينا أو رجالنا في المدن الذين يحكمون على الجمال في ظل الفتنة الجنسية العابرة أكثر مما يحكمون عليه نذيرا لأمومة قوية، وهكذا أصبح النساء أكثر فأكثر عجزا عن حمل الأطفال، وتجنبن الحمل ما استطعن

---

(١) رسام مشهور من بلاد الفلمنك (١٥٧٧ – ١٦٤٠) (المترجم)

إلى ذلك سبيلا، ونزلن به إلى أضيق حد، ووافقهم أزواجهم في معظم الأحوال على ذلك، وهم لا يعلمون في براءتهم أن الأطفال تكلف من النفقة أقل مما يبذلونه في ملاهي الليل.

ثم جاءت تلك المبتكرات الجديدة المسماة وسائل منع الحمل فكملت الدائرة، وتعاونت في صمت على تحرير المرأة، فلما تحررت من هم الولادة وتحررت بناء على ذلك من آخر عمل كان يمكن أن يجعل البيت مكانا محتملا له معنى، ذهبت إلى المكاتب والمصانع وإلى العالم، وافتخرت بأنها أخذت مكانها إلى جانب الرجل في الورشة أو المتجر، فهي تؤدي نفس العمل، وتفكر نفس الأفكار، وتنطق بنفس الألفاظ كالرجل، والأغلب أن التحرير جاء عن طريق التقليد، فاصطنعت المرأة واحدة بعد أخرى عادات الرجل التقليدية البالية حسنة كانت أم قبيحة، فحاكته في تدخينه، وفجوره، وإلحاده، وفي طريقة تصفيف شعره ولبسه السراويل وأدى هذا التقارب بين الرجال والنساء في أثناء النهار إلى تأنث الرجل واسترجال المرأة، وصاغت المهن والبيئة والمؤثرات المتماثلة الجنسين في جنس يكاد يكون واحدا، ولن يمر جيل حتى يصبح من الضروري أن يميز كل منهما بعلامة تمنع الوقوع في مشكلات معقدة يؤسف لها، فلا يستطيع أحدنا الآن أن يكون واثقا.

فما أعمق التغير الذي تمثله المرأة العقيم أو ذات الطفل الوحيد بالإضافة إلى المرأة في الزمن السابق، وما اعظم أثره حين نذكر فزع كلا الرجل والمرأة من تصور العقم، وكان احترام المرأة حتى بداية القرن العشرين يتغير مع عدد الأطفال الذين أنجبتهم، وكانت وظيفة المرأة إما أن تكون أما أو عاهرة، وفي كلتا الحالتين كانت تلد في الغالب ما أمكنها، وكانت ملايين الصلوات تقام كل يوم في أوربا المسيحية والعالم الوثني يطلب أصحابها من الآلهة أن يهبوهم نعمة البنين، وكانوا يتلون الأدعية، ويزورون الأضرحة، ويتمسحون بالحجارة المقدسة.

ومن عادة شعب المايا Maya أن يصوم الزوجان العقيمان ويصليان، ويقدمان الهدايا اللطيفة لاستعطاف الآلهة لتجود بكثير من الأولاد، وسئل أحد ملوك أفريقيا

عن عدد أبنائه فأجاب حزينا إنهم عدد قليل، لا يزيد على السبعين.

لم تؤثر صور الأمومة فينا إلى شغاف القلب وتبعث الدمع إلى العين؟ لأننا قبل ظهور المدن كنا في حاجة إلى عدد كبير من الأطفال، وكانت مشاعرنا تعكس تلك الحاجة، أما الآن فليست المدينة في حاجة إلى النسل، لأنها بأنوارها الساطعة ولياليها الطويلة تستطيع أن تجتذب ذرية أسود الريف الأقوياء، وليس على الإله الجديد إلا أن يبسط ذراعيه ويحمل في أطراف أصابعه ملايين المصابيح المتعددة الألوان حتى يهرع إليه الأطفال، آلافا وآلافا كل عام، ويرتفعون بدورهم إلى الحكمة والعقم، فالمدينة لا تعتقد أن الأطفال لازمون، وهي لذلك تعلم النساء أن يصبحن محظيات، ولا تلوثهن بالحمل، إن الحنان إلى الأمومة الذي يذيب في بعض الأحيان حتى أرواحنا الجامدة المتشككة هو ثمرة عهد الشباب في الريف، والذي لا يزال النساء يحملن فيه الأولاد بين حين وآخر، ومشاعرنا تبقى بعد تغير الظروف التي نشأت في ظلها وذهابها، ونحن الذين ولدنا في أواخر القرن التاسع عشر، ونشأنا على مقربة من الحقول الفسيحة، وسنظل نعتقد إلى النهاية (كما يحذرنا المثل العربي) "أن أولئك الذين بغير ولد لا سعادة لهم"، وأن تشييد أسرة مكونة من بنين تسري فيهم الرجولة، وبنات ينطبع فيهن الحنان، عمل يحتاج إلى خلق أعظم، وقد يكون له ثمرة أهم من رسم الصور التأثيرية الحديثة، أو تأليف الموسيقى المعاصرة، أو كتابة مقالات عن المرأة في العصر الحاضر.

٣- بناتنا

المرأة المتحررة ثمرة تطورات اقتصادية ليس لإرادتها يد فيها، ومن التناقض الشنيع أن توجه إليها الحملات الأخلاقية تلومها على ما هي عليه.

أما نحن فقد نستطيع بهذه العين أن ننظر إليها نظرا إلى حد ما موضوعيا وبعيدا عن التحيز، فهلم بنا نتأملها.

فالمرأة في الصناعة تكيف نفسها بمرونة مدهشة، مع مرونة عقلية لا شك فيها، ومعظم حيل الذكاء وعاداته التي أعلن علم النفس الحديث أنها موروثة في الرجال

يظهر أنها مكتسبات سطحية يمكن للمرأة أن تصطنعها بمثل السهولة التي تتجمل فيها بالأحمر، راقب فتيات المكاتب والموظفات في كل مكان، قد تنقصهن المادة بعض الشيء (إلا في المسائل الجنسية Erotica) ولكن ما فيهن من منافسة هادئة، وأدب صابر، واضطلاع بمعظم أعمال المكتب الحقيقية – على حين يدخن الرئيس الذكر سيجاره، ويتكئ إلى الخلف في كرسيه، وينظر بعظمة حوله – كل هذا مصدر دهشة مستمرة، وإعجاب متواضع، لم يمض إلا جيل أو جيلان حتى حقق الجنس الأضعف من التقدم في الظفر بمركز في الصناعة، وفي غزو كل ميدان فيها ما عدا الأعمال الجسمانية الجسيمة، حتى لقد يعجب اليوم جون ستيوارت مل الأمين حين يرى إلى أي حد أصبحت آماله المتواضعة عن الجنس الذي اضطلع بحمايته لا ضرورة لها.

(إني لأتصوره واقفا في دهشة ينظر إلى نساء البوليس يرشدن حركة المرور في أكثر المناطق ازدحاما في القسطنطينية)[1]. ولا أحد يعرف إلى أي حد سوف يبلغ هذا النفوذ النسائي في الصناعة، فقد يأتي اليوم الذي توازن فيه سياسة المرأة العالية ومهارتهن في القيام بالتفصيلات قوة الرجال الأعظم منهن وجرأتهم في المبادأة، وحين تضطلع القوة الكهربية بمجهود الصناعة القذر والعضلي، فسوف ينبغي حتى على الرجل أن يصبح ذكيا للاحتفاظ بمكانة في العالم الاقتصادي.

ولن تستمتع بناتنا في السياسة بمثل هذا الحظ، ولا ريب في أن المرأة المصنعة يجب أن تشترك في هذه اللعبة المؤسفة لحماية نفسها من القوانين التي يفرضها الرجل، ومن هذا التمييز في العصر الحاضر، ألم يحط الذكر الشرير امتيازاته التي شاخت بآلاف من الحواجز التشريعية، وحصن قوته في نقط كثيرة بقوانين موقرة؟ يجب أن تحل هذه القوانين، وأن يفتح كل طريق للطاقة المدخرة لهذا الجنس الذي تخلص فجأة من العمل المنزلي وتحرر من أثقال الأمومة المتكررة كل سنتين، أي قدرة حماية قذفت بها المرأة في هذه المعركة من التحرير؟ لم يسبق لنصف العالم من المقاومة أن انهزم بمثل هذه

(1)Montreal Gazette, April 2, 1928.

السرعة ورباطة الجأش، ففي الوقت نفسه لم تستطع البروليتاريا (الجبهة الشعبية) في إنجلترا وأمريكا أن تحقق شيئا مع ما لها من قوى تماثل المرأة في الصوت والعدد، غن شجاعة المجندين من الرجال السكارى بأصوات الحرب وغضبها لم تستطع التغلب على شجاعة هذه النساء المطالبات بحق الانتخاب، القارعات أبواب كل سلطان، حتى فتحت الأبواب وأرغمت الديمقراطية على قبولهن، وبعد خمسين سنة من اليوم سوف يتحققن إلى أي مدى من الكمال بلغن.

ويدرك بعض النساء الآن أن حق الانتخاب ليس هو التحرير، وأن الحرية ليست سياسية بل عقلية، فثمة ملايين من البنات اليقظات السعيدات يملأن حجرات الدراسة والعنابر والساحات المدرسية بالبشر والبهجة، تلك الأماكن التي كانت وقفا على المختالين من ورثة الكون، إننا نراهم في آلاف الكليات وقد علا الجد وجوههن بما في العالم من أدب وعلم، وأعينهن تسطع بالشهوة إلى المعرفة، وأجسامهن الرياضية تفيض بإحساس أكمل من الحياة، لعل جمالهن يعمي أبصارنا فنغالي في الحكم على مرحهن الصاخب وطيشهن العميق، ولكن هلا سمعتهن يسألن المعلمين؟ أراقبهن وهن يمزقن النظريات إربا إربا، ويصفن العالم من جديد بحيث يكون أدنى إلى رغبات قلوبهن؟

ما مصير كل هذا التعليم؟ أيتعاون مع حياة المرأة الحديثة المتوسعة ومع آلاف التجارب الجديدة التي تصوغها صياغة جديدة فيهبها ذكاء قادرا على كفاح هذا العالم المتغير؟ أيمزق هذا التنوع الجديد في العقل والاهتمام وحدة الغريزة وحكمتها، تلك الغريزة التي أحسنت خدمة المرأة قديما في حربها الأزلية مع الرجل العقلي المتردد؟ أيزعج ذكاء المرأة الجديد طلاب الزواج ويخفيهم، فيصعب على المرأة المتعلمة التوفيق إلى زوج؟ مما يروي أن المواطن الروماني كان يمتلئ رعبا من صورة الزوجة المتعلمة، وكذلك شأن كل رجل، فهو لا يجد سعادة في صحبة امرأة يكافئ عقلها عقله، إنه لا يحب إلا من هي أضعف منه، كما أن المرأة لا تحب إلا من هو أقوى منها، من أجل ذلك كانت الفتاة، التي تقوم ثقافتها على المعرفة والأفكار أكثر مما تقوم على السحر الطبيعي والمهارة شبه الواعية، بعيدة عن مزية التوفيق إلى زوج، إنها تنتهك حرمة

الميادين التي احتفظ بها الرجال قرونا عديدة لأنفسهم، وبدل الإحصاء على أن ستين في المائة من المتخرجات في الجامعة يبقين غير متزوجات[1]. وكانت سونيا كوفالفسكي العالمة الممتازة تشكو من أن أحدا لا يقبل على التزوج منها، وفي ذلك تقول: "لم لا يستطيع أحد أن يحبني؟ إنني أستطيع أن أقدم أكثر مما تستطيعه معظم النساء، ومع ذلك فإن أتفه النساء تحب ولا يحبني أحد"[2]. الفتاة الذكية هي التي تخفي امتيازها العقلي حتى تبلغ سنا كبيرة.

لقد أثبتت المرأة إذن خلال خمسين عاما أن الفوارق العقلية بين الجنسين ترجع إلى البيئة والمهنة أكثر مما ترجع إلى الطبيعة الثابتة، وهذا لا يدل على أن المرأة ستتغلب في زمن قريب على العوائق العقلية التي أحاطها الزمن والعرف بها.

فلم يكد تطورها الثقافي يبدأ، وليس وراءها تقاليد وشدائد انحدرت مع الزمان، ولا مثل كبيرة تلهمها الثقة أو تتخذها نماذج في تطورها، ولم تتمتع المرأة المتوسطة بفرص التعليم إلا في عصرنا الحاضر فقط، وذلك على نطاق يكاد يقرب من المساواة بالرجل، وستظل نسبة الإناث إلى الذكور في كليات الجامعة لعدة أجيال أقل من نسبة النساء إلى الرجال في عدد السكان عندنا، وأكبر الظن أن الحمل كذلك على ما هو عليه في الوقت الحاضر من نسبة ضئيلة، سوف يمتص شطرا كبيرا من طاقة المرأة ولعلها تعتبره مرة أخرى مهمتها العظمى، وتقنع بالتنازل عن مثل هذه الوظائف العرضية للرجال كالفن والأدب، وقد تكتشف أن ثمة في هذا العالم أمورا أعظم من الألفاظ المكتوبة، وأن ثمة بعض الفرق بين العاقل والذكي.

ماذا حدث في أثناء ذلك لجسم المرأة الحديث؟ هل أدى هجرها البيت وإقبالها على المصنع إلى فساد جسماني؟ من المحتمل جدا، فهي لا تبدو في قوة جدتها الريفية أو المنزلية ولا في صحتها، إن لون بشرتها أقل نضارة، ولا تستطيع أن تلد أطفالا دون شعور

---

(1)Siegfriedm, A., America Comes of Age, p. III

(2)In Ellism H., Studies in the Psychology of sex. Vol. VI, p. 141.

بالعجز والألم مما يجعل أي فتاة بدائية تنظر إليها باحتقار، ولكن هذا صحيح بالنسبة إلينا جميعا، فالرجال كذلك فقدوا العافية منذ ان هجروا الحقول، حقا العقل الحديث أكثر يقظة، فهو يستعمل الآلات المعقدة والماكينات بثقة ثابتة وامن نسبي، ولكن الجسم الحديث عاجز عن حمل الأثقال والمجهودات التي كان يحتملها كجزء من الروتين اليومي.

وعلى الرغم من جميع متاعب المرأة الحديثة فإنها لا تزال جميلة إلى الحد الذي يبهر الفلاسفة حين تخطر أمامهم، ولا يمكن أن نسر منها كثيرا لهذه الفنون الماكرة التي تحافظ بها على جاذبيتها المغرية إلى عمر كان يصل بنساء القرون الماضية إلى الشيخوخة، كانت المرأة إذا بلغت الأربعين عجوزا متقاعدة وموضع السر، أما اليوم فلا خطر عليها من ذلك، حتى أحمر الشفاه والمطريات هي من هذا الوجه من مجلوبات الفن والحضارة ويمكن أن تغتفر، ولو أن اللون الطبيعي أبدع بديل عن الدهانات.

قد يكون هذا الوهن البديع وهذا الضعف الجسماني في المرأة الحديثة شيئا عارضا وسطحيا، ففي عالم يدور بقوة الكهرباء ستكون المصانع من النظافة كما كانت البيوت قديما، وستنبسط المدن ويتنفس الناس الهواء الطلق مرة أخرى.

ولعل الفتاة الحديثة مع رياضة المشي والتنس وكرة السلة تستعيد ذلك التورد الذي انتزعته الصناعة المدنية من خديها، ولقد تغلبنا على الملابس المشدودة المعوقة، إذ تحرر جسم الفتاة المعاصر من تلك المهمات المحترمة التي كانت إحدى معوقات الحمل، فالسراويل القصيرة نعمة لجميع العالم ما عدا حائك الملابس، وضررها الوحيد هو في ضمور خيال الرجال – وأكبر الظن أن المرأة لا جمال لها إذا فقد الرجال الخيال، جملة القول لقد أضافت المرأة الجديدة الشيء العظيم إلى ألوان الحياة الحديثة وتعددها، إذ أصبحت أكثر حيوية وسعادة بدافع حريتها.

قد يكون من العسير على بعضنا اعتياد الشعر القصير (ولو أن هذه البدعة قديمة) وتدخين النساء، ولكن الجيل المقبل لن يحفل بهذه التغيرات السطحية، وأي شيء إذا أحسنت صنعه أيدي الحسان يبدو في نظر الرجل العادي جذابا.

والعادة تكون الأخلاق ولها كذلك يد في تكوين الجمال، في سالف الأيام كانت العجائز تدخن (البيبة) ذات الرائحة الكريهة ولم يحفل العالم بهن، ولن يحفل العالم بعجائز اليوم حين يغازلن، وتنفخ الشابات سحب التبغ في وجه حبيبها. وقد يكون التدخين مضرا كما يكون لذيذا، فإذا كان الرجال والنساء يؤثرون حياة قصيرة وممتعة، فلهم في ذلك الخيار، أواثقون نحن من أن المرح ليس أحكم من الحكمة؟

وماذا نقول في هذا "الهوس الاهتزازي delirium tremens" المسمى بالرقص الحديث، أهي المرأة التي اخترعته أم بعض العصبيين من الرجال؟ أيمكن أن يثور أجدادنا ثورة خلقية كما نفعل اليوم، حين كان (الفالس) الشهواني يحل محل الرقص الدائري pirouetting أيام الأرستقراطية[١]؟ وماذا نقول أيضا في براعة السيدات النامية في فنون السرقة والقتل والسياسة؟ في عام ١٩٢٦ كما تروي إحدى صحف[٢] بلتيمور المحترمة قائلة: "نقل شخص مجهول الشخصية إلى المستشفى في حالة خطرة، متألما من إصابات شديدة يقال إن ثلاث فتيات اعتدين عليه في غابة بالقرب من هيرلوك، كان الرجل ماشيا .. حين مرت به الفتيات في سيارة وعرض عليه الركوب معهن، فقبل. وبعد ركوبه مسافة قصيرة أوقف الفتيات السيارة عند طريق منعزل، وفي خلال صحبة صاخبة بعد ذلك .. غضبت إحدى الفتيات لقلة غيرته، ونشبت معركة، وكتفته اثنتان منهن وأخذت الثالثة تطعنه بدبوس كبير، ثم هربت الفتيات بعد أن تركنه على الأرض عاجزا ..!" أيمكن بعد ذلك أن نشك في تحرير المرأة؟

ويبدو أن هكسلي كان على حق في قوله: "فضيلة المرأة أعظم خرافة شعرية للرجل". ففي النساء على الدوام هذه الشهوات، ولكنهن يجتهدن في إخفائهما في الزمن السابق لأنهن كن يعتقدن أن الرجال يؤثرون الحياء، أما اليوم فيبدو أن الرجال أسرع استجابة لعدم الاحتشام، وتميل الفتاة العصرية إلى الصراحة الجسمية والنفسية مما يفتن الحواس فتنة مؤقتة، ولكنها قل أن تجتذب الروح.

---

(1)Cf. De Musset, Confessions of a Child of The Century, p. 112

(2)Quoted in the American Mercury, March, 1926.

والرجل الناضج يطرب للتمتع ويحب في المرأة الأدب الرقيق، ولا ريب في أن الرجل حين يظل ناقص النمو، منغمسا في الفسق، غافلا عن مباهج الصحبة البريئة والإخلاص، غير شاعر بأي سحر ما عدا سحر الجسد، فلا بد من اتخاذ وسائل شاذة لبعث اهتمامه واجتذابه إلى الزواج، فإذا أثمرت هذه الحرارة الملائمة زيجة شرعية فإنها سرعان ما تتحطم مع انطفاء شعلة الهوى بألفة الزواج، لقد كان شو مخطئا إذ ليس الزواج غاية ما يكون من الإغراء مرتبطا بغاية ما يكون من الفرصة، لأن الفرصة باقية ولكن الإغراء سرعان ما يتناقص إلى أقل حد.

٤- ربات بيوتنا

إن صورة فتاة الطبقة العاملة الحديثة، مشغولة بالعمل في العالم وممتلئة بالحيوية والحرية، امتع عند النظر إليها من صورة امرأة الطبقة الوسطى الحديثة المتزوجة، المطمئنة إلى دخل ثابت، والتي تحيا حياة تقوم على لعب البردج، وبالشراء من المحال التجارية، والاشتغال بالإصلاح الاجتماعي.

فلننظر إلى أنفسنا من خلال عين أجنبية، يقول الكونت كسرلنج(١): "لقد أصبح الزوج في أمريكا مستبدا به كما كانت الزوجة في الشرق القديم، مع ما يصحب ذلك من انتكاسات نفسانية تتزايد وضوحا يوما بعد يوم".

ويضيف إلى ذلك أن نساء أمريكا أصبحن مسترجلات ضامرات الثدي حتى ليطبعن المرء بطابع من "البرودة والخشونة وانعدام الروح"(٢) — ولو أنا نقول ماذا كان الكونت ينتظر في أول زيارة؟ وعلينا أن نسمح هنا ببعض الحذف لآراء مستمدة من ميراث أرستقراطية براندنبرج، ولكن القدر الباقي قد يكفي لأن يكشف لنا عن

---

(١) الكونت كسرلنج **Keyserling** (١٨٨٠ – ١٩٤٦) فيلسوف اجتماعي من أستونيا، أنشأ في مدينة دارمستات "مدرسة الحكمة" بعد قيام الثورة الروسية ومصادرة أملاكه. رحل إلى بلاد كثيرة واتصل بثقافات عدة حتى لقد سمي الفيلسوف المتجول (المترجم)

(2)**Europe, pp. 66 - 67**

خضوع الرجال في المستقبل، وحاجتهم الواجبة إلى امرأة مثل سوزان أنتوني[١]. ولا ريب أنه سيكون عندنا في القريب المرأة المتعددة الأزواج وسيجمع النساء ذوات السلطان حريما من الرجال العاملين يحرسهم خصيان من الإناث، وأكبر الظن أن سيكون لنا في المستقبل ثلاثة أجناس كما هي الحال في النمل والنحل، فبعض النساء يلدن الجنس، وسيهب البعض الآخر نفسه هبة كاملة للنشاط الاقتصادي بحيث يفقدن أولا الرغبة في الحمل ثم القدرة عليه، وليس في التطور أي سبب يجعلنا نتوقع من المستقبل أن ينحصر في الماضي.

كيف جاء هذا الانقلاب في الأدوار؟ أكبر الظن بسبب زوال سلطان التفوق الجسماني[٢]. فقد قام خضوع النساء على أساس بسالة الرجال العضلية.

كان الرجل هو السيد، لأنه كان يستطيع أن يضربها فيطرحها أرضا في آخر الأمر (ولم يكن يؤجل هذا العمل طويلا) وإلى الآن يستطيع الرجال أن يغلبن النساء، وأصبح من المسائل الدقيقة في الفلسفة تعليل إقلاع الرجال عن تلك العادة القديمة، ومن المحتمل أن تكون الحاسة الخلقية النامية في الرجل قد جعلته من استعمال آخر حيلة، وكلما كان تحرر المرأة من الرغبة الجنسية أعظم، كان موقفها موقف التي تعطي الرجل ما يطلب، ولكن وراء هذه الظاهرة الثانوية توجد الحقيقة الاقتصادية الأولية من أن تعقيد الأمور الحديثة الذي يستدعي ذكاء أكثر فأكثر، ويتطلب قوة أقل فأقل، قد ذهب بسمعة مجرد القوة العضلية، وانتزع من رجل الطبقة المتوسطة تفوقه الوحيد على زوجته، وأكسبها بعد ذلك تفوقها في الدهاء والتشبث امتيازا على خجله وحساسيته وتعبه.

أما حيث لا تزال سمعة قوة العضلات عالية كما هي الحال في الطبقة العاملة، فلا يزال الرجل رب البيت، وتظفر المرأة ببقائها انتقاما.

---

(١) Susan B. Anthony (١٨٢٠ – ١٩٠٦) زعيمة أمريكية مشهورة قادت حركة مطالبة المرأة بحق الانتخاب وغيرها من الحركات (المترجم)

(2)Mill, J. S., The Subjection of Women, p. 4.

تأمل بعد ذلك المرأة العالة على غيرها، تجد أنها بعد أن تحررت من العمل المنزلي بسبب هجرة الصناعة من البيت، وبعد أن تحررت من الحمل بأساليب منع الحمل أو الممرضات والخدم، قد تركت بيدين ورأس وقلب كلها فارغة غير مستقرة، وأرض خصبة لزرع غريب، ثم يمضي النمو الطبيعي في طريقه، فكلما كانت أفرغ من العمل أصبحت أشد كسلا، وأقل رغبة في أداء ما يتبقى من العمل الذي جعلها في القديم رفيقا معينا لا دمية.

ولنا نوجه في هذا المقام أي سبة للمرأة التي تعمل في البيت أو في الورشة منتجة للحياة الإنسانية، أو للبضائع الثمينة للإنسان، أما السبة إذا كانت تستحقها فللمرأة التي تتاجر بجمالها في الزواج وفي غير الزواج، والتي تسرف في ترفها وزينتها إرضاء للشهوة، والتي تنفق أيامها تظل تتأنق وتطري تصفف شعرها وأخيرا تلبس، وتمضي الليالي في اللهو والغزل، ولست تجد في سائر مناظر الحياة الحديثة المتنوعة أشد إساءة من هذه النساء المسرفات في الفراغ، وليس لهن إلا قليل من الأطفال أو بغير ولد، ومع ذلك يحتجن إلى كثير من الخدم؛ وليست لهن وظيفة ولا تفرغ لهن حاجة، إنهن يتفقن فن عمل لا شيء بألف أسلوب، ونتيجة هذا كله دفع الرجل إلى التهالك العصبي على العمل، وإلى الشعور بمرارة أن أهميته ليست إلا مجرد كاتب حسابات.

وإذا كانت المرأة اليوم تنتظر بما لم يعهد من قبل أن يعرض عليها الزواج، فذلك يرجع إلى حد كبير إلى غلطة هذه الطبقة التافهة، لأن مثل تلك المرأة لا تقدم إلى الرجل إلا اليسير جدا، حتى لقد يجد في تنويع العلاقات والارتباط فيها بمدة قصيرة أمنا عن الزواج، وفي ظل هذه الظروف لا يبدو الزواج في نظر الأعزب البصير تحقيقا لغاية الرجل الناضج، بل تسليما متحضرا بعد فترة طويلة لأمر عزيز على الطبيعة في عالم الحشرات، حيث نجد الأنثى كما رأينا تلتهم الذكر بشكل ليس له مثيل على حين مستغرقا في شباك الرغام، فلا غرابة أن يتراجع الرجال أمام فكرة القيد الذهبي للزواج، وهم يرون عجز هذه السيدات التام اللاتي زايلهن الشاب، وهكذا تبدد ملايين النساء حياتهن في العزلة لأن ملايين الزوجات بعد اصطياد فريستها يلتهمنها

علانية، فتنسحب كل نفس مطلوبة في عزلة ثقافية، وهنا نجد بشاعة عصرنا المنافية للأخلاق لا في الشعر المقصوص أو السروال القصير للفتاة النشيطة.

إنا لنأمل أن تكون هذه الصعوبات مجرد فترة انتقال، وأن تكون فوضى العقل والأخلاق والسياسة والفن مرحلة مظلمة بين نظام آخذ في الزوال، ونظام آخر يبرز بطيئا، لا من مراثينا وحججنا، بل من تلمس التوفيق بين الدوافع الإنسانية وبين الظروف الجديدة الصناعية لعصرنا الدنيوي والمدني والصناعي.

وقد يكون طول فترة البلوغ الذي أخر الزواج وبدل الأخلاق دليلا ماكرا على مستوى أرقى يبلغه الرجل في القريب، لن طول مرحلة البلوغ في تاريخ الإنسانية وما يتبعه من تعليم وتدريب كان احد الدوافع العظيمة إلى تقدم الجنس.

وأكبر الظن أننا لا نشهد نهاية الحضارة كما يفترض بعض علماء الأخلاق، فنحن الشعب الشاذ اللاأخلاقي أقلية صغيرة، قد تكون مريضة وعصبية، ومصيرها إلى الزوال مع العقم، وسوف تظل الكتلة العظيمة من الشعب البسيط من حولنا تتزوج وتتناسل حتى يرث أبناؤها الأرض، وثمة ألف سبب وسبب يجعلنا نعتقد أنها سوف تمضي بالعالم قدما إلى أن يرفعها النظام الجديد، والاستقرار الجديد في السلوك والفكر والبشرية، ويقيمها في المستوى الأعلى الذي قد تقودنا إليه تجاربنا العمياء.

انهيار الزواج

وبذلك نصل إلى الزواج.

وأكبر الظن أن برنارد شو هو القائل إن الزواج هو الموضوع الذي دار حوله الكلام الفارغ أكثر من أي موضوع آخر في العالم، ومن البساطة أن يستغفل المرء في الحديث عن الزواج كما يستغفل في الزواج نفسه، وعذره في الأولى أقل، وعندما نحاول البحث في هذه المشكلة يدرك المفكر الخالص أن الأفكار ليس لها إلا أثر متواضع (Modest – ولو أن هذه اللفظة ليست المقصودة تماما) في العلاقات الجنسية، وأن التغييرات الاقتصادية تتغلب على الفلسفات والأخلاق، وأن أفضل ما يمكن أن يفعله الفكر هو تحليل هذه التغييرات، والتنبؤ بنموها ونتيجتها، والتماس شيء من التوافق البصير في السلوك قد يحمي الفرد والنوع، وفي مثل هذه الأمور لا خير في الوعظ، والفهم أعون.

لقد عميت أبصارنا في غمار حروبنا وآلامنا عن هذا الأمر الواقع، وهو أن حقيقة الحياة الأساسية ليست في السياسة ولا في الصناعة بل في العلاقات الإنسانية، أي في ارتباط الرجل بالمرأة، والآباء بالأبناء، وتدور الحياة كلها حول هذين المحورين من الحياة، حب الزوج، وحب الأم، تأمل قصة العشيقة الثائرة التي حين دفن عاشقها (الذي قتل في ثورة موسكو في ديسمبر ١٩١٧) في "الجنازة الحمراء Red Funeral"، قفزت إلى القبر واحتضنت التابوت الذي يضم جثته صائحة: "ادفنوني أيضا، فماذا يهمني الآن من الثورة بعد أن مات". قد تكون واهمة في الاعتقاد أنه فذ بين الرجال لا يمكن تعويضه – ونحن نشبهها إلى حد أن قلوبنا وعهودنا المحطمة هي

كذلك غير معقولة، ولكنها عملت بحكمة موروثة في دماء المرأة أن هذه الثورة الهائلة شيء تافه عابر بالإضافة إلى هذا النهر من الزواج والأبوة والموت، وهو التيار الأساسي للحياة الإنسانية، لقد فهمت – ولو أنها لم تجد الألفاظ المعبرة – أن الأسرة أعظم من الدولة، وأن الإخلاص واليأس أعمق في القلب من السعي الاقتصادي، وأن سعادتنا في آخر الأمر ليست في المال أو المنزلة أو السلطان، بل في تبادل المحبة.

١- تطور الزواج

ما معنى الزواج؟ لعلنا إذا استطعنا كشف الغطاء عن أصله أن نحسن التحقق من معناه.

تصور نجمة البحر، وهي من أدنى الحيوانات، تبسط زعانفها rays أو أذرعها فوق بيضها الملقح وصغارها التي فقست، إنها بداية إحدى الظواهر الأساسية في الطبيعة .. عناية الأبوة، ففي عالم النبات والحيوان بوجه عام يحفظ النوع لا بهموم المومة بل بالتناسل المسرف الضائع؛ فالزهرة يجب أن تملأ الجو باللقاح، وأن تفتن بعض الحشرات تتخذها رسلا إلى الزواج الذي لن تراه.

ومن المعروف أن القوقعة الصغيرة ذات الدم الأحمر المسماة Haematococcus تحيل منطقة شديدة البياض إلى قرمزية بنشاطها التناسلي في ليلة واحدة، والمحارة May flower، التي تشبه في نسلها الزهور البرية Oyster تضع ملايين البيض، ثم تتركها بلا اكتراث لمصيرها فينمو قليل منها، ولكن معظمها يتخذ طعاما أو يضيع كأنه مجرد نفاية.

وقد اكتشفت الطبيعة ببطء، كما رأينا، عناية الأبوة ونمتها بديلا عن هذا الإسراف الطائش، فمن أدنى الفقريات إلى أرقى فصائل الإنسان يتناقص حجم البطن أو الفقس أو الأسرة، وتزداد عناية الوالدية مع كل مرحلة من النمو في الجنس والنوع والفصل والأمة والطبقة والفرد، وظهر الزواج لا لإباحة الصلة الجنسية بل لتحسين نوع الحياة بربط الزوجين برباط دائم للعناية بالذرية التي يلدونها.

وليس الزواج ظاهرة تعد وقفا على الإنسان، فبعض أنواع الطير وحيدة الزوج أكثر منه، وكتب دي كرسبيني De Crespigny عن إنسان الغاب المسمى أورنغوتان orang- utangs في بورنيو يقول: "إنهم يعيشون أسر، ويبنون أعشاشا مناسبة في الشجر، ولا يشغل العش بمقدار ما أمكنني ملاحظته إلا بالأنثى والصغار – أما الذكر فيمضي الليل على فرع الشجرة نفسها أو المجاورة لها". ويصف وسترمارك الغوريلا بأنها "تعيش في أسرة، ويقوم الأب ببناء العش وحماية الأسرة، وهذه هي الحال أيضا في الشمبانزي". ويقول سافدج Savage "ليس من الغريب أن ترى (الزوجين العجوزين) في أسرة الغوريلا يجلسان تحت شجرة يتسليان بأكل الفاكهة وود الحديث على حين يقفز صغارهما من حولهما ويتأرجحون من فرع شجرة إلى فرع آخر في مرح صاخب"[١].

ثم يستأصل الانتخاب الطبيعي بالتدريج تلك الأنواع التي لا تعنى إلا قليلا بذريتها، وينمي فيمن يبقى تلك الغريزة الخاصة بالعناية الأبوية التي ترفع شيئا فشيئا الفرد والجنس، ومن المعروف عن أمهات القردة أنها تموت حزنا لموت صغارها، وهناك نوع من القردة تحمل الأم رضيعها تحتضنه بذراع واحدة بغير انقطاع أشهرا عدة[٢] أما في الإنسان فإن هذا الدافع يكاد يصبح هو الشهوة المتحكمة الأقوى حتى من الصلة الجنسية، وما حب المرأة لزوجها إلى جانب حبها أطفالها؟ ومن أمهات الأجناس المتوحشة من ترضع أبناءها في بعض الأحيان اثنى عشر عاما، وليس من النادر في بعض القبائل مثل نيو هيبريدز New Hebrides أن تقتل المرأة نفسها للعناية بابنها الذي مات ودفن في القبر[٣] حقا لن تجد في العالم إلا القليل أعجب في

---

(1)**Westermarck, E., History of Human Marriage, p. 14**

(2)**Mc Dougakk. W, M, Social Psychologym p. 70**

(3)**Kropotkin, Prince, Mutual Aid pp. 89, 101**

كروبتكين (١٨٤٢ – ١٩٢١) جغرافي وفيلسوف اجتماعي روسي، عاش في إنجلترا وروسيا، وزار أمريكا سنة ١٩٠٠ (المترجم)

تاريخ البشرية من هذا التحول الذي يكاد يكون كاملا لحب المرأة ذاتها إلى حبها طفلها.

ونشأ جنبا إلى جنب هذا الدافع القوي للحماية الأبوية نظام سائد حاكم هو الأسرة، ويرجع الأصل في وجود الأسرة إلى عجز الطفل غير القادر، وإلى قابليته المتزايدة للنمو والتدريب بعد الولادة، والتطور في الحيوانات بيولوجي قبل كل شيء، فهو يختص بنمو أعضاء جديدة، أما التطور في الإنسان فهو اجتماعي، يختص بالانتقال المتزايد لميراث من الصناعة (تكنولوجيا) والثقافة يتجمع وينحدر من جيل إلى جيل، لقد خلقت الطبيعة الأسرة لتربط الذكر إلى خدمة الأنثى التي قيدتها الطبيعة لخدمة الطفل، والرجال بالطبيعة عبيد للنساء، والنساء بالطبيعة عبيد للأطفال والجنس، وفي هذه العبودية الطبيعية أعظم سر لكيانهم، وأكثره دواما.

فلنفهم إذن الزواج لا على أنه صلة بين رجل وامرأة صلة تهدف إلى أن تجعل الشهوة شرعية، بل على أنه صلة بين الآباء والأبناء الغرض منها حفظ الجنس وشد أزره، ولو كان الزواج أمرا شخصيا لا أمرا يختص بالجنس، ما كان أول ما تعنى به التقاليد والشرائع الإنسانية، ولأمر ما عنيت الدول هذه العناية بتشريع الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة وأسرفت هذا الإسراف في تنظيمها؟ ولما كل هذا الجهاز من وثائق الزواج، وأفراح العرس، ومحاكم الطلاق، والنصائح والتحريمات الأخلاقية، إذا لم يكن ذلك بسبب أن الزواج أعظم أساس لجميع النظم، وهو الذي يصون مجرى الحياة الإنسانية ويسد نقصه؟

ومن الواضح، والله يعلم، أن الزواج لم يقصد أبدا إلى سعادة الزوجين بل إلى الألفة وتربية الأطفال[1]. وكان متوسط الانتفاع بالحياة الإنسانية في سالف الزمان من القصر بحيث يظهر أن أحدا لم يكن يعني بالفرد، ولم يبحث الفرد إذا كانت سعادته الخاصة في الزواج أولى من استمرار الجنس ورفعه إلا بإطالة الحياة الحديثة، وإشراف

(1)Cf. Shelley: "A system could not well have been devised more studiously hostile to human happiness than marriage". – notes to Queen Mab.

الإنسانية (البضاعة الوحيدة التي لا تخضع للعرض والطلب)، واقتصار الأبوة على مظهر أكثر من مجرد القناعة بالزواج، حتى إذا ساد "عصر الفرد" ارتفعت الثورة على الزواج إلى هذا الطوفان الحاضر العسير على المقاومة.

وجاء تطور الزواج عقب اتساع مصالح النوع، وإذا رجعنا إلى فجر التاريخ وجدنا أن حرية الفرد في اختيار الزوجة كان مقيدا تقييدا شديدا بالحاجة الاجتماعية، ويبدو أن أول المحارم الجنسية كانت تهدف إلى منع الاتصال الجنسي بين الآباء والأبناء، ثم بين الإخوة والأخوات، وانتشر التحريم بالتدريج حتى وصل إلى حد الزواج من خارج العشيرة exogamy الذي يمنع بزواج الرجل بالمرأة من قبيلته نفسها، وكان علماء الاجتماع الأوائل مثل لويس مورجان يميلون إلى إرجاع هذه القيود إلى تصور عقل البدائي مساوئ العقم، أما المتأخرون من الباحثين مثل وستر مارك وإليس فيعزون هذا الأمر في شيء من التهكم إلى الاستخفاف الذي ينشأ عن الألفة، ولكن هذا لا يفسر مغالاة عجز أجدادنا المتوحشين عن جمع كل زوجين معا، وإنشاء نظامهم الخاص بالمجتمع، وأكبر الظن أن مصلحة الجنس كانت في أذهانهم حين قيدوا الفرد.

وتطور الزواج مع تغير العلاقات الاقتصادية، ففي مرحلة الصيد كان الرجل، وهو صياد ذو بأس يجيزه رئيس القبيلة، يصطحب عصاه وقد يتخذ صاحبا ويتسلل إلى قبيلة أخرى، ويختطف فتاة جميلة من خيمتها، ويحملها بعيدا على طريقة الاغتصاب السابايني[1] Sabine. ثم تحسنت الأخلاق مع نمو الثروة وانتشار السلام، ولم يعد الرجل يحمل العصا، بل هدية ثمينة، أو عرضا بالخدمة الطويلة المدى، يتقدم به إلى والد الفتاة التي يرغب فيها، وبذلك حل الزواج بالشراء محل الزواج بالسبي، واليوم يعد نظام الزواج مزيجا غريبا من السبي والشراء.

كانت الحرب في ذلك الزمن القديم كثيرة الوقوع وكانت المخاطر متعددة وكان

---

(١) قبائل قديمة كانت تعيش في إيطاليا. (المترجم)

الذكر يصاب بالموت بأسرع مما تصاب به الأنثى، فحاول الباقون من الرجال أن يحلوا المشكلة باتخاذ عدة زوجات لحماية النساء اللاتي يزيد عددهن عن الرجال زيادة كبيرة، ولما كان النساء يرضعن أطفالهن عدة سنين، ويمتنعن عن الصلة الجنسية حتى فطام الطفل، فقد رأى الرجل أن راحته تقتضي اتخاذ عدة زوجات لتلبية مطالبه المستمرة، هذا فضلا عن أن تعدد الزوجات يفضي إلى كثرة النسل أكثر من الاقتصار على زوجة واحدة، يضاف إلى ذلك أن وفرة الذرية كانت نعمة لقوم مهددين على الدوام بالحوادث والأمراض والحروب.

فلما قلت الحروب، وأصبحت الحياة والموت أكثر أمنا، تناقصت نسبة النساء العادية المتفوقة، وظهر نظام الزواج من واحدة، فكان مزية الأطفال الذين يتلقون عناية موحدة، وحبا مركزا، وطعاما أكثر وفرة لقلة عدد الطاعمين.

وكان ذلك النظام مزية للرجل إذا يسر له تركيز إرثه في أسرة بدلا من تشتيت ثروته، كما شتت نطفته في عشيرة من الذرية، ورأى نفسه لا يزال حرا ليشبع شهواته الحمراء سرا، على حين يستطيع أن يصون إخلاص زوجته بجميع ألوان الحماية من العرف والسلطان، فيؤمن بذلك انتقال أملاكه إلى أبناء أكبر الظن أنهم من صلبه، وفوق هذا كله، وعلى الرغم من هذا المستوى المزدوج (المتغلغل في نظام الميراث) فالاقتصار على زوجة واحدة كان منفعة للمرأة، لأنه حل جانبا من مشكلة الغيرة التي لا بد أنها كانت تجعل من تعدد الزوجات مارستانا.

على أقل تقدير منح هذا النظام المرأة ضربا من المساواة البيولوجية بالرجل، ويسر لها أن تتحرك من هذا المستوى المتواضع وترفع العالم.

أما الباقي من تاريخ الزواج فكان صراعا بين المرأة والملك، بين الثروة والزواج، وكان المفروض أن المرأة مع نمو الثروة يجب أن تسيطر بلا منازعة على اختيار الزوج وحكمه، وأن خضوع المرأة كنظام لإنجاب الذرية، وبديل اقتصادي عن العبودية، كل ذلك يصبح ثابتا لا يمكن استئصاله من العادات والجنس، ولكن الأمر كان على

العكس، لن الثروة أدت إلى التعليم، وهذب التعليم شهوة الرجل المتوحشة، وبعد قرون من التطور حل الهوى العذري على نطاق واسع محل شهوة الجسد للجسد.

وظل زواج الاستمتاع قائما، وفي كثير من الدول كان الآباء لا يزالون يزوجون بناهم لأحد الأثرياء لأنهم يتوقعون أن يصبح من أصحاب الملايين.

ولكن في إنجلترا وأمريكا، وهنا وهناك في كل أمة، انهارت الملكية، وانتصر أنصار زواج الحب، وشيئا فشيئا إذا بالمرأة التي جعلتها شراسة الرجل رقيقة، تهذب برقتها شراسته، وشيئا فشيئا رفعته بجناحها وتضحيتها بالحمل من حاله التي يقرب فيها من الحيوان، وعلمته أن يرى وينشد فيها بعض الصفات ليست من الحسية والجسمانية كتلك التي كانت تجذبه إلى أحضانها، ثم أقامت الحضارة بالتدريج فوق هذا الأساس الطبيعي بناء واهيا وثمينا من الحب الشعري.

لقد درسنا في مكان آخر النمو الملحوظ الرائع للحب الروحي منذ أناشيد المغنين في العصر الوسيط، إلى العاطفة الجارفة في قصة كلاريسا هارلو[١] وهلويز الجديدة[٢]، ثم إلى القصص التي كتبت في القرن التاسع عشر لإشباع النزعة الرومانتيكية السائدة، من يستطيع أن يقول: إلى أي حد طهر هذا الفيض من القصص بعض المظاهر الخشنة للحب الحديث، مصورة ابتداء حقيقة اشتياق الروح للروح الذي لعله كان في أول الأمر الوهم الذي يعزي العذارى وقد تقدمت بهن السن والرجال الخيالين؟ لا ريب أن الحب الرومانتيكي أصبح حقيقيا، فقد أقبل الشاب عند البلوغ على الأغاني والأناشيد الغرامية مخلصين، وركع الرجال أمام النساء، وانحنوا يقبلون أيديهن، وأحبوهن لشيء أسمى من نعومة الجسد، كانوا يتبارزون للظفر بابتسامة، وابتدعوا الآداب في غمرة من نشوة الإخلاص، ثم وضعوا بالتدريج كل ثروتهم التي كانوا يفخرون بها تحت أقدام مخلوقات تافهة ليس لها من قوة

(١) قصة لصموئيل رتشارسون كتبها عام ١٧٤٧، عبارة عن رسائل كتبتها كلاريسا لصديقتها تفصح فيها عن صدوف قلبها عن الزوج الذي يريده أبواها، وتنتهي القصة بموتها كمدا. (المترجم)

(٢) قصة كتبها جان جاك روسوتدور حول زوجة ضسق عليها حبيبها السابق الخناق. (المترجم)

عليهم إلا بطريق الجمال والرياء.

وحين انقلبت الرغبة في كثير من القلوب إخلاصا لا امتلاكا، وقدم الرجل، خاطبا ود المرأة بولاء شديد، ثقته بها بكل سبيل حتى الموت، بلغ الزواج أوج تطوره الطويل، وغاية رقية البطيء من الوحشية إلى الحب، أكبر الظن أننا لن نعرفه في جميع كمالاته بعد الآن.

٢- انحلال الزواج

لما كان اليوم هو عصر الآلة، فلابد أن يتغير كل شيء، فقد قل أمن الفرد في الوقت الذي نما فيه الأمن الاجتماعي، وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمنا مما كانت، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة مما يجعل الخطر جاثما كل لحظة، أما الشباب الذي أصبح أكثر إقداما وأشد غرورا من قبل، فهو عاجز ماديا، وجاهل اقتصاديا إلى حد لم يسبق له مثيل، ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال، ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفا (وقد مرت سنوات)، ومع ذلك لم تمتلئ الجيوب بما يكفي للزواج؛ ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة، فيحتفل الزواج بموت الحب.

حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية، فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية، وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية، فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب، فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج المنتظر مترددا؟ إذ كيف يمكن أن يكفي أجره المتواضع للإنفاق عليهما معا في مستواهما الحاضر من المعيشة؟

وأخيرا تجد الرفيق الذي يطلب يدها للزواج، ويعقد عليها لا في الكنيسة لأنهما

من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين، ولم يعد للقانون الخلقي الذي ظل جاثما على إيمانهما المهجور أثر في قلبهما، إنهما يتزوجان في قبو المكتب البلدي (الذي يفوح منه عبير الساسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة، إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة لهما الحرية في أي وقت في التحلل منه.

فلا مراسم مهيبة، ولا خطبة عظيمة، ولا موسيقى رائعة، ولا عمق ولا نشوة في الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن.

ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكا، ويتوجهان إلى البيت في صخب.

إنه ليس بيتا، فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشيء وسط الحشائش النضرة والأشجار الظليلة، ولا حديقة تنبت لهم الزهور والخضروات التي يشعرون بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما، بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلا كأنهما في زنزانة سجن، في حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيها فيها طويلا، ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما، ليس هذا المسكن شيئا روحيا كالبيت الذي كان يتخذ مظهرا ويكسب روحا قبل ذلك بعشرين عاما، بل مجرد شيء مادي فيه من الجفاف والبرودة ما تجده في مارستان، فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع لا ينبت لهما الزرع النضر بل سيلا من المطر، ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح في السماء أو أي ألوان على أوراق الشجر، بل التعب والذكريات الحزينة فقط.

وتصاب المرأة بخيبة أمل، فهي لا تجد في هذا البيت شيئا يجعل جدرانه تحتمل في الليل والنهار، ولا تلبث إلا قليلا حتى تهجره في كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر، ويخيب أمل الرجل، فهو لا يستطيع أن يتجول في أنحاء هذا البيت يعزي شعوره ببنائه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق، ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التي كان يعيش فيها وهو أعزب، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبها عاديا تلك العلاقات غير البريئة التي كان يعقدها مع

المستهترات من النساء، فلا جديد في هذا البيت، وليس فيه ما ينمو، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته، إذ أين يمكن أن يلعب الطفل؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال، وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة في المدينة؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب، فيعتزمان على منع النسل .. إلى أن يقع بينهما الطلاق.

ولما كان زواجهما ليس زواجا بالمعنى الصحيح – لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة – فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه مقومات الحياة، يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع، وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان، وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر، وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع، حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف فليس عند المرأة جديد ما تبذله أكثر مما بذلته.

وإذا كانا بغير أطفال فإنهما يلتمسان ألف سبب وسبب للشقاق، وتصبح لفظة "عزيزي" التي كانت تهز مشاعرهما عند سماعها، أشيع لفظة في اللغة، يسيرة ولا معنى لها، وتحزن المرأة على أيام الرقة السابقة، فتهمل لذلك وهي في البيت العناية بجسمها وملبسها وحركاتها وحديثها مما كان سببا في اجتذاب الرجل نحوها، لأنه وجد فيها شيئا أبهى وأسمى منه، وإذا كان بينهما شيء من عدم التوافق الجنسي أصبح ذلك حاجزا منيعا، لأنهما ينظران إلى الزواج على أنه مجرد صلة جنسية، وإذا كانا فقيرين أسف الرجل على الأثقال التي يحملها، وشغفت المرأة بالبرنس أوف ويلز، وإذا كانا غنيين تنازعت فيهما شيوعية الحب والزواج وفردية الجشع والخوف، وتنشب المنازعات على المال عندما تهبط حرارة الحب.

وإذا كانا عصريين عبثا على هواهما على قدم المساواة، وينشب بينهما صراع ينتهي بسيطرة أحدهما، وإذا كان المرأة تتكسب استنكرت عبوديتها المستمرة.

وإذا كانت عاطلة، يثقل الزمن عليها حتى تجد لها عملا، كانا يظنان أن ليس في استطاعتهما إنجاب طفل، ثم يكتشفان –كما قال بلزاك – "أن الرذيلة أقل نفقة من الأسرة". إذا كان لأحدهما أصدقاء غار الآخر منهم، وإذا كانا بغير أصدقاء انطويا على نفسيهما في عزلة لا سبيل إلى الفرار منها، وتجري فيها الحياة على نمط واحد لا يحتمل، ثم تختفي فيهما الحرية اللازمة للشخصية أمام أهواء التملك وحب الاستطلاع، ولا تجد النفس لها ملاذا تسكن إليه في عزلة وسلام، ويصبح الحب الذي كان على الدوام مطاردة وقنصا، حربا، وليست فترة أحضان الليل إلا هدنة مؤقتة.

وفي أثناء ذلك تتبدد عن عيونهما غشاوة الوهم، ويكتشف الرجل والمرأة على حد سواء أن شعلة الحب لم تحترق قبل كل شيء لمتعتهما بل لاستمرار الجنس، وترى المرأة نفسها قد تحولت من إلاهة إلى طاهية – اللهم إلا إذا وقعت على زوج رقيق يجعل الطاهية إلاهة، وتشعر برغبات الرجل في التنويع، فتأخذ في مراقبته تأكلها نار الغيرة، لأنها تعلم أنها لا تستطيع أن تثق فيه أكثر من ذلك، فهي تلاحظ أن عنايته بها أقل وتصدر عن تفكير، وأنه يتصل بها، إذا فعل ذلك، صلة عادة وهو شارد الذهن، ويفقد الزوج الخيال الذي يرى من خلاله زوجته كما يراها الأجنبي، أو الذي يرى من خلال زوجة الأجنبي كما تبدو في الساعة التاسعة صباح اليوم التالي، وفي جميع تفكيره (وفي تفكيرها) يؤدي البعد إلى فتنة النظر، ويحملان الجديد على محمل الجميل، فإذا أضفت إلى جانب الزوجة التعطل والعقم تجدها قد شرعت هي أيضا في الاشتياق إلى وجه جديد أو منظر جديد يعيد إلى نفسها مباهج الرغبة، حقا لا يفكر أحدهما في الزنا، كل ما في الأمر أنهما يتوقان إلى "الحياة". وفجأة تنتصر الحواس على الحكمة، ويتسلل عنهما الإخلاص، ويدب إليهما الشك على قدمين غادرتين، وتنتهي ثورة الغضب الأخيرة عند انكشاف الأمر بتبسيط موقف كان من التعقيد بحيث لا تتيسر معه حياة التصنع والسيطرة.

وهكذا ينتهي الأمر بالطلاق، أنظر إليهما أولا في ساحة المحكمة الشرعية ينتظران في حزن انتهاء مآس أخرى، ثم استمع إلى مغالاة كل منهما في بيان قساوة

صاحبه بألفاظ نابية تقذف في وجوه كانت معززة بالأشواق، قد يوفق بينهما، ولكن إلى حين، إن كلا منهما يبغض الآن صاحبه بغض أولئك الذين يذكرون وعود الغرام، ثم لا يلبثان أن يستعيد كل منهما حريته، كالصحراء الحرة، وقد يعودان إلى التجربة بعد الطلاق، ولكن الظروف لا تزال كما كانت من قبل، فكيف يمكن أن تتغير النهاية؟

وسنة بعد أخرى يتأخر الزواج ويتقدم الطلاق، ولا يجد الإخلاص إلا قلة بسيطة من الناس يمجدونه، وبعد زمن قليل لن تجد رجلا يهبط إلى سفح الحياة مع امرأة تسلق معها قمة الحياة، وسيكون الزواج نادرا كالعذراء ليلة الزفاف، ومع ذلك فالمطلقات لسن إلا عددا قليلا من التعيسات في الزواج.

لن نتحرى كم يطول بهم الزمن دون انفصال، ولكننا لا نجرؤ على السؤال. فكم سئل متزوجون وأنكروا، لا تبحث في قلوب غيرك، فلن يخبرك أحد عما يمكن أن تطلبه، إنهم يخشون العار ويعدلون عن الطلاق، ويستبدلون الاستخفاف بالحب، والخداع بالإخلاص، لعله من الأفضل أن يتفرق كذلك شملهم، وأن يقف إخفاق الزواج عاريا مزعجا أمام الأبصار، يتحدى كل حاكم يفكر في مستقبل الأجيال، وكل محب يحترم الحب إلى الحد الذي غب فيه ألا يموت سريعا.

٣- إعادة بناء الزواج

الوصف سهل، والعلاج صعب، فماذا يمكن أن نقوله ولم يقل ألف مرة ومرة من قبل؟ أي دواء ننصح به ولم يجرب ووجد ناقصا؟ أي نصيحة نتقدم بها لا يؤذي الجراح التي نريد أن نأسوها؟

لعلنا نهجر المشكلة ونقول مع قول قدماء المسيحين: سد جميع أبواب الهرب، وسينسى المحابيس أنهم في السجن، فإذا كان الغرض من الزواج إنجاب الأطفال وبقاء النوع لا متعة الأفراد والزواج، فيجب لمصلحة الأبناء أن يكون الزواج أبديا، فلا يفصل العبد ما ربطه الرب، وبعد فالفرق بين امرأة وأخرى ضئيل جدا، وإذا كنا نجد

صعوبة مع هذه الزوجة فسنجد صعوبات مماثلة مع غيرها، الحق أن الرجل لم يخلق للسعادة بل ولد للشقاء، فليتزوج وليعش في سلام.

ولكن أنسمي العهود التي قطعها الشباب الغرير أبدية؟ أنربط بين زوجين معا طول الحياة مع أن حبهما قد انقلب بغضا؟ نحن بين أمرين أحلاهما مر: غواية الشيطان، والغرق إلى الأذقان. أما الآن وقد أصبح عدد الأطفال أقل، ولا ينتهي دور الأبوين بمجرد ولادة الذرية أو نضجهم كما رتبت الطبيعة المسرفة في عالم الحياة الأدنى، فلابد أن ننظر إلى الزوجين بعين الاعتبار، ومن المضحك أن نخضع حياة تبلغ سبعين عاما لاعتبارات نشأت حين كان النساء يلدن الأطفال بالجملة، ويذوي جمالهن في الخامسة والأربعين، إن رقي الجنس في الكيف يتوقف على تقليل التضحية المطلوبة من أفراده، وليس الجنس أعظم من الفرد إلا لأنه ينتج عددا أكبر من الأفراد، وفيما عدا ذلك ليس الجنس إلا اسما جديدا، وبذلك تتصل نظرية الزواج في العصر الوسيط بمذاهب الاسميين nominalists في تلك الأيام وقبلها.

وقد نشأت عن عصرنا الفردي نظرية معارضة لها أكثر طرافة وتطرفا.

أتدري ما اسمها الجذاب؟ "الزواج الحر Free Love". فما دامت العهود تقطع ثم تنكث، فأي حاجة إلى أخذ العهد على الإطلاق؟ وما دامت الزيجات لا تلبث أن تعقد حتى تحل فلماذا نشغل آلاف المحاكم بالملايين من عقود الزواج ووثائق الطلاق؟ وإذا كان الحب أفضل دافع إلى الزواج، فموته سبب كاف للطلاق، وكيف يمكن أن يكون الحب حقيقيا إذا لم يكن حرا؟ دع المحبين يرتبطون بإخلاصهم وشرفهم فقط، حتى إذا ذوي الحب فليبحثوا دون عائق عن رفقاء آخرين، وليجددوا حبهم وشبابهم.

ويزيد أنصار هذا الحل لمشكلة الزواج كل عام، وقد جاء في تقرير القاضي لندساي أن عقود الزواج نقصت عام ١٩٢٢ عن عام ١٩٢١ بمقدار ٢٥ في المائة، وعلل هذا النقص بانتشار الزيجات الحرة، حيث يمكن أن يؤدي هذا الارتباط الحر إلى مخرج بديع من الشرائع الجارية عندنا لولا استمرار اعتماد المرأة اقتصاديا على الرجل

واعتمادها نفسانيا عليه قبل أن يربطه الزواج بأهوائها.

ذلك أن العجز أيام الحيض، واحتمال الحمل، يقللان من مقدرة المرأة على الكسب، وإلى أن تتمكن المرأة من تأمين مسكنها وحماية نفسها حماية مستمرة إزاء المخاطر التي تواجهها فإن مزية الزواج "الحر" تبقى كلها في جانب الرجل.

وفي الوقت الحاضر – ولو أن هذا الشعور أصبح في الميزان، ويتجه إلى الضعف يوما بعد يوم – تنتقص المرأة في عين الرجل إذا استسلمت له، والرجل محارب، أو يجب أن يرى نفسه كذلك، ويلذ له على الأقل أن يجد مظهرا للمقاومة يعظم به انتصاره، حتى إذا بلغ غاية الظفر فتش عن ميادين أخرى ينتصر فيها، ويحب الرجل في الوقت الحاضر – وهذا أيضا عرضه للتغير – أن يعتقد أن المرأة التي يختارها زوجته الدائمة لم يسبق لها التعلق برجل آخر، إنه على أتم استعداد للموافقة على ارتباط مؤقت مع امرأة مجربة، ولكن قل أن يرغب فيها زوجة شرعية، إنه يفعل كما لو كان يوافق على حكم فايننجر القاسي، إن المرأة إما أن تكون أما أو عاهرة، وكأنه يرتاب في عودة المرأة التي أحبت جيرانها كنفسها إلى الإباحية أول ما تزول جدة الزواج أو أثقال الحمل، ولا يفكر الرجل أبدا في تطبيق هذا الفحص أو الحكم على نفسه، حيث يفترض في نفسه القدرة على الانتقال من التنويع إلى الاقتصار على واحدة دون أي شبهة في الانحراف عن الإخلاص الزوجي، الواقع أن ما يحركه ليس العقل بل حب التملك، وترتد مشاعره إلى عادة الزواج بالشراء تلك العادة القديمة التي تكاد تكون عامة، فهو يشتري شيئا من السوق، ولا يود أن يدفع ثمنا غاليا لبضاعة مستعملة، غنه يظن المرأة هي المقصودة بالوصية العاشرة من الوصايا العشر(١).

وكل ذلك مصيره إلى التغيير، وأكبر الظن أنه حين يكمل استقلال المرأة الاقتصادي، وتفصل وسائل منع الحمل تمام الفصل بين الصلة الجنسية والأبوة، سيطبق الرجال على النساء نفس المستوى المتساهل الذي يحكمون به على أنفسهم،

(١) يريد هذه الوصية: "لا تزن" (المترجم)

وتزول قوانينا الأخلاقية القديمة تمام الزوال، ولكن المرأة في أثناء فترة الانتقال الطويلة ستقاسي من أنانية الرجل المستهترة وعدم تحمله أعباء المسئولية، فالزواج الحر زواج تقتصر حريته على الزوج، فهو فخ تقع في شباكه المرأة المتحررة مع رجل مسرف في التحرر، وقد يأتي اليوم الذي تصبح فيه المرأة سيدة نفسها، فلا تتركها الأمومة تحت رحمة رجل يميل إلى التعدد بطبعه، وقد يأتي يوم، في المستقبل البعيد، نجد فيه طريقة للعناية بالأطفال دون أن نربط بين الرجل والمرأة التي أنجبتهم، وعندئذ يصبح الزواج الحر نعمة للجميع، والحالة المثلى لجنس نال حريته في نهاية الأمر، وإلى ذلك الوقت يحسن بنا أن نخضع للقانون.

ويخلط العامة بين الزواج الحر وزواج المتعة Companionate marriage ويتصور المهوسون هذا الزواج بأشكال مختلفة، إنه لا يبدو عظيم البشاعة إذا تبين لنا أن أجرأ المدافعين عنه يعرفه بقوله إنه: "زواج شرعي، يمنع الحمل بوسائل مشروعة، مع الحق في طلب الطلاق بموافقة الزوجين بشرط عدم وجود أطفال، ولا تدفع له في العدة نفقة".

وليس في هذا الضرب من الزواج (فيما عدا شرط النفقة القاسي) شيء لا يجري بالفعل بين الأسر المفروض أنها محترمة، والطلاق برضا الطرفين وحيث لا أود أفضل من الطلاق بفضيحة أو من "الهجر" وما يخشاه الناس من هذا المشروع هو بلوغ المرأة مرتبة المساواة الكاملة بالرجل، ثم إن المترفات من نساء الطبقة المتوسطة أخذن بسرعة شديدة في الانتقام لجميع بنات جنسها من الرجل المجهد، فالزواج سائر في طريق التغير إلى صورة لن تسمح بوجود المرأة المتعطلة من العمل ولا تصلح إلا زينة لكثير من البيوت ومصدرا لمتاعبها، وأخذ الرجال يطلبون من زوجاتهم العمل لكسب المال اللازم لمصاريفهن، ومن مزية زواج المتعة أن المرأة تذهب إلى العمل إلى أن يثقل عليها الحمل، وفي هذا يكمن السر الذي يحرر المرأة تحريرا كاملا، لأنها ستدفع من الآن فصاعدا جميع نفقاتها، ينبغي أن تسير الثورة الصناعية إلى نتيجتها المنطقية والتي لا ترحم، إذ يجب أن تلتحق الزوجة مع زوجها في المصنع، وبدلا من بقائها متعطلة في

مخدعها مرغمة زوجها أن يتكسب ضعف ما يكسب لمواجهة العجز الاقتصادي، ستصبح كفوا له في العمل والكسب، وفي الالتزامات والحقوق، وهكذا يكون التحرير.

ويقع على عاتق الرجل كثير من المسئولية، لأنه استمع لغواية الشيطان وحطم جميع التقاليد الموروثة ليقترح علاجا لداء الزواج الحديث، ولكن في هذا المشروع شيئا من الصعوبة والمجازفة مما يعده المتمسكون بالفتوة ظلما، ما دامت مساواة المرأة الاقتصادية والخلقية بالرجل غير كاملة، ذلك أن الرجل –كما قلنا – بينه وبين نفسه فيه شراهة للتعدد، فقد منح الرجل صورة من الزواج يكون فيها حرا في هجر زوجته عندما يفقد فتنة الطرافة ولذة المقاومة، وستجده يتحرق شوقا لمباهج أخرى وقلاع لا تزال حصينة، سوف يودعها إن قريبا أو بعيدا، ولا يفيد القول بأن موافقة الطرفين لازمة للطلاق، لأن المرأة ستجيب بالموافقة متى طلب منها، وبعد؟ ثم تجد نفسها "حرة ومستقلة" مرة ثانية.

هذه كلها صعوبات صغيرة، وأكبر الظن أن المشروع معروض للتعديل مع التجارب، وأكثر ما فيه من إنشاء هو التشجيع الذي يقدمه للزواج المبكر، إذ ها هنا قبل كل شيء نجد لب مشكلتنا الأخلاقية، ولو تيسر لنا أن نجد سبيلا نعيد به الزواج إلى السن الطبيعية، لاستطعنا بضربة واحدة تقليل نسبة البغاء إلى النصف، وكذلك الأمراض السرية، والعزوبة العقيمة، والعفة الممقوتة، والانحرافات التي تصم جبين الحياة العصرية.

تأمل مرة أخرى هذه القلة القليلة من الرجال أو النساء الذين يتزوجون أفضل من يحبونه، ذلك أن عاطفة الشباب المشرقة تغزو القلوب بأسرع مما تطيقه حالتنا الاقتصادية، ولهذا نفزع من المخاطرة الكبرى، وندع الحب يسير إلى الزوال، ومع ذلك كلما كان الحب مبكرا كلما كان أبهى وأعمق، ولن تجد رجلا بعد الثلاثين من العمر يقوى على الحب بقوة الشباب وإنكاره ذاته[١]. والإخلاص الذي يبعثه أول

---

(١) هذه هي العبارة التي جعلها أحد المحررين عنوانا لإذاعات في جميع أنحاء المملكة، وهي "لا يقوي رجل على الحب بعد الثلاثين". فالدعاية تؤثر فينا وتحطمنا.

حب في النفس يكون من العمق بحيث يصعب زواله بعد سنة من العشرة والتجربة، فهذه الرقة الجديدة عند الصبي، وهذه الثقة الواضحة عند الفتاة، لابد أن يحملاها في سعادة على مر السنين، وتصبح ذكرياتهما الأريج الذي يعطر حياتهما.

تصور زواجا هو ثمرة أول حب، أنظر إلى العروسين الجديدين، كما هما في المثال، كيف يختاران لهما مخدعا في شقة بل بيتا صغيرا مستقلا حيث لا يزال سلطان الطبيعة قائما، ثم ينسقان فيه الأثاث بعد مناقشات بديعة حول ما يجب أن يشترى، وأين يجب أن يوضع، ثم يزرعان الحديقة بالأزهار التي تنمو مع نموها، ويملآن البيت بألوان من البهجة والموسيقى والكتب والأصدقاء، فيصبح أمتع من صخب الشوارع وأنوارها الساطعة، ثم يكملانه في النهاية بصياح الطفل وزينته، وكثيرا ما وصفنا أنفسنا بالبراعة للتغلب على قيود الزواج، ومع ذلك ففي أعماق قلوبنا سننظر دائما إلى الوراء في شوق إلى تلك الأيام العاطفية حين كان الحب في عنفوانه[١].

وثمة اعتراضات كثيرة على الزواج المبكر، وأول كل شيء، من العبث تقديم نصائح تحث على الكمال، فنحن لا نستطيع التغلب على تبصر الشباب الاقتصادي بالمواعظ الأخلاقية والأملاك الخيالية ، ولكن الآباء لا الأبناء هم الذين ينصحون بتأخير الزواج ويعملون اقتصاديا على إرجائه، ولا مفر بعد ذلك من استهتار الشباب، فلنقنع الآباء المخطئين أنهم بالعمل على تأخير الزواج يدفعون أبناءهم إلى ألوان من العادات السيئة عوضا عنه، وإلى كثير من الانحرافات المنافية للخلق.

وأن الحكمة ليست في إقامة الحواجز في سبيل الزواج لمن بلغ تمام الرشد، بل بإعانة الأبناء، والبنات أيضا، بمنح مادية يوازنون بها عجزهم الاقتصادي وتثبت عزائمهم على مواجهة مصاعب العالم، سيكون ذلك دين شرف يدفعه الأبناء للجيل القادم، ولن يخسر أحد، وسيكسب الجميع، لقد مضى الوقت الذي كان الآباء يبذلون في الأمر بسخاء.

---

(١) للتوسع في تأييد الزواج المبكر من وجهة نظر بيولوجية، أنظر **Holmes, S.J., Studies in Evolution and Genetics, pp. 177 - 8**

بمثل هذه المعونة قد يستسلم حتى الشاب الحريص لنداء الحب، فإذا تزوج الشاب فسوف يجد شيئا من الحقيقة في ذلك المثل القديم: "الله ولي التوفيق".

وسوف يصلب بالعزة عوده، ويقوي ساعده، وتستمر شجاعته، وترغمه المسئولية على التعمق، فيستوي بالزواج رجلا، فإذا لم يصلح شيء من ذلك، فلتذهب الربة الصغيرة إلى عملها اليومي كما كانت تفعل من قبل حتى تواجه الحمل، ومن الأفضل أن يكون في يديها عمل من أن تقبع في الدار كقطعة من الزينة سهلة الانكسار، ومن الأفضل إرجاء الحمل من التململ بتأخير الزواج تأخيرا غير طبيعي، يجب أن نسمح بالتمييز بين الزواج وبين النسل، حتى يقبل ابتعاد الجنس عن الزواج، فإذا استمرأ الرجل هذه المعونة، فالعلاج الوحيد لصلاحه هو الأبوة، لأن وجود الطفل سيبعث فيه الرجولة، اللهم إلا إذا لم يكن رجلا على الإطلاق.

والصعوبة الثانية التي يثيرونها هي جهل الشباب، وفي ذلك يقول نيتشه: "عندما يقع الرجل في حبائل الحب فلا ينبغي أن نسمح له باتخاذ قرار يختص بحياته، وأن يقرر إلى الأبد نوع زوجته التي ترافقه نتيجة النزوة، يجب أن نعلن على رءوس الأشهاد أن مواثيق الغرام غير صحيحة، وان نرفض السماح للمحبين بالزواج(١)". حقا الشباب أعمى فلا يستطيع أن يحسن الحكم، ولكن العمر عجوز ولا يستطيع أن يحب، لعله لا يجب أن يسمح لنا في أي وقت باتخاذ قرارات حاسمة أو أن يطلب منا ذلك، وليس من الواضح أن الرجال أحكم في الاختيار وهم في الثلاثين منهم في العشرين في مسائل اتخاذ الزوجات، ولما كان جميع الأزواج وجميع الزوجات متشابهين في الجوهر، فليس الفرق بينهم كبيرا، وإذا فرضنا أن رجلا لا يستطيع العيش في وفاق مع زوجته، فالعلة في أغلب الحالات ترجع إلى عيب في سلوكه أو في فلسفته بحيث تؤدي إلى النتيجة ذاتها، إذا غير زوجته وعقد على زوجة جاره، فالطلاق يشبه رحلة لا خير في الاستمتاع بها إذا لم نغير أنفسنا.

---

(1)Dawn of Day, Sect, 151.

وعلى الرغم من هذا كله فجهل الشباب حقيقة واقعة، وقل لي بربك متى يقف جهلنا عند حد في مثل هذه الأمور؟ من منا نحن الرجال يفهم النساء، وكم منا يستطيع سياستهن؟ ولكي نقلل الخوف من الحكم على المجهول فلنعد إلى تلك العادة القديمة وهي عقد خطوبة رسمية مدة ستة أشهر قبل الزواج.

سيكشف المحبان كل منهما عن عقلية صاحبه في أثناء هذه الأشهر الممتعة، ولعلهما يشرعان في النزاع كما يتشاجر الزوج وزوجته، وعندئذ تكون ثمة فرصة للانفصال قبل أن يجعلهما رباط الزواج واحدا، وقد تضفي هذه الأشهر الستة على أنظمة زواجنا قوة أخلاقية وجمالا هي في أشد الحاجة مع الأسف إليه، وقد تقدم لنا فاصلا موسيقيا عجلة الحياة الاقتصادية.

وآخر صعوبة وأعظمها هي العبث أن نشجع الشباب قبل أن تهدي التجارب حكمته على الدخول في بيت قد يصبح في أي لحظة سجنا يختنق فيه مدى الحياة.

فإذا أردنا أن ندبر للزواج المبكر ترتيبا معقولا، فيجب أن نلتمس للزواج مخرجا كما فتحنا له الأبواب، ويجب أن يتمكن الزوجان من الطلاق برضا الطرفين.

وقد يبدو من السخرية بعد الاحتجاج بأن الطلاق شيء يؤسف له، وبأن الزواج يعقد للعناية بالأطفال أكثر من متعة الزوجين، أن نحث على التوسع في الطلاق على حساب الأسرة والأطفال، ولكن من يدري هل يكون قبول الطرفين سببا كافيا لكثرة الطلاق؟ أو هل يكون الارتباط القسري لزوجين لا يثق أحدهما في صاحبه ويكثر التنازع بينهما أفضل للأطفال من توزيعهم أو تبادلهم تحت سقف بيتين منفصلين يسودهما السلام؟ وإذا رفضنا طلاق زوجة من زوج لمجرد اتفاقهما على طلبه، فإننا ندفعهما إلى صورة من الانفجار تلائم طلباتنا غير المعقولة، ولا ريب في أن التمهل بعض الوقت أسلم، فقد تؤدي هذه المهلة إلى الحكمة وتنصح بتجربة الافتراق وقتا معقولا قبل الموافقة على قرار نهائي، فقد يكتشف المحاربان باستمرار في هذه الفترة أن العزلة أسوأ من التنازع، وقد يكشف البعد عن فضائل خفيت مع القرب.

وقد حدث أخيرا في إحدى مدن الغرب أن اتفق أحد أعضاء مجلس الشيوخ وزوجته على طلب الطلاق، ورفض طلبهما على أساس أنهما لم ينتهكا مقدارا كافيا من الأوامر الإلهية والشرائع الإنسانية، واعتبرت المحكمة أن رغبتهما في التحرر غير مقبولة، "وكبلا بالحديد" مدى الحياة. مثل هذه الشروط تدفع إلى الفسق، فليس للرجل أن يفعل في ضوء هذه الظروف إلا أن يتحايل على القانون الغشوم، لقد سمحت اليابان منذ سنوات عدة بالطلاق المشروط برضا الزوجين مع أن نسبة الطلاق عندهم أقل من بلادنا، وأخذت روسيا بهذا النظام منذ عام ١٩٠٧، وكان هذا النظام موجودا في روما، وأدخله نابليون في جملة القوانين البونابارتية؛ ولكن البربريون ألغوه لأنهم لا يعلمون شيئا، ومن المحتمل جدا ألا تزيد نسبة الطلاق إلا قليلا إن لم تزد على الإطلاق بسبب إصلاح من هذا الضرب الذي يزيد في شرف سلوكنا ووقار محاكمنا.

ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا، أكبر الظن أنها لن تكون شيئا نرغب فيه أو نريده، فنحن غارقون في تيار من التغيير، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها، وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم، فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة، ولا ريب في أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصودا، وسيزداد الزواج الحر، مباحا كان أن غير مباح، ومع أن حريتهما هي إلى جانب الرجل أميل، فسوف تعتبر المرأة مثل هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد، سينهار "المستوى المزدوج" وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج، سينمو الطلاق، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة، ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة، وعندما يتم تصنيع المرأة، ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا في كل طبقة، يضحي الحمل أمرا عارضا في حياة المرأة، وتحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت، وهذا كل شيء.

٤- في إنجاب الأطفال

ومع ذلك فالكلمة الأخيرة يجب أن تكون للزواج المقتصر على امرأة واحدة، فالرابطة المستمرة مدى الحياة تظل أعظم تصور عن الزواج الإنساني، ولا تزال هي الهدف الذي يرمي إليه المحب الصحيح الكامل حين يبرم عقده، وثمة ضرب من الجبن في الطلاق أشبه بالهرب من ميدان القتال، ومن عدم الاستقرار والسطحية في الشخص الذي يتنقل من زوجة إلى أخرى، أما الرجال والنساء ذوو الخلق فسيتغلبون على هذه الصعوبات كلما نشأت، لأنهم يعرفون أن ثمة صعوبات شبيهة بها وتواجههم في ميادين أخرى من القتال، وهم يحصدون ما زرعوا بعد انقضاء السنوات الشاقة من التوافق المتبادل، وبعد أن تحل العاطفة الثابتة التي رسخت مع العناية بالأولاد والمشاركة في صروف الدهر محل الشوق العابر إلى الرغبة الحسية، فتجمع بين عقلين وجسمين في واحد، ولن يعرفا الحب في كماله إلا حين تمر بهم هذه التجربة النفسية.

ولن يتيسر وجود ذلك الكمال بغير إنجاب الأطفال، إذ من أجلهم اخترع الزواج، الذي لم يكن يهدف إلى الجمع بين زوج وزوجة بمقدار ما كان يرمي إلى استمرار النوع بربط الآباء بالأبناء في حبل من الولاء والعناية، ومهما نكن متحررين، ومهما نكن قد خلصنا أنفسنا من ميول الماضي، فإن المرأة العقيم بإرادتها لا تزال تشيع في أنفسنا الإحساس بالشذوذ والنفور، إن الجمال الموضوعي كالسعادة الشخصية في سهولة تحقيق الأغراض والوظائف الطبيعية، ولذلك نسخر من النساء اللاتي يبقين إلى آخر الحياة بغير أطفال، ولا نقتنع أنهن يعرفن صميم الحياة، ولو أن المرأة وجدت وظيفة أخرى خلاف الأمومة تستغرق فيها طاقتها وتملأ حياتها، فلا بأس بذلك، وستعينها الطبيعة، أما إذا هامت على وجهها بلا غرض ولا رضا، تتحرك من مكان إلى مكان، وتتنقل من رجل إلى آخر ومن تسلية إلى أخرى، دون أن تجد اهتماما في أي مكان، فذلك لأنها ولت بظهرها الغرض الطبيعي من الحب، فالمرأة كما قال نيتشه: لغز لا يحله إلا الطفل.

ستضحك الفتاة العصرية من هذا الاقتراح العتيق، وتعلن للعالم أن الزمن الذي

قد تستغل فيه كآلة للحمل قد ولى، وفي الوقت الذي نتجادل فيه حول آرائنا المتطرفة تمر الحياة بجدلنا مر الكرام، ولن تجد أحدا يملك حاسة التاريخ أو الإدراك بأن التطورات الاقتصادية لا تعود إلى الوراء يخطر بباله أن يسأل المرأة عن الأسرة الواسعة التي كانت من نصيبها في الريف، وكل شخص يدرك (ما عدا أعضاء المجلس من الفلاحين الذين لا يزالون يحكمون مشرعي الدولة) أن تكاثر الآلات وتناقص نسبة الوفيات قد وضع حدا للحاجة إلى إنجاب الأولاد على نطاق واسع، وإذا كان صالح الجماعة يبدو في حاجة إلى عدد كبير من السكان، فذلك لأننا نغرق أنفسنا بالتفكير في الكم، أو نطمع في التوسع الاستعماري والعسكري، أو نتخيل مملكة مزدحمة كالصين تفيض بسكانها على الغرب، ولكن الكم لم يكن قط سبيلا قط إلى الغلبة، بل العقل والآلة هما الطريق إلى النصر.

وعندما يحين الوقت الذي تتكافأ فيه الصين وإيانا في الآلات، فسوف ينقلون عنا تلك الأساليب الخاصة بالرقابة على زيادة عدد السكان، وهي أساليب حديثة تعد بديلة من قتل الأطفال والإجهاض، فليس ثمة حاجة اجتماعية، أو دعوى أخلاقية لوجود أسرة كبيرة، وإذا اقترح أحدنا أن تظل المرأة إلى حد معقول محتفظة بوظيفة الأمومة، فالأرجح أن ذلك لتحقيق ذاتها وسعادتها أكثر من تحقيق مصلحة الجماعة.

ومن الملاحظ أن الزواج يذبل مع ابتعاد الأطفال، ويزدهر مع إقبالهم، وكان الزواج في الماضي عقدا تجاريا لتحقيق اللذة الشهوانية للجنسين، أما الآن فقد استعاد الزواج معناه الطبيعي، إذ يرفع النفسين الصغيرتين إلى نفس واحدة تجمع بينهما، وينبت هذا الارتباط ويزهر كالزرع الذي نسقيه بالماء، وتجد المرأة وسط هذا الصخب والمتاعب والمصاعب والآلام شيئا غريبا أشبه بالنشوة الهادئة، فلم تكن قط في تعطلها وبذخها سعيدة السعادة التي تجدها في هذه المهام والالتزامات التي تنميها وتكملها، حتى حين يظهر أنها تضحي بها في سبيل النوع، وينظر إليها الرجل فيقع في حبها من جديد، فهي امرأة أخرى تختلف عما كانت من قبل، لها موارد وقوى جديدة، ولها صبر وحنان لم يشعر بهما قط، في عنفوان الحب، ومع أن وجهها قد يكون مصفرا

الآن، وقوامها مشوها إلى حين في عين الرجل الفاسد الشاذ، فإنها تبدو في عين زوجها وكأنها قد انتزعت من براثن الموت ومعها عطية سخيفة ولكنها ثمينة، إنها عطية لن يستطيع مكافأتها عليها، ويصبح الآن العمل الذي كان مشقة مريرة طبيعيا وبهيجا كالنحل الذي يجمع الشهد، وتصبح الدار — التي لم تكن إلا جدرانا وأسرة للنوم — بيتا يمتلئ بضحكات الحياة المتجددة الشباب، ويحس الرجل لأول مرة في حياته انه أصبح كاملا.

ذلك أن الرجل عن طريق الأبوة (إلا إذا كان عبقريا تتركز شهوته وكماله في الأبوة العقلية) لا يؤدي فقط وظيفته كفرد في جماعة أو كفرد في نوع، بل يحقق "نفسه" — فهو يقبل المسئوليات التي تنضجه وتوسع أفقه، ويستمتع بإشباع غريزة الحب الأبوي العميقة التي جاءت على غير انتظار، ويدخر رفقة الأطفال سلوان العمر، ويبعد عن نفسه إلى حد ما شبح الموت، الذي لا يحصد بغير حساب إلا الأجساد البالية والعظام النخرة، إذ يجب أن يزيلها من الطريق ليفسح المجال للشباب، ولكن في الشباب الذي يحميه تجري دماؤنا نحن، وحياتنا، وأرواحنا، إننا لا نسلم إلى القبر إلا شطرا من أنفسنا، أما الشطر الآخر الذي تولد من جوهرنا، وتغذي بأيدينا، وتربى بعنايتنا، فغنه قد يعيش متجسدا إيانا في تيار الحياة، سيجلب لنا الأطفال متاعب يومية، وآلاما مريرة، وربما خيبة الأمل في النهاية، ولكنهم يوفرون لنا بلا نزاع متعة لا حد لها تفوق حتى نشوة الغرام، دع الرجل يكمل نفسه، لا على أنه جزء، ولا على أنه فرد يتنافس بلا اكتراث ويعيش منعزلا محدودا، فهل يمكن أن يحقق ذاته ويصبح كلا؟ فليكمل نفسه على أنه شركة في نفس أكبر، وعلى أنه محب يعطي أكثر مما يأخذ، وعلى أنه أب يفرح بخدمة النوع، ويرضى بأن يبتلعه تيار الحياة وخلودها، ذلك أنه سوف يجد جوهر جميع الأخلاق في هذا التعاون بين الجزء والكل، ويجد سر جميع الكائنات الحية، وبصيصا من السعادة يضيء حياته سنوات كثيرة.

الفصل الحادي عشر

في الأطفال: اعتراف

١- نظرة شخصية

والآن بعد أن غنينا أنشودة الأبوة، فلنبحث في صراحة وإخلاص تلك المهمة القديمة والشاقة، نعني تربية الأطفال، أي تحويل صغار الحيوانات والوحوش إلى سيدات ورجال ومهذبين، وأستأذن القارئ في اتخاذ طابع شخصي في هذا الفصل، وأن أستعمل ضمير المتكلم المحبوب بحرية، لأن الأساليب والنتائج التي أقترحها ثمرة تجربة محدودة جدا، وأود أن أقدمها كما هي عليه ..

إنها مغامرة أبوين مع طفل واحد، وإني أسلم منذ البداية أنني مهتم اهتماما عميقا بهؤلاء الأشخاص الثلاثة أكثر مما يسمح به أي خيال شامل، فالطبيعة تلقحنا بحب الذات حتى نرضى بالعيش، فمن ذا الذي يحتمل أن يرى نفسه في ضوء الأزل؟

إني شغوف شغفا سخيفا بفتاة صغيرة، ومن العسير أن أتصور أي طفلة أخرى تفوقها صحة أو ذكاء، أو تورد خدين، أو غزارة شعر، وعندما أصحبها إلى المدرسة، وأودعها عند آخر منعطف الطريق، أعد متاعب هذه الحياة الدنيا وآلامها من التفاهة بمكان، فهذه الطفلة اللعوب تكشف عن كل سر، وتبدد كل حزن.

وعندما أعود إلى مكتبي أجد نشوة أبوية عجيبة تسري في نفسي، ويبدو كل شيء في نظري مغتفر – الألم والحزن والموت – لأن هذه الأشياء موجودة في طبيعة أخرجت قسوتها العادلة والرقيقة من بين الآلام غير المعقولة طفلا محبوبا.

فمن الواضح إذن مبلغ تحيري، وأني أبعد الناس من القدرة على مناقشة

مشكلات الأبوة في هدوء موضوعي أو ثقة كلية، لذلك لن يكون هذا الكلام بحثا بل اعترافا، ولا كتابا في التربية بل تسليما بمسلك يستوجب اللوم، وثقتي بهذه الأمور مزعزعة كثقتي بمشكلات الميتافيزيقا المعقدة، وعلى الرغم من هذا كله، فإني في أعماق قلبي أعتقد أن آرائي فلسفية وعميقة، و"قمقم مفتوح" للأجيال المشرقة، وإني لأحلم وأنا أنظر إلى رأس صحيفتي أن بعض الناس قد يرى في هذه الاعترافات شيئا من الضوء الذي ينير بيوتهم وحبهم الأبوي.

٢- في الأمور الجسمية

أظن أننا قد نظرنا منذ البداية إلى أثيل Ethel، كما جاء في تعاليم الدين على أنها مخلوق مركب من جسم وروح، فقد خلق البدن أولا ثم خلقت الروح عندما ابتسمت "أثيل". ومنذ ذلك الوقت تحققنا أن هذا الجسد الوردي، وهذه الأذرع والسيقان الممتلئة، وهاتين العينين الزرقاوين، والشفتين الحمراوين والشعر الأصفر، كل أولئك مهما تكن بديعة في ذاتها ليست إلا آلة وأداة لحياة غير مادية سرعان ما تحب وتكره، وترغب وتحلم، وتعجب وتنمو، إلى أن تصبح ذاتا أخرى، ومركزا يبدو أن العالم كله يدور حوله، سوف تعتمد هذه الحياة بطريقة ما على هذا البدن، وقد تكون شعلتها أبهى فيما نظن إذا كان الجسم الذي يحملها أصح وأقوى، وكنا قد عقدنا العزم على أن نضع بدن "أثيل" ومدها تحت رعايتنا الشديدة إلى أن تبلغ العاشرة، معتمدين على الطبيعة أن تخرج لنا من الجسم الكامل أول زهور الرقة والذكاء، وكنا نشتبه في وجود علة جسمانية تختفي وراء انحراف سلوكها أو بطء مواهبها، وبدلا من إجراء تحليل نفساني على أثيل أو تهذيبها بالمواعظ الخلقية، كنا نقدم لها الهواء الطلق والغذاء الصحي.

وارتكبنا في الأشهر الثلاثة الأولى غلطة فظيعة لأننا سمحنا لطفلتنا أن تكون معملا نجرب فيها نوعا جديدا من اللبن المجفف، إنها جريمة لم تستطع عدة سنين من القلق أن تمحوها من أذهاننا، وإنا لنعتقد اليوم مع بن فرانكلن أن الجنس البشري ينبغي أن يحذر من الطبيب الشاب والحلاق العجوز، وحالفنا الحظ فعالج غلطتنا، إذ

على الرغم من سوء الغذاء تفتحت أثيل وترعرعت بشكل عجيب، فلما اكتشفنا خطأ أسلوبنا لم نستطع أن نغزو هذا الحظ الحسن إلا للهواء الذي تمتعت به أثيل في ربع السنة الأولى، هواء قرية ساكنة في التلال حيث يكفي أن تتنفس ليصح بدنك، ومنذ ذلك الحين أصبحت القاعدة رقم ١ عندنا أن الهواء يأتي أولا، حتى قبل تلك المعجزة المدهشة، وهي اللبن القادر على كل شيء، ففي كل ليلة، مهما يكن الموسم، تجلب النوافذ المفتوحة الهواء الذي يحيل خدي أثيل بنفنوتا Ethel Benvenuta (سميناها مرحبا Welcome) ورد ولهيب.

وكم رشتنا بألفاظ عذاب وذراعين تتشبثان بهما حول العنق لنسمح لها بالبقاء بعد الساعة المقررة للنوم، ولكننا في هذه المسألة كنا مصممين في هدوء، فلم نكن نرضى حتى بمناقشة مثل هذا الاقتراح السخيف، فنبعد الفكرة كأنها جرم، ونرسل أثيل إلى مورفيوس[١] Morpheus كل ليلة في الساعة المقررة المبكرة، والآن مع أنها فتاة كبيرة في العاشرة من العمر، فإنها لا تزال تختفي بانتظام في الثامنة والربع، راجية لنا من أعلى السلم "نوما عميقا وأحلاما سعيدة"، ولا تكاد الساعة تبلغ الثامنة والنصف حتى تستغرق في النوم، كان القانون يخرق بين حين وآخر عندما يزورنا مثلا أحد لاعبي البيانو المشهورين.

ولكن في معظم الأحيان كانت تلك القاعدة مقدسة عندنا، ووقفة عابرة يسيرة في فلسفتنا.

بعد الهواء يأتي الطعام، ورأينا أن أثيل كانت تزدهر بتناول غذاء نباتي ومعه كمية كبيرة من اللبن وخبز القمح، وأخذت تنمو فطالت قامتها وأصبحت قوية رياضية نشيطة، وخيل إلينا أنها كانت تحصل على كل عنصر تحتاج إليه لكمال النمو، ولكن النباتيين سيسخطون علينا حين يسمعون أننا أضفنا بعد قليل إلى قائمة طعامها

(١) ابن إله النوم، ورب الأحلام، في أساطير اليونان، وسمي كذلك من اللفظة اليونانية مورفي **Morphe**: أي هيئة، لن الأحلام تجعل الهباء صورا محسوسة (المترجم)

(الكتاكيت) مرة أو مرتين في الأسبوع، كنا نسميها "الكتكوت النباتي". وظل البيت الصغير يعيش على هذا الغذاء العجيب القائم على غير أساس مزدهرا جسمانيا عشر سنوات، وليس التقرير الصحي عن أثيل نقيا، فقد أصيبت بالحصبة الألمانية في طفولتها وشفيت منها بعد أسبوع، وفي الرابعة من العمر انتقلت إليها عدوى السعال الديكي من طفلة أخرى وتغلبنا عليه بالمصل الحديث، وفي الثامنة أصيبت باحتقان اللوزتين وأجريت عملية لاستئصالهما.

فهذه هي النقط السوداء في بطاقتها، وفيما عدا ذلك فهي غريبة عن الأطباء والأدواء، حتى لقد رغبت أن تعرف: "ما شعور المرء بألم المعدة؟".

ويأتي اللعب بعد ذلك فيأخذ هذه العضلات والحواس والأطراف النامية ويعلمها التوافق والضبط والوحدة، والأب الكامل هو الذي يعتمد على فن التربية، فيعرف بالضبط أي اللعب يشتري لتشجيع نمو كل عضو وكل قوة، ولا شك أن أول مبدأ نعتمد عليه في هذا الأمر أن تكون الألعاب بحيث تحتاج إلى إدراك مضبوط، سهلة التناول، وتحتاج فضلا عن ذلك إلى حركة في الهواء الطلق.

فالقبقاب ذو العجل، والدراجات Scooters، والنبال، والحلقات quoits، وحبال القفز (النط)، والبيسبول، والتنس، والبسكليت (إذا كنت تعيش في الريف بعيدا عن أماكن النفط) هي أول معين للطبية التي تنصح في حكمة باللعب كيما تتدرب جميع القوى لتبلغ الكمال، وأفضل جميع الألعاب العوم والتزحلق skating، فقد خلق الصيف والشتاء لأجلهما، إذ تعمل كل عضلة في تناسق، ويسرع التنفس ويعمق، ويدور الدم بسرعة، وينبض القلب فرحا، وإني لأعترف في خجل أني لا أعرف التزحلق، ولكنني مصمم في هذا الشتاء حين تتعلم أثيل، أن أجرب أنا أيضا وأقع، إني لأتخيل الفتيان والفتيات ينزلقون وقد أخذ أحدهم بذراع الآخر أو أمسك بخصره، والعيون ضاحكة والخدود ملتهبة، وهم يغنون في انسجام مع الحركة تحت سماء الشتاء، سوف نذهب للتزحلق معا؟ حتى الكاتب العجوز يستطيع أن يدفع المركبة الجليدية ويتزحلق بها على الثلج، فما أمتع الوقت الذي نقضيه ثلاثتنا حين تتطاير نتف الثلج.

٣- في الأمور الأخلاقية

الجسم يأتي أولا، وبهاء جماله وهو ينمو مصدر بهجة مستمرة، حتى إذا أقيم هذا الأساس المتين، وانتظمت عملية الهضم انتظاما صحيا وأصبحت عادة آلية، عندئذ تبرز أمامنا مشكلات الخلق والتربية كثيرة متشابكة، فالطفل جشع في تناول الطعام على المائدة، ومخرب للألعاب، مشاكس في اللعب، مغتر بهيئته، كثير الثرثرة، غشاش، متقلب المزاج، كتوم، يكره الماء والصابون، فكيف نعالجه؟

أول كل شيء تجنب كلمة "لا". إذا أساء الطفل السلوك فالتمس له العذر، لأنك إما أسأت تغذيته أو معاملته، والنواهي ضرورية، ولكن كل أب يجب أن يتقيد بعدد محدود جدا منها، كالطبيب حين يصف الخمر دواء، ولعله يفعل كالطبيب الذي يستنفد الكشف على العدد المقرر عليه سنويا في شهر يناير ويرتاح بقية العام، لا ريب أننا يجب أن نقول "نعم" كلما كان ذلك ممكنا.

وبعض الآباء الذين يفشلون في المال أو الحب ينتقمون لأنفسهم من الحياة بأن يصدروا النواهي ويوجهوا الاعتراضات في طريق الطفل، إن سلطان الأب آخر ملاذ يلجأ إليه وغد، فالضعاف من الناس يحبون السيطرة، وحق المرأة في النكد عزاء لها عن الحمل، فلندع الطفل سعيدا ولا نخدع أنفسنا بتضحية كثير من الحاضر في سبيل المستقبل، أما نحن عزمنا أن نحتفظ بأثيل باسمة إلى أن تتزوج، والله يعلم ماذا يحدث لها بعد ذلك.

إن إصدار الأمر للطفل يبعث فيه المقاتلة والمقاومة، وهذه القاعدة تكاد تكون يقينية كقوانين نيوتن في الحركة، وأدنى منها في اللحاق بأينشتين، فنحن حين نصدر أمرا نثير علينا غضبات الكرامة النائمة، ونحرك جيوش الدفاع.

اطلب يجب طلبك، ومر يرفض أمرك، كن عادلا مع الطفل، واكسب محبته وثقته، تجد أن طلباتك وإيحاءك أوقع من الأمر، ومن المخجل أن نقرر كم حصلنا نحن أب أثيل وأمها منها على كثير من الأشياء بالإيحاء، نذهب إلى المدرسة برفقة أثيل، ونعبر لها عن حسدنا إياها لأيامها السعيدة بالمدرسة، إنا لنعجب كم يعينها أن ترى

غيرها يقدر سنوات الطفولة على الاستمتاع بها، ونلح عليها ساعة الغداء بالسؤال عن حظها في الفصل، فتفرح لاهتمامنا بها، وتنتقل إليها عدوى اهتمامنا بالتاريخ والجغرافيا والإملاء بل والحساب، الإيحاء يرسخ في نفسها الاعتقاد بأن هذه الأشياء لا يجب أن تكون خاملة، وأنها قد تكون مثيرة كالمعارك، أو الرحلات، أو رسائل الغرام، أو تقارير الدخل.

وكذلك الحال في البيانو، إنها مشكلة كل بيت –: "اذهبي لتأدية تمرينك". هذه جملة سخيفة لأنها توحي في الغالب بما يأتي: "البيانو حمل ثقيل، والتدريب عليه عذاب، اذهبي وتألمي، إنك تستحقين ذلك". ولكنا جربنا طريقة أخرى مع أثيل، هيأنا فقط فرصة تعلم البيانو إذا شاءت، وتركنا ذلك لاختيارها.

غير أننا ظللنا عدة أسابيع، قبل أن نطلب منها، نتحدث عن عظمة الموسيقى، والمزية الكبيرة للعزف أو التأليف، ثم بحثنا عن معلم لا يبدأ بتعليمها السلالم الثقيلة والتمارين المزعجة، بل بألحان بسيطة يسهل على الأذن التقاطها مما يجعل سائر أهل البيت يرددونها، ولم نكد نجد المدرس حتى انطلقت الأنغام في أرجاء البيت تلعبها أصابع رقيقة دائبة، حتى لقد كنا نحن الكبار نذهب إلى عملنا نغني الألحان التي ترددها أثيل، كان يسرها أن تلحظ بهجتنا، وشعرت بنفسها قد أصبحت فنانة، كان البيانو منذ البداية يعني في نظرها الموسيقى لا الضوضاء والألم.

وحدثت بعد قليل وقفة في تقدمها، ولم تعد ترغب في أداء تمريناتها، وكنا نكبح جماح أنفسنا عن شهوة الأمر وعادة القسر، كنت أختلف بدلا من ذلك إلى البيانو وأتمرن على الدرس بنفسي في حدود مقدرتي، ثم دعوت أثيل إلى مصاحبتي وأن نعزف بأربع أيد، فجاءت وتمرنت معها مدة أسبوع، وإذا لم تحفل بالمجيء كنت أعزف مقطوعاتها وحدي، وأمدنا المدرس ببعض الأغنيات الزوجية البسيطة تعلمناها معا (في هذه اللحظة نادتني بنتي قائلة: "أبي تعال نتمرن معا") وسرعان ما استعادت لذتها في العزف على البيانو، ولم يمض إلا قليل حتى كانت تعزف منتخبات بسيطة من بتهوفن، وموزارت، وشومان، وشوبرت، وهاندل، وهايدن، وباخ. كنا نغني هذه الألحان

المشهورة في سرور، وأشعرناها بمقدار شكرنا لها لأنها ملأت قلوبنا بالغناء، وأخذت تشعر أن الموسيقى نعمة كبرى جديرة بجميع المتاعب التي تستدعيها، أصبحت تقول وهي تنصرف عن البيانو: "الآن فهمت علة شغفكما إلى ذلك الحد ببتهوفن".

وأنتقل خطوة أخرى في التوضيح من البيانو إلى بحيرة السباحة، ولو أن هذا الانتقال لا يعد شرفا كبيرا، أراقبت الأمهات والآباء يعلمون الطفل كيف يحب الماء؟ إنهم يلاطفونه بعض الوقت، ثم ينهرونه، ثم يحملونه قسرا ويغمسون كل جسمه في الماء، وتنجح هذه الطريقة بعض الوقت، ثم تخفيه فتبعث في نفسه نوعا من الماء قد يمنعه من تعلم السباحة على الإطلاق، وهنا نجد أن درهما من المثال خير من قنطار من القسر، ولم تكن أثيل شغوفا بالنزول في الماء كأي طفل آخر، فخوفها شيء طبيعي وسليم متأصل في أجيال من مخاطر التاريخ، كنا نحملها معنا إلى حمام السباحة ونتركها تلعب في الرمل، على حين نقفز نحن في الماء ونعوم، ونوحي إليها بأن الماء شيء بديع، وثارت الغيرة في نفسها، وأخذت من تلقاء نفسها تخوض في الماء، واشترينا لها حزام نجاة، ربطناه بجسمها، وبينا لها أنها تستطيع بمساعدته السباحة في الماء العميق ولا يكاد شعرها يبتل، وأخذت تراقب الأولاد والبنات وتقلد حركاتهم، حتى أصبحت قادرة بعد زمن يسير على السباحة في أي اتجاه، وتعلمت في آخر موسمها الأول بدون قسر من أي نوع، بل وبدون زجر، فتعجبت حين رأت أنها تعرف السباحة، وفي الموسم التالي تعلمت دون قسر وبإرشاد صديق ماهر عمة "الكرول Crawl" والغطس تحت الماء، والآن تعلم أباها، وتجعله يخجل من قوة ضرباتها وتنوعها.

الحق أن المثال إذا كان حسنا فهو من القوة بحيث لا تحتاج في تعلميك إلى شيء آخر، وأفضل بيت، وأفضل مدرسة، وكذلك كل شيء آخر، ما قل الحكم فيها، إن الطفل المهذب بغير عقاب وأمر جدير بالملاحظة، وعندما تخفق أساليب الحرية في التربية فالأغلب أن ذلك يرجع إلى أننا نحن الآباء نخرق القواعد التي نريد من أبنائنا طاعتها، إننا ننصح بالاعتدال، ونسرف في الطعام والشراب، ونعلم الطفل أن يكون لطيفا، ونتشاجر على رءوس الأشهاد.

ونذم مساوئ الحلوى وأفلام الإجرام السينمائية، ولكننا ننغمس في الإقبال عليها إلى حد يخرجنا عن الصواب، إننا نطلب الأدب الرفيع، ونأمر باللياقة في فظاظة، وننصح بالعفة، ونتصنع هيئة الآلهة المعصومين، ولكن الأطفال يتعلمون بما يروننا نفعله لا بما نأمرهم به، فإذا كانوا مشاغبين، فأكبر الظن أنهم يحاكون ما كنا نفعله، أرني أطفالك أخبرك من أنت.

إذا شئت أن يكون ابنك مؤدبا، فكن مؤدبا، وإذا شئت أن يكون مرتبا، فكن أنت كذلك، ولست بعد ذلك في حاجة إلى شيء آخر، إنك حين تلجأ إلى اللغة العنيفة والألفاظ المثيرة توجهها إلى الطفل، حتى تحت ضغط الإثارة الشديدة، غنما ترسخ في نفسه بالمحاكاة ذكرى العبارات النابية، فآداب السلوك لا يمكن أن تعلم إلا مع الصبر بالمثل المستمر، وهذا شيء صعب يكاد يتطلب منا أن نعيد تربية أنفسنا، وبهذا الطريق يربينا أطفالنا، وكم نزل رجال الأخلاق في العصر الحاضر من هذه المبادئ الرفيعة إلى حضيض التصايح المبتذل، وفقدوا صوابهم وذكاءهم ولجأوا إلى الأوامر والعنف، إنني أسوق هذه النصائح الداعية إلى الكمال لتشجعني حتى أطبق ذات يوم ما أبشر به.

وقد حاولنا توجيه كل غريزة في أثيل نحو غاية مفيدة، فهي محبة للتملك كأي حيوان صغير، ولم تكن على استعداد للسماح بالمشاركة في ألعابها كالحال في معظم الأطفال، ولكنها تأثرت بطريقتنا في اقتسام الأشياء معها، ومساعدتها كلما نستطيع وأدى الشعور بالأمن الذي نشأ عن هذه المعونة الصديقة إلى أن تكون أكثر حكمة وتسامحا، وظلت بعض الوقت تهفو إلى القروش والملاليم، فعالجنا هذا الأمر بتخصيص "مرتب" شهري لها بشرط أن ترتب حجرتها، وتنظم فراشها، وتستيقظ في الوقت المناسب، وتذهب إلى المدرسة في الميعاد، وتؤدي دروسها على ما يرام، وظن أصدقائي أنني أعمل على "إفساد" أثيل بهذا المرتب الشهري، وغالبا ما كنت أشك في حكمة هذه الطريقة، ومن الصعب الحكم بعد هذه الفترة القصيرة على رأي أصدقائي بالخطأ أو الصواب، ولكني أظن أن الدلائل ليست في جانبهم، فقد جعل المال أثيل زاهدة – شيئا ما – في التملك، فهي تشتري به ألعابها الخاصة، ولا تنفك

بين حين وآخر تقبل علينا تحمل هدية لنا، وفي ذهنها مشروعات هائلة لعيد ميلادي، وتقول: "فيم تظنني أقتصد المال إذا لم يكن لشراء طرفة بديعة لك؟".

وفي هذه اللحظة التي أكتب فيها هذا الكلام ألحت علينا في شراء عقد من عقود الأطفال، وبعد أن أجبناها إلى طلبها أخبرتني قائلة: "بالطبع سأدفع ثمنه من مالي". ولكني أخشى هذه المرة إفلاسها.

والحال في حب التملك كالحال في الكبرياء، فقد يكون مضرا وسخيفا، كما يكون مصدرا للخلق والنمو، ولست أريد من الطفل أن يكون وضيعا وخانعا، وعندما أرى عناد أثيل أعزي نفسي بأنها ستكيل الصاع صاعين لكل من يحاول استغفالها حين تكبر، فالخلق يحتاج في تكوينه إلى شيء من المقاتلة، والرغبة في المقاومة أحيانا، أما الكبرياء فهي رأس الشرف، وعمود الشجاعة، ويمكن أن يستغل إلى غير حد في الأغراض الحميدة، إننا نوحي إلى أثيل أنها من العزة بحيث لا تسمح لأحد يراها غير مرتبة أو قذرة، وأنها أكبر من أن تأخذ أكبر من نصيبها في أي شيء وأنها أكرم من التهالك على الهدايا والمنن والأفضال، وأنها أعز من أن تسمح لأحد يتفوق عليها في عملها، (أرجو ألا تطلع على اعترافنا بهذه الأسرار). فالكرامة أفضل بديل من العقاب، فهي دافع إيجابي لا مانع سلبي، وهي التي تولد الصلابة والشجاعة، وتتغلب على الحياء والجبن، ولقد تساءل نيتشه: "ما الفضيلة؟" وأجاب: "أن يكون المرء شجاعا". ولكن كيف يمكن أن يكون المرء شجاعا بغير كرامة.؟!

ولعلنا كذلك يمكن أن نستبدل الذم بالمدح في تكوين خلق الطفل، فاللوم يقيد النفس، ويجعل العمل الناقص مكروها إلى الأبد، أما المدح فإنه يبسط كل خلية، وينشط كل عضو، ويجعل حتى أصعب المهام مغامرة تفضي إلى النصر، إن حب الذات هو الرافعة التي نستطيع بها تحريك العالم، وبدلا من مهاجمة العمل الذي لم يحسن صاحبه أداءه مصوبين إليه سهام اللوم، فلنلمح الأعمال التي أحسن أصحابها أداءها ونؤاثرها بألوان المديح التي ترسخ حلوة في صفحة الذاكرة، وتدفع إلى التقدم في العمل، فإذا جاء تقرير أثيل منبئا عن تأخرها في الحساب (وهو خصمها اللدود)

أبدينا الأسف، دون أن نلومها، ولعلها لن تعرف أبدا أن درجاها في الحساب أعلى مما كنا نحصل عليه في مثل سنها، أما حين تدخل البيت وتخبرنا عن الدرجات النهائية التي حصلت عليها فإننا نرقص طربا ونحتفي بها، ونبذل جهدنا في إظهار الفرح من جديد عند كل سبق، وحين تعمل شيئا نبتهج له بوجه خاص، نمنحها دولارا تضيفه إلى رصيدها على الرغم من نصيحة أصدقائنا، وأي بأس في أن تكون طريقة المدح والعطف أقل صلاحية من أسلوب القدح والعقاب؟ إننا نؤثر أن نخسر بالطريقة الأولى على أن نكسب بالثانية، سنقف في صف أي مشروع يؤدي إلى سعادة أثيل، فإذا كان لنا الخيار، فنحن نفضل أن ندللها بالعطف من أن نصهرها بالعذاب، فالعطف، لا التجهم وجمود القلب، هو المعين لنا جميعا في الأزمات.

ولست أدري أيكون ما رسمه القدر لنا من إعجاب طفلة واحدة مشكلة أم نعمة. إني لأعترف أننا أنفقنا في تربية أثيل من الوقت أكثر مما كنا نمنحه إياها لو كانت الذرية أكبر، لقد رأيت بيوتا فيها طفلان أو أكثر، فوجدت فيها من الضوضاء ما يتنافر مع ذوقي، إنني أؤدي عملي بالمنزل فأرى لذلك أثيل كثيرا، ولو كان لها أخوات أو إخوة لبحثت عن مكتب أو حجرة في سطح، بعيدة عن البيت ميلا على الأقل، وأثيل بحالتها الراهنة لا تزعجني، بل هي مصدر سرور لا يمكن التعبير عنه، غن صوتها في الحجرات الأخرى، بل في بعض الأحيان حين تقتحم حجرتي، ينشطني وينعشني، إني لأعد نفسي حسن الحظ حين أعمل لا في فوضى المدينة، بل في الصحبة الهادئة لمثل هذه الفتاة النامية السعيدة.

ومع ذلك فهذه النعمة الوحيدة تثير صعوبات، نحاول حلها باستقبال أترابها في المدرسة للعب معها، وتشجيعها على رد هذه الزيارات، ودعوة ابن عم صغير يعيش معنا في الإجازات، وتمضية آخر الأسبوع في بيوت أخرى، هذا فضلا عن أننا أنفسنا نلعب لعب الأطفال فنشاركها في دروسها وألعابها، إنها تأخذ دروسا في اللغة الفرنسية، فنحفظ معجمها الأسبوعي معها، ونتبارى في ذلك العمل، ونحفر كل لفظة في صفحة الذاكرة بأفانين مختلفة، أو عندما يصادفها مسائل صعبة في واجب الحساب

فنختلف إلى مائدة حجرة الطعام، وتجمع الأسرة كلها وتطرح وتضرب وتقسم في آن واحد مدة ساعة، أهذا مضيعة لوقت الآباء؟ ولكن كيف تشيع وقتك "أنت"؟ أيمكن أن ننفق وقت فراغنا بأفضل من هذه الأساليب المجددة للشباب؟

إن سر الأبوة في القدرة على العود إلى الشباب مرة ثانية، وطراح أي وقار أو لقب، واللعب في مساواة تامة مع الطفل، ومن المحتمل أن نكسب بهذه المودة المتواضعة تلك الثقة والمحبة الكاملتين، وهما حجر الزاوية في التربية، كيف ننجح في تربية الخلق إذا لم نستطع بالصراحة أن نجتذب الصراحة والشرف من قوى الطفل الأخلاقية الطبيعية؟(١). نقول لأثيل إن كل فكرة تغير دون وعي وجهها، وعلى مر الزمن تسطر جميع عناصر الخلق على صفحة الوجه فتقرأها أي عين، ولكننا لا نقنع بمثل هذه العبارات العقلية المتهافتة، فنحن نعلم أننا إذا شئنا أن تكون ابنتنا صريحة فلنكن نحن أنفسنا صرحاء حتى إذا كانت الصراحة مؤذية، وإننا يجب ألا نخفيها بالحذر من أي عقاب أكثر من أن ندعها ترى أن انحرافها عن الصراحة قد جلب الغم لأهل البيت طول اليوم، غنا واثقون أن المثال والعطف يدفعانها إلى الصراحة معا، قد يكون الكذب مباحا في بعض الأحيان مع البالغين (كما يذهب إلى ذلك قليل من علماء الأخلاق) لأن البالغ يستنكر الحقيقة، ولكن ذلك ليس من الحكمة في شيء بالنسبة للأطفال الظامئين للمعرفة – ولو أن فلاسفة الأخلاق يحاربون بوجه خاص سعى الأطفال إلى معرفة الحقائق الجنسية. لقد ابتعدت أثيل عن المثل الأعلى في هذه المسألة وفي غيرها من الأمور، وأظن أن ذلك يرجع إلى أنني لم أكن صريحا معها إلى النهاية.

سنحاول مرة أخرى.

٤- في الأمور الجنسية

أقسى امتحان للصراحة هو التربية الجنسية للطفل، لم نقاوم ذلك الفضول القوي الذي يعد أصل ولباب التربية؟ أظن أن السبب القريب في ذلك يرجع إلى أن ميراثنا البيوريتاني في أمريكا، قد خلف فينا شيئا من الفزع من الجانب الشهواني في الحب، وأن

(١) لا أستطيع أن أضيف شيئا إلى الفصل العظيم "الصدق" في كتاب برتراند رسل "التربية والحياة

السبب البعيد يرجع إلى السرية التي كانت تحيط العملية الجنسية دائما، حتى في المملكة الحيوانية، للابتعاد عما ينشأ عن ذلك من خطر الهجوم. وأن السبب الرئيسي يرجع إلى أن ازدياد تأخير الزواج من زمن البلوغ إلى سن متأخرة قد ترك فترة خطيرة يجب الابتعاد فيها عن أي مثير لا لزوم له للغريزة الكامنة والقوية، إنها مسألة صعبة متعددة الجوانب، ولكننا عازمون حتى في هذه المسألة أن نحاول بلوغ الحق، سنبذل أقصى وسعنا لاستبعاد هذه المسائل بعيدا عن أذهاننا إلى آخر لحظة ممكنة، وعلى كل حال ستأتي سريعا مع جو الحياة العصرية الشديد الحرارة، ولكنا نود الإجابة عن هذه الأسئلة قبل أن يجيب عنها أطفال جهلاء أو شهوانيون، ولن نعالجها بأي طريقة أخرى أو بأي نغمة على خلاف المسائل الأخرى. "فالوقار reverence" في هذه المسألة هو الطريق الباطل، لأنه سبيل إلى الأسرار والأضرار، يجب على المرء أن يتحدث عن الأمور الجنسية كأنه يتحدث عن الهضم أو التنفس، بهدوء العالم غير المتحيز والصدق أسلم في نهاية الأمر بشرط ألا يشاب بالخوف.

المعرفة الصحيحة أفضل طبيب نفساني، فحيثما كان البدن صحيحا والعقل سليما، فلن تجد "العقد" سبيلا إلى النمو، كان ديدرو Diderot يقول إن التشريح أول المور التي يعلمها ابنته، ولو أني لست متعجلا في تعليم ابنتي ذلك، ولا ينبغي أن تزعجنا الاضطرابات العادية للشباب بالنسبة لهذه المور.

سندع الطبيعة تأخذ مجراها، دون عظات أو أكاذيب، ولكنا سنقدم للطفل جميع الألعاب الرياضية المفيدة التي تفتنه تحت ضوء الشمس، حين رأى الصبي يلعب البيسبول في ابتهاج أعلم أن أخلاقه حسنة.

حين تمتزج حياة الحب عند الطفل بالصدق تصبح هذه الحياة كأي شيء آخر حولها موضع جمال وبهجة، ها هي ذي أثيل مثلا تعود من المدرسة، وتجلس على مسند الكرسي، "وتطوقني بذراعيها" كما تقول، وتهمس في أذني بخجل "أبي، أني أحب" فماذا أفعل؟ هل أعنفها لهذه القصة المخيفة؟ لا أستطيع، بل بدلا من ذلك أضحك، وأطلب منها تفاصيل كاملة، لماذا نطفئ بالأخلاق هذه النفس المضيئة؟

لكن ماذا نفعل حين يأتي دور البلوغ؟ سنملأ الموقف بالمعرفة عند أول علامة له، لن ندخر وسعا في تجنب الحساسية، والشعور بالذات، وحب الانطواء الذي كثيرا ما يعير لون الحياة في هذه اللحظة الدقيقة من مدها، دع هذه السنة الأولى من البلوغ بعيدة عن الاضطرابات والمأساة، ولتكن ربيع الروح، تبذر فيها بذور الإخلاص والمثل العليا، وموسم المخاطرة والشعر، وشهر الصحة والنمو للجسم والعقل، فالذكاء ينبت الآن بخطى سريعة، ويتراجع الجسم إلى المحل الثاني، ويقف الخلق في مكانه بعد أن تكون، وتتركز مهمة المربي آخر الأمر في مشكلات العقل.

٥- في الأمور العقلية

لست أدري متى بدأ "عقل" أثيل، ولكنا لم نلق إلى ذلك بالا حتى أصبحت تقول مع ميلن Milne(١): "الآن بلغنا السادسة". غنها لا تريد مني أن أستنتج أنها لم تكن ذات عقل قبل ذلك، ألم تأخذ دروسا كل حين في تعلم الشاذ في اللغة الإنجليزية؟ وهنا أيضا كان علينا أن نختار بين أمرين: الأوامر والأمثلة، وسلمنا بأن أثيل إذا كانت لابد أن تتعلم الإنجليزية صحيحة فيجب أن نتعلم نحن أن نتكلمها صحيحة، وإذا أردنا أن نبعد من معجمها الاصطلاحات السوقية، فلا ينبغي أن تجري على ألسنتنا، ليس معنى ذلك استبعاد التشبيهات العامية الحلوة، فقد تبعث الحياة إلى العبارة، وتفيد اللفظة الواحدة ما يحتاج الدكتور جونسون إلى حملة طويلة للتعبير عنه، ولكننا آثرنا سلامة اللغة على الابتذال، ووضعنا في طريق أثيل حينما استطاعت القراءة أحسن الآداب المناسبة لسنها.

وكان لابد أن نواجه في أثناء ذلك مسألة المدارس الخاصة: أنرسل أثيل إلى المدرسة العامة المجاورة لنا، أم إلى معهد خاص ذي سمعة حسنة ولكن مكانه غير ملائم؟ لقد زرنا كلتا المدرستين، ودهشنا عندما رأينا مدى التقدم الذي بلغته المدارس

---

(١) روائي إنجليزي مشهور ولد سنة ١٨٨٢، وله شعر ونثر كتبه لابنه الصغير كرستوفر، وله روايات كثيرة. (المترجم)

العامة منذ الأيام التي كنت أقوم بالتدريس فيها لقاء عشرة دولارات في الأسبوع، فالحجرات المدرسية مشرقة، والفصول أقل عددا، ولكل تلميذ (تخته) خاصة، والمدرسون متنافسون ومبتهجون، إلى جميع الأدوات والتسهيلات المدرسية، فلم نصدق أعيننا، كنت أسمع الشيء الكثير عن المدارس، بل لقد كتبت أنتقدها باعتبار أنها سجون نظامية بداخلها الأطفال آلهة في المهد ويتخرجون فيها آلهة في اللحد، فهل كنت أنطق بعبارات منمقة فقط؟

وجربنا المدرسة العامة، وسار كل شيء على ما يرام، لعلها كانت تغلو بعض الشيء في النزعة الوطنية، ولكننا في الجملة لم يكن لنا اعتراض أن تتعلم أثيل حب بلادها بحيث يسمح لها أن تقدر عظمة البلاد الأخرى كذلك.

وسنراقب ذلك، كانت المدارس العامة الأربع التي التحقت بها أثيل نموذجا في الكفاية والنزعة الإنسانية، كان بعضها أفضل من بعضها الآخر، لا بسبب المدارس ذاتها بل للعلاقات التي تعقدها فيها، كنا نلحظ تغير بنتنا الصغيرة في العادات والميول كلما انتقلت من مدرسة إلى أخرى، أما الآن فهي في أفضلها جميعا مما يبعث في أنفسنا الامتنان والسعادة.

لا ينبغي أن أعمم بناء على هذه التجربة، وأعترف أنه لو كنا في مكان آخر ما لجأنا إلى المدرسة العامة إذا تيسر لنا ذلك، فالعلاقات بين الناس نصف لعبة الحياة، ويجب أن يغفر الله لنا اختيارها، وكان إمرسون يقول: "إرسل ابنك إلى الكلية وسوف يعلمه الصبيان". وقد دفعنا هذا الاعتبار في إحدى الحالات لتجربة مدرسة خاصة من أبدع مدارس نيويورك، وتبينا في الحال أن أثيل لا تحبها، فكانت تشكو من الضوضاء واختلال النظام مما كان مدير المدرسة يسميه حرية، ومع أنها تعلمت بعض الأشغال الصغيرة المفيدة، وكانت تلعب كثيرا في الهواء الطلق تحت إشراف دقيق، إلا أنها كانت تسألنا بين حين وآخر: "متى يعلمونني شيئا؟" وفي نهاية السنة الدراسية بالمدرسة الخاصة ألحقناها بمدرسة عامة (كانت الدراسة بها ممتدة شهرا) ووجدنا أنه على الرغم من ارتفاع مستوى ذكائها عن عمرها كانت متأخرة في مواد كثيرة لازمة لنقلها إلى

فصل أرقى، فاضطررنا إلى إثقال الصيف بالدروس.

الخطوة التالية لوجود المدرسة هي التعاون معها، بألا نسمح بالغياب أو التأخير إلا لأسباب حيوية، وبأن نراقب تقدم أثيل اليومي وتقاريرها الشهرية، ومتابعة واجباتها المنزلية، والعناية بدروس كل يوم فهذا كله جزء من مهمة الأبوة، لا يعين المدرسة فقط بل يساعد الطفل كذلك؛ وكل نظام أو ترتيب فضيلة تضاف إلى الخلق، وكنا إذا تمشينا في الحقول أو الغابات ندير الحديث ما استطعنا حول التاريخ أو الجغرافيا أو الأدب، وتعنينا قصص مشاهير الرجال المثيرة أكثر من الحكايات الخيالية والخرافات.

هل الجغرافيا ثقيلة؟ إذن لم كانت السفينة الراسية في الميناء، أو الجارية بالشراع أو البخار إيحاء لا يقاوم بقصة خيالية؟ وحيث كان كل طفل يشتاق إلى رؤية البلاد الأجنبية فطريقة تعليم الجغرافيا هي الرحلة الحقيقية أو الخيالية.

يرسو المدرس بتلاميذ الفصل في شنغهاي أو سنغافورة، فترحب بهم سائر أسرار آسيا، أو يرتقون نهر النيل من الإسكندرية إلى الحبشة مارين بمئات من القبائل الغريبة إلى جوهانسبرج ومدينة الكاب، فتصبح أفريقيا حقيقية لا مجرد اسم، ولم لا تجهز كل مدرسة بأفلام رحلات ناطقة كتلك التي يعرضها هولمز ونيومان، فيها مناظر وصور متحركة أمتع ألف مرة من الصور الثابتة؟ والتاريخ .. لا ريب أنه بالنسبة للأطفال يجب أن يكون ما سماه كارليل "سيرة العظماء".

ذلك أن تعويد الطفل تمجيد العبقرية يجعله يخلص لها إخلاصا لا يمحوه العمر حتى إذا ذوي كل حب آخر.

ولكي ندخل تلك المملكة من العقل حيث لا يزال العباقرة المذكرون يعيشون ويعلمون يكفي أن نقرأ ونرى، علينا أن نرى غير متعجلين تلك الصور والتماثيل التي دون فيها الفنانون فلسفتهم في الحياة على صفحة الوجوه وهيئة الأجسام، وأن نتجرع على مهل عظمة البارثينون Parthenon[1] أو رقة شارتر[1] Charters

---

(١) البارثينون معبد كبير في أثينا أنشيء في القرن الخامس قبل الميلاد وزينه فيدياس المثال المشهور بالتماثيل. (المترجم)

ورشاقتها، وأن نقرأ في غير عجلة تلك الكتب التي صفاها الزمن لنا من نفاية كل عصر تحمل الميراث العقلي للإنسانية، ما أبهج أن نستمع لأثيل تروي القصص التي سمعتها في المدرسة، عن روفائيل ورمبراندت، وليوناردو وميكائيل أنجلو، ورينولد، وجنزبورو، وروبنز وفانديك، عندما كنت في سنها لم أكن أحلم بوجود هؤلاء الرجال، وأبهى من ذلك أن نجذبها إلى عالم الأدب لتستمتع بحياة شكسبير، وشللي، وملتون، وبيرون، وجوته، وهوجو، وهويتمان، وبو.

إنها لم تكد تتم مقرر الأدب المؤلف خاصة لمن هن في مثل سنها، والفصول القديمة في هذا الأدب مثل "أليس في بلاد العجائب Alice in Wonderland"[٢]، و"الكتاب الفارغ بقلم لير Nonsense Book"[٣]، بديعة جدا، ولكن عظم الكتب المتأخرة المؤلفة للأطفال فاسدة بسبب سوء تقدير ذكاء الطفل، وليس في مادتها ما يثير، ولا تبعث على القراءة أو تعمل على تنميتها، لأنها تفاهة عقلية قد يفقد معها الأذكياء من الأطفال كل ذوق للقراءة إذا كان غذاؤهم هو هذا اللبن الخاثر، وثمة آداب كلاسيكية للبالغين يمكن أن يستمتع بها الطفل في التاسعة أو العاشرة، مثل "الفرسان الثلاثة" و"الطلسم" بل "والبؤساء"، ثم إن الطفل يزيد استمتاعه بها حين نخبره أنها لم تكتب للأطفال ولن تجد في سائر أنحاء العالم أفضل للطفل من "روبنسن كروزو" و"رحلات جالفر"، ومع ذلك لم يكتب أي واحد منهما للأطفال، ولا يفهمهما البالغون حتى الآن.

ومن الممتع في كل بيت يعتز بالكتاب أن يخصص صاحب الدار ساعة للقراءة بصوت عال ليلة أو أكثر في الأسبوع، ويستطيع الأطفال والبالغون أن يتناوبون القراءة، على أن تؤجل التصويبات حتى يتم قراءة الفصل كله، ثم يصحح الوالد

---

(١) كنيسة مشهورة في فرنسا بنيت على النظام القوطي في القرن الثاني عشر الميلادي واشتهرت بزجاجها الملون، وأصبحت علما على الكنائس في العصر الوسيط. (المترجم)

(٢) قصة غريبة للكاتب لويس كارول كتبها عام ١٨٦٥، يصور فيها أليس وقد وقعت في بئر فوجدت نفسها في مملكة غريبة، حيث أصبحت هي جنية ووقعت لها مغامرات مع الأرنب الأبيض والقطة العزيزة، إلخ. (المترجم)

(٣) ادوارد لير Lear (١٨١٢ – ١٨٨٨) كاتب إنجليزي ومصور مشهور بأشعاره الفارغة الغريبة الخيالية. (المترجم)

أخطاء الطفل على حدة، إني لأذكر كيف كانت أثيل وابن عمها لويس ذو العينين السوداوين وثلاثة من الكبار يقرأون "إنوك أردن Enoch Arden"[1] بهذه الطريقة، وكيف كان الطفلان يستقبلان كل سطر باهتمام شديد، وكيف سادنا الصمت جميعا في نهاية القصة إلى أن اتجهت أثيل نحو أمها وأخفت وجهها في ذراعيها وبكت، وقد رتبنا الآن الحصول على عدة نسخ من "تاجر البندقية"، لنوزع الشخصيات فيما بيننا، ونقرأ التمثيلية بكل ما فيها من بلاغة ونحن جالسون أمام نار المدفأة.

وإني لأعتقد أننا نحصل آخر الأمر على "التربية الحرة" عن طريق القراءة لا عن طريق المدارس العالية والكليات، وقد شرح المستر إفرت دين مارتن[2] Everett Dean Martin شرحا حسنا معنى هذا الاصطلاح، وإني أوصي بحرارة بهذا الكتاب لأولئك الذين يرغبون في معرفة حقيقة النضوج، إننا نظن في الوقت الحاضر أن الرجل يكون متعلما إذا استطاع قراءة الصحف في الصباح والظهر والمساء، ولكن على الرغم من أن جامعاتنا تخرج كل عام كثيرا من المتخصصين، فثمة جدب واضح في الثقافة الحقيقية في حياتنا، نحن أمة فيها مائة ألف مدرسة ولا يكاد يوجد فيها عشرة متعلمين.

فلا غرابة أن يتساءل "ولز" وغيره عن فائدة التعليم الجامعي، وهذه مغالاة في التشاؤم لإبراز هذه النقطة، ومع ذلك فمن الخير أن ينهض أحد لينقد فكرتنا بأن الإكثار من المدارس والمتخرجين في الجامعات قد يجعل منا شعبا ذكيا.

لقد عانت مدارسنا وكلياتنا معاناة قاسية من تصور سبنسر التربية على أنها تكيف الفرد بالبيئة التي يعيش فيها، كان ذلك التصور تصورا ميتا وتعريفا ميكانيكيا منتزعا من فلسفة ميكانيكية تنفر منه أي روح خلاقة، وكانت نتيجة ذلك أن غزت مدارسنا العلوم الميكانيكية والنظرية مع استبعاد إلى حد ما تلك المواد "غير النافعة" كالأدب والتاريخ والفلسفة والفن، وهكذا نخرج صنفا حسنا من الموظفين والكتبة والفنيين الذين

(١) شعر منثور لتنيسون، البطل بحار تحطمت سفينته على جزيرة مهجورة، ثم عاد بعد غيبة سنوات ليجد زوجته قد تزوجت غيره، فلما رآهما سعيدين صمم على التخفي وبارح المكان ومات كسير القلب. (المترجم)
(٢) عالم أمريكي في التربية (١٨٨٠ – ١٩٤١) له كتاب "سلوك الجماهير" وغيره. (المترجم)

يلتهمون بعد انقضاء عملهم اليومي الصحف المصورة ويزدحمون في الملاهي التي يرون فيها دائما على الشاشة نفس صور الحب، وعلى المسرح نفس الموضوعات.

هذا التعليم الميكانيكي و"العملي" يخرج أشباه رجال لا رجالا كاملين، فهو يخضع الحضارة للصناعة، والبيولوجيا لعلم الطبيعة، والذوق وأدب السلوك للمال، ولكن يجب أن يكمل التعليم الإنسان فينمي فيه كل قوة خالقة، ويفتح عقله على جميع مظاهر العالم الممتعة والنافعة، فصاحب الملايين الذي لا يجد في بيتهوفن أو كورو تاو هاردي، أو في توهج غابات الخريف عند غروب الشمس، إلا أصواتا وأوانا لا دلالة لها، غن هو إلا مادة إنسان فقط، تحجب نوافذ روحه الملوثة نصف هذا العالم، غن التعليم الخالص يجعل ممن يخرجه مجرد أداة، ويترك صاحبه غريبا عن الإحساس بالجمال، ويهبه قوى بعيدة عن الحكمة، ولو أن سبنسر لم يكتب قط عن التعليم لكان ذلك أفضل للعالم.

ومن الخير أن تأخذ اللغتان اللاتينية والإغريقية في الزوال من جامعاتنا لأنهما كانتا تستنفذان من الجهد مئات المرات أكثر مما تستحقان، وفي ذلك يقول هايني: "لو كان على الرومان أن يتعلموا اللاتينية أولا ما بقي لهم من الوقت ما يغزون به العالم"(١). ولكن مع أن لغتي اليونان والرومان لازمتان لفقهاء اللغة فقط، فإن أدب هذين الشعبين يكاد يكون مما لا يستغنى التعليم عنه، وقد يتجاهل أحدنا عامدا فرجيل وهوراس، ولوكريتيوس وشيشرون، وتاسيتوس ومرقص أوريليوس، ويكون مع ذلك ناضجا، ولكن ليس من بين سائر أدوات التعليم التي أعرفها شيء أبدع وأوثق من دراسة حياة الإغريق في شتى مظاهرها، في حكوماتها الديمقراطية والمستبدة، وخطابتها وتمثيلياتها، وشعرها وتاريخها، وبنائها ونحتها، وعلمها وفلسفتها، دع أي طالب يستوعب حياة عصر بركليس وآدابه، وعصر النهضة، وعصر التنوير، وسيحصل على تعلم أفضل من أي جامعة يمكن أن تقدمه إليه، ليس معنى التعليم أن

---

(١) Mwmoirs, vol. I, p. 12.

نحصل على إجازة تثبت خبرتنا في العمل أو التعدين أو النبات أو الصحافة أو الفلسفة، ولكنه يعني أننا نصل إلى فهم أنفسنا والعالم الخارجي والرقابة عليهما بوساطة استيعاب ميراث الإنسانية الخلقي والعقلي والذوقي، وأن اختيارنا قد وقع على أفضل معين لنا في الروح والجسد معا؛ وأننا قد تعلمنا أن نجمع بين الأدب والثقافة، وبين الحكمة والمعرفة، وبين التسامح والفهم، فمتى تخرج جامعاتنا مثل هؤلاء الرجال؟

٥- نشوة

ما أبهى أن أرى أثيل على مقربة من نار الموقد ذات مساء، وقد مدت ساقيها القويتين إلى جانب الكرسي، وكشفت عن ذراعيها البضتين، وتلمع شريطتها الحمراء فوق قميصها، وقد تهدل شعرها فوق كتابها، وأضاء وجهها بالاهتمام والإحساس، وهامت روحها بعض الوقت إلى أماكن بعيدة وأزمنة سحيقة، مسافرة موسعة حدودها، رافعة نفسها يوما إثر يوم أكثر ملاءمة لصحبة عظماء الرجال والنساء، ستغرم بهم واحدا بعد واحد وتستمع إليهم، من سافو إلى دبوز، ومن أنبادقليس إلى نيتشه، ومن بوذا إلى دستوفسكي، ومن لاوتسي إلى أناتول فرانس، إننا نراها تنمو في صحبتهم عاما بعد عام، فتتعلم الحكمة من سقراط، والإخلاص من ليوناردو، والتسامح من المسيح، إننا نحلم بكل ما يمكن أن تكون عليه.

إنا لنرجو ألا تصبح مسرفة في التعليم حتى تحب الحياة، وأنها لن تؤثر الكتب على الأصدقاء، أو الطبيعة، أو الأمومة، لن نعدها كاملة مهما تكن سيرتها في الحياة، إذا لم تعمل على رفع طفل آخر إلى مرتبة أعلى من مرتبتها كما نحاول أن نرفعها فوق أنفسنا، ولكنها ستكون حرة ولو لتخيب أملنا، الحق أن أحدا لا يستطيع أن يهدي غيره إلى الصواب، إنها ستختار طريقها الخاص، وتحدد صالحها الخاص، ويكفينا أن الله قد وهبنا إياها، وأن ضحكتها وصراحتها قد أشاعا ألوانا من البهجة في هذه الحياة المشكوك في أمر أصلها والغامضة المصير.

الفصل الثاني عشر

إعادة بناء الخلق

١- عناصر الخلق

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن التربية الأخلاقية والعقلية للطفل، أما نحن الكبار – أثمة أي احتمال يمكننا من صياغة أنفسنا في قالب أفضل مما نحن عليه؟

من المزايا التي يتمتع بها المفكر في هذا العصر الجبار المعقد أن يتمكن في المعامل مولد علم من العلوم، ويبدو واضحا من هذا الصخب الذي نراه في المعامل أن "الفلسفة"، وهي أن العلوم (الجاحدة)، تتولد الآن عن طفل آخر، وأن دراسة "العقل" آخذة في الانتقال ببطء ومشقة من ظلمات الميتافيزيقيا إلى أنوار الملاحظات والتجارب المضبوطة، ولم تتم الولادة بعد، وحتى في فلسفة فرويد لا يزال العلم الرضيع متعلقا بأمه تكاد تخنقه النظريات والأساطير.

إن علم النفس يقف اليوم حيث كان علم الطبيعة يقف حين كتب فرانسيس بيكون كتابه "تقدم العلم" منذ ثلاثمائة عام، فقد وضع بيكون في شجاعة أفزعت حتى رجال النهضة الأبطال خطة للعلوم تبرز المشكلات الحيوية التي كانت تحتاج إلى حل، كما تنبأ في كل صفحة بالانتصارات التي تجلبها المعرفة الجديدة، وأصبحت هذه الانتصارات الطبيعية اليوم حقائق كلية وعميقة أبعد مما كان يتصورها حتى خيال بيكون، وغيرت الطبيعة والكيمياء والرياضة والميكانيكا وجه الأرض في كل مكان، وجعلته أكثر خضوعا لإرادة الإنسان. والإنسان فقط بما فيه إرادة وخلق هو الذي يبدو أن يد التغيير لم تتناوله.

ماذا لو كان علم النفس آخذا في التحرك صوب نتائج مماثلة؟ لو ظهر فيلسوف

آخر مثل بيكون يضع خطة مشكلاته ويتنبأ بانتصاراته، فمن يصدقه؟ إننا لا نزال على شاطئ البحر الغريب يغشيه ظلام الخرافات والأساطير، ولا ندري مسالكه وأطرافه المترامية ولا الجزر السعيدة التي توجد فيه، ولكن العلم الجديد سيخاطر بالإبحار مهتديا بالمحاولة والخطأ trial and error في وجه رياح التحيز وسحب الجهل، سيقف علم النفس بعد ثلاثمائة عام حيث يقف علم الطبيعة اليوم، ولا يزال ناقصا أشبه بلوحة لرودين[١] Rodin، ولكنه مع ذلك سيد تقبض فيه يد العلم في النهاية على "العقل" و"القلب" و"الروح Soul"، وعلى المادة الأولى لإرادتنا المهوشة التي تسوغها المعرفة ببطء فتحيلها إلى جنس أرقى في قوته ورقته.

أنفسنا هي محور اهتمامنا، وبمقدار ما يبحث علم النفس في أنفسنا لا في تجريدات فهو أشبه بالمأساة التي يمكن أن نكون نحن أبطالها، وبعد، فمن نحن؟ قردة؟ .. أم آلهة؟ أم قردة في طريقها إلى أن تصبح آلهة؟ ما هذه "الطبيعة البشرية" التي يبدو أنها تحدد تواريخ لا عدد لها ولا تتكرر مآسيها؟ ما أسس الخلق والسلوك وعناصرهما؟ أهي كلية وراسخة بحيث لا يمكن أن يتغير الخلق أبدا؟ أو هل يمكننا – كالبارون منشاوزن Munchausen – أن نرفع أنفسنا برباط أحذيتنا من تيار ميراثنا وفيضانه؟ فلننس إلى حين كل شيء آخر، ولنبحث في طبيعة الخلق character، واضعين إياه تحت مشرحة الملاحظة والفهم، وسنضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض فيما بعد – إذا استطعنا.

حين تنازل علم النفس القديم ليبحث في مثل هذا الشيء الأرضي الذي يسمي سلوك الإنسان، قسم الخلق أربعة أنواع: الدموي، والسوداوي، والصفراوي، والبلغمي، هذه القسمة سخيفة وغير طبيعية، غنها تدل فقط على أن الناس إما فرحون أو مكتئبون أو ناريون أو أنجلوسكسون[٢]. قد يكون الأمر كذلك، ولكن هذه

---

(١) فرنسوا رودين (١٨٤٠ – ١٩١٧) مثال فرنسي له لوحات مشهورة: "القبلة" و"المفكر" و"الرجل الذي يمشي" وله تماثيل لفكتور هيجو، وبرنارد شو، وبلزاك وغيرهم، وكان يبرز العاطفة بالحركة في الرخام. (المترجم)

(٢) يريد المؤلف أنهم باردون (المترجم)

الألفاظ صفات لا تفسيرات، ونظن أن الذي اخترعها كانت له نظرة فسيولوجية طريفة عن الخلق، باعتبار أنه يرجع إلى الدم أو المرارة، أو الصفراء والبلغم – ولو أننا نتردد في هذين الأخيرين، واقترح بين "Bain" أن يقسم الخلق إلى فكري ووجداني وإرادي، تبعا لتغلب الفكر أو الشعور أو الإرادة، ولكن لما كان الصنف الإرادي قد يكون وجدانيا كذلك (كالحال في الإسكندر أو إليزابيث) أو فكريا أيضا (مثل قيصر ونابليون)، وحتى الفكري قد يكون وجدانيا (مثل أفلاطون وأبيلارد ونيتشه)، فلن نظفر بنتيجة إذ نخرج من الباب الذي دخلنا منه.

وثمة طريقتان كما رأينا[١] لبحث الإنسان، الأولى تبدأ من خارج بالبيئة وتعتبر الإنسان آلة للتكيف، وترد الفكر للأشياء و"العقل" "للمادة"، وتشبع في مادية سبنسر المقنعة، وسلوكية واطسن، غنها وجهة نظر يمثلها أسماء لامعة: ديمقريطس، أبيقور، لوكريتيوس، هوبس، بل وسبينوزا الرقيق.

وأخرجت لنا في البولوجيا دارون ونظرية الانتخاب الطبيعي، باعتبار أنها تحدد التطور عن طريق البيئة، وأخرجت في علم الاجتماع باكل Buckle وسبنسر وماركس وتفسير التاريخ في ضوء المؤثرات الاقتصادية، والجماهير غير الشخصية، والأحداث اللاإرادية.

والطريقة الثانية تبدأ من الداخل: فهي تنظر إلى الإنسان كنظام من الحاجات والدوافع والرغبات التي تحثه على دراسة بيئته واستغلالها والسيطرة عليها.

وهي تؤثر أن ترد الأشياء إلى الفكر، والمادة إلى العقل، غنها تبدأ من "الكمال الأول Entelechy" الذي قال به أرسطو (وكان يذهب إلى وجود غاية باطنة تحدد كل صورة)، وتسود في مذهب برجسون الحيوي، وبراجماتية وليم جيمس، وبالإضافة إلى هؤلاء الثلاثة يتصل بهذه النزعة أفلاطون وديكارت وليبنز وكانط وشوبنهور، وأخرج لنا هذا الاتجاه في البيولوجيا لامارك ونظرية التطور عن طريق الجهود المتكررة الناشئة عن رغبات لم تشبع، وأدت في علم الاجتماع إلى ظهور جوته، وكارليل، ونيتشه، وتفسير التاريخ في ضوء

---

(١) الفصل الثالث.

المؤثرات النفسانية، والعبقرية الخالقة، والإرادة المتغلبة.

وتحليل الخلق الذي نورده هنا يصطنع الطريقة الثانية، على الرغم من علمنا المزالق التي تعترض الطريق. وهذا التحليل يعتبر الإنسان معدلا للبيئة أكثر مما يعتبر البيئة معدلة للإنسان، فكل حديقة في الطريق، وكل طائرة في السماء، دليل ورمز على إبداع الحياة، والخلق في ضوء هذه النظرة مجموع ميول ورغبات موروثة، إنه خليط من الغرائز تلونها البيئة والمهنة والتجربة وتعيد ترتيبها، ويمكن أن نصنف الدوافع الأساسية لخلق الإنسان في قائمة أولية تتميز فيها العناصر الأولية من الثانوية.

جدول عناصر الخلق

غرائز		عادات		وجدانيات	
موجبة	سالبة	موجبة	سالبة	موجبة	سالبة
١ طلب الطعام	التجنب	الصيد الاستهلاك الادخار الامتلاك	النظافة	الجوع القسوة الجشع	النفور
٢ القتال	الهرب	الاقتراب الاستطلاع القبض باليد السيطرة	التراجع التردد التفكير الخضوع	الغضب التعجب الكبرياء	الخوف الشك الضعة
٣ الحركة	النوم	اللعب	الراحة	النشاط	التعب
٤حب الاجتماع	العزلة	الكلام الاستهواء التقليد الاستحسان	الانطواء	الابتهاج بالجماعة	الخجل
٥ التناسل الأبوة	الامتناع	الغزل	الحياء	الرغبة الجنسية الحب الأبوي	العفة

هذه الغرائز والعادات والوجدانيات هي العناصر العامة في خلق الإنسان، وجميعها موجودة في كل رجل وكل امرأة، وغنما يرجع اختلافنا في الخلق والمزاج إلى أن

العناصر لا تتكرر في أي شخصين بدرجة واحدة، وتحدد نوعنا وجنسنا الغرائز التي تكوننا، وتحدد البيئة الموضوعات التي ستبحث عنها، والعادات التي ستتولد منها، فالبيئة الخالية من المخاطر تقلب القتال جعجعة.

فإذا ازدادت المخاطر تحول هذا القتال نفسه إلى مكر، فالغريزة واحدة، ولكن التعبير عنها مختلف، والأضرار البسيطة توجه الهرب إلى الحذر، والأضرار البليغة قد تجعل الهرب جبنا، فجميع التجارب هي على هذا النحو كشف للغرائز أو كبت لها، ففي كل يوم يقوى ميل بالنجاح، ويضعف آخر بالكسل أو الفشل.

وفي كل منا عدة أخلاق كامنة (خليط من العادات) تنتخب البيئة بعضها بالتدريج وتقويه، كبرادة التي يجذبها المغناطيس من الخشب، لذلك كان أول مبدأ يعمل على تغيير الخلق هو البحث عن بيئة أخرى تفسح المجال لقوى جديدة تلعب على الوتار الخامدة فتخرج من انفسنا أنغاما أحلى وأبهى.

ويزيد في توضيح غرضنا من قائمة العناصر التي بسطناها إذا وجهنا إليها بعض الملاحظات العارضة، فنحن نلاحظ أن كل غريزة هي تعبير نفساني عن نظام فسيولوجي، فطلب الطعام ثمرة الخلايا الخاوية القلقة، والقتال والهرب يظهر أنهما خلقا للأيدي والأرجل، وفي ذلك يقول لنكولن دفاعا عن الفارين من صفوف القتال: "إذا كان الله القدير قد وهب الإنسان ساقين قائمتين على الجبن فكيف يستطيع مغالبة الفرار بهما؟" وغرائز الحركة (الحبو، المشي، الجري، التسلق، القذف، إلخ) هي القصيدة التي تنشدها جميع أعضاء البدن في اتساق، والتناسل نتيجة احتقان العناصر، وحب الاجتماع، الذي يبدأ في صورة الأسرة، هو ثمرة التناسل، فكل غريزة ترسخ جذورها في بنيتنا، وكل تغيير في الخلق يقطع أوصال الغريزة بضر الجسم كما يسيء إلى النفس.

ويجب أن نلاحظ كذلك أن كل غريزة لها مصاحب انفعالي، وهو ضرب من الشعور يبلغ من الأصالة والعمق مبلغ الدافع الذي تقابله، وهكذا يصاحب الجوع البحث عن الطعام، والاشمئزاز تجنبه؛ ويصاحب الغضب القتال، والخوف الهرب،

والتعجب الاستطلاع، والشك التردد، والكبرياء السيطرة، والضعة الخضوع، والنشاط الحركة، والتعب السكون، واللذة الاجتماعية حب الاجتماع، وضرب من الحزن مع العزلة، وتصاحب الرغبة الصلة الجنسية، والخجل الضعف الجنسي، والأمومة والأبوة العناية بالأطفال، فكما ترتبط كل غريزة فينا باللحم والعظام، تحترق كذلك في طبائعنا إلى حرارة الشعور.

ونلاحظ أخيرا أن كل غريزة لها ما يضادها في الفرد نفسه، فثمة موجب وسالب في الغريزة، كما ذهب أنبادقليس بالنسبة لجميع الأشياء، فنحن مزودون، كما يقال، بدوافع للبحث عن الطعام وتجنب المضار، وأخرى للقتال والهرب، وثالثة للسيطرة والخضوع، ورابعة تدفعنا إلى التقدم مستطلعين والتوقف شاكين، وخامسة للحركة والتلمس باليدين والجلوس والسكون والنوم، وسادسة للغزل والتمنع والخفر، والعرض والاحمرار خجلا، وسابعة للقيادة والاتباع والابتداع والتقليد، وثامنة للانغماس في الجماعة والاعتكاف في عزلة، جملة القول نحن مهيؤون بالطبيعة (أي بالخلق الطبيعي) لأن نقبل وأن نتجنب في آن واحد دافعا أو مشكلة أو موقفا.

في هذه القسمة الثنائية للعناصر سر التمييز الأساسي بين السجايا الإنسانية. فلن يتيسر لنا فهم التاريخ أو التعامل مع جيراننا إذا قسمنا الرجال والنساء إلى دمويين ومكتئبين، وإلى أخيار وأشرار، أما التمييز الوحيد الذي تقبله الطبيعة ويسلم به التاريخ فهو الذي يفصل في السجايا بين الموجبة والسالبة، والقوية والضعيفة، إننا نبني آلافا من المشروعات المثالية في عبارات من الفضيلة، ويحطمها الواقع بلسان القوة، ومن الواضح أن هناك أشخاصا تسودهم الدوافع الإيجابية، حيث يوجد عندهم الميل إلى التقارب والبحث والتغلب والتملك.

وهؤلاء فلنسمهم أصحاب الخلق الإيجابي، وثمة آخرون تسودهم الدوافع السلبية، وهم أولئك الذين يتغلب فيهم الميل إلى التردد وإلى التراجع وإلى البحث عن ملاذ وأمن وإلى الخضوع، وسنطلق عليهم أصحاب الخلق السلبي، ولست تجد رجلا أو امرأة يتصف بإحدى المجموعتين فقط، ويشبه هذا التمييز ما بين الذكر والأنثى،

ويسمح بكل ضرب من التدرج وكل لون من الامتزاج، ولكن إذا حاولنا تصور هذه النماذج المتعادية في صورتها الكاملة، فينبغي أن نعرف القطبين اللذين يتأرجح الخلق الإنساني بينهما، والمكونات الأخيرة لكل شخصية.

٢- الخلق السلبي

هذا شخص سلبي؛ إنه يميل إلى التهوين من شأن نفسه، ومع أنه يعجب إعجابا شديدا بكل صفة حسنة في وجهه وهيئته وعقله، فإنه يشعر دائما شعورا سخيفا بضعفه الجسماني، وينظر بطرف عينه حاسدا العامل الطويل القوي، أو رجل الأعمال الذي يخطر أمامه منتصب القامة معتزا بهيئته وصحته، إن ما يفتقده الشخص السلبي قبل كل شيء هو الجسم والطاقة والقوة المحركة، إنه يفتقر إلى الدم الكافي للقوة.

انظر إليه وهو يجلس إلى المائدة تجده فاقد الشهية، متبرما بالطعام، سريع التقزز، لا يأكل اللحم دون أن يفكر في المذبح، ويعتقد صيد السمك توحشا، ولا يجد لذة في طعامه، إنه (ينقنق) وينتقي كالعصفور الذي لم يعرف الدود، وينظف أصابعه بعناية، ويخرج من الحجرة وهو يود ألا يراه أحد، وكأنه يشعر بأن كل إنسان يراه.

إذا لقي إنسانا راقبه خلسة، ناظرا إلى جميع أعضائه ما عدا عينيه، وازنا قوته ونواياه، وإذا شتمه أحد أو هدده خطر، ارتعش دهشة وخوفا، إنه لا يحس بالغضب المحرك، ولكنه يحترق في غيظ مكتوم، وعنفه قناع من يعرف أنه سيخضع، إنه يحجم عن تحمل المسئولية ويهرب من التجربة إلى الأمن الهادئ والعزلة الساكنة في بيته، إنه يهوى القراءة وبخاصة قصص المخاطر والمغامرات وفلسفات الإرادة والقوة، إنه يعجب براعي البقر والسوبر مان ويعتقد أن العالم إذا كان ذكيا أودعه ثقته في قيادته، وإذا نجح في أمر نسبة إلى نفسه، وإذا أخفق فالذنب ليس ذنبه، بل البيئة (أي غيره من الناس) هي المذنبة، أو الحكومة، أو نحس الطالع، إنه متشائم بالنسبة للعالم، متفائل فيما يختص بنفسه.

ومع ذلك فقد يكون عظيما بقوة ذلك الخيال العريض نفسها، وهو خيال يزدهر في نفسه بسبب ضعفه الجسماني، وإذا لم يصطدم خياله بعمل أو بملاحظة

موضوعية سبح طليقا في عوالم روحية من الفلسفة والشعر، ويستطيع أن يخرج منها، إذا قيد نفسه ساعة يصبر فيها على العمل بين حين وآخر، فنونا رائعة الجمال، أو أفكارا مثالية، أو صورا وشخصيات جديدة في الأدب والفن.

فإذا ارتفع في هذا المجال إلى القمة قد يصبح شاعرا عبقريا، وإذا بقى في المرتبة الدنيا كان رجلا فكريا intellectual – لا مفكرا thinker بل شخصا يفكر فقط، وكلما نمت الحضارة، وأصبحت الحياة معقدة كثيرة المتاعب، وأضحت القدرة الجسمانية أقل حيوية للبقاء، ازدحمت المدن بهؤلاء المراوغين المحترفين الذين يشبهون دون كيشوت في الخيال وهاملت في العمل.

ولما كان التراجع والتوقف عن العمل جوهر نفسه، فإنه يتجنب حقائق الحياة ومهامها القاسية، ويلقي بنفسه في أحضان أحلام اليقظة التي يظفر فيها بكثير من الانتصارات، ثم يتحول خجله إلى اعتكاف بينه وبين نفسه، وتصبح خلوته مراوغة بارعة تسود أولئك الذين خلفتهم الطبيعة ضعافا، وهو اجتماعي بمعنى انه يخرج من عزلته إلى صحبة عاطفية في جماعة صغيرة يأتلف وإياهم. فإذا وجد من أحد أذنا صاغية فهو في نعيم الجنة، وتزدحم المقاهي بهذا الصنف من الناس، وهو اجتماعي أيضا في تعطشه لاستحسان الجمهور، فهو يتوافق في حياء مع العرف، وإذا كان يفتقد الإحساس الأرستقراطي بالنبل فعنده إلى حد ما الضمير الديمقراطي الذي يعكس في أمانة أخلاق الجماعة.

جماع القول أنه طيب القلب، وعطوف، وشكور، ومخلص، ومحترم. ولا يتصف بالقسوة وإن كان على شيء من الغلظة، وهو يميل إلى الشذوذ الجنسي، ولكنه لا يرتكب إلا الذنوب الصغيرة.

وضعفه ناشئ قبل كل شيء عن أن دوافعه لا ينسقها غرض يتحكم في حياته ويوحدها، فهو في قلق مع أنه ينشد دائما الاستقرار، ويتنقل ساخطا من مشروع إلى مشروع ومن مكان إلى آخر، فهو كالسفينة التي لا ترسو على أي ميناء إلى أن تفسد

شحنتها، وهو عاجز عن النظام أو العمل؛ ومع أنه يبدو في بعض الأحيان مشغولا بحالة عصبية إلا أنه يجد نفسه عاجزا عن الاستمرار في تحقيق غرض محدود احتجاجا برتابة العمل، أو بغضه، أو صعوبة وسائله، إنه شديد العزم إذا عقد النية، كثير التراخي عند التنفيذ، وتجتاحه موجات من الهوى تبعث القوة، ولكنها تنتهي بالإجهاد السريع والتسليم بالاضطراب، غنه يشتهي ألف رغبة ولا إرادة له لتنفيذها.

وأخيرا فهو يؤثر في مسائل الحب أن يكون مطلوبا لا طالبا، وحتى إذا ظهر بمظهر من يقترب من المرأة، ويضيق عليها الخناق، ويتغلب عليها، فهي التي تدبر له ذلك بكياسة السياسي الذي تخفي أساليبه، حقا إنه يخجل بعض الشيء من ظفره، ويحمر وجهه إذا استعاد ذكره، ويتساءل: ألم تكن متعته في الخيال أشد وأقل نفقة، ولكنه يستسلم للقدر ويصبح زوجا أمينا، مخلصا لبيته، مظهرا حبه في كل مناسبة، مضحيا بنفسه وهو ساخط في سبيل أولاده، ويموت قبل أوانه يلفه سواد من الإحساس بالتفاهة، ويعجب لم خلق، وإذا لم يكن الأولى ألا يولد.

٣- صاحب الخلق الإيجابي

هذا الصنف إيجابي، عنده من الصحة والبأس واللحم والدم ما يجعله ينفذ بنظره إلى صميم العالم، ويلبس قبعته على هواه، إذا نظر إليك وجهك وجها لوجه، ولكنه لا ينظر إليك لأنه مستغرق في عمله، سائر إلى غرضه، فهو يؤثر الاهتمام بالأغراض على الأشخاص.

وجميع دوافع الإقبال على الأمور قوية فيه، فهو يأكل بلذة وبغير تكلف، ويذبح الذبائح ليخمد شهوته، وتتطور النزعة الطبيعية لتسوير نباتات إقليمية وحيواناته إلى شهوة عامة للكسب والامتلاك، وشعاره: "التحصيل والتملك". ولما كان أكثر اعتدادا بنفسه من الرجل السلبي وأعظم منه نجاحا، فهو يجعل كل أمة حديثة صورة من نفسه – مسرفة في الكسب والتحصيل. (أو لعل له زوجة مسرفة).

كان يمكن في قديم الزمان أن يصبح بارونا إقطاعيا أو جنديا بدلا من أن يكون

رجل أعمال، أو تاجرا، أو رئيسا للغرفة التجارية، أو مهندسا، ولا يزال كثير من نزعة القتال القديمة موجودا في نفسه، وهي على الرغم من تهذيبها واختفائها، إلا أنها إيجابية كتلك التي كانت تدفعه إلى رمي النبال، هذه النزعة إلى القتال هي التي تمنحه القوة على تحقيق أغراضه، فليست الرغبة عنده طموحا على استحياء، بل دافعا لا يمكن تجنبه، وعنده من الشجاعة أكثر من الفضيلة، ومن الضمير أقل من الكبرياء، وأطماعه قوية، فهو يحتقر الحدود ويبتعد عن الصغار، وإذا لقى رجلا أقوى أو أثبت منه لا يجنح إلى الانحناء أمامه في خضوع، بل يمجده ويحاول مناظرته ومنافسته، ولا ينهزم إلا بعد كفاح يستنزف كل جهده.

وهو محب للاستطلاع، يفتنه كل عمل، ويبحث عقله بنشاط في كل جديد وغريب ولكنه لا يميل إلى النظريات، بل يتجه بفكره رأسا إلى العمل وإلى تحقيق غرضه، غنه لا يستطيع أن يفهم لم يزعج المرء نفسه بالرياضيات العالية أو الشعر أو التصوير أو الفلسفة، وإذا كان فيلسوفا اشتغل بالأعمال كما يشتغل بالفكر، إنه أشبه بسنيكا منه بأرسطو، وببيكون منه ببركلي، وبفولتير منه بكانط.

إنه يؤمن بالأفعال أكثر مما يؤمن بالأفكار، ويعتقد كقيصر أن الأمر لا يتم إذا بقى منه شيء لم ينجز، يحب الحياة الصاخبة ولا تغريه بساطة الريف وما فيه من دعة، لنها أنسب للشيخ ولا تليق بالرجل، وهو بناء متحكم يحب أن يشعر بأن الناس حجارة تحت يده يشيد بهم ما يشاء، ويجدون لذة حقيقة في الانقياد إليه، وهو بذلك واثق ومتأكد وسعيد، ونشاطه يفيد صحته، ولا يترك له وقتا للتفكير أو التأمل، إنه يستمتع بالحياة على قبحها، ولا يفكر كثيرا في الماضي أو المستقبل، غنه يشك في المثاليات، ولو كان الأمر بيده لبادر بالقضاء على كل تطرف، إنه يمقت المثاليين ، أولئك الذين يخطبون، أو يكتبون المقالات، ويقررون العلاقات الدولية من أبراجهم العالية.

ومع ذلك فهو في بعض أحواله رجل فكر: ليس شاعرا، ولا مصورا، ولا فيلسوفا نظريا، ولا عالما يقبر نفسه مع المخابير أو المجلدات القديمة، بل مخترعا، ومهندسا معماريا يخلق التصميمات المبتكرة، ومهندسا ميكانيكا عنده من الشجاعة

ما يجعله يذرع الأنهار العظيمة بقصائد منظمة من الصلب والحديد، ونحاتا يبعث الحياة في الرخام، وعالما على استعداد لمواجهة العالم كله دفاعا عن حقائقه الجديدة، وحتى في هذا الصدد فإنه يعيش مائة حياة من العمل مقابل حياة واحدة من الفكر.

وهو عادة اجتماعي، يساير جميع من يلقاهم، اللهم إلا إذا كانت آراؤهم متطرفة في البعد عن المألوف، يجب الاعتكاف ليلا، ولكنها عزلة يقضيها مع أسرته لا خلوة فكرية ينفقها وحيدا بينه وبين نفسه، وقلما يتوقف ليتأمل نفسه، و"عقدة النفسية" قليلة، ولا يتكلم في علم النفس أبدا، إذا أثارته زوجته انصرف إلى ناديه، وحين يضيق بناديه ينغمس في عمله ينسى نفسه فيه، إن روتين حياته النشيطة يحميه من ثورة الأعصاب.

أما ما يمتاز به قبل كل شيء فهو الإرادة، ليس عنده إرادات بل إرادة واحدة، ولا خليط من المطامح والرغبات التي يلغي بعضها بعضها الآخر متعادية في غير توافق، بل وحدة في الهدف، وترتيب للأغراض ونظام شامل للغايات تنسجها فكرة مسيطرة دائمة في طبيعة خلقه، إرادته منظمة، فهو يرسم دائرة تبين حدود المحتمل، ويسوق بداخلها الوسائل التي تكفل إرادته القوية تحقيقها.

وإذا أنتج عملا أخرجه كاملا لا أجزاء من عمل أو "خواطر". وهو إذا انطلق استغرق في العمل غير حافل بما يقال عنه، إنه هادئ، ولا يكثر من الكلام، ولا يعنف في العمل أو الحديث فيحترق، وهو صاحب أهواء، عظيمة، ولكنها تجتمع في هوى واحد يحركه إلى هدف واحد، لا أهواء متناثرة تنتهي إلى الفوضى، إنه يعلم لذة ضبط النفس، ويستطيع مغالبة الرغبات والدوافع المباشرة، ثم ينظم نفسه تدريجيا إلى كل واحد، إنه ثمرة الصحة والذكاء.

وهو في الحب صاحب المبادأة، ويقتحم بابه رأسا وبسرعة تحبب فيه جميع النساء، ويتزوج مبكرا لأنه سريع العزم، ويؤثر فضول القرب على حذر التمنع، والأفضل فيما يظن أن يحتمل عبء الزوجة والأبناء من ثقل العزلة وبنات الهوى، وتعينه واجبات الأبوة

المفروضة على أن يصبح قويا، ولكنه يعرف كيف يمزج الرقة والحنان بما عنده من بأس، ولا يحبه أولاده فقط بل يحترمونه، ويتعلم في منتصف العمر بعض فنون الفراغ، وفي الشيخوخة يجدد مع أحفاده شباب نفسه، وتحضره الوفاة فلا يشك أبدا في أن الحياة كانت نعمة، ولا يأسف على شيء إلا على أنه سترك اللعبة لصغار اللاعبين.

٤- بناء خلق جديد

لقد رسمنا صورتين مثاليتين، وقسمنا الإنسانية قسمة تكاد تكون مانوية[١] Manichaean إلى صنف ضعيف وآخر قوي، وإذا تركنا هاتين الصورتين على حالهما، متباعدتين متطرفتين، بقيتا بغير نفع، أما إذا قاربنا بينهما فقد يسهل علينا تحليل أنفسنا وربما معرفتها، أيمكن إلى حد متواضع أن نخلص أنفسنا من السلبية والضعف، وأن نصطنع بعض الصلابة الإيجابية التي نعبدها خفيفة في أعماق قلوبنا؟ أيمكن بالفكر أن نضيف يدا جديدة إلى جسمنا؟

يجيب الناس عادة عن هذا السؤال بالتشاؤم، يقولون: كلا؛ خلق الإنسان مكتوب عليه، وما كان عليه المرء منذ ولادته يجب أن يبقى معه إلى آخر الرواية، ويقولون إن الطبيعة البشرية لا تتغير أبدا، وإن السجايا مغروسة في الغالب في شروط الجسم، في الصحة والقوة وتكوين الأعضاء وأدائها وظيفتها. فكيف يمكن لهذه الصفات العميقة الجذور أن تتعدل؟

وثمة حقائق تلقي شكوكا خطيرة على هذا الاعتقاد العتيق في ثبات الخلق، ذلك أن تاريخ العصر الذي نعيش فيه يعد مثالا ومدهشا للتغير الشامل من الأخلاق السلبية إلى الإيجابية، فمنذ خمسين عاما كنا نصف المرأة بأنها مخلوق في العادة سلبي بالنسبة إلى الرجل، ويمكن أن نسميها بمعظم الصفات التي وضعناها في صورة الصنف الضعيف، فقد كان ضعفها الجسماني أساس شعور بالنقص، يتبين ذلك من أسفها

---

(١) نسبة إلى ماني الحكيم الذي ذهب إلى وجود أصليين في العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر. (المترجم)

الكامن الذي يكاد يستقر في قلوب جميع النساء على أنهن لم يخلقن رجالا، ومن هذه "العقدة" كان ينطبق غيظ ملتهب، كأنه صادر عن نار كامنة، يتفجر بين حين وآخر في حرارة كلامهن، وكانت طبيعتهن الرقة في العمل، وإذا كانت ألفاظهن في بعض الأحيان عنيفة، فإنما ذلك كان تعويضا "وانتقاما" من ذلك الخضوع الجسماني الذي كن يلقينه كأنه ألالة الانتقام في كل ركن من طريق الحياة. كن "الجنس الضعيف".

على ذلك الأساس الجسماني قام حياء المرأة وخضوعها، ولم تكن تتحرق كالرجل شوقا إلى التملك، حقا كان يبدو أن مهمتها من جيل إلى جيل ليست إلا مغامرة الأمومة فقط ودائما، كانت تنحني لسيدها، وتتلقى ضرباته بحب، وتسلم له اسمها ومالها كما تسلم له جسدها، وتلتمس سعادتها في تحقيق إرادته، كانت الحياة شاقة وكئيبة في نظرها، ولكنها كانت تعتاض عنها، ما استطاعت، بالانغماس في القصص والشعر الرومانتيكي مما كان يرفعها بعض الوقت إلى عوالم أبهى.

ثم أمسكت بها الصناعة في عجلاتها، فدخل التنويع على حياتها كالسيل الجارف، وظهر عندها المسئولية الشخصية والاستقلال الاقتصادي، فهي تتناول مالها الخاص بنفسها أخلاقها، كانت ترتاب من قبل في تفوق الرجل، وكانت تراه دائما في الأمور الأولية سليم الطوية، أليفا، سهل الانقياد ولكنها اكشفت الآن، كما اكتشف هو نفسه بعد زمن طويل، ذلك العابد الخجول للملاكمين والرياضيين، أن السباق في العالم الحديث ليس للأسرع ولا المعركة للأقوى، وأن الانتخاب الآن أكثر من أي وقت مضى بالدهاء والذكاء، وأقل بالقوة الجسدية ومجرد العضلات، وسرها أن تجد أن الضعف الجسماني ليس عقبة كؤودا في سبيل النجاح والسيادة، وأن أعظم العباقرة كانوا في بعض الأحيان أضأل الأجسام، وأنه حتى المرأة مختلفة بالمشدات، والمقيدة بالقمصان، والمثقلة بالتقاليد والمنغصات، قد ترتفع إلى مصاف الزعامة والقوة وتصبح سيدة نفسها.

من أجل ذلك كلما تقدم "التغيير الأكبر"، تغلبت المرأة على سلبيتها واصطنعت صفات إيجابية، وأصبحت شخصية قادرة على الابتكار، وعلى تولي أعمال الإدارة،

وعلى التفكير الواقعي، وتشربت حب التملك وأصبحت من الباحثات عن الذهب، وأهملت هدوء البيت الهادئ ونزلت إلى الأسواق الصاخبة، واتخذت من الطريات والمساحيق بديلا بالماء، وأرخت المشد، وقصرت الفستان، وكشفت عن نحرها للشمس، أصبحت عبادتها أقل، ولعبها أكثر، واستنشقت إلى أعماق صدرها الهواء المنعش لحريتها الجديدة، وأصبحت أقوى نفسا وأشجع روحا، حتى تكاد في جيل واحد تتفتح وتزدهر عن إيجابية لم يسبق لها مثيل.

وذعر الرجل وصدم، وارتفعت شكواه الأخلاقية من "المرأة الجديدة" ولكن التغيير جاء على عينه، واستمر بغير إذنه، فرأى نفسه وقد واجهته المرأة في الصناعة، والتجارة، والمهن، والتعليم، ورأى في جميع تلك الميادين وجه المرأة، مع أن تلك الميادين كانت من قديم الأزل وقفا عليه بحق الملك المقدس.

وامتعض لاستقلالها في العمل والإرادة، وتطلع إلى تلك الأيام الخوالي أيام العذارى العفيفات وإلى نعمة البيت القديم (كما تبدو لمن يتصورها بالذاكرة) الذي يمتلئ بالأطفال وكعك التفاح، لقد كافح هذا الغزو برجولة وتذمر.

ولكنه خسر المعركة، ففي أمريكا على الأقل كادت المرأة تتم انتقالها المدوخ من الخضوع السلبي إلى السيطرة الإيجابية، وأخذت الصفات القديمة كوداعة العذارى وطاعة النساء تختفي، فالرجل من بين الجنسين هو الذي يغضي الآن حياء، ويلمح بطرف عينيه في رهبة ممزوجة بالخجل قدم الفتاة العصرية وساقها وركبتها وغير ذلك من المفاتن، واختفت من وثائق الزواج هذه الألفاظ: "تحب، وتعز، وتطيع"، وسوف تعود قريبا لتكون أسئلة توجه للرجل، ولكنها ستكون زائدة عن الحاجة.

فلنحكم من خلال هذا التغيير السريع على إمكان تبديل الخلق، ومن الواضح أن تلك الصفات التي سميناها إيجابية وسلبية ليست متأصلة في الجسد لا تنفك عنه، حقا أساسها موجود في قوة الجسم وضعفه، ولكنها يمكن أن تعدل إلى ما لا نهاية له بتهيئة الفرصة وسلطان البيئة، فالمرأة نفسها قد تطورت في آلاف الأحوال من الإحجام إلى

الإقدام، ومن الخنوع إلى السيادة، فمن الواضح أن الخلق قابل للتعديل ، إذا شئنا.

وهنا تلقانا صعوبات دقيقة، فبعضنا لا يرغب في تبديل الخلق، إذ يرى أن أحوالنا موافقة لأنفسنا تمام الموافقة، وان أخطاءنا ذاتها محبوبة جدا، وليس من المناسب إجراء أي تعديل في أساس الخلق، يضاف إلى ذلك ظهور مشكلة أخلاقية هي أن إيجابية الخلق لا تتفق مع الأخلاق، وان الأمة التي يتألف أفرادها من مثل هؤلاء الأقوياء مما رسمنا صورتهم قد تصبح مارستانا يزخر بالمنافسة القاسية والحرب البشعة، ونحن نعترف بأن مهمتنا ليست تعليم الفضيلة، وسوف يكون في أدويتنا بعض الأمور المنافية للأخلاق، وإذا كنا نبدو في هذه اللحظة حريصين على تغليب القوة على الفضيلة، فذلك لأن قوة الخلق هي ذاتها فضيلة حسنة، ولعلنا نعتمد على قسوة الظروف في أن تمدنا بعدد كاف من الرؤوس المنحنية والإرادات المحطمة.

وإذا شئنا أن نجعل انفسنا أقوى مما نحن عليه فيجب أن نفهم أولا ما الإرادة ؟ فهي ليست شيئا غامضا يقف بين عناصر الخلق كما يقف قائد الأوركسترا يشير تارة إلى هذا وتارة إلى ذاك، بل مجرد مجموع سائر الدوافع والميول وجوهر وظائفها، وليس لهذه القوة الدافعة التي تكون الخلق قائدا تطيعه خارج ذاتها، فمن بينها ينشأ دافع قوي يحكم بقية الدوافع ويوحدها، وهذه هي "قوة الإرادة" أن ترتفع رغبة عليا فوق غيرها بحيث تنجذب نحوها وتتهيأ بها إلى التحرك في اتجاه واحد نحو هدف واحد، وإذا لم يتيسر لنا أن نجد غرضا منسقا، وغاية حاكمة نضحي في سبيلها بكل رغبة أخرى من رغبات القلب، فالوحدة بعيدة عنا، ويجب أن نصبح في النهاية حجرا في بناء رجل آخر.

من أجل ذلك لا خير في قراءة الكتب التي تصف أمثل الطرق لتكوين الخلق، فهذا مثلا كتاب الأستاذ ليلاند Leland (لندن ١٩١٢) بعنوان "أعندك إرادة قوية؟ أو كيف تنمي .. أي ملكة عقلية بطريقة الإيحاء الذاتي السهلة؟". وثمة مئات من هذه الروائع التي يمكن أن يشتريها البسطاء في أي مدينة، ولكن الطريق أصعب من ذلك وأطول.

إنها طريق الحياة، فالإرادة، التي هي الرغبات الموحدة، هي (كما بين شوبنهور) الصورة المميزة للحياة النامية، ولا تزيد قوتها وبنيتها إلا حين تلتمس الحياة لها أعمالا جديدة وانتصارات جديدة، فإذا شئنا أن نكون أقوياء فينبغي أن نختار أولا هدفنا ونرسم بعد ذلك طريقنا إليه، ثم نستمسك بذلك الهدف مهما يحدث، وينبغي أن نحذر في هذا الصدد ألا نضطلع من أول الأمر إلا بما يمكن أن نعتمد عليه في أنفسنا ليمضي بنا إلى النهاية، ذلك أن كل فشل سيضعفنا، وكل نجاح يجعلنا أقوى، والعمل هو الذي يخلق العمل، ونكسب مع كل نصر بسيط قوة وثقة تدفعاننا إلى نصر أعظم، فالعمل يخلق الإرادة.

وعندئذ قد يكون المرء شديد الحذر فيولي ظهره جلائل الأعمال، ويظل صغيرا على الدوام، ولكن تأكد أن الانتصارات المتواضعة لن ترضيك، فتستيقظ في الصباح بعد فوزك الذي احتفلت به طول اليوم، فتبحث عن مهمة تالية أعظم، واجه الخطر واحتمل المسئولية، واعلم أنهما قد يهزمانك، وقد يحكمانك، ولكنك لن تموت إلا موتة واحدة ليست شيئا مذكورا في تاريخ الفلسفة، وإذا لم يؤد الخطر والمسئولية إلى موتك فسوف يشدان عزمك، ويرفعانك فتكون أدنى إلى العظمة وأقرب من هدفك، فلتمض ولا تقف.

وتقدم لنا حالة من التحليل النفساني في هذا الصدد دليلا على مرونة الخلق والمصير الإنساني، ففي نظرية أدلر المشرقة يقوم أساس العبقرية والأمراض العصبية على حد سواء في بعض العيوب العضوية – كعجز أو تشويه لعضو في الجسم – التي يؤدي وجودها المستمر إلى حث النفس على الكفاح للتغلب على النقص، أو كما قال فرانسيس بيكون: "كل من يصاب في شخصه بشيء ثابت يبعث على الاحتقار، فعنده كذلك في نفسه حافز دائم إلى النجاة وتخليص نفسه من الزراية". وهكذا بيرون برجله الخشبية أن يتقن الرقص، وأن يفسق إلى الحد الذي جعله ذئبا اجتماعيا، وأصبح ديمستين التهتاه خطيبا مفوها.

وحين أصيب بيتهوفن بالصمم شق طريقه إلى موسيقى ليس لها مثيل، كذلك المرأة التي كانت تحترق باحتجاج الرجولة على الضعف والخضوع الجسماني، أخذت

تقتحم طريقها بإقدام متخطية جميع التقاليد والحواجز، وفي ذلك يقول أدلر:

"هذا الشعور الذي يحس به المرء عن نقصه يهيئ له الدافع الباطني على التقدم".

إن أولئك الذين كانوا خلف الصفوف هم الذين يشقون طريقهم إلى الأمام ويتولون قيادة الجنس، وقد خرج من طبقة العمال أعظم المخترعين، فالأجسام العليلة كانت بين حين وآخر موئلا للنفوس العظيمة، ومحركة لها.

٥- علاجات

ولكن ما ذكرناه كلام عام يبلغ من الغموض مبلغ أي نصيحة تنشد الكمال، فلنقترب من البحث قربا أشد، ماذا يعمل أحدنا بالذات ليظفر بقوة العقل والخلق؟

فلتنشد الصحة أولا، يقبل عليك كل شيء آخر، أو على الأقل لن تحسب لغيابها حسابا كبيرا، أو كما قال نيتشه: "أول ما يطلبه الرجل المهذب أن يكون حيوانا كاملا، ويجب لذلك أن نتخير أجدادنا، ولما كان هذا الأمر عسيرا، فيمكن على الأقل أن نختار الغذاء المناسب والعادات الصحيحة". وكان مولسكوت يقول: "الإنسان هو ما يأكله". وليس ثمة دواء ساحر عام لهذه المسألة، فكل إنسان يجب أن يكتشف سمومه الخاصة به، وعليه أن يتجنبها.

ضع كل ما يزعجك في قائمة سوداء ولا تدعه يقترب من مائدتك مرة ثانية، إلى أن تصل بعملية من الحذف إلى معرفة الغذاء الذي يمنحك سلام الهضم.

وإذا لم تستطع فضلاتك أن تخرج بدون معونة العقاقير، فسل نفسك أي مادة شريرة تضعفك إلى هذا الحد المخجل، أو الدقيق الأبيض البديع، أم الحلوى والفطائر النسائية، أم الوجبات التي تنقصها الخضروات والفاكهة؟ احتفظ بأمعائك وفمك مغلقا، هذه هي أنشودة الحكمة.

إذا كان لابد أن نعيد بناء أنفسنا فينبغي أن نبدأ بالمعدة، ثم نسمح لكل عضو آخر من أعضاء الجسم بالازدهار، فالطبيعة لم تخلقنا لنكون رجال فكر ولا كتبة ولا

صحفيين ولا فلاسفة، بل خلقتنا لنتحرك، ونرفع الأثقال، ونجري، ونتسلق، لقد صاغتنا لحياة نستعمل فيها أذرعنا وأرجلنا، وأمثل مسلك لذلك هو الذي يجمع بين النشاط الجسمي والعقلي معا أو متبادلين، لابد أن ذلك الحاكم كان على شيء من الحكمة حين كان يحتطب الخشب كل يوم، ولكن هذا ترف لا يقوى على عمله إلا القلة القليلة منا، فالحياة من التعقيد والتنافس بحيث يظهر أننا يجب أن نهب جميع وقتنا وكل طاقتنا لموضوع واحد وغرض واحد كيما نبلغ ذروة النجاح، ولكن فلنجذ على الأقل الحشائش في حديقتنا، ولنهذب أسوارها، ونقلم أشجارها، بأي شكل لتكون لنا حديقة وسور وأشجار، وقد يكون لنا من الوقت في المستقبل ما يسمح لنا بالعمل في البستان، وبعد فالصحة أفضل من الشهرة، لأن العبقرية بائسة في حياتها، ولا تشتهر إلا بعد موتها.

وقد نحتاج في طلب الصحة والقوة إلى بيئة جديدة، ومما يعزينا على الدوام أننا إذا كنا لا نستطيع تغير ما ورثناه فيمكننا تعديل موقفنا، كانت الفلسفة الحتمية السائدة في علوم العصر الفكتوري تتصور الإنسان في تعاليمها الجديدة مخلوقا مركبا من البيئة والوراثة، وليس هذا بالضبط صحيحا، ما دام الإنسان مركبا من البيئة والوراثة، ومن هذه القوة الغريبة الدافعة إلى التقدم والإبداع التي نسميها الحياة، ومن الصحيح كذلك، ونستطيع أن نضيف ذلك إلى علاجنا، إننا لن نغير أنفسنا تغييرا جوهريا إلا إذا غيرنا المؤثرات التي تؤثر في أبداننا من ساعة إلى أخرى، وتصوغنا آخر الأمر على صورتها، أنعيش بين قوم قذرين أو أميين لا يهتمون إلا بالأمور المادية والمأكولات؟ فلنبرح هذه الأرض، مهما يكلفنا ذلك، وننشد صحبة أفضل، أيوجد في أي مكان سحيق نفس أصفى منا، وعقل أعلم من عقلنا، وخلق أمتن من خلقنا؟ فلنفتش عنه ونشد إليه الرحال بعض الوقت، حتى نتمكن من تلقاء أنفسنا من منافسته في هيئته ومماثلته في عمله، ثم لا نزال نتطلع إلى رجال أعظم، فاتباع العظماء خير من قيادة الأغرار، وقد كان قيصر مخطئا، إذ الأشرف أن يكون المرء تابعا في روما من أن يكون سيدا بين البرابرة.

وإذا لم يكن – فيما نظن – ثمة شخص أعظم منك في الدائرة الضيقة التي ترغمك الحياة على العيش فيها، فالتمس صحبة العباقرة في الماضي، تستطيع أخذ نصيحتهم بقرش واحد، والاستمتاع في ألفة إلى كلامهم، والاندماج في الجو الصافي الذي يحيطهم، ومن الخطأ أن يظن المرء ألا أثر للكتب، فأثرها بطئ كالماء المتدفق الذي يحفر الوادي، وهي تنبئنا كل عام جديد، ولا يتمكن أحد من إنفاق ساعة كل يوم في صحبة الحكماء والأبطال دون أن يرتفع خطوة أو خطوتين بهذه الصحبة، فلا عذر لمن يجد نفسه صغيرا حين يستطيع أن يجلس إلى مائدة واحدة مع نابليون، أو يمشي مع هويتمان، أو يتعشى آخر الليل مع فردريك وفولتير.

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن الأمور الخارجة عنا، أما في داخلنا فالمشكلة أصعب، إذ ما أعجبنا من برية، ومن حديقة رغبات بغير زرع! كيف نعرف ما الزرع الذي يجب أن نسقيه هنا، والذي نتركه ليموت هناك؟

وأول قاعدة عظمى لتكوين الخلق هي الوحدة، أو بنص عبارة جوته: "أن تكون كلا أو تتصل بكل". والثانية هي: أقدم، ولا تتراجع، فهذا هو خط النمو الذي يجعل الاستثناء الرجل الحكيم بشيء من الانحراف عنه، ولكن لا إلى الحد الذي يجعل الاستثناء يطغى على القاعدة، ففي المجموعة الأولى من الغرائز مثلا يمكن أن نفسح مجالا للنظافة مع أنها متأصلة في الدافع السلبي وهو التقزز.

وفي ذلك يقول نيتشه: "يجب أن يبعث الإحساس بالنظافة عند الطفل حتى يصبح عاطفة، وسوف يرفع نفسه فيما بعد في أحوال جديدة على الدوام إلى فضائل جديدة". والنظافة تأتي في المحل الثاني بعد التدين، وكيف تكون الحال إذا لم تكن الآلهة موجودة؟ ومع ذلك فلا نود أن ننقلب زهادا من ذوي المظهر البارد الدائم، ولا أبو لون ذا الشعر المستعار، ولا ضحايا كفتاة الزينة، سنشعر دائما بحسد خفي لأحد الحكام المتأخرين الذي لم يسمح لتدينه أن يتدخل في شهيته.

ويمكن أن نقف الموقف نفسه من غريزة القتال وطليعتها الكبرياء، فهاتان

فضيلتان لا رذيلتان، ومع أننا سنقلمهما فإنما ذلك لدفعهما إلى النماء، لا إلى المشاكسة ولا إلى الغرور، فالغرور توهم انتصارات تجيء، والكبرياء تذكر انتصارات تمت، والمشاكسة مقاتلة الضعيف، وليس من الضروري أن يكون معنى المقاتلة الصياح والضرب، فقد تعني الثبات في هدوء وأدب على الهدف.

ولا يحتاج المرء في طموحه إلى أن يكون قاسيا وجشعا، فالرجل القوي يعطي إذا كسب، ويجد لذة في البناء أكثر من التملك، إنه يبني ليسكن غيره، ويكسب المال لينفقه الآخرون، إن الخلق لا ينشأ من الاستهلاك الظاهر، بل من البناء والخلق.

وينشأ كذلك من العمل، عليك أن تتجنب المهن التي تجعلك تفكر وتفكر وتفكر دون أن تدع لك فرصة للعمل، ولأن يكون المرء نجارا يقطع الخشب تحت أشعة الشمس، ويراقب الأشياء تنمو مع كل ضربة فأس، خير من أن يظل يجمع حساب الدائن والمدين يوما بعد يوم، أو يتفكر في شقته المنعزلة في أدلة جديدة عن حقيقة العالم الخارجي، الأفضل أن تعزف مقطوعة موسيقية من أن تسمع مئات المقطوعات، فلنلعب ولنضحك، وإذا كانت الحياة تبدو بين حين وآخر (كالبحر في يوم هائج) هزلا مرا، فلنذكر المزاح، ولنغتفر المرارة.

تزوج، فهذا أفضل من الاحتراق، كما جاء في الكتاب المقدس، إذ ييسر الزواج للمرء أن يفكر في شيء آخر، قد تكون الشقيقة عند شخص شاذ مثل نيتشه أفضل من الزوجة، ولكن الرجل السوي سيجد الأخت غير ملائمة.

فإذا حلت هذه المشكلة الأولية، استطعنا أن نتحرك في العالم دون أن تلهينا هفهافة الفساتين عند كل منعطف، فنحن نعلم أن جوهر النساء واحد مهما تختلف ملابسهن، وأن ثمة دائما تحت الظواهر المتعددة حقيقة واحدة، وبذلك نصبح قانعين في اعتدال ونتعلم حتى أن نحب زوجاتنا بعد حين، قد يكون صحيحا أن المتزوج يطرق أي باب للحصول على المال، ولكن المتزوج وحده هو الذي يستطيع أن ينمي في نفسه هذه المرونة.

اتخذ أصدقاء، وإذا لم يستطع اتخاذهم، فانظر في نفسك وأعمل على تعديلها حتى تتمكن من المصادقة، والعزلة دواء سريع الشفاء، ولكنها ليست غذاء، والخلق كما تصور "جيته" لا ينمو إلا في تيار العالم، وإذا انعطفنا على أنفسنا جرفنا التيار، حتى (كما يقال) إذا كان علم النفس صناعتنا، فالنظر على الدوام في داخل أنفسنا مطية إلى الكارثة التي قد تصيب لاعب التنس إذا وقف يحسب عن وعي المسافة والسرعة والزاوية والضربة، أو لاعب البيانو الذي يفكر في أصابعه، والصديق خير معين، لا لأنه يستمع إلينا حين نفضي إليه بذات أنفسنا، بل لأنه يضحك منا، فنحن نتعلم بواسطة الأصدقاء قليلا من الموضوعية، وشيئا من التواضع، وبعضا من الأدب، نتعلم قواعد الحياة فنحسن لعبتها، إذا شئت أن تكون محبوبا فكن متواضعا، وإذا طلبت إعجاب الناس بك فكن معجبا بنفسك، وإذا نشدت الحب والإعجاب فاجمع بين التواضع الظاهر والزهو الباطن، ولكن الزهو نفسه يمكن أن نجعله حياء، بأن يخفي فلا يرى ولا يسمع، ولا تكن مسرفا في الشطارة لأن النكات تلذع إذا جرحت، ويجب أن يكون شعارنا: لا يحيا شيء ما لم يكن حسنا De vivis nil nisi bonum.

لا تكشف أبدا عورة أحد، فلن يغفرها لك إلى الأبد، لا شيء في العالم هو أفضل الأشياء جميعا، فافعل الخير ما استطعت، وتكلم بالمعروف دائما، ولا تتهالك على قول الصدق، يجب أن تقبل العرف الذي يفرضه المجتمع عليك، كما يمنحك بعض الحرية في اصطناع قوانينه، إن المجتمع يبيح لك أن تفعل ما تشاء أن تفعله بلطف، وبغير أن تتحدث عنه، وفي أثناء ذلك فلنتقدم إلى الأمام بهدوء دون إثارة عداوات لا لزوم لها، أقبل دائما، ورحب بالتجربة، وجرب الحياة حتى تهبك أقصى ما تستطيع حمله، قبل أن تبرح المحراب تاركا أطفالك يحرسون اللهب.

ولكن أين موضع الذكاء من هذا كله؟ هل الخلق مسألة دافع فقط، ولا فائدة في العقل والخيال؟ كنا نود لو كان الأمر كذلك، فكم يكون شأن الخلق بسيطا، فأقوى الأهواء هي التي أقوى الرجال.

ليس الأمر بالطبع كذلك، فالخيال والعقل في النفس الكاملة كالضوء الذي

يصدر عن النار، وقد نضيع في الخيالات أنفسنا، ولكننا قد نظفر بعظيم الانتصارات بالتبصر، وفي ذلك يقول إمرسون: "كان نابليون قبل بدء المعركة يفكر قليلا عما يفعله في حالة الظفر، ولكنه كان يفكر كثيرا عما يفعله إذا لم يحالفه الحظ". أو بعبارة نابليون: "عندما أصمم خطة المعركة فلا أحد أكثر مني جبنا، فأنا أجسم لنفسي جميع المخاطر والأضرار الممكنة تبعا للظروف".

فالخيال قد يحطمنا كما حطم نابليون سنة ١٨١٢، وقد ينقذنا من آلاف الكوارث إذا استعرضنا شتى المسالك قبل الانغماس في العمل.

ووظيفة العقل الحسنة إعانتنا على العمل، وإذا انقلبت وظيفته صناعة في ذاتها أخرجت لنا مناطقة أو قوما مثل هاملت، إذ تظل الحرب مشبوبه بينما تبلى العضلات والخلق، أما إذا أصبحت وظيفة العقل تغليب رغبة على رعبة، ونقد دافع بدافع آخر، وكبح جماح شهوة بشهوة أخرى، فهذه هي أفضل حالات المرء، حيث تتحرك العناصر الممتزجة في نفسه هنا وهناك إلى أن تذوب في وحدة، وتخرج في نظرة شاملة واستجابة كاملة.

فدوافعنا هي الريح التي تسير شراع سفينتنا، ولكن كلا منها إذا لم يكبح سحبنا وراءه كالعبيد، ألم تر إلى الرجل الذي تتملكه فقط شهوة الجشع، أو البهيمة الجنسية، أو القتال، أو الثرثرة، أو اللعب؟ إن الحرية الكاملة إذا أطلقت لكل دافع أفضت إلى حل الخلق كما فعلت بأبناء قورش، الذين قامت على تربيتهم نساء سايرن فيهم كل رغبة حتى أضحوا ضعافا منحلين.

ومن ثم كانت غلبة المعرفة على الرغبة، وهي جوهر العقل بالذات، الأصل في أدب النفس وقوتها، وفي تلك السلطة التي تكبح جماحنا، وتعد المرجع الأخير للخلق والإرادة، فإما أن يؤدبنا العالم، وإما أن نؤدب أنفسنا، ولنا أن نختار بين الأمرين، جملة القول الخلق هو ما سماه "مل" من زمن طويل: "إرادة كاملة الصياغة".

ولما كان التركيب أصعب دائما من التحليل، فإن علم النفس لم يضم بعد أطراف

الطبيعة البشرية التي فصل أجزاءها، ولا يزال الأسهل أن تصف الإنسان من أن تدله على ما يجب أن يكون عليه، وكيف يمكن أن يعدل نفسه، لقد لمسنا جانبا واحدا من موضوع عظيم سيجتذب في عصرنا كثيرا من المفكرين للبحث فيه، لقد حصلنا العلم بأنفسنا، والآن نريد أن نبحث عن الفن الذي يخلقنا خلقا جديدا كما سيطرنا على القارات والمحيطات، ولكن المعرفة قوة، ومصير كل علم أن يكون في آخر الأمر فنا يؤتي الثمر الذي يوسع ملك الإنسان.

وسيعيش أبناؤنا ليروا الناس تصنع العقول والقلوب كما تبني السفن والطائرات ودوافع الإنسان، التي ظلت هادئة تكاد لا تتغير على حين تبدل جميع وجه الأرض من حولها، ستتشكل من جديد كي ما تلائم الحياة الرفيعة والسريعة التي تصنعها الاختراعات التي لا يستقر لها قرار، لقد ازدادت الآن قدرة الإنسان العقلية وتعددت حتى ليبدو أن أصحاب العقول الراقية في العصر الحاضر ينتمون إلى نوع مختلف عن نوع الفلاح البطيء الاستجابة، وحين يأتي اليوم الذي تساير فيه أذهاننا آلاتنا، وحكمتنا معرفتنا، وأغراضنا قوانا، عندئذ نسلك سلوك البشر.

الجزء الخامس

علم الجمال

الفصل الثالث عشر

ما الجمال؟

١- حاسة الجمال عند الفلاسفة

من أقوال أناتول فرانس: "أعتقد أننا لن نعرف بالضبط أبدا لم كان الشيء جميلا؟"[١]. هذا الحكم الصادر عن فنان عظيم وباحث كبير قد ينصحنا بأن نولي ظهورنا إلى المشكلة التي نبحثها، فإذا كنا سنمضي في البحث فعلى أساس أن الفلسفة تحتمل كثيرا من "المطلقات Absolutes"، ولا يقين فيها.

ومن الغريب حقا أن الفلسفة وعلم النفس لم يفسحا لهذه المسألة مجالا كبيرا، فكل قلب يلبي نداء الجميل، ولكن قل أن تجد عقلا يسأل لم كان الجميل جميلا، ويرى المتوحش الجمال في الشفاه الغليظة والوشم الأزرق، وكان الإغريق يلتمسونه في الشباب أو في هدوء التماثيل وتناسبها، وكان الرومان يرونه في النظام والروعة والبأس، وفي عصر النهضة كانت الألوان سر الجمال، ويراه الناس في العصر الحاضر في الموسيقى والرقص: ففي كل مكان وفي كل عصر، تأثر الناس بلون من ألوانه وأنفقوا أعمارهم في طلبه، الفلاسفة وحدهم هم الذين تحرقوا شوقا لفهم طبيعته، والكشف عن سر قوته.

الحق أن هذه المسألة تتعلق بعلم النفس، ولكن علماءه تركوا بحثا للفلسفة، كما يفعل كل علم حين يحيل على الفلسفة المشكلات التي لا يستطيع حلها.

(ولذلك اتصلت مشكلات هامة بالفلسفة، فعذرها عن التعطل قليل) ثم إن

---

(1)On Life and Letters, voI II, p. 176.

نزعة العلم الحديث الطبيعية، وغرامه بالمعامل والتجارب، واتجاهه نحو البحث عن قوانين رياضية وكمية لجميع الظواهر، كل ذلك جعله عاجزا عن بحث مثل هذه الحقائق الزئبقية elusive [1] كالجمال (إن لم تكن دائما غير ملموسة).

ولن توضع مشكلة الجمال في موضعها الملائم حتى يزداد تسليم علم النفس بالتفسير البيولوجي، وفي أثناء ذلك ترى الفلسفة أن لها مزية الخوض في هذه المسألة حيث يرهب العلم البحث فيها، وحتى عظام الميتافيزيقا الصلبة فإنها ترتعش وتفزع بعض الشيء حين يحل الجمال إلى حين محل الحق ويلتمس في الحكمة محرابا.

ومع ذلك فلم يسرع الفلاسفة إلى البحث في هذا الموضوع المغري، فبقي غامضا إلى حد كبير، كان فيه شيء من الوثنية نفر منه رجال الدين، وشيء من اللاعقلية جعل شكاك المفكرين يقفون بلا حراك، ولما ظهر بومجارتن Baumgarten، أول مفكر اعترف بطبيعة الجمال ميدانا مستقلا للبحث، وأول من أطلق عليه الاسم الفظيع "استيتيكا esthetics"، اعتذر عن إدخال مثل هذا الموضوع المزرى بين قصور الفلسفة، ولا ريب أنه كان يخشى أنه على الرغم من العنوان المنفر الذي وضعه لهذا العلم، فالمشكلة قد تصرف أذهان قرائه إلى التماثيل والحسان، وكان وجهه يحمر خجلا لهذا الاحتمال.

وحتى يبحث كان الجمال يخلق كثيرا، ويمجد تمجيدا عظيما – في اليونان القديمة – عجز الفلاسفة عن الكشف عن سر فتنته، وبدأ فيثاغورس لعبة الجمال بأن رد الموسيقى للعلاقات الرياضية، وكان يصف حركة الكواكب بالانسجام الدقيق، ولما كان فلاسفة الإغريق السابقون على سقراط كالعلماء قبل دارون خاضعين لسلطان الطبيعة والرياضة، فقد التمسوا تعريف الجمال في عبارات كمية ومكانية: فالموسيقى انتظام في الأصوات، والجمال المجسم (بلاستك) Plastic انتظام في النسب.

---

(١) المقصود بالاصطلاح أن الشيء يراوغنا ويهرب منا، وهذه هي صفة الزئبق لا تستطيع أن تضع يدك عليه (المترجم).

أما أفلاطون الذي لم يكن شيئا مذكورا لولا اشتغاله بالأخلاق (كان حريصا على وقف انحلال بني وطنه) فقد ذهب إلى الطرف الآخر، ومزج الجمال بالخير في وحدة رائعة، فالفن يجب أن يكون جزءا من علم الأخلاق وفيما عدا الفوائد التعليمية للموسيقى (وحتى في ذلك الزمان كانوا فيما يظهر يصطنعون الشعر لتذكر التواريخ وسير الملوك) فجانب الفن ضئيل إلى أقصى حد في مدينة أفلاطون الفاضلة، ونحن نجد عند أرسطو الإجابة النموذجية عن سؤالنا، فالجمال هو التماثل، والتناسب، والترتيب العضوي للأجزاء في كل مترابط.

إنه تصور يسرنا أنه يتفق مع "تعاون الجزء مع الكل"، هذه الفكرة التي تردد صداها خلال هذه الفصول، ويكاد يكون الإغراء بتنظيم هذه المسألة وبيان قواعدها لا يقاوم، ولكن لم كان التماثل والتناسب، والترتيب والوحدة، مصادر لابتهاج النفس؟ هذا هو السؤال الذي يفتننا أكثر من قواعدنا.

لقد أضاف ونكلمان(١) Winckelmann، ولسنج(٢) Lessing شيئا يسيرا إلى هذه الأجوبة، وأسلما قيادهما لسلطان الإغريق، وظل الجمال مسألة هيئة وصورة، يختص بالرخام المنحوت والمنقوش، وبالمعابد التي تشيد صامتة في التلال، كان الجمال صفة تكاد تكون محلية تقتصر على البارثيون وما فيه من حيلة، أما أن يكون التمثال محاكاة لكائن حي بديع تسري في جسمه الحرارة، وأن يلتمس سر الجمال في الأصل أولى من التماسه في الصورة، فلم نجد عند هذين المفكرين إلا قليلا من الترحيب لحمود عقلهما وأكاديميته، فكانا أكثر كلاسيكية من الإغريق أنفسهم.

وظهرت عند كانط وشوبنهور نغمة جديدة ، فالجمال صفة للشيء الذي يبعث في أنفسنا اللذة بصرف النظر عن نفعه، ويحرك فينا ضربا غير إرادي من التأمل، ويشيع لونا من السعادة الخالصة، وفي هذا الإحساس الموضوعي البريء عن الهوى

(١) يوحنا ونكلمان (١٧١٧ – ١٧٦٨) باحث ألماني درس فن الإغريق، وأثر في جيته. ونظريته في الفن الإغريق تقوم على الهدوء والعظمة. (المترجم)

(٢) لسنج (١٧٢٩ – ١٧٨١) روائي وناقد ألماني كتب عدة دراما. (المترجم)

يوجد، كما يذهب شوبنهور، سر تقديم الجمال والعبقرية الفنية، ويتحرر العقل بعض الوقت من الرغبة، ويحقق تلك الصور الخالدة، أو المثل الأفلاطونية، التي تكون المظاهر الخارجية للإرادة الكلية، حتى إذا كنا مع هيجل عدنا مرة أخرى إلى الإغريق، فالجمال وحدة في تنوع، وانتصار الصورة على المادة، والمظهر المحسوس لمثال ميتافيزيقي، فلا غرابة أن تكون أثقل الكتب في العالم ظلا، هي تلك التي كتبها الناس عن الجمال.

٢- حاسة الجمال عند الحيوان

ماذا نفعل إذا كان ما سبق كله طريقا للبحث فاشلا؟

من يدري لعل الجمال وظيفة للحياة لا مادة ولا صورة؟

ومن يدري لعل علم الحياة يفيدنا ها هنا حيث لم يستطع علم الطبيعة أو الرياضة؟

فلنذهب إلى الحيوان ، ولنحاول أن نتتبع حاسة الجمال إلى منبعها، إننا نخطئ حين نفترض أن الإنسان وحده هو الموهوب بالشعور الجمالي، فثمة حيوانات كثيرة أجمل من هذا الذي يمشي على قدمين، ويخلو من الريش، ويحكم الأرض حكما عابرا، كل ما نعرفه أنها قد تستبين الجمال أوضح منا، وقد تنظر إلينا كما تفعل أحيانا بازدراء هادئ متمهل، إننا نظن أننا وحدنا نشعر بالجمال لأننا نربطه في النوع الإنساني بالبصر والصورة المرئية، أما عند الحيوان إذا حق لنا أن نتكلم بالنيابة عنهم، تنشأ هزة الجمال في تواضع من الفم، وفي ذلك يقول كلب مسيو برجيريه(١) الصغير "شم الكلب لذيذ". ولا ريب أن الناس في نظر ريكيت(٢) Riquet كانت لهم روائح كريهة مختلفة.

ومع ذلك فقد يكون لحاسة السمع كذلك قيمة جمالية عند الوحوش، فبعض أجدادنا من ذوات الأربع مشهورة بالتأثر بالموسيقى، وفي ذلك يقول إليس Ellis:

---

(١) **Monsieur Bergeret** هو الشخصية الرئيسية في أربع قصص كتبها أناتول فرانس، يصور فيها أحوال فرنسا وأخلاقها. (المترجم)

(٢) يريد المؤلف اسم الكلب سالف الذكر. (المترجم)

"لقد دلت التجارب التي أجريت على عدد متنوع من الحيوانات في حدائق الحيوان عند سماع توقيع آلات موسيقية أن جميعها باستثناء بعض سباع البحر كانت تؤذيها النغمة الناشزة .. وتهيج نمر كان يرتاح إلى صوت الكمان عندما سمع المزمار المسمى Piccolo. ومعظم أنواع الحيوان تؤثر سماع الكمان والناي flute"[١]. ولاحظ إليس أن كلبه نبح وعوى سمع ترانيم موسيقية لشوبان، ولكنه ذهب لينام غير حافل عندما لعبت مقطوعة موسيقية بهيجة، ويضيف دين سويفت Dean Swift بلباقة: "ألم يخبرنا عليان Aelian كيف أن الأفراس الليبية كانت تحتاج إلى الجياد بالموسيقى؟ (وهذا يجب أن يكون نذيرا للنساء العفيفات بعدم الذهاب إلى الأوبرا"[٢].

وليست عين الحيوان عديمة الحس بالجمال، فبعض الطيور فيما يروي دارون تزين أعشاشها بأوراق الشجر والقواقع الملونة البديعة، وبالحجارة والريش وشرائط النسيج مما يخلفه الناس في بيوتهم[٣]. والطير المسمى "بوير"[٤] bower – bird يبني عشا خاصا لأنثاه يغطيه بفروع الشجر، ويفرشه بالحشائش. ثم يحمل حصى أبيض اللون من أقرب جدول ويرتبها بهيئة فنية على جانبيه، ويزيد جدران العش بالريش الملون، والتوت الأحمر، وأي شيء بديع يجده، وأخيرا يجلل طريق الدخول والخروج بالمحار والحجارة اللامعة.

فهذا هو القصر الذي يبنيه طائر البوير لأنثاه، وفي ذلك يقول بولش: "يكفي أن تلقي نظرة واحدة على عش الزوجية هذا لتقتنع بأن ثمة لذة فنية مباشرة "بالجميل" توجد في ذهن هذا الطائر الصغير"[٥].

وقد رؤيت بعض الطيور تحدق في صورتها في المرآة، ويمكن اصطياد عدد كبير من القنابر بمرآة صغيرة تعكس أشعة الشمس، فتتجه الطيور نحو هذا الشعاع تسوقها

---

(1)Studies in the psychology of sex, voI, IV, p. 122.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣١.

(3)Darwin, The Descent of Man pp. 112. 469.

(٤) طائر يعيش في أستراليا ويشتهر بعشه الذي يزينه بالريش الجميل والقواقع (المترجم)

(5)Bolsche, W., Love – Life in Nature, vol. II, p. 285. Gourmont R. de, The Natural Phil. Of Love pp. 192.

رغبة عمياء على الرغم من توهجها القاتل، والعقعق والغراب وغيرهما من الطير تسرق الأشياء اللامعة كالفضة والحلي وتخفيها، فمن يدري أي دافع يسوقها: أهو الزهو، أم الاستطلاع، أم الجشع، أم الذوق الفني؟[١]

ولكن هذه الظواهر الجمالية التي تحس فيها الحيوانات بالأشياء غير الحية نادرة، وتقديرها للجمال الذي تعبر عنه ضئيل وثانوي بالإضافة إلى قلق الذكر المحسوس الذي يظهره بعرض نفسه على الأنثى زمان السفاد، ويقول دارون: "ينحصر تذوق الجميل عند معظم الحيوانات، بمقدار ما نستطيع أن نحكم، في جاذبية الجنس الآخر"[٢].

ولسنا نجد شيئا أعظم غناء في بحثنا من هذه العبارة التي دونها عالم من أزهر العلماء وأشدهم تواضعا، فإذا كان دارون على صواب، فمن الواضح أن حاسة الجمال (كما تثبت في الغالب وتنكر دائما) تتفرع عن الجاذبية الجنسية وتفيض عنها، فالجميل هو ما كان أوليا مرغوبا رغبة جنسية، وإذا كانت الأمور الأخرى تبدو لنا جميلة فهي مشتقة عنها، وعن طريق الصلة المطلقة بهذا الينبوع الأصلي للحاسة الجمالية، وحين يضع شوبنهور في كتابه "ميتافيزيقا الجميل" مشكلة الجمال في عباراته التي يمتاز بها قائلا: "كيف تكون المتعة بالشيء الجميل واللذة من رؤيته ممكنة دون أن ترجع المتعة نفسها إلى إرادتنا؟" فالجواب هو: ليس ذلك ممكنا، فالموضوع الجميل يتوافق سرا مع إرادتنا، والإرادة الأساسية والمطلقة عند الفرد في فلسفة شوبنهور هي إرادة الاتصال الجنسي. فلنبحث هذا الأمر.

٣- الجمال الأولي: الأشخاص

يكون الشيء جميلا قبل كل شيء لأنه مرغوب، أو بعبارة سبينوزا: إننا لا نرغب في الشيء لأنه حسن، بل نسميه حسنا لأننا نرغب فيه، وهكذا فنحن لا نرغب في شيء رغبة أصلية لأنه جميل، ولكننا نعتبره جميلا لأننا نرغب فيه.

---

(1)Descent of Man, p. 469.

(٢) المرجع السابق: ص ١٠٤.

وكل شيء يحقق في طبائعنا حاجة أساسية يحمل في طياته بعض الإمكانيات الجمالية، فطبق الطعام يجب أن يكون جميلا في نظر الجائع كما تبدو المرأة في الثلاثين في عين طالب الجامعة، المليء المعدة بالطعام، ولكن دع طالب الجامعة sophomore يجوع وشوف تخمد حاسته بالجمال حتى لأجمل الغادات.

إنه سيعتبرها مجرد شيء صالح للأكل، (ولا يزال شيء من هذه الشهوة الأولية باقيا في جميع حبنا) وفي نظر المؤلف الذي كافح سنين عدة ليشق طريقه إلى المطبعة تبدو أول صفحة ننشرها شيئا بارع الجمال لن يسلمها أي شعب ذكي للبلي، ولكن هذه الصفحة نفسها قد تكون، في نظر فلاح أو صانع له مطامع أصح من تأليف الكتب، مجرد ورقة مهملة تصلح لأن يمسح بها موسى الحلاقة، فالجميل بناء على ذلك في أدنى درجاته هو المظهر المحسوس لما يشبع الرغبة القوية، الحق أن الجميل لا يختلف عن النافع إلا في شدة حاجتنا.

والجميل والقبيح – كما يقول نيتشه – أمران حيويان، فكل ما ثبت ضرورة قطعا يبدو قبيحا، فنحن لا نأكل السكر لأنه حلو، ولكننا نعده حلوا لأننا تعودنا أن نرى فيه مصدرا أساسيا للطاقة، وكل شيء نافع يصبح بعد وقت قصير، لذيذا مقبولا، مثال ذلك أن سكان شرق آسيا يحبون السمك الفاسد لأنه الطعام الأزوتي الوحيد الذي يتمكنون من الحصول عليه(١). ويقول سذرلاند Sutherland: "لم تصبح السماء زرقاء لتمتع أعيننا، ولكن عيوننا هي التي أصبحت ملائمة لأن تجد متعة في زرقة السماء، فجميع الهيئات وكافة الألوان تحقق لذة طبيعية متناسبة مع كثرة وقوعها في تجارب الجنس".

إننا نرى الحشيش الأخضر والسماء الزرقاء جميلان، ولكن قد كان يمكن بالعادة أن نجد متعة في سماء خضراء وحشائش زرقاء.

---

(1)Sutherland, A., Origin and Growth of The Moral Instinctsm vol. II, pp. 85 – 91 ; Fuller, Sir B., Man as He Is, p. 68.

ومن الواضح أن الجمال المتميز عن المنفعة مرتبط بضرب قوي من الإشباع بعكس قوة الرغبة، فالمال أجمل منه أن يكون أنفع في نظر البائس، وكل شيء يكتسب جمالا إذا حرك الكائن وبعث فيه القوة، ومن ثم نشأ جمال الضوء والنظم واللمس الرقيق، أما القبح فيعمل على خفض حيواتنا، واضطراب هضمنا وأعصابنا، وقد يؤدي إلى الصداع أو إثارة النفس[١]، أو يحرك الشعراء إلى الحث على الثورة. والجمال –كما يقول سنتايانا– هو اللذة المتحققة في موضوع[٢].

أو بعبارة ستاندال، دون أن يعلم أنه يتابع هوبس[٣]: "الجمال وعد باللذة".

وكما أن الفن لا يظهر في أمة إلا بعد تجمع الثروة الفائضة عن الحاجة الاقتصادية وظهور طبقة أهل الفراغ، كذلك الحال في الفرد، عندما لا يقلق الجوع باله أو لا يكون شديدا، تزداد عنده الحساسية الجنسية وتفيض إلى إحساس بالجمال، وترتفع قابليتنا للجمال وتنخفض مع القوة الجنسية وضعفها، والحب يخلق الجمال على الأقل بمقدار ما يخلق الجمال الحب، وكان دون كيشوت يرى فتاته دلكينيا Dulcinea أحلى الغادات[٤]. ويقول دي جورمون[٥] De Gourmont: "سل ضفدعا ما الجمال يجيبك أنه أنثاه، ضفدعة ذات عينين مستديرتين تبرزان من رأسها الصغير، وذات فم واسع عريض، وبطن أصفر، وظهر بني".

فمن الواضح أن الجمال يرتبط بالصلة الجنسية التي تعتمد في الإنسان على تلك الأعضاء التي تكون الصفات الجنسية الثانوية، والتي تظهر عند البلوغ بوساطة الهرمونات التي تتخلل الأنسجة الخلوية، وهي: الأثداء، والشعر، والأرداف،

---

(1)Ellis, H. The Dance of life, p. 328.

(2)The Sense of Beauty, p. 52

(3)Cf. Encyclopaedia Britannica, eleventh edition. Vol, IX, p. 827.

(٤) دلكينيا هي معشوقة دون كيشوت، ويصفها بأن شعرها من الذهب، وعينيها شمسان متوهجتان، وخديها وردتان، وأسنانها من اللؤلؤ، وهكذا. (المترجم)

(٥) دي جورمون (١٨٥٨ – ١٩١٥) ناقد فرنسي وروائي وشاعر آثاره بالتهكم والنزعة الحسية (المترجم)

والسيقان، والأذرع المستديرة، والصوت الناعم، ولكي تجمل نساء الأجناس المنحطة أنفسها في أعين أزواجهن يعملن على تضخيم الهيئات التناسلية، على حين يصطنع أهل القبائل الأرقى سياسة مقابلة ولكنها مماثلة: وهي إخفاء الأعضاء التناسلية، لأن الإخفاء يجذب بنجاح كالمغالاة، والملابس (كالعفة) تزيد في قيمة الجمال لأنها ضرب من المقاومة، والمقاومة تزيد في حدة الرغبة.

يقول سانتايانا: "لا يمكن للآلهة أن تتعرى لأن صفاتها هي عين ذاتها"[1].

لعل هذه كانت طريقته التي أوحى بها بعناية من أن الزي كان في الأيام المزيفة والخيالية ضروريا للجمال.

وملاحة المرأة في نظر الجنس البشري أعلى صور الجمال، ومنبع جميع الصور الأخرى ومعيارها، يقول خيال بوفنيس Paphnuce في تاييس: "أنا جمال المرأة فأين تظن أانك تهرب مني أيها الأحمق المجنون؟ ستجد مثالي في بهاء الأزهار ورشاقة النخيل، وفي تحويم الحمام، ووثب الغزلان، وفي خرير الجداول، وفي ضوء القمر الشاحب، وإذا أغمضت عينيك فستجدني في داخل نفسك".

وكان يمكن أن يسود جمال الرجل إحساسنا بالجمال لو سادت المعايير والنزعات الإغريقية، فالصداقة في اليونان كانت تتحكم في الحب، وكان مثال الجمال في إسبرطة وأثينا هو الشباب الممتلئ بالرجولة، الذي يجمع بين الجمال والشجاعة، ولذلك أضحى الفن الإغريقي تمجيدا للرجل الكامل، ويعكس الميادين الرياضية، على حين يعكس إحساسنا بالجمال مخدع المرأة وسلطانها في قلوبنا وحياتنا، وإذا كان جمال الرجل لا يزال يحركنا في بعض الأحيان فالعلة في ذلك العنصر من عناصر الحب الذي قد يرتفع إلى حد الشغف والإخلاص في الصداقة، كما كانت الحال عند الإغريق.

وتصبح المرأة منبع الجمال ومعياره لأن حب الرجل إياها أقوى ولو أنه أقصر من حبها إياه، وتخلق شدة رغبته ملاحتها الفائقة، وتسلم المرأة بحكم الرجل عليها أنها

---

(1) **Reason in Society, p. 241.**

أجمل منه، إذا ما دامت تهوى أن تكون معشوقة أكثر من حبها التملك، فهي تتعلم أن تقدر في نفسها تلك المفاتن التي تقوي الرغبة، وفيما عدا ذلك، لا تنشد المرأة الجمال في الرجل، وليست في حاجة إلى تخيله فيمن تهواه، إنها تلتمس فيه القوة، والقدرة على حمايتها هي وأطفالها، وأن يضع تحت أقدامها ما استطاع من كنوز العالم.

ومن الدلائل الواضحة على تولد الجمال من الرغبة، إننا حين نظفر بالشيء المطلوب تفتر حاسة الجمال، وقليل من الناس عندهم من الحكمة ما يجعلهم يشتاقون إلى ما يملكون، وأقل من هذه القلة هم الذين يرون الجمال فيما لم يعد يبعث الرغبة، وبهذا السبب تتعلق معظم الحكايات، ومع ذلك دع الموت يختطف زوجاتنا منا، أو دع أحد لصوص القلوب يوجه سهام نظراته إليهن، وسوف يشتعل لهيب الرغبة من جديد، ويضيء جذوة الجمال التي انطفأت، وما أعجب أن يصبح نفس الوجه الذي أصبح بالنسبة إلينا مجرد نثر مثال الشعر والإبداع في عين من لم يخمد التكرار فيه النظر، فلنطلب من الله أن يهبنا القوى على أن نرى زوجاتنا كما يراها الغريب.

٤- الجمال الثانوي: الطبيعة

الحب إذن هو أب الجمال لا ابنه، وهو المصدر الوحيد لذلك الجمال الأولى الخاص بالأشخاص لا بالأشياء، ولكن ما الحيلة في هذا العدد العديد من الأشياء التي تبدو لنا جميلة، ومع ذلك فليس لها صلة ظاهرة بالحب؟ كيف نفسر جمال العالم الخارجي ذلك الجمال غير المحدود؟

كما أن كثيرا من ألفاظ معاجمنا لها دلالات ثابتة ومنقولة، ولها دلالات أولية وأصلية، كذلك لكل غريزة مطلوبات وإشباعات أولية وثانوية، فغريزة طلب الطعام تصبح غريزة عامة للتملك تشتاق إلى كل ذي قيمة، وغريزة القتال في سبيل الطعام أو الزوجات تشيع فتضحي غريزة عامة للقتال من أجل لذة القتال، كذلك انفعال الجمال (وهو جزء من "انفعال الحنان" tender – emotion المصاحب للغريزة الجنسية) قد يفيض من الشخص المطلوب على الأشياء المتصلة به، على اتجاهاته

وهيئاته، على أحوال سلوكه وأساليب حديثه، أو على أي شيء آخر فيه أو يماثله، وعلى هذا النحو يشارك العالم كله في بهاء محاسن المرأة.

تأمل الأشياء التي تبدو جميلة الملمس: الأشياء المستديرة، الناعمة، المنحنية؛ لم تسرنا؟ أذلك لأنها مستديرة أو ناعمة أو منحنية؟ ومع ذلك قد يكون المربع جميلا في نظر بعض الناس، فهو عند أرسطو رمز للعدالة، أو أننا نفضل المستدير والمنحني والناعم لأن ذكرياتنا تربطها بالاستدارات الناعمة للجنس اللطيف المطلوب؟

تأمل جمال المشمومات، لم نسر من نظافة الأبدان، وأريج الأزهار، وعبيق العطور؟ أذلك لن الانتخاب الجنسي كان يتم في الأصل بوساطة الشم؟ تحتفظ الأزهار بأعضاء التوليد في النبات، وكانت عطورنا المحبوبة حتى ظهور التركيبات الكيماوية تستخرج من العناصر التناسلية لأنواع كثيرة من الحيوانات. وفن العطور المثيرة من جملة ما تعرفه كل امرأة.

وتأمل جمال الأصوات، لقد نشأت في الأصل فكرتنا عما في الصوت من جمال من أغاني المرأة المطلوبة أو حديثها: "فالصوت الرقيق أبدع شيء في المرأة".. وقد يمتعنا ويسحرنا أكثر حتى من المفاتن التي نراها بالعين، أما الصوت الأجش فقد يفسد نصف جمال أبهى الأشكال، ويقول منتجاتزا Mantegazza: "بعض أصوات النساء لا تمكن مقاومتها عند سماعها". ومن جهة أخرى تحب المرأة ما يسميه إليس: "الصوت الملتحي للرجل a bearded male voice" لأنها تؤثر على وجه العموم القوة على الجمال، وتحب في الرجل ذلك الصوت الرنان الذي تطور في أكبر الظن بوساطة الانتخاب الجنسي للقوة الجسمية كدليل على الحماية والوفرة.

وقد يمكن أن يكون الصوت نفسه قد نشأ كخلية جنسية.. تستطيع الأذن أن تتخيل سماع رنات الموج في أشعار هوميروس، وهدير خيال شكسبير في نقنقة الضفادع وزقزقة العصافير، ومن الصوت نشأ الغناء الذي يكاد لا ينفصل عن الحب (ولو أن الدين والحرب قد اختلسا بعضه)، ومن الغناء نشأ الرقص، وهو جزء من

شعائر الحب[1]. ومن الغناء والرقص نشأت الموسيقى.

وقد ذاعت الموسيقى وابتعدت في كل جانب من هذا الأصل الجنسي، ولكنها لا تزال مرتبطة بأمها، فلا تجد فتاة تهوي بغير الموسيقى، والفتاة التي تعشق الموسيقى قل أن تلعب البيانو بعد سنوات عدة من زواجها، إذا لم يطلب المرء فتنة حيوان قد وقع في الأسر واستؤنس؟ أما الرجل الذي كان يزأر ويموء أمام خطيبته فإنه يفقد ميوله الموسيقية حين يثقل عليه الزواج بفروضه الفظيعة، ولا يسلم إلا تحت إلحاح الاحتجاجات بالضرورة الاجتماعية لاحتمال ستارفنسكي وشونبرج، وريتشارد ستراوس.

ولكن الحب وحده لا يكفي في تفسير هذه الميادين المشتقة من الجمال السمعي، إذ تتدخل لذة الوزن rythm كعنصر مستقل، فالشهيق والزفير، وانقباض القلب وانبساطه، بل وتماثل البدن من جانبيه، كل ذلك يهيئنا لارتفاع الأصوات وانخفاضها الموزون، وعندئذ لا نشعر بلذة جنسية فقط، بل النفس كلها تنتشي بالسرور، إننا نخلق الوزن من دقات الساعة بل من وقع الأقدام عند المشي، إننا نحب التمرجح، والرقص، والشعر، والمتقابلات، والمتطرفات.

وتهدئ الموسيقى أنفسنا بما فيها من وزن، وترفعنا على وقعها إلى عوالم أقل في حيوانيتها مما يوجد على الأرض، قد تخفف الموسيقى الآلام، وتحسن الهضم، وتبعث على الحب، وتعين على تهدئة الجنون الثائر، وهي التي يسرت للجزويت في باراجواي أن يخمدوا ثائرة عبيدهم من الهنود، وزادت في قدرتهم على العمل، وقد تعين الجندي على الذهاب إلى براثن الموت في رضى موزون، وأدى هايدن Haydn لآل هبسبرج خدمة أعظم من أي قائد، ولا يدري أحد أن الشيء الكثير من بسالة الجيش الروسي إنما يرجع لأغانيهم الوطنية القوية، ويظن ثورو Thoreau أنه لا يوجد شيء أعظم

---

(١) الحب في اللغة الإنجليزية **Love**، يفيد العاطفة الروحية والاتصال الجنسي معا. وليس في العربية ما يفيد المعنيين جميعا، فالنكاح أو الوطء يفيد الصلة الجنسية فقط، والسفاد خاص بالحيوانات، لذلك فليكن مفهوما أن استعمالنا لفظ الحب نريد به الصلة الجنسية كذلك. (المترجم).

ثورة من الموسيقى، وتعجب كيف يمكن أن تستغني نظمنا عنها، وإنما كان ذلك لأن ثورو كان ثوريا، فالموسيقى قد تخمدنا إلى حد السلبية كما قد ترفعنا وتحركنا إلى العمل، أو كما قال تولستوي لجوركي: "حيثما تريد أن تتخذ عبيدا فلتصطنع من الموسيقى بقدر ما تستطيع، لأنها تبلد الفهم". لقد اتفق التقي الروسي القديم مع أفلاطون الذي ذهب في مدينته الفاضلة إلى أن أحدا بعد السادسة عشرة لا يجب أن يسمع الموسيقى.

وأخيرا تأمل الجمال البصري، عندما ظهرت القامة المنتصبة، فقد الشم قوته وزعامته، وأخذ البصر يسيطر على حاسة الجمال، إن جمال المرئيات، كجمال المسموع، يبعد كثيرا عن جمال المرأة المحبوبة، وهنا نواجه مرة أخرى لغز مشكلة الجمال: أتكون الخطوط المنحنية، والنسب المتماثلة، والوحدة العضوية علة الجمال الشخصي أم نتيجة له؟ أهي أولية أم مشتقة؟ أنحب المرأة لأن جسمها يتضمن التماثل، والوحدة، وكل استدارة فاتنة، أم أن هذه الصور تسحرنا، في أي ميدان توجد فيه، لأنها تذكرنا أو كانت تذكرنا بكمال المرأة؟

نحن نصفها فنقول: "لها رقبة كالإوزة" وبذلك نتخذ من الإوزة معيارا للرشاقة، ولكن لعل الإنسان يشعر في الأصل بأن "الإوزة لها رقبة في جمال رقبة المرأة". فالمليح ما كان في أول الأمر محبوبا.

ويبدو أن الفن يرجع إلى قصد الحيوان أو الإنسان إلى محاكاة الألوان التي تنميها الطبيعة في الطير والحيوان في موسم الزواج، والتي تخطر بها في عين الجنس الراغب في الانتخاب، وقد رأينا كيف يزين الطائر عشه بالأشياء البراقة، ويزين الرجل بدنه بألوان زاهية تثير الرغبة، فلما ظهرت الملابس انتقلت الألوان من الأبدان إلى الثياب، للغرض نفسه وهو اجتذاب العين، واحتفظ الناس باللون الأحمر على أنه أشد الألوان إثارة للدماء، والأمر كذلك في الغناء والرقص والموسيقى والشعر وكثير من صور النحت فإنها تنبت من شجرة الحب، والبناء وحده يبدو مستقلا، وإنما ذلك لأن سر قوته في الجلال sublime لا في الجمال.

ويتصل الجلال بالجمال صلة الذكر بالأنثى، فاللذة التي نشعر بها من الشيء الجليل لا تنشأ من الملاحة المطلوبة في المرأة، بل من القوة التي نعجب بها في الرجل، وأكبر الظن أن المرأة أشد انفعالا بالجليل من الرجل، وأن الرجل أعظم تأثرا بالجمال، فهو أحرص على استعماله، وأعظم شوقا إلى الرغبة فيه، وأثبت على خلقه، والجليل كما بين بيرك Burke ما كان مصدرا للقوة والخطر على الشخص الآمن، ولم يعلق هانيبال وقيصر (على الأقل للخلف) على جلال جبال الألب، فهي في نظرهما مفاوز مخوفة لا مناظر بديعة، ثم انظر في مقابل استخفافهما الرجالي إلى حساسية روسو الأنثوية، وكيف كشف للنفس عن عظمة الأب حديثا، ولكن روسو كان آمنا، ولم يكن عليه أن يقود الجيوش في تلك المرتفعات الوحشية، ولعل الإغريق (كما ذهب إلى ذلك سرجي Sergi) قصروا في تصوير المناظر الطبيعية، لأن الطبيعة كانت لا تزال على فطرتها خطرا على حياتهم، فلا تبيح لهم الوقوف بإزائها وتأمل عظمتها.

وعند الإعجاب بالمناظر الخلوية، يقف الجمال بعيدا عن منبعه في الحب، ذلك أن معظم السرور الذي يملأ النفس من المناظر الطبيعية راجع إلى جلال الرجولة، وينشأ كثير من ذلك الجلال من الجمال الهادئ الشبيه بالوضع الدافئ لكل صدر بديع، هذه صورة لكوروت[1] Corot: فيها حقول متموجة، وظلال شجر البلوط، وجداول ينساب ماؤها تحت الغصون المتهدلة، فأين يختبئ جمال المرأة في هذه المتعة الطبيعية؟ فتش عن المرأة – كما يقال في المثل الفرنسي Cherchez la femme.

ولا يجب أن نتعجل في وضع قوانين تحيط بالعالم، فالطبيعة تستنكر التعميمات التي تتجاهل تنوعها اللانهائي، وهي على استعداد أن تلقي في وجه مبادئنا الكلية آلافا من الاستثناءات، فلنقنع بالقول بان الشعور الذي كان أصله جنسيا قد يفيض على أشياء لا صلة لها بالحب على الإطلاق، فالقوة الجنسية النامية باستمرار قد تصرف ما يفيض عنها في الإعجاب بالمناظر الطبيعية، كما تروي جذور الدين

(١) **Corot** (١٧٩٦ – ١٨٧٥) مصور فرنسي مشهور بمناظره الطبيعية، وتبرز عنده النزعة الرومانتيكية، وضوء الشمس والضباب. (المترجم)

والصداقة والمثل الاجتماعية والفن.

ومع ذلك فحتى في هذا المجال توجد روابط وثيقة، فالطفل في الغالب الأغلب لا يحس بجمال الأرض والسماء، ولا يهتز لجمالها إلا بالمحاكاة والتعليم فقط، ولكن دع الحب يفيض بحرارته وعاطفته على النفس، تجد فجأة أن كل شيء طبيعي يبدو جميلا، فيضع المحب همه في الأشجار والمياه الجارية، ويجد سكينة ممتعة تشرق على فائض عاطفته وسعادته، والأزهار أبدع سائر الأشياء التي وهبتها لنا الطبيعة، ومع ذلك فتلك الزهور أيضا هي رمز التوالد ومعناه، وهي آية للناس على الرقة والإخلاص، وعندما يثقلنا كر السنين، وتخمد نار الحب، يخمد الإعجاب بالطبيعة، فالشيخ الفاني كالطفل الرضيع لا يتأثر بفتنة الغابات وعبيرها، أو بعظمة النجوم وبريقها، أو بأمواج البحر المتدافعة، ففي كل عظمة في الأرض والسماء أثر لإله الحب إيروس Eros.

٥- الجمال الثالث: الفن

هذا الفيض من الحب الذي يمتد من الأشخاص إلى الأشياء، ويجمل الأرض ذاتها التي نمشي عليها، يبلغ أخيرا ثورة الفن المبدعة، فمتى عرف الإنسان الجمال انتقشت صورته في صفحة ذاكرته، وينسج مما رآه من البدائع جمالا مثاليا يربط ما في أجزائها من كمال في منظر واحد.

وينشأ الفن بيولوجيا من غناء الحيوانات المتسافدة ورقصها، ومن سعيها إلى أن تزيد بالصناعة ازدهار الزهور وتنوع صورها مما تميز به الطبيعة موسم الحب، وقد ولد الفن عندما بنى طائر البوير أول عش لأنثاه المبتهجة ، ونشأ الفن تاريخيا بالنقش الزخرفي، أو الثياب، أو إحداث ندوب في الجسم عند القبائل المتوحشة، ويذهب جروس Groos إلى أن أهالي أستراليا الوطنيين يحملون على الدوام في جرابهم زادا من الطلاء الأبيض والأحمر والأصفر.

ويقنع الرجل منهم في الأيام العادية بقليل من الوشم باللون على خديه، أما وقت الحرب فإنه يلطخ بدنه برسوم عجيبة تهدف إلى تخويف العدو، وفي الأعياد

وحفلات الحب يزين جميع بدنه بالنقوش ليجتذب عيون الفتيات، واللون الأحمر أعز الألوان في هاتين اللعبتين، وهما الحرب والحب، والأحمر عند بعض القبائل له من القيمة ما يجعل أهلها يقومون برحلات كبيرة تستمر عدة أسابيع لتجديد مؤونتهم منه، ويكثر الرجال من طلاء أنفسهم أكثر من النساء، وفي بعض الأماكن يمنع العوانس منعا باتا من تلوين رقابهن.

ولكن الطلاء سريع الزوال، ولذلك بحث المتوحشون، كالإغريق (الذين كانوا يزدرون النقش لسرعة فساده) عن فن أكثر دواما، ويلجأ البدائي إلى الوشم، فيشك جسمه في آلاف المواضع بإبرة ترسب اللون تحت الجلد، وكثيرا ما يلجأ إلى التنديب Scarification، إذ يقطع الجلد واللحم، ويتسع الندب بالتراب الذي يملأ به الجرح بعض الوقت، وعلى طول جزائر توريس ستراتس Torres Straits يحمل الرجال على أكتافهم مثل هذه الندوب التي تشبه الأشرطة العسكرية، ويسمى البوتوكودو Botocudo كذلك من "البوتوك"، أو الثقب الذي يجعلونه في الشفة السفلي أو في الأذنين منذ الشباب الباكر، ولا يزالون يوسعونه حتى لقد يبلغ في سعته أربع بوصات، عندما تقرأ الفتاة المتحضرة هذه الأمور البربرية تهز قرطها في فزع.

ويظهر أن أول استعمال للثياب كان من أجل الفن لا المنفعة، ويروى أن دارون أخذته الشفقة على شخص من أهالي فوجيا، كان يرتعش بردا، فأعطاه ثوبا أحمر اللون يدثر به بدنه، وأخذ المواطن الثوب فرحا ومزقه شرائط وزعها على أقرانه فزينوا بها أيديهم وأرجلهم، ويتضح من هذه التضحية اللذيذة بالمنفعة في سبيل الجمال أن الفرق ليس كبيرا عند الفتاة العصرية التي تلبس الفراء صيفا، وتكشف عن نحرها دون خوف لرياح الشتاء.

وبعد أن زين الرجل البدائي بدنه بما فيه الكفاية انتقل إلى تزين الأشياء، فنقش الأسلحة ليعمي على العدو أو ليخيفه، كما فعل أخيل بدرعه، وكان يزين الآلات المصنوعة من الصوان أو الحجر، ولا تزال موجودة حتى الآن من عهد ما قبل التاريخ، وكان الإنسان في العصر الحجري يزخرف جدران كهفه برسومات عجيبة تمثل

الحيوانات التي كان يأمل في اصطيادها، أو تلك التي كان يعبدها كطواطم في قبيلته.

ومع أن الدين ليس منبع الجمال، فقد كان نصيبه في نمو الفن أقل من نصيب الحب، وبمقدار ما نعرف نشأ النحت من النصب الغليظة التي كانت توضع علامة على القبر، ثم هذبتها فأخذوا يحفرون طرف النصب على هيئة الرأس، ثم أخذوا ينحتون في عصور متأخرة النصب كله على هيئة إنسان (هرمس في فن الإغريق البدائي) ثم ازدادت العناية والصبر، وسعى النحات إلى تهذيب تماثيله، وإلى أن يبرز فيها ملامح الإله أو الجد الذي يريد تخليده.

ولم يعرف النحت الحب إلا في صورة الراقية، ولذلك كان فيدياس أسبق دائما من بركستيلس Praxiteles، وجيوتو Giotto قبل كوريجيو Correggio.

ونشأ فن البناء من المقابر التي كان الموتى يدفنون فيها، وأقدم بناء أثري في العالم، وهو الأهرامات، عبارة عن مقابر، وبدأت الكنائس كأضرحة للأموات، وأماكن لعبادتهم، ثم أخذوا ينقلون المقبرة بالتدريج إلى المكان المجاور ومع ذلك لا تزال قبور عظماء الأسلاف داخل كنيسة وستمنستر أبي، ومن هذه البدايات نشأت الهياكل الشامخة التي أقامها الإغريق لبلاس أثينا وغيرها من الآلهة، ومن بدايات مماثلة نشأت تلك الآثار التي تعد أبدع ما شيده الإنسان، وهي الكنائس القوطية التي تضم مذابحها كتلك المقابر القديمة رفات القديسين.

ويبدو أن الدراما نشأت من الشعائر الدينية واحتفالات الأعياد، وقد ظلت الدراما في أثينا إلى زمان أوريبيدس الشاك شيئا مقدسا، ونشأت الدراما الحديثة، وهي أبعد الفنون المعاصرة عن الدين، من القداس، ومن المواكب الدينية التي كانت تصور في العصر الوسيط حياة المسيح وصلبه، ووجد النحت رونقا جديدا في زخرفة الكنائس، وبلغ فن النقش ذروته بوحي المسيحية.

وقد أظهر الفن صلته الخفية بالحب حتى وهو يخدم الدين، فثمة عنصر وثني من روائع البدن يوجد في أقدس صور عصر النهضة، وأصبحت صور العذراء شبيهة

بفينوس، والقديس يوحنا بأدونيس الرقيق، وأضحت صور القديس سباستيان دراسات صريحة في العري، فلما انتقلت النهضة من روما إلى البندقية انتصر العنصر الوثني، وسلم الفن المقدس للحب الدينوى.

وكما أنه حتى الفن الديني يرتوي من ينبوع الحب ليعيش، كذلك الأمر في كل عنصر آخر يتدخل في خلق الجمال، فللوزن مدخل، ولكنه يرتبط في الحال بالحب ليولد الغناء والرقص والشعر، وللمحاكاة مدخل، فتعين على نشأة النحت والتصوير؛ ولكنه الحب، البنوي أو الجنسي، الذي سرعان ما يحدد الموضوع الذي تصنعه المحاكاة، ولك أن تجمع بين الوزن والمحاكاة والدافع إلى الحب فتحصل على تسعة أعشار الأدب، وحتى أغنية دانتي الإلهية ولو أنها تهدف إلى أن تكون تمثيلا للحياة الإنسانية، فإنها تصبح في النهاية أغنية حب.

هذا التيار الباطني من طاقة الحب هو الذي يغذي عاطفة الفنان المبدعة، وتتخذ العلاقة بين الحب والفن عند بعض الفنانين صورة نمو سريع للجنس والفن في آن واحد، وينشأ من هذا الاتحاد الطراز الرومانتيكي للعبقرية، فسافو والإسكندر ولوكريتيوس؛ وبيرون وشللي وكيتس وسونبرج، وهوجو وروسو وفيرلين، وبترارك، وبرونو، وجيوروجيون، وشللر وهيني وبو، وشومان وشوبرت وشوبان وسترند برج وأورتز باشف، وتشيكسوفسكي: هؤلاء هم النموذج الذي يتغلب فيه الخيال على العقل، ويحرق الجنس والفن النابعان بإسراف من الأصل نفسه الفنان ويتركانه ميت الجسم أو الروح قبل أن ينفذ شبابه، ولما كانت الرغبة فيهم عذابا فقد امتازوا بالحساسية، والانفعال، والتألم الدائم، والخيال الذي لا نعرف الحدود، ويفتنهم كل متطرف وعجيب وغريب.

هؤلاء هم الذين يبدعون الشعر والتصوير والموسيقى والفلسفة والحب، ويعزهم كل محب.

ولكن الفيضان الجنسي يكبت عند غيرهم من الفنانين ويكاد يتحول تماما إلى

الابداع، فيفقد الحب سلطانه، وتقلم أظفار الانفعال، ويزدهر العقل ويتحكم في كل شيء، ونشأ من هذا التسامي قدامى العباقرة: سقراط وسوفوكليس وأرسطو؛ وأرشميدس وقيصر وجالليليو، جيوتو وليوناردو وتبتيان، بيكون وملتون ونيوتن وهوبس، باخ وكانط، وجوته، وهيجل، تور جنيف، وفلوبير، ورينان، وأناتول فرانس، وهؤلاء قوم هادئون كبحوا جماح الشهوة ورفعوا فوضى أنفسهم إلى نجوم متألقة، إنهم يعملون في بطء بعزم وصبر أكثر مما يعملون "بالإلهام" والعاطفة، ويتحدثون ويتصرفون بحساب وضبط، إنهم ينمون ببطء، ويكون إبداعهم بعد الثلاثين أفضل منه قبل ذلك، ويحققون الشهرة آخر العمر، ويعمرون طويلا، إنهم لا يتفوقون على الطراز الرومانتيكي في تلك الذخيرة من الطاقة الممتازة التي تعد الحاكم العام والأصل في كل عبقرية، ولكنهم لا يشغلون إلا الشيء القليل من تلك الذخيرة في الأمور الجنسية ويدخرون معظمها للفن، كان ميخائيل أنجلو وبيتهوفن ونابليون من العظماء الممتازين، لأن النموذجين من العبقرية اندمجا فيهم إلى وحدة تكاد تكون أسمى من الإنسان.

ولقد قال نيتشه: "عبقرية المرء تستنزف دمه"، لأنها تحرقه في شعلتها، ولكن هكذا يفعل الحب، فإذا اجتمعا على حرق الإنسان في وقت واحد تكلم في حماسة وإشراق، ولكن صوته سرعان ما يخفت، كل عبقرية، ككل جمال وكل فن، تستمد قوتها في النهاية من ذلك المستودع نفسه للطاقة المبدعة التي تجدد الجنس البشري باستمرار، وتحقق للحياة الخلود.

٦- الجمال الموضوعي

والآن لا يزال أمامنا سؤال من بين ما خلفناه من أسئلة يلح علينا طالبا الجواب، أيكون الجمال شيئا موضوعيا أم شخصيا فقط؟ وهوى ذاتيا؟

يعتقد إليس الذي تفرض أحكامه الاحترام لأنها مؤسسة على أكثر معارف عصرنا عموما، أن الجمال مستقل عن شخص الملاحظ، وهو يقيم حكمه على ما يبدو له من إجماع جوهري في إيثار الجميل بين معظم أجناس العالم، ولو أننا لا

نستطيع إصدار مثل هذا الحكم بناء على موسيقى الصينيين وتشويه أجسام الزولو، فالجمال كالأخلاق يميل إلى التنوع مع اختلاف البيئة الجغرافية.

ويروي دارون أن الوطنيين في تاهيتي يعجبون بالأنف المفرطحة، وكانوا يضغطون على أنوف أطفالهم وجباههم لتجميلهم، كما يقولون[١]. ويثقب شعب المايا الأنوف والآذان لتزينها بالأقراط، ويقلعون أسنانهم ويرصعونها، ويبططون رءوس أطفالهم حتى تصبح كقمع السكر، ويجعلون العين حولاء لأنهم كانوا يظنون أن هذا هو الجمال[٢]. ولقد دهش منجو بارك حين سمع سود أفريقيا يسخرون من بشرته البيضاء، ولما رأى الأولاد السود في ساحل شرق أفريقيا ريتشارد برتون صاحوا: "انظروا الرجل الأبيض، ألا يبدو كالقرد الأبيض؟" ونحن نظن كذلك أن الزولو يشبه الغوريلا السوداء، اكبر الظن كما قال فولتير أننا جميعا على صواب.

أو تأمل ما نسميه ثقل أرداف steatopygy بعض الحسناوات في أفريقيا، وفي ذلك يقول دارون: "من المعروف أنه عند كثير من نساء الهوتنتوت يبرز الجزء الخلفي من الجسم بشكل عجيب ..؛ ويؤكد السير أندرو سميث أن هذه الخاصية تعجب الرجال إعجابا شديدا، فقد رأى ذات مرة امرأة تعد مثالا للجمال، وكانت أردافها متضخمة إلى حد أنها إذا جلست على الأرض لم تستطع أن تنهض، وكان عليها أن تدفع نفسها إلى الأمام حتى تأتي عند منحدر، وتوجد هذه الصفة الغريبة نفسها عند بعض النساء في كثير من قبائل الزنوج، ويروي برتون أن رجال الصومال ينتقون زوجاتهم بأن يضعوهن في صف واحد، ثم يختارون من كانت أردافها أكثر بروزا، وليس أبغض عند الزنجي من الهيئة المضادة لها"[٣]. ولا مشاحة في الأذواق.

وحتى عند الأوروبيين يختلف مثال الجمال من شعب إلى آخر ومن عصر إلى عصر، فقد كانت البدانة بدعة في بعض الأوقات، تأمل السيدات اللاتي صورها

---

(1)Desvent of Man, p. 665

(2)Thorondike, L., Short History of Civilisation, p. 394.

(3)Descent of Man, p. 660

روبنز، والصبايا الممتلئات في صور رمبراندت، حتى العذراء في رسوم رفائيل مزدهرات الجسم، ولكن حسناوات رينولدز وجنزبزرز ورومني أكثر من ذلك رشاقة، أما نساء هويسلر فممشوقات القد وبغير أرداف، وفي خلال الجيل الذي نعيش فيه تغير ذوق المرأة في جسمها من الامتلاء الدوري[1] doric إلى الرشاقة الكورنثية، فهيئات الجسم تتخذ كأزياء الثياب شيئا من التنويع والقداسة.

فمن الواضح إذن أن ثمة في تقدير الجمال عنصرا كبيرا شخصيا وجنسيا وذاتيا، ويبقى بعد ذلك موضوعي واحد، ذلك هو الإيثار العام للرجال السويين للنساء اللاتي تبشر هيئتهن بأمومة قوية، والأصل أن كمال الوظيفة الطبيعية هو الذي يبعث اللذة لصاحب الذوق السليم، ويكون في المرأة أولا ثم في كل شيء، فكل عمل يؤدي على أحسن وجه، وكل حياة يحسن المرء معيشتها، وكل أسرة حسنة التربية، كل آلة تحسن أداء العمل المهيأة له، كل ذلك يرغمنا أن نقول: "هذا شيء جميل". ولو كنا أصحاء بمعنى الكلمة لاعتبرنا المرأة الصحيحة التي ترضع طفلها الصحيح أعلى صورة من صور الجمال في هذا العالم، وهنا نجد أن فن العصر الوسيط والنهضة وما يمتازان به من صور العذراء والكفل كان أرق وأصح في ذوقه من فنوننا، فنحن وقد انحرفنا بالفن إلى الانحلال أصبحنا نشتاق إلى النحاف من النساء اللاتي يشبهن الزنانير لا يلدن بمقدار ما يلسعن.

لو أن غرائزنا لم تفسدها أدوات الزينة، ولم تنحرف بالمال، ولبقيت حاسة الجمال فينا سليمة بيولوجيا، ولكان الحب أفضل السبل لتحسين النسل، ولعاد الجمال كما أرادت له الطبيعة أن يكون فأصبح زهرة الصحة وبشيرها، والضامن للأطفال الكاملين، وعمل مرة أخرى لخير الإنسانية لا لإضعافها، وهنا يلتقي الخير بالجمال، فنصل إلى النتيجة التي انتهى إليها أفلاطون من أن: "مبدأ الخير يرتد إلى قانون الجمال"[2].

لقد تردد أفلاطون في هذه المسألة ولم يعرف بالضبط لمن يركع، الحكمة أثينا

(١) نسبة إلى العصر الدوري في الحضارة اليونانية القديمة (المترجم)

(2)Philebus, $ 64; in Bosanquet, History of Aesthetics, p. 33.

القوية، أم لملاحة أفروديت المشرقة، لعله كان على حق في تردده، فالجمال كما رأينا من العسير أن نجعله دعامة الدولة الكاملة وأساسها، ولكن ما فائدة الحكمة إذا لم تجعلنا نحب الجميل ونخلق جمالا جديدا أبهى مما تقدمه الطبيعة؟

الحكمة وسيلة، والجمال، في الجسم والنفس، غاية. والفن بغير علم فقر، ولكن علم العلم بغير فن بربرية، بل إن الفلسفة الإلهية وسيلة إلا إذا وسعنا آفاقها لتشمل سائر مهام الحياة المتناسقة وآلاتها وقيمها، إن الفلسفة إذا لم تحركها ملاحة الجمال فهي غير جديرة بالإنسان.

لقد زال كل شيء عن مصر ما عدا العظمة الهائلة التي رفعتها من الرمال، وفني كل شيء عند الإغريق وبقيت حكمتها وفنونها، إن الجمال الحي أعظم أنواع الجمال، ولكنه يذبل مع تقدم العمر ويفسده الزمان، والفنان وحده هو الذي يستطيع أن يضع يده على الصورة العابرة ويطبعها في قالب يغالب الفناء، أو كما قال جوتييه(١):

كل شيء إلى فناء
سوى الفن فإلى بقاء
ويبقى تمثال الرخام
وتمضي الدول إلى هباء
الدينار يكشفه العامل
من الأرض في شقاء
عليه وجه السلطان
روحه مستقرة في السماء
تموت الآلهة ويبقى
رصين الشعر إذا يشاء

---

(١) جوتيه **Gautier** (١٨١١ – ١٨٧٢) شاعر فرنسي وقصصي مشهور بحسن نظمه، كان من أعظم أنصار مذهب الفن للفن (المترجم).

تعريف بالمؤلف

ول ديورانت:

ولد عام ١٨٨٥ من أبوين كنديين في نورث آدامز بمساشوست، حيث تلقى العلم في المدارس الكاثوليكية، وفي كلية القديس بطرس في نيوجرسي، وفي جامعة كولومبيا في نيويورك، ثم اشتغل مدة الصيف مخبرا في جريدة نيويورك، ولكنه هجر ذلك العمل المثير حين رأى أنه لا يصلح له، واشتغل بعد ذلك بتدريس اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والهندسة في كلية سيتون هول في جنوب أورانج بنيوجرسي (١٩٠٧ – ١٩١١). وهناك التحق بمعهد الدراسات العليا الدينية في عام ١٩٠٩، ثم هجره للأسباب التي ذكرها في كتابه المسمى "الانتقال Transition". وانتقل من هذا المعهد مباشرة إلى أكثر الأوساط تحررا في نيويورك، وأصبح في مدرسة فيرر الحديثة (١٩١١ – ١٩١٣): "الرئيس والمعلم والمتعلم"، وكانت تلك المدرسة تجربة في التربية المتحررة.

وفي عام ١٩١٢ طاف بأوروبا من كيلارني إلى يالتا على نفقة ألدن فريمان الذي اتخذه صاحبا وتعهد أن يوسع أفقه.

وانقطع عام ١٩١٢ إلى الدراسة العليا بجامعة كولومبيا، فتخصص في علم الحياة على مورجان وكالكنز، وفي الفلسفة على وودبردج وديوي، وحصل على الدكتوراه عام ١٩١٧، ودرس الفلسفة مدة عام بجامعة كولومبيا، وفي ١٩١٤ بدأ يلقي تلك المحاضرات في الفلسفة والأدب والتاريخ والعلم والفن التي مهدت لكتابه "قصة الفلسفة" وذلك في كنيسة برسبتيرية في نيويورك، ولم تكد "قصة الفلسفة" تظهر حتى كانت أحسن كتب ذلك العام انتشارا مما أثار دهشة مؤلفها وناشريها.

وتحرر عام ١٩٢٧ من العمل المدرسي عقب نجاح "قصة الفلسفة" لينقطع إلى كتابة تاريخ الحضارة، فطاف أوربا مرة أخرى في عام ١٩٢٧، وحول العالم في ١٩٣٠ لدراسة مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان، ومرة ثانية في عام ١٩٣٢ لزيارة اليابان وكوريا ومنشوريا وسيبيريا وروسيا، ثم أصدر في ١٩٣٥ – بعد سبع سنوات من الرحلة والدرس – كتاب "تراثنا الشرقي" وهو المجلد الأول من كتاب "قصة الحضارة" ومع أنه زار اليونان وإيطاليا في ١٩١٢ و١٩٢٧ و١٩٣٢، إلا أنه عاد إليهما سنة ١٩٣٦، فأضاف بذلك معلومات جديدة إلى الدراسة المنظمة التي تلقاها عن الجزويت في اللغات والآداب القديمة، وأصدر في ١٩٣٩ كتاب "حياة الإغريق" وفي عام ١٩٤٤ "قيصر والمسيح".

وأمضى في عام ١٩٤٨ ستة أشهر في أوربا والشرقيين الأدنى والأوسط يدرس المعالم والآثار المسيحية والإسلامية من أدنبرة إلى شيراز ونشر في عام ١٩٥٠ كتاب "عصر الإيمان" وهو تاريخ الحضارة في العصر الوسيط – مسيحية وإسلامية ويهودية – منذ قسطنطين حتى دانتي، ثم أمضى في إيطاليا وفرنسا سبعة أشهر درس فيها معظم المناظر والفنون الموصوفة في عصر النهضة، وهو موضوع المجلد الخامس، وقد صدر في عام ١٩٥٣، وأنجز في المجلد السادس من المجموعة، عام ١٩٥٨ كتابه "عصر الإصلاح الديني". وأصدر في عام ١٩٦٣ كتاب "عصر العقل" الذي يمضي مع القصة حتى القرن التاسع عشر.

وليس ول ديورانت غريبا عن قراء العربية، فقد ترجم من كتابه قصة الحضارة المجلد الأول في خمسة أجزاء، والمجلد الثاني عن اليونان في ثلاثة أجزاء، وذلك على نفقة الجامعة العربية التي اختارت الكتاب ضمن برنامجها الثقافي، وقد عهد بالترجمة إلى الأستاذيين مُحَمَّد بدران وزكي نجيب محمود.

الفهرس

مقدمة.. د. إبراهيم مدكور ٥
اعتراف ٩
دعوة ١١

الجزء الأول

مدخل

الفصل الأول: فتنة الفلسفة ١٨

الجزء الثاني

المنطق والأبستمولوجيا

الفصل الثاني: ما الحقيقة؟ ٣٨

الجزء الثالث

الميتافيزيقا

الفصل الثالث: المادة والحياة والعقل ٦٥
الفصل الرابع: هل الإنسان آلة؟ ٩٦

الجزء الرابع

مشكلات الأخلاقية

الفصل الخامس: أخلاقنا المتغيرة ١٢٢
الفصل السادس ١٤٤
الفصل السابع: الحب LOVE ١٦٢
الفصل الثامن: الرجال والنساء ١٨٤
الفصل التاسع: المرأة الحديثة ٢٠٥
الفصل العاشر: انهيار الزواج ٢٢٣

الفصل الحادي عشر: في الأطفال: اعتراف ٢٤٦
الفصل الثاني عشر: إعادة بناء الخلق ٢٦٥

الجزء الخامس

علم الجمال

الفصل الثالث عشر: ما الجمال؟ ٢٨٩
تعريف بالمؤلف.. ول ديورانت: ٣١١